

مِنْ نَفَرٍ اَلْقُرْآنِ

مِنْ نَوَافِلِ الْقُرْآنِ

تفسير موضوعي حركي يقتبس من القرآن الكريم
ما يلقي ضوءاً على قضايا عقائدية أو أخلاقية
أو فكرية أو اجتماعية

سَمَّا حَمْدُ اللَّهِ

الشيخ محمد البعقوني

الجزء الثاني

سورة النساء - سورة الأعراف

هوية الكتاب

اسم الكتاب: من نور القرآن
تأليف : سماحة المرجع الديني الشيخ محمد اليعقوبي (دام ظله)
الموضوع : التفسير
الجزء : الثاني
عدد الصفحات : ٤١٢
الطبعة : الرابعة
التاريخ : ١٤٤٦هـ - ٢٠٢٥م

طبع ونشر

دار الصادقين للطباعة والنشر والتوزيع

العراق - النجف الأشرف - شارع الرسول (ص)

هاتف: ٠٠٩٦٤ ٧٨١٠١٩٥٤٨٠



سورة النساء: ﴿٧﴾

﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ﴾

موضوع القبس: معالم التكامل في التشريع الإسلامي للموارد

قال الله تبارك وتعالى ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ (النساء: ٧).

يراد بالرجال مطلق الذكر وإن كان صغيراً، وكذا النساء، والنصيب هو السهم والحصة، وما ترك: عامة لا تختص بأعيان المال فيشمل المنافع والحقوق المتعلقة بالمال كحق الخيار، أو غيره كالقصاص، ومنه اشتق لفظ (التركة)، وفي ذكر الأقربين إحياء بأن القرابة مناط الاستحقاق، أما التبني وأمثاله فلا يوجب استحقاقاً على عكس ما كان يفعله أهل الجاهلية.

والآية الكريمة تضع الإطار العام لاستحقاق الميراث وتنبّه إلى ظلم كان يقع على النساء في قوانين أهل الجاهلية بحرمانهن من الميراث وتقول بأن للنساء نصيباً كما للرجال، وقد وصفته الآية الكريمة بكونه ﴿نَصِيباً مَّفْرُوضاً﴾ من الله تعالى والفريضة يجب الالتزام بها فأعطى أحكام الميراث قوة الفرائض الأخرى كالصلاة والصيام.

وقد تضمّنت سورة النساء التي تكفّلت ببناء المجتمع الإسلامي الصالح آيات عديدة تبين أحكام الإرث بأدق التفاصيل على غير المتعارف في أحكام الشريعة

الأخرى كالصلاة والصوم والزكاة حيث اكتفت الآيات القرآنية غالباً ببيان الخطوط العريضة والحدود العامة، أما الإرث فقد تكفل الله تعالى ببيان الاستحقاقات بالتفصيل مما يكشف عن اهتمام الشريعة العظيمة بهذه الفريضة، روى العلامة الطبرسي عن ابن عباس أنه لما أنزل الله تعالى آية الموارث قال رسول الله (ﷺ): (إن الله لم يرض بملك مقرب ولا نبي مرسل حتى تولّى قسم التركات وأعطى كل ذي حق حقه)^(١).

وهدد تعالى في ذيل تلك الآيات من يتجاوز على أحكام الشريعة بالعذاب العظيم، قال تعالى ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ (النساء: ١٣-١٤)، فليحذر القضاة في المحاكم الوضعية الذين يحكمون بما يخالف الشريعة، وكذا رؤساء العشائر الذين يلتزمون بما يعرف بينهم بالسنيّة من دون الالتفات إلى الحكم الشرعي.

ولم يكتفِ الشارع المقدس بتشريع القانون فقط وإنما حرص على تطبيقه والعمل به بكل الوسائل لضمان وصول الحقوق إلى أهلها خصوصاً الذين لا حول لهم ولا قوة، ففي صحيحة هشام بن سالم عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (لا يستقيم أمر الناس على الفرائض والطلاق إلا بالسيف)^(٢). والموارث والطلاق من أهم

(١) مجمع البيان: ١٨ / ٣.

(٢) وما بعده - وسائل الشيعة: ٢٦ / ٦٩-٧٠، أبواب موجبات الإرث، باب ٣ / ح ١، ٢، ٣، ط. أهل البيت (عليه السلام).

أبواب قانون الأحوال الشخصية التي تقع فيها الخصومات ويكثر الاختلاف بين الحكم الشرعي والقانون الوضعي.

وفي رواية يزيد الصائغ قال: (سألت أبا عبد الله (عليه السلام) عن النساء هل يرثن الرباع؟ فقال (عليه السلام): لا ولكن يرثن قيمة البناء، قال: فقلت: فإن الناس لا يرضون بهذا، قال: فقال: إذا ولينا فلم يرض الناس بذلك ضربناهم بالسوط، فإن لم يستقيموا ضربناهم بالسيف^(٣).

أقول: في هذه الروايات وأمثالها إشعار بضرورة أن يكون لفقهاء الإسلام نفوذ وتأثير على السلطات الحاكمة بنحو ما^(١)؛ لإلزام تلك الحكومات بتمكين الناس من العمل بهذه التشريعات فإنها لم تنزل عبثاً ولا ليكتفى بتدريسها في الحوزات العلمية فقط، ولا لتعطّل وتوضع في زوايا النسيان إلى حين قيام دولة الإمام المهدي الموعود (عليه السلام)، فلا بد من العمل على توفير فرصة تطبيق الحكم الشرعي لمن أراد مثل تأسيس المحاكم الشرعية إلى جنب المحاكم الوضعية أو تعيين قضاة شرعيين يرجع إليهم الناس وسنّ مواد في قانون الأحوال الشخصية موافقة للشريعة إلى جنب مواد القانون الوضعي ويترك الخيار للشخص في اختيار ما يشاء فكما أن الحرية مكفولة لمن أراد التحاكم إلى القانون الوضعي كذلك يجب أن تتوفر لمن يريد الالتزام بالحكم الشرعي ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ (الأنفال: ٤٦).

وقد ذكرنا في مقدمة البحث الفقهي روايات عديدة تحثّ على تعلّم مسائل

(١) شرحنا ذلك بالتفصيل في كتاب (فقه المشاركة في السلطة) والقسم الثاني من كتاب (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) ضمن موسوعة فقه الخلاف.

الميراث وأحكامه.

إن توريث المال ونحوه من تركة الميت إلى القريين إليه بنسب أو سبب غريزة فطرية، لأن الإنسان يعتبرهم امتداداً لوجوده، وأنه باقٍ ببقائهم، والإيراث لغةً يعني بقاء الشيء كما في العين^(١) وقد ورد في النبوي الشريف (إنكم على إرث من أبيكم إبراهيم)^(٢) أي على بقية من شريعته الحنيفة، وفي الدعاء (ومتعني بسمعي وبصري واجعلهما الوارثين مني)^(٣) أي الباقيين إلى حين وفاتي، فليس الميراث أكلاً بلا مقابل كما يزعم بعض المشككين.

قال أمير المؤمنين (عليه السلام) مشيراً إلى هذه الفطرة في كتابه إلى ولده الإمام الحسن (عليه السلام): (أما بعد فإنني وجدتك بعضي بل وجدتك كلي حتى كأن شيئاً إذا أصابك أصابني وكأن الموت لو أتاك أتاني، فعناني من أمرك ما يعينني من أمر نفسي)^(٤) حتى أن من لا عقب له ولا قرابة يشعر أحياناً بعشيرة كسب المال والتوسع في ملكيته لأنه لا يجد من يستحق الجهد والعناء ويحفظ له ذكره، وقد عالج الإسلام هذه الثقافة بمبدأ الباقيات الصالحات وليس هذا محل التفصيل.

(١) العين - الخليل الفراهيدي: ٢٣٤ / ٨.

(٢) المهذب البار، لابن فهد الحلبي: ٣٢٥ / ٤، ط. جماعة المدرسين، وروي في صحاح العامة عن يزيد بن شيبان قال: (كنا وقوفاً بعرفة مكاناً بعيداً من الموقف فأتانا ابن مربع الأنصاري فقال: إني رسول رسول الله (ﷺ) إليكم يقول: كونوا على مشاعركم فإنكم على إرث من إرث أبيكم إبراهيم (عليه السلام)) سنن النسائي: ٢٥٥ / ٥، باب رفع اليدين في الدعاء بعرفة.

(٣) دعاء الإمام الحسين (عليه السلام) في يوم عرفة، مفاتيح الجنان: ٣٢٨.

(٤) مناقب آل أبي طالب: ١٩٩ / ٣.

وهذا التوريث بين الأقرباء مما يقتضيه العدل والإنصاف، لأنهم يتوارثون تكويناً الصفات الإيجابية والسلبية من خلال الجينات الموجودة في الكروموسومات فمقتضى الإنصاف توارثهم شرعاً وقانوناً سائر ما يتركه الميت على أساس القاعدة العقلانية (من كان له الغنم فعليه الغرم).

وقضية التوريث أيضاً ضرورة اجتماعية لأنها تتعلق بتوزيع المال على مستحقيه وهو من أعظم موارد النزاع والتخاصم لميل النفوس إليه وحرصهم عليه قال تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ (الفجر: ١٠) وقال تعالى ﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ﴾ (النساء: ١٢٨) فلا بد من وضع القوانين التفصيلية التي تعطي لكل ذي حق حقه، لهذا نجد قضية الميراث وتوزيع تركه الميت حاضرة في ثقافة وتشريعات المجتمع البشري خصوصاً الأمم المتمدنة فيه منذ فجر التاريخ كالسومريين والآشوريين والبابليين، كما ينقل المؤرخون عن (قانون (أور-نمو) وقانون (لبت-عشتار) و(آشوننا) وقانون (حمورابي))^(١).

وهكذا تجدها في قوانين المصريين والرومان والإغريق والفرس وهي وإن اختلفت في التفاصيل ألا أنها تكاد تجمع على أن مستحق الميراث هو (أولى الناس به) لكنهم اختلفوا في مصاديقه وجعلوا ضوابط مختلفة للأولوية بحسب ثقافتهم واهتمامهم بالأمور والتحديات التي تواجههم، وأوكلها بعضهم إلى رغبة صاحب المال نفسه، ففي القوانين القديمة^(٢):- إذا مات رب الأسرة فله أن يفضل

(١) موسوعة الفقه الإسلامي: ١٤/٩، عن المصادر المذكورة فيه.

(٢) تجد تفصيلاً أكثر عن هذه التشريعات في تفسير الميزان: ٤/ ٢٢٩-٢٤٣، وفي موسوعة الفقه

أحد أبنائه على الباقي بنصيب إضافي، ويبدو منهم أنهم يفضلون الأولاد الذكور بحظٍّ أوفر على الإناث، والزوجة تشارك الأولاد ولها حظٌّ مساوي معهم. وإذا كان أحد أولاد الميّت لم يتزوَّج بعد يضاف إلى حصّته ما يقابل المهر ليساوي بقيّة إخوته، وكذا إذا لم تتزوَّج إحدى بناته فعلى إخوتها أن يقدموا لها ما يعادل حصّتها ويزوَّجوها حتى تتساوى مع بقية أخواتها.

أما الرومان فلما كان لرب الأسرة عندهم ولاية مطلقة على أفراد وأموال الأسرة ولا يملك غيره من أفراد الأسرة إلا بإذنه وإرادته فإنه إذا مات يرثه أحد أبنائه أو إخوانه ممن كان وارثاً لربوبيته، وأما النساء كالزوجة وال بنت والأخت والأم فلم يكن يرثن لثلاث ينتقل مال الأسرة بانتقالهن إلى أسرة أخرى بالزواج، ثم طرأت إصلاحات على هذا النظام باتخاذ القرابة قاعدة للميراث على ترتيب الطبقات.

أما اليونان فكانوا لانشغالهم بالحروب المستمرة يعتبرون أموال الأسرة جزءاً من الثروة العامة ورب العائلة المتصرف بهذه الأموال كوكيل عن الحكومة في إدارة الأموال، وكان للرجل حق اختيار من يخلفه في ماله ويقوم مقامه في رئاسة أسرته وأولاده، ولا بد أن يتماشى هذا الاستخلاف مع مصلحة الوطن وتوافقه القبيلة وترضى عنه، وله أن يؤثر بعض أبنائه على بعض في الميراث وليس له أن يحرم أحداً منهم حرماناً تاماً، وإذا لم يكن له وصية فإن القانون يقضي بمساواة جميع أبنائه في الميراث.

أما الفرس فكانت قوانينهم تراعي ثقافتهم في نظام الأسرة وحفظ أملاكها وشرف نسبها، وديانة الآباء والأجداد ونظام الإقطاع وتعدد الزوجات ونكاح

المحارم وسيادة الزوجة الممتازة في البيت، فإذا لم يترك رب الأسرة ولداً رشيداً له هذه القدرة، فإن الزوجة الممتازة تتصرف في التركة بما يناسب هذه الاعتبار، وكانوا يساوون بين الابن والبنت ما لم تتزوج، وكان من موانع الإرث عندهم خروج رب الأسرة عن دين آبائه، وعدم برّ الولد أباه.

أما قدماء المصريين فقد كانوا مجتمعاً زراعياً والفراعنة هم مُلّاك الأراضي، والناس شركاء في منافع الأرض فإذا مات رب الأسرة حلّ محلّه أكبر الذكور في إدارة زراعة الأرض والانتفاع بها أما بقية الأموال من تركة رب الأسرة فجميع الأولاد ذكوراً وإناثاً فيها سواء عندهم، وكذا الزوج والزوجة يرث بعضهم بعضاً.

أما اليهود فكانوا يعيشون كأقليات داخل المجتمعات ويتخذون من الأموال الضخمة سلاحاً لتحقيق طموحاتهم الاستكبارية فلذا كانوا يحرصون على جمعه وصيانتها من التشتت، فكان لصاحب المال الحرية الكاملة في التصرف بالمال كيف يشاء بالهبة أو الوصية فله أن يوصي بماله كله لمن يشاء حتى لو كان أجنبياً ويحرم ذريته وأقاربه منه، واليهودي يرث الوثنيين ولا يرثونه، ويُحرّم من الإرث إذا ارتدّ عن دينه، وكذا من يضرب أباه أو أمه ضرباً دائماً فإنه لا يرثهما.

أما العرب قبيل الإسلام فقد كان نظام القبيلة متحكماً فيهم وتنتشر فيهم الصراعات والحروب فكانوا يورثون على أساس النسب والولاء للعشيرة والتبني ويخصّون به الذكر البالغ القادر على حمل السلاح دفاعاً عن العشيرة ومصالحتها وأما الصغار والنساء والضعاف فليس لهم حق في الميراث وإن كانوا أولاداً، ويعامل الابن بالتبني معاملة الابن النسبي ويقدمّ عليه إذا توفرت فيه الشروط المذكورة دون الآخر.

وفي ظل هذه الأنظمة التي فيها كثير من الاستتار والظلم والحرمان والحيث من الله تعالى على الناس بالبعثة النبوية المباركة ونزل القرآن الكريم لبني الإنسان والمجتمع الصالحين ويؤسس لحياة كريمة مبنية على أساس العدالة الاجتماعية ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ (الحديد: ٥).

ولسان الآية الكريمة محل البحث ظاهر في الرد على هذه المظالم، ونقل العلامة الطبرسي ذلك عن جملة من المفسرين، وروي في سبب نزول الآية أن امرأة من الأنصار (قالت: يا رسول الله (ﷺ) توفي زوجي وتركني وابنته فلم نورث من ماله، فقال عم ولدها: يا رسول الله لا تركب فرساً ولا تنكأ عدواً ويكسب عليها ولا تكتسب، فنزلت ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيباً مَّفْرُوضاً﴾ (النساء: ٧))^(١).

وروا عن ابن عباس قال: (لما نزلت آية الفرائض التي فرض الله فيها ما فرض للولد الذكر والأنثى والأبوين كرهها الناس أو بعضهم وقالوا: نعطي المرأة الربع أو الثمن، ونعطي الابنة النصف ونعطي الغلام الصغير وليس من هؤلاء أحد يقاتل القوم ولا يحوز الغنيمة؟! وكانوا يفعلون ذلك في الجاهلية لا يعطون الميراث إلا لمن قاتل القوم، ويعطونه الأكبر فالأكبر)^(٢).

(١) الدر المنثور: ٢ / ٤٣٩، ط. دار الفكر.

(٢) الدر المنثور: ٢ / ٤٤٥.

وهذا يكشف عن رسوخ هذه القيم الجاهلية في نفوس الصحابة حتى بعد نزول القرآن ومرور مدة طويلة على البعثة النبوية المباركة؛ لأن سورة النساء مدنية وآيات الميراث نزلت بعد معركة أُحُد في السنة الثالثة من الهجرة كما تشهد بعض الحوادث التي وردت الإشارة إليها في السورة، وقال السيوطي في تفسير آية ميراث الأولاد: أخرج أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه والحاكم والبيهقي وآخرون عن جابر قال: (جاءت امرأة سعد بن الربيع إلى رسول الله ﷺ فقالت يا رسول الله هاتان ابنتا سعد بن الربيع قُتل أبوهما معك في أحد شهيداً وإن عمهما أخذ مالهما فلم يدع لهما مالاً ولا ينكحان إلا ولهما مال، فقال: يقضي الله في ذلك، فنزلت آية الميراث ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ...﴾ الآية، فأرسل رسول الله ﷺ إلى عمهما فقال: أعط ابنتي سعد الثلثين وأمهما الثمن وما بقي^(١) فهو لك^(٢).

فالدين الإسلامي بما إنه تشريع من الله تعالى خالق الإنسان والعالم بما يصلحه في دنياه وآخرته لم يهمل هذه الغريزة الفطرية والضرورة الاجتماعية، ولم يترك الأمر إلى البشر ذوي العقول القاصرة والذين تتحكم فيهم الأهواء والمطامع والمصالح فسنّ قانوناً إلهياً متكاملاً لمصير ما يتركه الإنسان. ومن ملامح هذا التكامل:

(١) هذا مبني على ما يذهب إليه العامة من التعصيب فيمنحون الباقي إلى العصبه وهو باطل عندنا نحن الإمامية وأن الباقي يردّ على البنتين لدخول النقص عليهما حين العول.
(٢) الدر المنثور: ٢ / ٤٤٥.

١- قيام القانون على مبدأ وعقيدة أن الله تعالى هو الوارث الحقيقي لكل المخلوقات لأنها تموت وتفنى وهو الباقي ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۖ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ (الرحمن: ٢٧) قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ (مريم: ٥) وقال تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾ (الحجر: ٢٣) فلا بد أن يرجع الى الله تعالى في تحديد مصير مال الإنسان بعد وفاته، وهذا الأساس العقائدي من أهم ما يميّز التشريعات الإلهية عن الوضعية المستندة إلى أهواء البشر وتفكيرهم القاصر.

٢- إنه لم يبخس حق الميت واحترم إرادته في إنفاق ماله في أمور كان يحب أن يضع ماله فيها فجعل له حق الوصية بما لا يزيد عن ثلث التركة وتخرج قبل توزيع الميراث، وأبقى الثلثين لذويه استمراراً لمسؤوليته عن إعالتهم وتوفير مؤونتهم ولو سمح بالوصية بكل المال لضاع هؤلاء، نُقل في الدر المنثور عن البخاري وأحمد ومسلم وأبي داود والترمذي والنسائي وغيرهم عن سعد بن أبي وقاص (أنه مرض مرضاً أشفي منه، فأتاه النبي ﷺ) يعود، فقال: يا رسول الله إن لي مالاً كثيراً وليس يرثني إلا ابنة لي، أفأصدق بالثلثين؟ قال: لا، قال: فالشطر؟ قال: لا، قال: فالثلث؟ قال: الثلث والثلث كثير؟ إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس^(١).

٣- مراعاة النزعة الفطرية والعدالة الاجتماعية فلاحظ في الاستحقاقات درجة القرابة والمسؤوليات المنوطة بكل وارث والمصالح العامة في تحريك عجلة الاقتصاد لما ذكرناه من أن منع الشخص من التصرف في ثروته بعد الموت يثبط عزيمته في العمل ولا يبقى له أملاً للمستقبل^(١)، كما أن قانون الإرث يراعي توزيع الثروة بنحو عادل ومنع الاستئثار والاستبداد على نحو قوله تعالى: ﴿كَئِنْ لَا يَكُونْ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾ (الحشر: ٧) فكفل حق الفرد وحق الجماعة خلافاً للمبدأين الوضعيين المعمول بهما من العمل بأحدهما على حساب الآخر، والغرض هو تحقيق العدالة وليس من الضروري أن تتحقق العدالة بالمساواة إذ قد يلزم منها الظلم وفق العناصر الآتية.

٤- تثبيت السهام بدقة حتى لا يحصل خلاف وتنازع.

٥- حفظ حقوق الضعفاء كالنساء والأيتام، وقد أشرنا إلى حرمانهم في القوانين المعمول بها لدى الأمم يومئذٍ.

وقد تعرض قانون الميراث في الإسلام إلى شبهات وشكوك أجاب بعضها الأئمة الطاهرون (عليه السلام) كما أسهب المفسرون والمفكرون في ردّها لسنا بصدد الدخول في تفاصيلها، وأذكر رواية واحدة عن الإمام الرضا (عليه السلام) في علة إعطاء سهمين للولد وسهم للبنات بالرغم من أن هذا التفاضل في القسمة ليس مطّرداً إذ

(١) نقل في تفسير (الأمل: ج ٣، ص ٤٧) أن البرلمان الفرنسي ألغى قانون الإرث في فترة وقرّر نقل أموال الناس بعد موتهم إلى الخزينة العامة وعلى أثره شخّصوا تراجعا كبيرا في الحركة الاقتصادية مما دفع الحكومة إلى إعادة النظر في القرار.

أن الرجال والنساء قد يأخذون بالسوية كالوالدين مع الولد لهما السدسان وككلالة الأم، بل إن الأنثى قد تأخذ أكثر من الذكر كأبوين مع الزوج فإن للأم الثلث وللأب السدس، قال (عليه السلام): (لأن المرأة إذا تزوجت أخذت والرجل يعطي فلذلك وفر على الرجال، وعلة أخرى في إعطاء الذكر مثلي ما تعطى الأنثى لأن الأنثى في عيال الذكر إن احتاجت وعليه أن يعولها وعليه نفقتها، وليس على المرأة أن تعول الرجل ولا تؤخذ بنفقته إن احتاج، فوفر على الرجال لذلك وذلك قول الله عز وجل: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ (النساء: ٣٤))^(١).

قال السيد الطباطبائي (قدس سره) في توضيح هذه النكته: (إن الإسلام يرى اقتسام الثروة الموجودة في الدنيا بالثلث والثلثين، فللأنثى ثلث، وللذكر ثلثان، هذا من حيث التملك لكنه لا يرى نظير هذا الرأي في الصرف للحاجة، فإنه يرى نفقة الزوجة على الزوج ويأمر بالعدل المقتضي للتساوي في المصرف، ويعطي للمرأة استقلال الإرادة والعمل فيما تملكه من المال لا مداخلة للرجل فيه، وهذه الجهات الثلاث تنتج أن للمرأة أن تتصرف في ثلثي ثروة الدنيا (الثلث الذي تملكها ونصف الثلثين اللذين يملكهما الرجل) وليس في قبالة تصرف الرجل إلا (الثلث))^(٢).

(١) وسائل الشيعة: ٢٦ / ٩٥، ط. آل البيت (عليه السلام).

(٢) الميزان في تفسير القرآن: ٤ / ٢٣٤-٢٣٥، ط. الأعلمي - بيروت.

القبس/٣٢

سورة النساء: ﴿١٧﴾

﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾

موضوع القبس: بادر الى التوبة فانها تصعب بالتأخير

التورط بأموال الناس نموذجاً

قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (النساء: ١٧-١٨).

فالأية تبين ان قبول التوبة - اي قبول الله تعالى لعبده بعد ان يعود العبد الى ربه بالندم والاستغفار لان التوبة تعني الرجوع فالحركة متبادلة بين العبد وربّه ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ (التوبة: ١١٨)، قال تعالى ﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ﴾ (المائدة: ٣٩) - حق فرضه الله تبارك وتعالى على نفسه للذين وقعوا في المعاصي، والذنوب، رحمةً بهم، وشفقةً عليهم، ولعلمه تعالى بضعفهم، وقصورهم، اذا تابوا وندموا من قريب، ولم يسوفوا التوبة، ويؤجلوها، تماذياً في المعصية.

ولم يحدّد سبحانه الوقت القريب لأنه ممتد ما دامت التوبة لها أثر إيجابي في حياة الانسان لكنها كلما كانت سريعة كانت أجدى في زوال اثر المعصية والعودة

الى الاستقامة.

روى الشيخ الصدوق في الفقيه بسنده عن الإمام الصادق (عليه السلام) ان رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال في آخر خطبة خطبها (من تاب قبل موته بسنة تاب الله عليه، ثم قال: ان السنة لكثيرة، من تاب قبل موته بشهر تاب الله عليه، ثم قال: ان الشهر لكثير، ومن تاب قبل موته بجمعة تاب الله عليه، ثم قال: ان الجمعة لكثيرة، ومن تاب قبل موته بيوم تاب الله عليه، ثم قال: ان يوم لكثير، ومن تاب قبل موته بساعة تاب الله عليه، ثم قال: ان الساعة لكثيرة، ومن تاب وقد بلغت نفسه هذه - وأهوى بيده الى حلقه - تاب الله عليه)^(١)

ومثل الآية محل البحث آيات عديدة كقوله تعالى ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (الأنعام: ٥٤) ومثلها (النحل: ١١٩).

وهذا لا يعني غلق الباب على غيرهم فرحمة الله تسع الجميع، ففي أصول الكافي بسند صحيح عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال (اذا بلغت النفس ها هنا - وأشار الى حلقه - لم يكن للعالم توبة، ثم قراء ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ﴾^(٢) لكن هذه الآية تذكر شرطي التوبة التي اوجب الله تعالى على نفسه قبولها وهما التوبة من قريب وان يكون صدور الذنب بجهالة. اما الذين لا يبادرون الى التوبة

(١) الفقيه: ١/١٣٣/ح ٣٥١.

(٢) الكافي: ١/٣٧/ح ٣.

ويؤجلونها ثم يتوبون قبل ان يدركهم الموت فهؤلاء موكولون لأمر الله تعالى، قال سبحانه ﴿وَأَخْرُونَ مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة: ١١٦) فهؤلاء صنف بين من تقبل توبتهم حتماً ومن لا تقبل وهو من لا يتوب حتى ينزل به الموت.

والجهالة هنا - كما في الموارد القرآنية الأخرى - ليست مقابل العلم لان الجاهل بحرمة شيء قد يكون معذوراً ولأنها قد تطلق على العالم أيضاً وقد وصفت حال الأمم قبل الإسلام بالجاهلية مع ان فيهم من بلغ من العلوم والحضارة المادية مرتبة متقدمة، وانما تعني الحماقة والسفاهة والنزق وعدم الحكمة في التصرف وعدم وضع الأمور في موضعها الصحيح والانسياق وراء الشهوات والنزوات بلا تعقل، روى العياشي في تفسير هذه الآية عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال (يعني كل ذنب عمله العبد وان كان به عالماً فهو جاهل حين خاطر بنفسه في معصية ربه، وقد قال فيه تبارك وتعالى يحكي قول يوسف لاخته ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ (يوسف: ٨٩). فنسبهم الى الجهل لمخاطرتهم بأنفسهم في معصية الله)^(١) قال تعالى ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (البقرة: ٦٧) وكأنه اعتبر عدم انتفاعه بعلمه كعدم العلم وقد قال الراغب في معاني الجهل (فعل الشيء بخلاف ما حقه ان يفعل، سواء اعتقد فيه اعتقاداً صحيحاً او فاسداً).

وكانه أريد بهذا القيد (بجهالة) إخراج مرتكب الذنوب عناداً وتمرداً

(١) تفسير العياشي: ١/٢٢٨/ح ٦٢.

واستكباراً على رب العزة والجلال وإنكاراً لقدرته تعالى.

وينبغي الالتفات الى ان هذا الوعد الإلهي الكريم لا يصح ان يكون سبباً لاغترار^(١) الانسان واستخفافه بمقام ربه تعالى، وانما عليه ان يستعصم بالله تعالى ويطلب منه العون على تجنب الذنب اصلاً، روي عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قوله (ترك الذنب اهون من طلب التوبة)^(٢) ولكن لو حصل الذنب فالمطلوب المبادرة الى التوبة وإصلاح الحال لكي يكون مشمولاً بالآية الكريمة ولان الاستمرار على الخطأ والخطيئة يصعب العودة ويعقد الوضع وتكون النتيجة عدم التوفيق للتوبة. من وصايا النبي (صلى الله عليه وآله) لأبن مسعود (لا تقدم الذنب ولا تؤخر التوبة، لكن قدم التوبة وأخر الذنب)^(٣)، ومن كلام لأمر المؤمنين (عليه السلام) (لا تكن ممن يرجو الآخرة بغير العمل، ويُرجئ التوبة بطول الامل... إن عرضت له شهوة أسلف المعصية -أي عجلها- وسوف التوبة)^(٤) وله (عليه السلام) أيضاً (إن قارفت سيئة فتعجل محوها بالتوبة)^(٥).

وأذكر لكم رواية تبين صعوبة التوبة بالتأخير وهي تتعلق بأحد الذنوب الكبيرة التي كثر الابتلاء بها وهو الدخول في اعمال الظالمين والفاستدين وسرّاق

(١) راجع قيس قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ (الأنفطار: ٦)، في تفسير من نور القرآن.

(٢) بحار الانوار: ٣٤٦/٧٣ / ح ٩٦.

(٣) مكارم الاخلاق ص ٢٩، بحار الانوار: ١٠٤/٧٧ / ح ١.

(٤) بحار الانوار: ٦ / ٣٧ / ح ٦٠.

(٥) بحار الانوار: ٧٧ / ٢٠٨ / ح ١.

المال العام طمعاً بالاستفادة من دنياهم، سواء كان هؤلاء الظلمة قادة سياسيين أو رؤساء عشائر أو تجار ورجال اعمال او زعماء جماعات القتل والخطف والابتزاز وقبض الرشاوي ونحو ذلك، وقد وردت الروايات الكثيرة الدالة على الحرمة المغلظة للدخول في أعمالهم، منها عن ابي بصير قال (سألت ابا جعفر الباقر عليه السلام) عن أعمالهم - أي الولاة الظلمة - فقال لي: يا أبا محمد، لا ولا مدة قلم، ان أحدهم (أحدكم) لا يصيب من دنياهم شيئاً الا اصابوا من دينه مثله^(١).

فالحذر الحذر من الدخول في شيء من ذلك ومن تورط فعليه بالإسراع في الخروج منها والا فان الرجوع الى الحق سيكون صعباً، روى الشيخ الكليني بسنده عن حميد قال: (قلت لأبي عبد الله عليه السلام): اني وليت عملاً - أي من اعمال الظالمين وولاياتهم - فهل لي من ذلك مخرج؟ فقال: ما أكثر من طلب المخرج من ذلك فعسر عليه، قلت: فما ترى؟ قال: ارى ان تتقي الله عز وجل ولا تعد^(٢).

ولكي نعرف كيف يصعب الحل ويصبح ثقيلاً جداً على النفس الاستجابة اليه، نقرأ الرواية التالية من الكافي بسنده عن علي بن ابي حمزة قال (كان لي صديق من كتاب بني أمية فقال لي: استأذن لي على أبي عبدالله عليه السلام) فاستأذنت له، فأذن له، فلما ان دخل سلم وجلس، ثم قال: جعلت فداك اني كنت في ديوان هؤلاء القوم فأصبت من دنياهم مالاً كثيراً، وأغمضت في مطالبه - أي لم أدقق في كون مصدره حلالاً أو حراماً - فقال أبو عبدالله عليه السلام: لو لا ان بني أمية وجدوا لهم من يكتب ويجبي لهم الفياء ويقا تل عنهم ويشهد جماعتهم لما سلبونا حقنا،

(١) الوسائل: ١٧٩/١٧ أبواب ما يكتسب به باب ٤٢/ح ٥.

(٢) الوسائل: ١٨٩/١٧ الباب ٤٥ عشر التوبة/ح ٥.

ولو تركهم الناس وما في أيديهم ما وجدوا شيئاً الا ما وقع في أيديهم) وهكذا كل الطغاة والظالمين والفاستدين لولا انهم وجدوا من يمكنهم ويسلطهم بالقوة او بالانتخابات لما وجدوا مجالاً لممارسة الظلم والفساد لانهم لا يملكون القدرات الذاتية التي تمكنهم من فعل شيء كشرذمة بني امية وسائر الطواغيت والظلمة (قال: فقال الفتى: جعلت فداك فهل لي مخرج منه؟ قال: ان قلت لك تفعل؟ قال: أفعل، قال له فأخرج من جميع ما كسبت في ديوانهم فمن عرفت منهم) أي من أصحاب الحقوق المالية (رددت عليه ماله، ومن لم تعرف تصدقت به، وانا أضمن لك على الله عز وجل الجنة، فاطرق الفتى طويلاً) لان المطلوب منه صعب عسير وقد تعود على وضع اجتماعي ومالي لا يستطيع الخروج منه الا ذو حظ عظيم وهذا معنى قولنا ان التوبة تصعب بالتأخير (ثم قال له: لقد فعلت جعلت فداك. قال ابن ابي حمزة: فرجع الفتى معنا الى الكوفة فما ترك شيئاً على وجه الأرض الا خرج منه حتى ثيابه التي كانت على بدنه قال: فقسمت له قسمة واشترينا له ثياباً وبعثنا اليه بنفقة، قال: فما اتى عليه الا أشهر قلائل حتى مرض) وربما كان مرضه لثقل الهم والشعور بالمسؤولية امام الله تعالى وضريبة الغفلة التي كان فيها قبل أن يستيقظ (فكنا نعوده، قال: فدخلت يوماً وهو في السوق^(١) قال: ففتح عينيه ثم قال لي: يا علي وفي لي والله صاحبك، قال: ثم مات فتولينا أمره، فخرجت حتى دخلت على أبي عبد الله (عليه السلام)، فلما نظر الي قال لي: يا علي وفينا والله لصاحبك، قال: فقلت صدقت جعلت فداك هكذا والله قال لي عند موته^(٢).

(١) أي حالة الاحتضار ونزع الروح فكأنها تُساق لتخرج من البدن.

(٢) وسائل الشيعة: ١٧ / ١٩٩، أبواب ما يكتسب به، باب ٤٧ / ح ١.

أقول: وهكذا في سائر الامور علينا المبادرة الى اصلاح الخطأ ومعالجة الخلل قبل ان يتسع ويتعذر إصلاحه، مثلاً يحصل خلاف وسوء تفاهم بين شخصين كالزوجين أو الاخوين أو بين جماعتين، فعليهم ان (يعبروا النهر ما دام ضيقاً) كما في المثل العامي اما اذا استمروا في الخلاف وتدخلت عناصر أخرى بالقليل والقال فان المشكلة تستعصي على الحل.

ومما يزيد صعوبة التوبة ايضاً فيما لو تسبّب بتوريط الآخرين في الظلم والمعصية والضلالة كدعاة الفسق والفجور والالحاد والعزوف عن الدين وتشويه صورة الصالحين وتسقيطهم او دعوة الناس الى اتباعه بغير استحقاق ونحو ذلك لان من شروط التوبة حينئذ ان يصحّ ويعالج كل ما تسبب به ويلاحقه أينما كان. وهذا قد يستحيل تحقيقه وليس له الا لطف الله تعالى وكان عليه ان يتورع من اول الامر ولا يتورط بأمثال هذه المعاصي فيصبح ضالاً ومضلاً.

﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾

موضوع القبس: الحسد رأس الرذائل

قال الله تبارك وتعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ﴿٥٤﴾).

الحسد من أسوأ الرذائل الخلقية والصفات المذمومة وأجلبها للشقاء لصاحبها في الدنيا والآخرة، وهي تكشف عن نفس مريضة وقلب حقود، قال أمير المؤمنين (عليه السلام): (الحسد شر الأمراض)^(١) وقال (عليه السلام): (رأس الرذائل الحسد)^(٢) وقال (عليه السلام): (الحسد مرض لا يؤسى)^(٣) أي لا يعالج بالدواء كما تعالج الأمراض البدنية وإنما يحتاج إلى معرفة ومجاهدة للنفس وتزوين بالفضائل كحب الآخرين وإنصافهم وتمني الخير لهم.

وقد تزامن وجود هذه الرذيلة مع خلق الإنسان الأول فقد حسد إبليس آدم (عليه السلام) وعصى أمر ربه بالسجود له وتسبب في هبوطه من الجنة فطرد من رحمة الله تعالى واستحق اللعنة إلى أبد الأبد، وحسد قابيل ابن آدم أخاه هابيل حتى قتله.

(١) غرر الحكم: ٣٣٢.

(٢) غرر الحكم: ٥٢٤٢.

(٣) غرر الحكم: ١٣٧٨.

والحسد هو من دفع أهل السقيفة للتآمر حتى يصرفوا الخلافة عن أمير المؤمنين (عليه السلام) و(فقال عمر: يا بن عباس أتدري ما منع الناس منكم؟ فقلت: لا، قال: لكنني أدري، قلت: فما هو؟ قال: كرهت قريش أن تجتمع لكم النبوة والخلافة)^(١) فجروا على الأمة الويلات والكوارث إلى قيام يوم الدين: روى في الدر المنثور عن ابن الزبير في الموفقيات عن ابن عباس (أن معاوية قال: يا بني هاشم إنكم تريدون أن تستحقوا الخلافة كما استحقتم النبوة ولا يجتمعان لأحد وتزعمون أن لكم ملكا فقال له ابن عباس: أما قولك أنا نستحق الخلافة بالنبوة فإن لم نستحقها بالنبوة فبِمَ نستحقها وأما قولك أن النبوة والخلافة لا يجتمعان لأحد فأين قول الله ﴿فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما﴾ فالكتاب النبوة والحكمة السنة والملك الخلافة نحن آل إبراهيم أمر الله فينا وفيهم واحد والسنة لنا ولهم جارية وأما قولك زعمنا أن لنا ملكا فالزعم في كتاب الله شك وكل يشهد أن لنا ملكا لا تملكون يوما إلّا ملكنا يومئذ ولا شهرا إلّا ملكنا شهرين ولا حولا إلّا ملكنا حولين)^(٢).

والحسد غريزة راسخة في نفس الإنسان الأمارة بالسوء حتى ورد في الحديث النبوي الشريف (ثلاث لا يسلم منها (منهن) أحد: الطيرة، والحسد، والظن، قيل: فما نصنع؟ قال: إذا تطيرت فامض، وإذا حسدت فلا تبغ، وإذا ظننت فلا تحقق)^(٣) وقد ذكر الحديث كيفية قمع تأثيرها ومجاهدتها حتى تزول (إذا

(١) الكامل لابن الأثير: ٦٣/٣، وتاريخ الطبري: ٢٢٣/٤.

(٢) الدر المنثور ٥٦٨/٢.

(٣) بحار الأنوار، للعلامة المجلسي: ٣٢٠/٥٥.

حسدت فلا تبغ) وقد ذكر الحديث أشكال البغي الذي يجبر إليه الحسد، روى الشيخ الصدوق في الخصال عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (قال لقمان لابنه: للحاسد ثلاث علامات: يغتاب إذا غاب، ويتملق إذا شهد، ويشمت بالمصيبة)^(١) فإذا منع الإنسان نفسه من القيام بهذه الأفعال قربة إلى الله تعالى فإنها ستنتهي إلى إزالة أصل الصفة بإذن الله تعالى، أو حماية نفسه من الوقوع في آثارها المهلكة، قال العلامة المجلسي (قدس سره): ((فأما تغيير الطبع فهذا مما لا يطاوع الطبع عليه، ما دام ملتفتا إلى حظوظ الدنيا إلا أن يصير مستغرقاً بحب الله تعالى مثل السكران الواله، فقد ينتهي أمره إلى أن لا يلتفت قلبه إلى تفاصيل أحوال العباد بل ينظر إلى الكل بعين واحدة، وهو عين الرحمة، ويرى الكل عباد الله، وذلك إن كان فهو كالبرق الخاطف لا يدوم، ويرجع القلب بعد ذلك إلى طبعه، ويعود العدو إلى منازعته أعني الشيطان، فإنه ينازع بالوسوسة، فمهما قابل ذلك بكرهه ألزم قلبه، فقد أدى ما كلفه))^(٢).

ويطلق الحسد على تمنى زوال النعمة عن الآخر، سواء ضم إليه تمنى حصول الحاسد على مثل تلك النعمة أو لا لضعف في همته أو عجز في امكانياته قال الإمام علي (عليه السلام): (الحاسد يرى أن زوال النعمة عن يحسده نعمة عليه)^(٣)، وسواء كانت النعمة مادية أو معنوية كما أشارت إليه الآية الكريمة وغيرها. ويزداد الحاسد شقاءً باعتراضه على قضاء الله تعالى وإرادته، إذ كررت

(١) الخصال: ٦٠ / ١.

(٢) بحار الأنوار: ٢٤٣ / ٧٠.

(٣) غرر الحكم: ١٨٣٢.

الآية ثلاثاً على ان هذه النعمة من ﴿مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ فماذا يعني التألم من حصول الآخر عليها وتمني زوالها غير الاعتراض على ما أراد الله تبارك وتعالى، روى الشيخ الكليني في الكافي بسنده عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: قال رسول الله (ﷺ): قال الله عز وجل لموسى بن عمران (عليه السلام): يا ابن عمران، لا تحسد الناس على ما آتيتهم من فضلي، ولا تمدنّ عينيك إلى ذلك، ولا تتبعه نفسك فإن الحاسد ساخط لنعمي، صاّد لقسمي بين عبادي، ومن يك كذلك فلستُ منه وليس مني^(١).

وروى ابن مسعود عن رسول الله (ﷺ) قال: (ألا لا تعادوا نعم الله، قيل يا رسول الله؟ ومن الذي يعادي نعم الله؟ قال: الذين يحسدون الناس)^(٢) ولو كانوا عقلاء سليمي القلب لسألوا الله تعالى من فضله ما يريدون وهو المسمى بالغبطة فإن صاحبها يفرح لحصول الآخرين على النعم ونسأل الله تعالى من يرزقه مثلها فإن مصدر النعم كلها فضل الله تعالى ﴿وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (الحديد: ٢٩) ﴿وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾ (النساء: ٣٢).

وإذا أدى الحسد بصاحبه إلى الكيد للمحسود وتسقيطه والافتراء عليه والنيل منه والقيام بأفعال انتقامية منه فيضيّف الحاسد وبالأى وباله، لذلك يدعو الله تبارك وتعالى إلى الاستعاذة من شر الحاسد ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ (الفلق: ٥).

(١) الكافي: ٣٠٧/٢.

(٢) شرح نهج البلاغة: ١/٣١٥.

وتشير الآية الكريمة إلى أنَّ الحسد هو الذي يدفع الكفار والمنحرفين والفاسقين إلى معاداة المؤمنين والكيد لهم لأنهم يعرفون حقيقة نعمة الإيمان التي يرفل بها المؤمنون بالله تعالى، والحق الذي هم عليه والسعادة والحياة الطيبة التي هم فيها، وليست عندهم الإرادة والعزم لمجاهدة أنفسهم وكبح شهواتهم والسيطرة على غرائزهم ليتساموا ويكونوا كالمؤمنين فيحسدونهم ويعملون جاهدين على حرمانهم من هذه النعمة العظيمة ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ (البقرة: ١٠٩) ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (البقرة: ١٠٥).

وتقع الآية في سياق فضح الصفات اللئيمة عند اليهود فذكرت الآيتان السابقتان البخل والحسد وزعمهم أن المشركين أهدى من المؤمنين وتحالفهم مع المشركين والكفار ضد المؤمنين مما أوجب لعنة الله عليهم.

فالمراد بالناس في الآية الكريمة بمقتضى السياق هم جماعة المؤمنين، ولكن لما كان النبي (ﷺ) وأهل بيته المعصومون (عليهم السلام) أكمل الخلق وأشرفهم والمخصوصين بالنعم التامة ولأنهم الأصل في وصول نعمة الإيمان إلى الناس فقد كانوا أكثر الناس عرضة للحسد، وهو يبين ما اشتهر في مصادرنا^(١) عن الإمام

(١) الكافي والتهذيب ومعاني الاخبار وبصائر الدرجات وتفسير القمي والعياشي، راجع البرهان:

الباقر (عليه السلام) قال: (نَحْنُ النَّاسُ الْمَحْسُودُونَ عَلَى مَا آتَانَا اللَّهُ مِنَ الْإِمَامَةِ دُونَ خَلْقِ اللَّهِ أَجْمَعِينَ)^(١) وفي حديث آخر (نحن الذين يحسدوننا على ما آتانا الله من فضله) ورواه أيضاً جملة من أعلام العامة^(٢).

والآية الكريمة ظاهرة في ذلك لأنها بينت بعض ما أعطى الله تبارك وتعالى آل إبراهيم وهم (سلام الله عليهم) المصداق الأكمل من آل إبراهيم وبقرينة قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (آل عمران: ٣٣) فال عمران سواء أريد بهم موسى بن عمران أو مريم بنت عمران هم عنوان آخر غير آل إبراهيم، وبقرينة الآية الكريمة التي ذكرت دعاء إبراهيم وإسماعيل (صلوات الله عليهما) عند بناء البيت، فقالا: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾ (البقرة: ١٢٨) فالمقصود بآل إبراهيم في دعائهما ذريته من إسماعيل (عليه السلام)، روي عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قوله: (نحن آل إبراهيم)^(٣)، فهذه القرائن كلها تدلّ على ان المراد بالناس المحسودين في الآية الكريمة هم النبي وآله المعصومون (سلام الله عليهم).

وفي قوله تعالى ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ٥٤) حسم لحسدهم وقطع لأملهم بأن الله تعالى قد أعطى كل ذلك للنبي (ﷺ) وآله المعصومين (عليهم السلام) فلا ينفعهم حسدهم ومكائدهم شيئاً،

(١) الكافي - الكليني: ٢٠٥/١ ح ١ ط الاسلامية.

(٢) كابن المغازلي الشافعي في المناقب والقندوزي في ينابيع المودة، وابن حجر في الصواعق.

(٣) بحار الأنوار: ٢٨ / ٢٧٥.

ورد في تفسير العياشي عن الإمام الباقر (عليه السلام): ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ﴾؟ فقال: النبوة، قلت: ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾؟ قال: الفهم والقضاء، قلت: ﴿وَأَتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾؟ فقال: الطاعة^(١) وهي الطاعة الواجبة التي تستلزمها الإمامة والولاية فهي الملك العظيم.

وقد روى في الكافي عن الإمام الباقر (عليه السلام) قوله: (الملك العظيم أن جعل فيهم أئمة، من أطاعهم أطاع الله ومن عصاهم عصى الله فهو الملك العظيم)^(٢)، ويبعد أن يكون المراد الملك الدنيوي المحض عدم استحقاقه الامتنان العظيم إلا أن يكون وسيلة لإحقاق الحق كالذي كان لرسول الله (صلى الله عليه وآله) وأمير المؤمنين (عليه السلام) وسيكون للإمام المهدي الموعود (عجل الله فرجه).

ولعل في ترتيبها إيماءً إلى أن المناصب الإلهية لا تنال إلا بالعلوم والمعارف الإلهية (الكتاب) و(الحكمة) في التصرف والسلوك.

وقد حذر النبي (صلى الله عليه وآله) والأئمة المعصومون (عليهم السلام) من الحسد وما يسببه من عواقب وخيمة فإنه:

١- يمحق دين الحاسد ويحبط عمله، قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (ألا أنه قد دبَّ إليكم داء الأمم من قبلكم وهو الحسد، ليس بحالق الشعر لكنه حالق الدين)^(٣) وقال أمير المؤمنين (عليه السلام): (لا تحاسدوا فإن الحسد يأكل الإيمان

(١) الكافي: ٢٠٦/١.

(٢) الكافي: ١٨٦/١.

(٣) أمالي الطوسي: ١١٧/١٨٢.

كما تأكل النار الحطب^(١) وعن الإمام الباقر (عليه السلام) مثله. ومن وصية الإمام الصادق (عليه السلام) لأبي جعفر مؤمن الطاق بعد أن وصف الحسدة لإخوانهم بأنهم أبغضهم إليه قال: (والله لو قدم أحدكم ملء الأرض ذهباً على الله ثم حسد مؤمناً لكان ذلك الذهب مما يكوى به في النار)^(٢)، وفي بعض الروايات (أن في السماء الخامسة ملكاً يمرّ به عمل عبد له ضوء كضوء الشمس، فيقول: قف فأنا ملك الحسد، اضرب به وجه صاحبه فإنه حاسد)^(٣).

٢- يضر بالحاسد قبل المحسود، قال أمير المؤمنين (عليه السلام): (لله در الحسد ما أعدله، بدأ بصاحبه فقتله)^(٤) وقال الإمام الصادق (عليه السلام): (الحاسد مضرّ بنفسه قبل أن يضرّ بالمحسود، كإبليس أورث بحسده لنفسه اللعنة ولآدم (عليه السلام) الاجتباء)^(٥).

٣- أن الحاسد يجلب لنفسه الشقاء والهم ونكد العيش لأنه يصرف وقته وجهده وتفكيره في كيفية الكيد لصاحب النعمة وسلبها منه قال أمير المؤمنين (عليه السلام): (ما رأيت ظالماً أشبه بمظلوم من الحاسد: نفس دائم، وقلب هائم وحزن لازم)^(٦) ونظمه الشاعر بقوله:

(١) نهج البلاغة: الخطبة ٨٦

(٢) بحار الأنوار: ٧٨ / ٢٨٨، عن تحف العقول، لابن شعبة الحراني: ٣٠٩.

(٣) بحار الأنوار: ٧٠ / ٢٦٢، سفينة البحار: ٢ / ١٧٩.

(٤) شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ١ / ٣١٦.

(٥) بحار الأنوار: ٧٣ / ٢٥٥، ح ٧٣.

(٦) بحار الأنوار: ٧٣ / ٢٥٦، ح ٢٩.

قل للحسود إذا تنفّس حسرةً يا ظالماً وكأنه مظلومٌ.
وعنه (عليه السلام) قال: (يكفيك من الحاسد أنه يغتم وقت سرورك) ^(١)، ونظمه
الشاعر بقوله:

إني لأرحم حاسديّ لحرّ ما ضمنت صدورهم من الأسعار
نظروا صنيع الله لي فعيونهم في جنةٍ وقلوبهم في نارٍ ^(٢)
وقال (عليه السلام): (الحسد أحد العذابين) ^(٣) وقال: (ثمرة الحسد شقاء الدنيا
والآخرة) ^(٤).

٤- الحسد سبب رئيسي لكثير من الجرائم الموبقة كالقتل والتخريب والدعاوى
الكيدية المؤدية إلى السجن أو تغريم الأموال، قال أمير المؤمنين (عليه السلام):
(الحرص والكبر والحسد دواعٍ إلى التقصم في الذنوب، والشر جامع مساوي
العيوب) ^(٥) وعما حكاه القرآن الكريم حسد أخوة يوسف حتى تآمروا على
قتله وهم أولاد أنبياء.

٥- وإذا ابتلي بالحسد العلماء والقادة الدينيون ففي الخصال عن أمير
المؤمنين (عليه السلام) قال: (إن الله عز وجل يعذب ستة ستة: العرب بالعصبية،
والدهاقنة بالكبر، والأمراء بالجور، والفقهاء بالحسد، والتجار بالخيانة، وأهل

(١) ميزان الحكمة: ٣٧٦ / ٢، عن كنز الفوائد.

(٢) بحار الأنوار: ٢٦٢ / ٧٠.

(٣) غرر الحكم: ١٦٣٥.

(٤) غرر الحكم: ٤٦٣٢.

(٥) نهج البلاغة: ٨٧ / ٤.

الرستاق بالجهل^(١)، فإن البلاء سيكون أعظم لأنه سيؤدي إلى صرف طاقات الأمة واهتمامها إلى صراع داخلي مقيت فتهمل القضايا المصيرية وتتمزق الأمة ويحصل بينها الشقاق والعداوات بدل المودة والأخوة، وقد حكى القرآن الكريم في الآيتين السابقتين أن علماء السوء من اليهود تحالفوا مع السلطات الطاغوتية في علاقة تخادم وتبادل المصالح فيشرعنون لهم حكمهم الظالم ويزعمون أنهم بذلك يحققون مصالح عليا للبلاد والعباد ويخدعون الناس بما عندهم من العلم ليسوقوهم وراء إرادة الطواغيت ويصفونهم بأنهم أهدي من المؤمنين من أجل دنيا زائفة يحصلون عليها فإذا قام المصلحون بتوعية الأمة وانكشف زيف علماء السوء خذلهم الله تعالى ونبذهم المجتمع وحينئذ يتخلى الطواغيت عنهم لأنهم سوف لا يخدمون مشروعاتهم فيخسرون الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيْبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيْلًا ۖ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيْرًا ۖ أَمْ لَهُمْ نَصِيْبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُوْتُونَ النَّاسَ نَقِيْرًا﴾ (النساء: ٥١-٥٣).

وفي مقابل هذا التحذير الشديد من الحسد وعواقبه الوخيمة فقد بيّن المعصومون (صلوات الله عليهم أجمعين) المنزلة الرفيعة لمن طهر قلبه من الحسد، قال الإمام الصادق (عليه السلام): (بينما موسى بن عمران يناجي ربه ويكلّمه إذ رأى رجلاً تحت ظل عرش الله، فقال: يا رب: من هذا الذي أظله عرشك فقال: يا

(١) الخصال، للشيخ الصدوق: ٣٢٥، والاختصاص، للشيخ المفيد: ٣٢٥.

موسى هذا ممن لم يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله^(١) وقال أمير المؤمنين (عليه السلام): (من ترك الحسد كانت له المحبة عند الناس)^(٢).

فالمؤمن يفرح بحصول الآخرين على النعم ويتمنى لهم الخير، ويسأل الله تعالى أن يتفضل عليه بمثلها أو أحسن منها وتسمى هذه الحالة الغبطة وهي ليست مذمومة، قال الإمام الصادق (عليه السلام): (إن المؤمن يغبط ولا يحسُد، والمنافق يحسد ولا يغبط)^(٣).

(١) بحار الأنوار: ٧٣ / ٢٥٥ / ح ٢٥.

(٢) بحار الأنوار: ٧٧ / ٢٣٧ / ح ١.

(٣) بحار الأنوار: ٧٣ / ٢٥٠ / ح ٧.

القبس/٣٤

سورة النساء: ﴿٥٨﴾

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾

موضوع القبس: مصاديق أداء الأمانة

نبدأ حديثنا برواية في بركة أداء الأمانة والمنزلة العظيمة لمن يؤدي الأمانة، فقد روى الكليني (رضوان الله عليه) بسنده عن أبي كهمس (الهيثم بن عبد الله الشيباني) قال: (قلت لأبي عبد الله (عليه السلام): عبد الله بن أبي يعفور يقرؤك السلام، قال: وعليك وعليه السلام، إذا أتيت عبد الله فاقراه السلام وقل له: إن جعفر بن محمد يقول لك: انظر ما بلغ به علي عند رسول الله (صلى الله عليه وآله) فالزمه، فإن علياً (عليه السلام) إنما بلغ ما بلغ عند رسول الله (صلى الله عليه وآله) بصدق الحديث وأداء الأمانة)^(١).

وحينئذٍ قد يقال بأن هاتين الخصلتين مما يتيسر الاتصاف بهما مع أن منزلة علي مما لا يبلغها أحد من بعده كما قال (عليه السلام): (ألا وأنكم لا تقدرون على ذلك)^(٢) لذا فإن الأمر يحتاج إلى شيء من الإيضاح والتفصيل، وستحدث هنا عن أداء الأمانة، حيث ينصرف الذهن إلى قضية وضع أموال الناس وممتلكاتهم عند بعضهم واستردادهم عند مطالبة أصحابها، فأداء الأمانة يعني رد الحقوق وإيصالها إلى أهلها.

وبهذا المعنى يتساوى كثيرون مع علي بن أبي طالب، لكن الأمانة لها معنى

(١) وسائل الشيعة: كتاب الوديعة، باب ١، ح ١.

(٢) نهج البلاغة: ٦٧٦ من كتاب إلى عثمان بن حنيف.

أوسع من هذا بكثير وأداء الأمانة يقتضي مسؤوليات كبرى.

أمانة العهد والميثاق:

وأول أمانة وأعظمها هي تلك التي عرضها الله تبارك وتعالى على جميع المخلوقات فاعتذرت عن تحملها وحملها الإنسان قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (الأحزاب: ٧٢) وهي أمانة العهد والميثاق الذي أخذه الله تبارك وتعالى على عباده ليمنحهم بمقتضاه خلافة الله تعالى في الأرض بأن يكون الإنسان مخلوقاً عاقلاً رشيداً ويُسَخَّرَ له الكون كله على أن يكون موحداً لله تبارك وتعالى ومن ثم تعريضه للجزاء والحساب ليثاب على إحسانه بجنة عرضها السماوات والأرض ويحاسب على سيئاته، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ (الأعراف: ١٧٢).

ويعيد الإنسان التأكيد على هذا الميثاق عندما يصفح الحجر الأسود فيقول: (اللهم أمانتي أديتها وميثاقي تعاهدته لتشهد لي بالموافاة).

تخلقوا بأخلاق الله:

تلك الخلافة التي تعني أن يكون الإنسان مظهراً للصفات الإلهية والأسماء الحسنى فيجعل الله تعالى المثل الأعلى الذي يبذل وسعه للاتصاف بصفاته ﴿وَلِلَّهِ

الْمَثَلُ الْأَعْلَى ﴿النحل: ٦٠﴾ وورد في الاثر (تخلقوا بأخلاق الله)^(١) وهي لا تقتصر على الأسماء الحسنى كالرحيم والكريم والغفار والعليم، بل تشمل كل الصفات الإلهية التي نطق بها القرآن الكريم والأدعية الشريفة والروايات المأثورة كقوله (عَلَيْهِ السَّلَام) في دعاء الافتتاح: (فلم أرَ مولىَ كريماً أصبرَ على عبدٍ لئيمٍ منك عليّ يا ربُّ إنك تدعوني فأولّي عنك، وتتحبب إليّ فأتبغضُ إليك، وتتودد إليّ فلا أقبل منك، كأن لي التطلو عليك، فلم يمنعك ذلك من الرحمة لي والإحسان إليّ، والتفضل عليّ بجودك وكرمك)، فهذه صفة لله تبارك وتعالى علينا أن نسعى للتخلق بها وهكذا غيرها.

وبأداء هذه الأمانة أوصى أمير المؤمنين (عَلَيْهِ السَّلَام) من خطبة له: (ثُمَّ أَدَاءَ الْأَمَانَةِ فَقَدْ خَابَ مَنْ لَيْسَ مِنْ أَهْلِهَا إِنَّهَا عُرِضَتْ عَلَى السَّمَاوَاتِ الْمُسَيَّتِ وَالْأَرْضِينَ الْمَدْحُورَةِ وَالْجِبَالِ ذَاتِ الطُّوْلِ الْمَنْصُوبَةِ فَلَا أَطُولَ وَلَا أَعْرُضَ وَلَا أَعْلَى وَلَا أَعْظَمَ مِنْهَا وَلَوْ امْتَنَعَ شَيْءٌ بِطُولٍ أَوْ عَرْضٍ أَوْ قُوَّةٍ أَوْ عِزٍّ لَامْتَنَعَنَ وَلَكِنْ أَشْفَقَنَ مِنَ الْعُقُوبَةِ وَعَقَلَنَ مَا جَهَلَ مَنْ هُوَ أضعفُ مِنْهُمْ وَهُوَ الْإِنْسَانُ ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾)^(٢).

وقد تمثلت في رسول الله (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وأمير المؤمنين (عَلَيْهِ السَّلَام) كل الصفات الحسنى المتاحة للمخلوقات فقد ورد في الحديث أن أهل البيت (عَلَيْهِمُ السَّلَام) حازوا اثنين وسبعين حرفاً من الاسم الأعظم ذي الثلاثة والسبعين حرفاً وبقي حرف واحد اختص تبارك وتعالى به لنفسه وكانوا مظهراً لكل الصفات الإلهية المتاحة لهم كمخلوقين، فأدى أمير المؤمنين (عَلَيْهِ السَّلَام) هذه الأمانة خير أداء.

(١) بحار الانوار: ١٢٩ / ٥٨.

(٢) نهج البلاغة من الخطبة (١٩٩).

ويعني أداء هذه الأمانة الإيمان والالتزام بكل العقائد الحقّة التي أشهد الله تبارك وتعالى عباده عليها ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ (الأعراف: ١٧٢) والأحكام الشرعية التي حدها لعباده والشهادة لرسول الله (ﷺ) بالرسالة والنبوة ولأمير المؤمنين (عليه السلام) بالولاية ولأهل بيته بالمودة والإتباع، ولذا ورد في الكافي تفسير الآية أن (الأمانة هي ولاية أمير المؤمنين)^(١).

نفسك التي بين جنبيك:

ومن مصاديق الأمانة نفسك التي بين جنبيك، يقول أمير المؤمنين (عليه السلام): (عِبَادَ اللَّهِ، اللَّهُ اللَّهُ فِي أعَزِّ الْأَنْفُسِ عَلَيْكُمْ، وَأَحَبَّهَا إِلَيْكُمْ؛ فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَوْضَحَ لَكُمْ سَبِيلَ الْحَقِّ وَأَنَارَ طَرِيقِهِ، فَشِقْوَةٌ لَزِمَةٌ، أَوْ سَعَادَةٌ دَائِمَةٌ! فَتَرَوُذُوا فِي أَيَّامِ الْفَنَاءِ لِأَيَّامِ الْبَقَاءِ. قَدْ دُلِّتُمْ عَلَى الزَّادِ، وَأَمِرْتُمْ بِالظُّعْنِ، وَحُشِّتُمْ عَلَى الْمَسِيرِ)^(٢) فهي أعز أمانة استودعك الله إياها أو ائتمنك عليها لتهذبها وتحميها من إتباع الهوى ونزغات الشيطان وأن لا تسلس القياد لها فتوردك موارد الهلكة فإن إعطاءها ما تريد - وهي الأمانة بالسوء - يقود إلى الهلاك. في دعاء الصباح لأمير المؤمنين (عليه السلام): (فبئس المطية التي امتطت نفسي من هواها، فوهاً لها لما سولت لها ظنونها ومناها).

(١) شرح أصول الكافي: ٥٢/٧.

(٢) نهج البلاغة الخطبة (١٥٧).

وهي قد تبدو مفارقة أن تكون رعاية النفس والإحسان إليها بمنعها مما تشتهيه وكبح جماحها، وعدم إطلاق العنان لها في اللهو واللعب كالذين قضوا ساعات شهر رمضان المباركة -التي جعلها الله تبارك وتعالى ميداناً لأولياءه يتسابقون فيها إلى رضوانه- يقضونها بمتابعة المسلسلات الماجنة ولعبة المحبس وأمثالها، وفي ذلك يقول أمير المؤمنين (عليه السلام) في المناجاة الشعبانية: (إلهي قد جُرْتُ على نفسي في النظر لها، فلها الويل إن لم تغفر لها) ويقول (عليه السلام): (وإنما هي نفسي أروضها بالتقوى لتأتي آمنة يوم الخوف الأكبر، وتثبت على جوانب المزلق)^(١)، وقال (عليه السلام): (وأيُّ الله - يميناً أستثني فيها بمشيئة الله - لأروضنَّ نفسي رياضةً تهشُّ معها إلى القرص إذا قدرت عليه مطعموماً، وتقع بالملح مأدوماً)^(٢) وفي ذلك يوصي الإمام الصادق (عليه السلام) شيعته خصوصاً الذين يسوفون التوبة والندم والاستغفار والذين يتلفون أنفسهم فيما يسمونه (جهاداً) أو (ثورة) أو (مقاومة) ونحوها دون الرجوع إلى البصير بأمور الشريعة وما يصلح الأمة، قال (عليه السلام): (عليكم بتقوى الله وحده لا شريك له وانظروا لأنفسكم، فوالله إن الرجل ليكون له الغنم فيها الراعي، فإذا وجد رجلاً هو أعلم بغنمه من الذي هو فيها يخرج به ويحجبه بذلك الرجل الذي هو أعلم بغنمه من الذي كان فيها، والله لو كانت لأحدكم نفسان يقاتل بواحدة يجرب بها، ثم كانت الأخرى باقية يعمل على ما قد استبان لها، ولكن له نفس واحدة إذا ذهبت فقد والله ذهبت التوبة، فأنتم أحق أن تختاروا لأنفسكم، إن أتاكم آتٍ منا فانظروا على أي شيء

(١) نهج البلاغة، قسم الرسائل، العدد: ٤٥.

(٢) المصدر السابق، نفس الموضع.

تخرجون) (فنحن نشهدكم أنا لسنا نرضى به وهو يعصينا اليوم وليس معه أحد، وهو إذا كانت الرايات والألوية أجدر أن لا يسمع منا)^(١).

الجسد من مصاديق الأمانة:

ومن مصاديق الأمانة: جسدك الذي ائتمنك الله تبارك وتعالى وصنعه لك بأحسن تقويم لتتخذ به وسيلة للكمال والوصول إلى الغاية وأمرك بالاعتناء به وحفظه وتوظيفه لهذا الهدف السامي وهو طاعة الله تبارك وتعالى وعبادته فهو وسيلة وليس غاية، ومما ورد في مناجاة الخائفين للإمام السجاد (عليه السلام): (إلهي هل تسودّ وجوهاً خربت ساجدة لعظمتك، أو تُخرسُ ألسنةً نطقت بالثناء على مجدك وجلالتك، أو تطبع على قلوب انطوت على محبتك، أو تُصمُّ أسماعاً تلذذت بسماع ذكرك في إرادتك، أو تغلّ أكفاً رفعتها الآمال إليك رجاء رأفتك، أو تعاقب أبداناً عملت بطاعتك حتى نحت في مجاهدتك، أو تعذب أرجلاً سعت في عبادتك).

فمن الخيانة توظيف الجسد في الحرام كاللواتي يتاجرن به أو الذين يستخدمون بعض جوارحهم في الحرام ومن الخيانة إيلاء الجسد وإيذاؤه ولو بمثل التدخين الضار فضلاً عن المحرمات كشرب الخمر والزنا أو إيذاؤه تحت عناوين مبتدعة كبعض ما يأمر به أدياء السلوك إلى الله تعالى والمعرفة ولو كان في ما يفعلونه خيراً لما توقف الأئمة المعصومون (عليهم السلام) عن بيانه وهم كجدهم (صلى الله عليه وآله) ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (التوبة: ١٢١)، فلا يحسبون عنهم ما ينفعهم،

(١) وسائل الشيعة: كتاب الجهاد، أبواب جهاد العدو، باب ١٣، ح ١.

ومن الإيذاء ما يفعله البعض باسم شعائر الحسين (عليه السلام) والتفجع لمصابه وهي براء منه ﴿قُلْ اللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ (يونس: ٩٩).

ومن الخيانة إغراق الجسد في الراحة والترف والاعتناء بمتع الجسد وكمالياته بعيداً عن الهدف، لأنه وسيلة وليس غاية، فلا يعقل إمضاء الوقت المقرر للسفر بالاعتناء بواسطة النقل وترتيبها وتجميلها حتى ينتهي الوقت المقرر لبلوغ الغاية. وهكذا عمر الإنسان المخصص للسفر إلى الملكوت فلا يقضيه في إمتاع الجسد وراحته، حكى عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قوله (أريحوا أجسادكم بالتعب ولا تتعبوها بالراحة)، وكان (عليه السلام) لا يعطي لجسده إلا ما يقويه على طاعة الله تبارك وتعالى لذلك كان جسده قوياً متيناً قادراً على الانسجام مع ما يقتضيه مقام أمير المؤمنين (عليه السلام) من الفناء في طاعة الله تبارك وتعالى والجهد في سبيله حتى قال بعض المتخصصين عندما اطلع على نظام حياة أمير المؤمنين (عليه السلام) وغذائه: ((لولا ضربة ابن ملجم لكان من الممكن أن يعيش علي (عليه السلام) إلى آخر الدهر)) ويجب (عليه السلام) على من يستشكل عليه ويرى أن قوة الجسد في الترف والتنعم، قال (عليه السلام): (وكانني بقائلكم يقول: إذا كان هذا قوت ابن أبي طالب فقد قعد به الضعف عن قتال الأقران ومنازلة الشجعان، ألا وإن الشجرة البرية أصلب عوداً والروائع الخضرة أرق جلوداً والنباتات البدوية أقوى وقوداً وأبطأ خموداً)^(١)، ويقول (عليه السلام): (فما خلقتُ ليشغلني أكل الطيبات كالبهيمة المربوطة همها علفها، أو المرسل شغلها تقمّمها تكثرش من أعلافها وتلهو عما يُراد بها، أو أترك سدى،

(١) نهج البلاغة قسم الرسائل، العدد: ٤٥.

أو أهملَ عابثاً، أو أجُرَّ حبل الضلالة أو أعتسف طريق المتاهة^(١).

أداء الأمانة:

وإذا انتقلنا إلى أداء الأمانة للآخرين؛ فمن مصاديقها الزوجة فإنها أمانة عند زوجها كما ورد في الدعاء المأثور عند إدخال الزوجة على زوجها: (اللهم على كتابك تزوجتها، وفي أمانتك أخذتها، وبكلماتك استحلتت فرجها) إلخ، ولم تأت إلى بيت الزوج إلا بعقد وصفه الله تبارك وتعالى بأنه ميثاق غليظ قال تعالى: ﴿وَأَخَذْنَا مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ (النساء: ٦٢) وهو وصف ميثاقه تبارك وتعالى مع الأنبياء والرسل ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ (الأحزاب: ٧) وواجبه تجاه هذه الأمانة إكرامها ومعاشرتها بالمعروف ففي الحديث: (خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهله)^(٢) (ما أكرمهنَّ إلا كريم وما أهانهنَّ إلا لئيم) فمن ظلم زوجته وقصّر في إكرامها فقد خان الأمانة.

وعمالك أمانة عندك تنفق عليهم وتهذبهم وتحسن تربيتهم وتوجيههم إلى الأخلاق الفاضلة وفعل الخير.

والزوج أمانة عند زوجته تحفظه في ماله ونفسها وتطيعه إذا أمرها. والعلم أمانة تعمل به وتبذله لمن يستحقه فإن بذل العلم لأهله صدقة وفي قصص بني إسرائيل أن جليساً لموسى (عليه السلام) وعى علماً كثيراً عذّبه الله تبارك

(١) نهج البلاغة، قسم الرسائل، نفس الموضوع.

(٢) وسائل الشيعة - الحر العاملي: ٢٠ / ١٧١.

وتعالى بمسحه قرداً في عنقه سلسلة فسأل موسى (ﷺ) ربه عنه فأوحى إليه: (إني كنت حملته علماً فضيحه وركن إلى غيره).

أمانة الموقع السياسي والاجتماعي:

والموقع السياسي والإداري والاجتماعي والعشائري هو أمانة يُسأل الإنسان عن أدائها والقيام بحقوقها وليس غنيمة يستأكل بها، وإن الله تبارك وتعالى مسائله عن حسن سيرته مع من ولاه عليهم، وهذا المعنى ركز عليه أمير المؤمنين (ﷺ) لرسوخ معنى الغنيمة و (تقاسم الكعكة) - بمصطلح الحكام والسلطات - ففي كتابه إلى عامله على آذربيجان أشعث بن قيس يقول (ﷺ): (وإن عملك ليس لك بطعمة ولكنه في عنقك أمانة، وأنت مسترعى لمن فوقك. ليس لك أن تفتات في رعية، ولا تخاطر إلا بوثيقة، وفي يدك مال من مال الله عز وجل، وأنت من خزانة حتى تسلمه إليّ، ولعلي ألا أكون شرّ ولا تك لك، والسلام)^(١).

ويعلم (ﷺ) مالك الأشر أوصاف الذين يختارهم للولاية والإدارة والحكم: (ثم انظر في أمور عمالك فاستعملهم اختباراً، ولا تولّهم محاباةً وأثرة، فإنهم جماع من شعب الجور والخيانة، وتوخ منهم أهل التجربة والحياء)^(٢).

وكان يحاسب عماله أشد المحاسبة إذا علم منهم تقصيراً أو خيانة، ولم ينقل التاريخ خيانة بعض عمال أمير المؤمنين (ﷺ) إلا من خلال كشفه (ﷺ) لهم، في حين أن الحكام الآخرين كانوا فاسدين لكنهم لم يحاسبهم من هو فوقهم، فقد كتب إلى زياد بن أبيه وهو خليفة عامله على البصرة وتوابعها

(١) نهج البلاغة: قسم الرسائل، العدد: ٥.

(٢) قسم الرسائل، العدد: ٥٣.

كالأهواز وفارس وكرمان عبد الله بن عباس: (وإني أقسم بالله قسماً صادقاً، لئن بلغني أنك خنت من فيء المسلمين شيئاً صغيراً أو كبيراً لأشدنَّ عليك شدةً تدعك قليل الوفرة ثقيل الظهر ضئيل الأمر، والسلام)^(١).

وكتب (عليه السلام) إلى المنذر بن الجارود العبدي، وقد خان في بعض ما ولاه من أعماله: (أما بعد، فإن صلاح أهلك غرني منك، وظننت أنك تتبع هديته وتسلك سبيله، فإذا أنت - فيما رُقِّيَ إليَّ عنك - لا تدعُ لهواك انقياداً ولا تُبقي لآخرتك عتاداً، تعمّر دنياك بخراب آخرتك، وتصل عشيرتك بقطيعة دينك، ولئن كان ما بلغني عنك حقاً، لَجَمَلُ أهلك وشسع نعلك خير منك، ومن كان بصفتك فليس بأهل أن يُسدَّ به ثغر أو يُنفذَ به أمر، أو يُعلَى له قدر أو يُشركَ في أمانة، أو يؤمن على جباية، فأقبل إليَّ حين يصل إليك كتابي هذا، والسلام)^(٢).

معيار المؤمن:

أيها الأحبة: هذا بعض ما يمكن أن نفهمه من معنى الأمانة التي أمرنا بأدائها، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ (النساء: ٥٨) والتي ورد في فضلها وأهميتها الكثير كقول الصادق (عليه السلام): (لا تغتروا بكثرة صلاتهم ولا بصيامهم فإن الرجل ربما لهج بالصلاة والصوم حتى لو تركه استوحش، ولكن اختبروهم عند صدق الحديث وأداء الأمانة)^(٣).

(١) المصدر السابق، العدد: ٢٠.

(٢) المصدر السابق، العدد: ٧١.

(٣) وسائل الشيعة: كتاب الوديعة، باب ١، ح ٢.

الخيانة قبالة الأمانة:

وبإزاء هذا المعنى الواسع للأمانة وأدائها يكون معنى الخيانة واسعاً فهي تشمل كل تفريط أو تقصير في أداء حق واجب على الإنسان، وهو ظاهر قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (الأنفال: ٢٧) فعن الإمام الباقر (عليه السلام) في تفسير الآية: (فخيانة الله والرسول معصيتهما، وأما خيانة الأمانة فكل إنسان مأمون على ما افترض الله عز وجل)^(١).

وقد وردت في الروايات أمثلة لخيانة الأمانة تتجاوز المعنى المتعارف كقول الصادق (عليه السلام): (أَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِنَا اسْتَعَانَ بِهِ رَجُلٌ مِنْ إِخْوَانِهِ فِي حَاجَةٍ فَلَمْ يَبَالِغْ بِكُلِّ جَهْدِهِ فَقَدْ خَانَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ)^(٢) وعن أمير المؤمنين (عليه السلام): (الخائن من شغل نفسه بغير نفسه وكان يومه شراً من أمسه)^(٣). وأعظم الخيانة خيانة الأمة في أي موقع ديني أو اجتماعي أو سياسي أو مالي أو إداري.

ومما كتب أمير المؤمنين (عليه السلام) إلى بعض عماله بعد أن بيّن له ما يجب فعله قال (عليه السلام): (وإلا تفعل فإنك من أكثر الناس خصوماً يوم القيامة، وبؤساً لمن خصمه عند الله: الفقراء والمساكين والسائلون والمدفوعون والغارمون وابن السبيل).

(١) تفسير القمي: ١/٢٧٢.

(٢) بحار الأنوار: ١٧٧/٧٢.

(٣) غرر الحكم للآمدي: ح ٢٠١٣.

ومن استهان بالأمانة، ورتع في الخيانة ولم ينزه نفسه ودينه عنها؛ فقد أحل
بنفسه الذل والخزي في الدنيا وهو في الآخرة أذلّ وأخزى، وإن أعظم الخيانة
خيانة الأمة، وأفطع الغش غش الأئمة، والسلام^(١).

(١) نهج البلاغة، قسم الرسائل، العدد: ٢٦.

القبس/٢٥

سورة النساء: ﴿٥٥﴾

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي
أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾

موضوع القبس: الإيمان لا يتحقق إلا بتحكيم شريعة الله تعالى

الفرق بين الحقيقة والدعوى:

إن الحقيقة تحتاج إلى دليل يبرزها ويؤكدها ويثبت وجودها، ومن دونه تكون الأشياء مجرد دعاوى، ويؤكد هذا الأمر الإمام الكاظم (عليه السلام) في وصيته لهشام بن الحكم، قال (سلام الله عليه): (يا هشام لكل شيء دليل ودليل العاقل التفكير ودليل التفكير الصمت)^(١) فلا بد أن لا نسلم بالأمور والدعاوى حتى نتحقق من الدليل، ولا نسترخي للأوصاف التي ندعيها لأنفسنا ونثبتها في هويتنا كالإسلام والتشيع وولاية أهل البيت (عليهم السلام) من دون أن نراقب أنفسنا ونتفقدتها باستمرار ونمتحنها لتلمس الدليل على صدق هذه الدعاوى.

هذه المقدمة تلقي الضوء على واقع مؤسف نعيشه نحن المسلمين وهو أننا ندعي عناوين كثيرة من دون تقديم الدليل على وجود حقائقها بل قد نقوم بالعكس من ذلك، فتخالف أقوالنا أفعالنا، لذا يعلمنا الإمام الحسين (عليه السلام) في الدعاء المروي عنه الاعتراف بهذا التقصير أمام الله تبارك وتعالى: (ومن كانت

(١) تحف العقول: ٢٤٦.

حقائقه دعاوى فكيف لا تكون دعاواه دعاوى^(١).

حقيقة الإيمان بالله تعالى:

وأهم تلك العناوين التي يجب أن نتأكد من وجود حقيقتها هو الإيمان بالله تبارك وتعالى لأنه أصل الدين وأساس الفوز والسعادة في الدنيا والآخرة، وتأكيداً لهذه الأهمية فقد كان النبي (ﷺ) والأئمة المعصومون (عليهم السلام) يلفتون نظر الناس إلى تفقد هذه الحقيقة فيسألون من يقولون: (نحن مؤمنون) ويقولون لهم: (فما حقيقة إيمانكم) أو يبدؤونهم بالبيان كقول الإمام الباقر (عليه السلام): (لا يبلغ أحدكم حقيقة الإيمان حتى يكون فيه ثلاث خصال.. إلى آخر الحديث)^(٢).

أهم مظهر للتوحيد هو إقامة الأحكام الإلهية:

وقد بينت الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة ما تكتمل به حقيقة الإيمان، قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ (النساء: ٦٥)، فيقسم الله تبارك وتعالى على هذه الحقيقة ﴿فَلَا وَرَبِّكَ﴾ ويحصر الإيمان بها ﴿لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ﴾ ويعطينا قاعدة مهمة من قواعد العقيدة في الإسلام، وهي أن أهم مظهر للتوحيد والإيمان بالله هو إقامة حكم الله تبارك وتعالى في الأرض، وتطبيق شريعته في شؤون الحياة والرجوع إليه في الحكم والالتزام بمنهجه في الحياة، وإن هاتين القضيتين متلازمتان، وإن جوهر الصراع بين الإيمان والكفر هو في من له

(١) مفاتيح الجنان، ٣١٥.

(٢) معاني الأخبار - الشيخ الصدوق: ١٨٩/ح ١.

حق الحاكمية والتشريع ورسم المنهج الذي تسير عليه البشرية، هل هو الله تعالى خالق الكون والعالم بما يصلحه ويسعده، أم الإنسان بقصوره وفقره وعجزه ومصالحه المتصارعة وأهوائه المتقلبة ﴿وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ (المؤمنون: ٧)؟

الإيمان يكتمل بثلاثة عناصر:

لذا فإن الآية الكريمة تؤكد على أن الإيمان الحقيقي يكتمل بثلاثة عناصر:

١- الرجوع إلى شريعة الله تعالى التي بلغها رسول الله (ﷺ) والأئمة المعصومون (عليهم السلام) ومن بعدهم العلماء العاملون المخلصون ﴿حَتَّى يُحْكُمُواكُ﴾ أي يرجعون إليك في كل أمورهم ويأخذون الحكم منك ولا يحكمون غيرك وغير من نصبتهم من الحجج، وإن كل قانون يضعه البشر لم يؤخذ من الشريعة فإنه باطل وينافي أصل الإيمان بالله تعالى ولا يجوز لأحد أن يشرع ويقنن خارج النصوص الشرعية.

٢- أن يسلّموا بتلك الأحكام ويدعنوا إليها ويؤمنوا بها سواء أدركوا المصلحة فيها وعرفوا أسرار تشريعها أو لم يدركوا ذاك، وأن لا يشعروا بالحرَج والضيق إذا عاب أحد عليهم هذه الأحكام أو انتقصها أو زعم أنها تخالف حقوق الإنسان وتنافي الحرية والعدالة والمساواة، أو أنها رجعية وتخلف ولا تواكب الزمان الحاضر، ونحو ذلك من التهم والاستفزازات.

٣- أن يلتزموا بتلك الأحكام ويطبقوها في حياتهم من دون تبعض وانتقائية للأحكام التي توافق رغباتهم وأهوائهم ومصالحهم، ويعرضون عنها إذا

كانت لا تحقق مصالحهم الضيقة وتصطدم مع أهوائهم وشهواتهم، وإن صدق الإيمان يظهر عندما يكون الحكم على خلاف الهوى والمصلحة ومع ذلك يسلم له ويطبقه ولا يجد في نفسه حرجاً منه.

روى الشيخ الكليني في الكافي بسند صحيح عن عبد الله بن يحيى الكاهلي قال: قال أبو عبد الله الصادق (عليه السلام): (لو أن قوماً عبدوا الله وحده لا شريك له، وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وحجوا، وصاموا شهر رمضان، ثم قالوا لشيء صنعه الله أو صنعه رسول الله (صلى الله عليه وآله): ألا صنع خلاف الذي صنع؟ أو وجدوا ذلك في قلوبهم لكانوا بذلك مشركين، ثم تلا هذه الآية: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ...﴾ ثم قال أبو عبد الله (عليه السلام): عليكم بالتسليم^(١).

ولقد أكد القرآن الكريم هذه الحقيقة في آيات كثيرة، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ (الأحزاب: ٣٦) وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ (الأنعام: ١٥٣)، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ (آل عمران: ١٩)، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (آل عمران: ٨٥) وغيرها.

اهتمام الشريعة بتنظيم الأحوال الشخصية:

والروايات الشريفة حافلة أيضاً بهذه المعاني، وقد حظيت أحكام ما يعرف اليوم بالأحوال الشخصية باهتمام كبير من الأئمة (عليهم السلام) ولم يعذروا من يطبق

القوانين الوضعية ولا يرجع إلى الأحكام الشرعية لأنها تنظم أموراً أساسية في حياة الأفراد كالزواج والطلاق والميراث وأي خلل فيها يعني وقوع الناس في المحرمات في ذرياتهم وأموالهم، ولا مجال فيها للاعتذار بالتقية ونحوها لأنها قضايا شخصية لا تتعارض مع السلطات، وتحركوا بالوسائل المتاحة لهم (عليه السلام) ليقنعوا الأمة بها^(١).

الانطلاقة من فروع الدين إلى إقامة أصول الدين:

إن السيدة فاطمة الزهراء (سلام الله عليها) حينما قامت بأمر الله تعالى في وجه الانحراف والظلم وطالبت بحقها في فدك وحاجتهم بآيات الميراث إنما أرادت أن تنطلق من هذا الحكم المتعلق بالأحوال الشخصية إلى مطلب أوسع وأعظم وهو إقامة شريعة الله تعالى في الأرض وعلى رأسها اتباع الإمام الحق والقيادة الصالحة المصلحة، والقوم قد فهموها هكذا؛ لذا أرادوا قطع الطريق من أوله على مشروع السيدة الزهراء (يقول ابن أبي الحديد المعتزلي في أمر فدك: وسألت علي بن الفارقي مدرس المدرسة الغربية ببغداد - وهو من علماء العامة - فقلت له: أكانت فاطمة (عليها السلام) صادقة؟ قال نعم. قلت: فلم لم يدفع إليها أبو بكر

(١) ويصل الاهتمام إلى درجة أن الإمام يسعى لإقامتها ولو بالقوة، في رواية صحيحة في الكافي عن الإمام الصادق (عليه السلام): (لا يستقيم الناس على الفرائض - أي الميراث - والطلاق إلا بالسيف) ومثلها عن الإمام الباقر (عليه السلام). وفي رواية أخرى عن أحدهم قال: (سألت أبا... عبد الله الصادق (عليه السلام) عن النساء هل يرثن من الرابع - أي الأراضي -؟ فقال: لا، ولكن يرثن قيمة البناء، قال: قلت: فإن الناس لا يرضون بذا؟ فقال: إذا وُلينا فلم يرضَ الناس بذلك ضربناهم بالسوط فإن لم يستقيموا ضربناهم بالسيف) (الروايات في الكافي: ج ٧، كتاب الميراث، باب ٤٤).

فدك وهي عنده صادقة؟ فتبسّم ثم قال: لو أعطاهما اليوم فدك بمجرد دعواها لجاءت إليه غداً وأدعت لزوجها الخلافة، وزحزحته عن مقامه، ولم يكن يمكنه الاعتذار والموافقة بشيء؛ لأنه يكون قد أسجل على نفسه أنها صادقة في ما تدعي كائناً ما كان من غير حاجة إلى بينة ولا شهود. قال ابن أبي الحديد: وهذا كلام صحيح^(١).

الخشية من انطلاقة القانون الجعفري:

وهذا ما يقوم به الأعداء على طول التاريخ منذ أن صدع النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) بالدعوة الإسلامية المباركة فيعملون على إجهاض كل حركة لايقاظ الناس وتفعيل دور الدين في حياة الأمة ويسعون لإبقاء الأغلال التي تكبل الأمة ويحيطون الحركة بالتشويه والتسقيط والشبهات كما حصل في مواجهة القانون الجعفري لتبقى الغشاوة على عيون الناس وإلحاق الهزيمة بالإسلام، وهذا يفسّر اجتماع كل القوى في الداخل والخارج لمعارضة القانون وهو ما يزال مسودة لم يعرض للنقاش أصلاً؛ لأنهم يخشون من آثاره المباركة اللاحقة على الأمة.

لا حكم غير الإسلام إلا الجاهلية:

لقد كانت الصديقة الطاهرة (عَلَيْهَا السَّلَام) حازمة وصريحة في وعظهم وتحذيرهم بأنهم يعودون إلى جاهليتهم الأولى إذا خالفوا حكم الله تعالى، قالت (عَلَيْهَا السَّلَام) في خطبتها: (وأنتم الآن تزعمون أن لا إرث لنا، أفحكم الجاهلية تبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون؟ أفلا تعلمون؟ بلى قد تجلى لكم كالشمس الضاحية

(١) شرح نهج البلاغة: ٢٨٤/١٦.

أني ابنته^(١).

فتذكرهم (ﷺ) بقوله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (المائدة: ٥٠) ويفسرها الإمام الباقر (ﷺ) بقوله: (الحكم حكمان حكم الله وحكم الجاهلية وقد قال الله عز وجل: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ واشهدوا على زيد بن ثابت لقد حكم في الفرائض - أي المواريث - بحكم الجاهلية^(٢)، والكلام شامل لغير زيد ممن خالفوا حكم الله تعالى.

الأحكام الإلهية لا تقبل المساومة:

أيها الأحبة: إن تطبيق الأحكام الشرعية وتنظيم شؤون الحياة على أساسها قضية حدية فاصلة لا تقبل المساومة والمداهنة والتبعض أو التأجيل بحجة أن الوقت غير مناسب أو أي عذر آخر، فلا تسويف لأمر الله تعالى فإما أن يُطبَّق حكم الله تعالى وإما أن يكون الحكم حكم أهل الجاهلية، روي عن الإمام الصادق (ﷺ) قوله: (الحكم حكمان: حكم الله وحكم الجاهلية فمن أخطأ حكم الله حكم بحكم الجاهلية)^(٣).

الإسلام يقود الحياة: شعار المرجعية الرسالية:

إن فهم هذا الصراع والنهوض بمسؤولية الدفاع عن الإسلام وإقناع البشرية به

(١) الاحتجاج: ١/١٣١.

(٢) الكافي: ٤٠٧/٧.

(٣) التهذيب: ٢١٨/٦، ح ٥، باب من إليه الحكم وأقسام القضاة والمفتين.

وبقدرته على قيادة الحياة - كما عبّر السيد الشهيد الصدر الأول (قُلَيْبٌ) حينما
 عنون أحد كتبه بذلك - هو سر انقسام المرجعية الدينية والحوزة العلمية إلى
 خطين وقيادتين متباينتين في المنهج والسلوك، أولهما عالم فاعل عامل لا يكتفي
 بتنميق الكلمات على الأوراق فقط بل يتحرك ويواصل الليل بالنهار ليعيد للإسلام
 هيئته وعزته وللمسلمين كرامتهم وحريتهم وثقتهم بأنفسهم ويدلّهم على معالم
 هويتهم المسلوبة من خلال ما يقدم من نظريات وتشريعات ومنظومات فكرية
 ومعرفية تثبت أن دين الإسلام هو أصلح نظام للبشرية اليوم وغداً كما كان
 بالأمس، فألف الشهيد الصدر الأول (قُلَيْبٌ) اقتصادنا وفلسفتنا ومجتمعنا والأسس
 المنطقية للاستقراء والبنك اللاربوي وغيرها، مما أبهر عقول خصومه وأصدقائه
 على حد سواء؛ لذا لا نستغرب قيام الحكومة الروسية رمز النظام السياسي
 والاقتصادي الذي استهدفه في كتبه بنصب تمثال^(١) للسيد الشهيد الصدر الأول
 العالم العربي المسلم الوحيد الذي يكرّم بهذا الشكل في قلب عاصمة الاتحاد
 السوفيتي سابقاً وفي أهم صروحها العلمية في موسكو باعتباره صاحب إنجازات
 إنسانية عظيمة، بينما تُعرض الحوزة النجفية عنه وعن آثاره والاحتفال به - ونحن
 نعيش ذكرى استشهاده الرابعة والثلاثين - وكأنه ليس مفخرتها وجوهرتها ووجهها
 الناصع.

(١) وُضع التمثال النصفى في جامعة موسكو الحكومية للعلاقات الدولية التابعة لوزارة الخارجية
 الروسية ورفع الستار عنه يوم الجمعة ٢٨/٢/٢٠١٤ في احتفال حضره مثقفون وأكاديميون وسياسيون
 روس، ورؤساء عدد من البعثات الدبلوماسية.

من معاني نصره السيدة الزهراء (عليها السلام):

إن من أهم أشكال النصرة للسيدة الزهراء (عليها السلام) وللمعصومين جميعاً لنكون صادقين في قولنا لهم عند زيارتهم (عليهم السلام): (ونصرتي لكم معدة) هو السعي الدؤوب لهداية الناس وإرشادهم، والضغط المستمر لإقرار القوانين التي تنظم حياتهم وفق الشريعة الإلهية خصوصاً في الأحوال الشخصية كالزواج والطلاق والميراث والوصية والوقف لأنها لا تتنافى مع حق أحد ولا تسلب حرية أحد ولا تكره أحداً على خلاف ما يعتقد.

إن الله تبارك وتعالى حذرنا بشدة من العمل بالقوانين الوضعية التي تتنافى وأحكام الدين، قال تعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (المائدة: ٤٤-٤٥-٤٦).

ويؤكد الله تعالى على نبيه أن لا يتأثر بالمغريات والتهديدات والتسقيط الإعلامي ونحو ذلك من الضغوط لترك القوانين الإلهية، قال تعالى: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ (المائدة: ٥١) ثم يبين الله تعالى أن أحسن الأحكام وأصلحها للبشر وأكثرها ملاءمة لطبيعة تكوينه الفردي والاجتماعي هي أحكام الله، قال تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (المائدة: ٥٠).

فلنراجع واقعنا ولننظر هل مناهج التعليم المتبعة موافقة للشريعة؟ وهل العلاقات الاجتماعية القائمة بيننا منضبطة بتعاليم الإسلام؟ وهل السنائن العشائرية التي يحكمون بها مأخوذة من الشريعة؟ وهل وهل.. مما يطول ذكره.

حرائر العراق ينتصرون للإسلام:

لقد سجّلت المؤنات الرساليات من حرائر العراق المتأسيات بالسيدة الزهراء (عليها السلام) والعقيلة زينب (عليها السلام) موقفاً مشهوداً في نصره دين الله تعالى حين عقدن تجمعات حاشدة بالآلاف في مختلف المدن العراقية وبحضورهن وحضوركم في هذا المحفل الكريم للمطالبة بتصحيح مواد قانون الأحوال الشخصية وفق الأحكام الشرعية، ووجهن صفة شديدة لمن يريد إبقاء المجتمع العراقي المسلم المؤمن يعمل على وفق قوانين الجاهلية.

وأعادت هؤلاء النسوة للمرأة عموماً الثقة بنفسها وبقدرتها على إحداث التغيير والإصلاح وانتزاع الحقوق، تلك القدرة التي سُلبت منها عبر الأجيال نتيجة لعوامل عديدة، وساعدت نفس المرأة على استلابها باستكانتها واستسلامها وخضوعها للأعراف والتقاليد والثقافات التي لا تمت إلى الإسلام بصلة، وتناست المرأة أن من أهم ثمرات ونتائج القيام الفاطمي والزينبي هو إعادة الثقة للمرأة بنفسها وأنها قادرة على انتزاع الحقوق وإيقاظ الأمة وإعادة الأمور إلى نصابها، فقامت هذه النسوة بتذكير الأمة بهذه الثمرة المباركة للقيام الفاطمي والزينبي العظيم.

وها هي الانتخابات البرلمانية مقبلة بإذن الله تعالى، وتشكل النساء نصف عدد الناخبين تقريباً فهن إذن الرقم الصعب القادر على قلب الطاولة على رؤوس كل

دهاقنة السياسة وتجار الحروب وأصحاب الأجندات الظالمة الفاسدة من الداخل والخارج.

من بركات الانتصار للإحكام الإلهية:

لقد كان من بركات هذه اليقظة وهذا الحراك الفكري والاجتماعي وإثارة مكان القوة والإنسانية في الشريعة الإسلامية التفات المسلمين إلى المطالبة بحقوقهم في تشريع القوانين الخاصة بهم وجاءت ثمرتها في بريطانيا قبل أيام حيث اعتمدت لأول مرة في محاكمها الشريعة الإسلامية في الإرث والوصية لتنظيم شؤون المسلمين فيها؛ وقد وجدت الحكومة البريطانية في إعطاء هذا الحق للمسلمين خطوة تساعد على شعور المسلمين بالمواطنة وعدم الإقصاء والتهميش، فأتاح الله تبارك وتعالى هذا القرار في عنفوان الجدل حول القانون الجعفري ليكون حجة دامغة على المهزومين والمنبهرين بالغرب وسائر المعترضين على إقرار القانون الجعفري.

أليس من الغريب أن يكون الإسلام بهذه الدرجة من التأثير في بلاد غير المسلمين بينما يستضعفه أبناؤه في بلادهم ويشعرون بالهزيمة الداخلية ويخجلون من إعلان هويتهم والتحرك بمشروعهم!

فأحيوا أيها الأحبة - خصوصاً الشباب والمثقفين وطلبة الجامعات - في نفوسكم الشعور بالفخر والاعتزاز ورفع الرأس وأنتم تنتمون إلى هذا الدين العظيم، وأحسوا بقيمة كلمة أمير المؤمنين (عليه السلام): (إلهي كفى بي عزاً أن أكون لك عبداً، وكفى بي فخراً أن تكون لي رباً، إلهي أنت كما أحب فاجعلني كما تحب).

أيها الإخوة والأخوات المجتمعون على ولاية أهل البيت (عليهم السلام):
 اعلموا أنكم بنصرتكم للسيدة الزهراء (عليها السلام) والقانون الجعفري ساهتمتم في
 رفع جزء^(١) من البلاء والته الذي كان ستقع فيه الأمة لو أجمعت على خذلان دين
 الله تعالى، قال الله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهِلِكَ الْفَرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا
 مُصْلِحُونَ﴾ (هود: ١١٧) وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ
 لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (البقرة: ٢٥١) وقال تعالى:
 ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ
 عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ (يونس: ٩٨).
 نسأل الله تعالى أن يمد المؤمنين والمؤمنات بنصره ويزيد في توفيقهم
 ويكفل جهودهم بالنجاح ببركة إحيائكم لهذه الشعيرة المقدسة والله ولي التوفيق.

(١) كان هذا في الخطاب السنوي في ذكرى شهادة الصديقة فاطمة الزهراء (عليها السلام) يوم ٣/جمادي
 الثانية/١٤٣٥هـ الموافق ٢٠١٤/٤/٣م في ساحة ثورة العشرين في النجف الاشرف وبعد شهرين أي في
 ٦/١٠ اكتسح اراهابو (داعش) ومن والاهم عدة محافظات عراقية ووصلوا على مشارف سامراء
 وكربلاء وبغداد وسقطت ثلث مساحة العراق بأيديهم قبل ان يتداعى المجاهدون المضحون
 لدمهم.

القبس/٣٦

سورة النساء: ﴿٦٩﴾

﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾

موضوع القبس: الدعاء بالمعية الإلهية

في مناسبات المعصومين (سلام الله عليهم) ومجالسهم وعند زيارتهم تتابنا عدة مشاعر منها الشوق إلى رؤيتهم ومصاحبتهم ومرافقتهم، ونكرر الطلب يومياً في صلواتنا ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ (الفاتحة: ٦-٧) وعلى رأسهم النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) والأئمة المعصومون (عَلَيْهِمُ السَّلَام) ونعبر عن ذلك بما ورد في الزيارة ونكررها (يا ليتنا كنا معكم فنفوز فوزاً عظيماً)، والمشهور في فهم العبارة تمنى الكون معهم في زمانهم - كيوم الإمام الحسين (عَلَيْهِ السَّلَام) في كربلاء - ومشاركتهم مواقفهم ونصرتهم حتى نفوز ونسعد بذلك باعتبار أن (كان) فعل ماضي ناقص كما هو معلوم.

ولكن للعبارة فهم آخر بأن تكون (كان) تامة أو الشأنية التي لا تفيد الاختصار على الزمن الماضي بل تشمل الحاضر والمستقبل مثل ما ورد في ذكر الأسماء الحسنى ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾ (النساء: ١٥٨) و﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً بَصِيراً﴾ (النساء: ١٣٤) أي أن الله تعالى متصف بهذه الصفات في كل الأحوال، فحينما ندعو الله تعالى (يا ليتنا كنا معكم) أي نكون معكم دائماً.

مصاحبة المعصومين (عليه السلام) في كل النشاط:

وهذا الطلب لا يختص بنا نحن الذين حُرِّمنا من لقاء المعصومين (سلام الله عليهم) بل يشاركنا فيه حتى الذين فازوا وسعدوا بمرافقة النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وآله المعصومين ومصاحبته في زمانهم فيتمنون أن تستمر عليهم هذه النعمة في الآخرة ولا يفترون عنهم (صلوات الله عليهم أجمعين) بسبب تباين الدرجات، وقد وردت روايات كثيرة في ذلك مذكورة في سبب نزول قوله تعالى ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ ٥٠. ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عِلِيمًا (النساء: ٦٩-٧٠) فقد روى الفريقان ^(١) جاء رجل إلى النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فقال: (يا رسول الله إِنَّكَ لَأَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي وَإِنَّكَ لَأَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ مَنْ وَلَدِي وَإِنِّي لَأَكُونُ فِي الْبَيْتِ فَأَذْكُرُكَ فَمَا أَصِيرُ حَتَّى آتِي فَأَنْظُرُ إِلَيْكَ، وَإِذَا ذَكَرْتُ مَوْتِي وَمَوْتَكَ عَرَفْتُ أَنَّكَ إِذَا دَخَلْتَ الْجَنَّةَ رُفِعْتَ مَعَ النَّبِيِّينَ، وَإِنِّي إِذَا دَخَلْتُ الْجَنَّةَ خَشِيتُ أَنْ لَا أَرَكَ؟ فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِ النَّبِيُّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) حَتَّى نَزَلَ جِبْرِيلُ (عَلَيْهِ السَّلَام) بِهِذِهِ الْآيَةِ).

وفي رواية أن رجلاً أتى النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فقال: يا رسول الله ! إني أحبك حتى إني أذكرك ، فلولا أنني أجيء فأنظر إليك ظننت أن نفسي تخرج ، وأذكر أنني إذا

(١) البرهان في تفسير القرآن: ٩٨/٣، الدر المنثور: ٥٨٨/٢ ومما ننصح بقراءته: الاطلاع على أسباب نزول الآيات الكريمة ففي ذلك فوائد جمة كالاطلاع على الحوادث التاريخية وسيرة النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وكيفية معالجة القرآن الكريم للمشاكل السياسية والاجتماعية والأخلاقية وأخذ الدروس والعبر من ذلك كله.

دخلت الجنة صرت دونك في المنزل ، فيشقّ ذلك علىّ وأحبّ أن أكون معك في الدرجة ، فلم يرد عليه رسول الله (ﷺ) شيئاً فأنزل الله عز وجل ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ فدعاه رسول الله (ﷺ) فتلاها عليه.

وتذكر بعض الروايات أن السائل بكى وفي رواية أنه جاء إلى النبي (ﷺ) محزوناً فسأله النبي (ﷺ): مالي أراك محزوناً، وفي رواية أنه فتى مما يدل على حماسة ووعي وشدة إيمان هذا الشاب.

دروس من الآية الكريمة: فالأية:

١. تطمئن القلوب الوالهة المشتاقة إلى رؤية رسول الله وآله الأطهار (صلوات الله عليهم أجمعين) وتبشرهم بإمكان ذلك إذا تحقق الشرط وهو العمل بطاعة الله تعالى.

٢. تبين أن النعمة في الجنان لا تكتمل إلا بمرافقة هذه الفئات الكريمة فقد ذكرت هذه النعمة أو قل الثمرة لطاعة الله تعالى بعد عدة ثمرات في الآيات السابقة ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا﴾ وإذا لآتَيْنَاهُمْ مِّنْ لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿ وَلَهْدَيْنَاهُم صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ (سورة النساء: ٦٦-٦٨) ثم جاءت الآية محل البحث فالجنة الحقيقية ليست بالحدور العين ولحم الطير والأنهار والقصور وإنما بهذه المرافقة الكريمة.

٣. إنّ هذه الآيات ترتبط ارتباطاً وثيقاً بما ندعو به يومياً في صلواتنا فنقول عشر مرات يومياً على الأقل ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ

أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ (الفاتحة: ٦-٧) فَإِنِهَا تَدُلُّ عَلَى أَنَّ طَاعَةَ اللَّهِ تَعَالَى وَالْأَخْذَ بِمَا يَعْظُكَ بِهِ تَحَقُّقٌ لِّكَ الْهُدَايَةِ إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ (النساء: ٦٨) وَتَبَيَّنَ مِنْ هُمْ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَيْفَ تَحَقُّقُ الْأَمْنِيَّةُ بِمِرَافَقَتِهِمْ وَمَصَاحِبَتِهِمْ.

٤. إِنِهَا تَجِيبُ عَنِ السُّؤَالِ الَّذِي تَوَجَّهَ بِهِ الصَّحَابَةُ فِي الرِّوَايَاتِ الْمَتَّقِمَةِ وَتَحُلُّ هَذِهِ الْمَشْكَلَةَ وَتَدُلُّ عَلَى الْوَسِيلَةِ لِتَحْقِيقِ هَذِهِ الْأَمْنِيَّةِ الْعَظِيمَةِ، وَالْوَسِيلَةُ هِيَ طَاعَةُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَقَدْ دَلَّتْ عَلَى ذَلِكَ الرِّوَايَاتُ الشَّرِيفَةُ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ (ﷺ) قَالَ (إِنَّهُ لَا يَدْرِكُ مَا عِنْدَ اللَّهِ إِلَّا بِطَاعَتِهِ) ^(١) وَعَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) قَالَ (طَاعَةُ اللَّهِ مِفْتَاحُ كُلِّ سَدَادٍ وَصَلَاحُ كُلِّ فُسَادٍ) ^(٢).

فِي مَعْنَى الطَّاعَةِ فِي الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ:

وَالْمَلَاظِحُ فِي الطَّاعَةِ بِحَسَبِ هَذِهِ الْآيَةِ أَمْرَانِ:

أَوَّلُهُمَا: الْاسْتِمْرَارِيَّةُ وَالِدَوَامُ وَالثَّبَاتُ وَعَلَامَتُهُ اسْتِعْمَالُ فِعْلِ الْمُضَارَعِ (وَمَنْ يَطْعُ) وَذَلِكَ بِأَنْ يَتَّخِذَ طَاعَةَ اللَّهِ تَعَالَى وَرَسُولِهِ (ﷺ) مِنْهَجًا فِي حَيَاتِهِ وَدَلِيلًا لِسُلُوكِهِ فَلَا يَقْدَمُ وَلَا يُؤَخَّرُ إِلَّا وَفْقَ مَا يَرْضِي اللَّهُ وَرَسُولُهُ (ﷺ) فَيَكُونُ الطَّابِعُ الْعَامُ لِسُلُوكِهِ وَمَوَاقِفُهُ طَاعَةَ اللَّهِ تَعَالَى، وَلَوْ زَلَّتْ قَدَمُهُ بِسَبَبِ الْغَفْلَةِ أَوْ الْجَهْلِ أَوْ ضَعْفِ النَّفْسِ تَذَكَّرَ الْمَطْلُوبَ مِنْهُ وَعَادَ إِلَى خَطِّ الطَّاعَةِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾

(١) وسائل الشيعة: ١١ / ١٨٤ / ح ٢.

(٢) غرر الحكم: ٦٠١٢.

(الأعراف: ﴿٦٣﴾).

ثانيهما: إطلاق لفظ الطاعة فلا تختص بنماذج محددة منها، وإن ذكرت الروايات بعض هذه الطاعات، عَنْ رَبِيعَةَ بْنِ كَعْبٍ الْأَسْلَمِيِّ، قَالَ: (كُنْتُ أُبَيِّتُ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ)، فَأَتَيْهِ بِوَضُوئِهِ وَحَاجَّتِهِ، فَقَالَ لِي: سَلْ. قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ (أَسْأَلُكَ مِرَافَقَتَكَ فِي الْجَنَّةِ، قَالَ: أَوْ غَيْرُ ذَلِكَ؟ قُلْتُ: هُوَ ذَاكَ، قَالَ: فَأَعْنِي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ) ^(١).

وفي رواية أخرى عن رسول الله ﷺ ذكر الطاعات الواجبة ثم قال (مَا لَمْ يَعْقِ وَالِدِيهِ).

إلا أن ذكر هذه الطاعات المهمة من باب المثال أو بما يناسب السائل وإلا فإن الشرط المذكور في الآية ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ (النور: ﴿٥٢﴾) مطلق، فلا تقتصر طاعة الله تعالى على العبادات المعروفة كالصلاة والصوم والطهارة والخمس ونحو ذلك وإن كانت منها وعلى رأسها، لكن هناك طاعات مهمة وثقيلة الميزان تغفل عنها أو نستثقلها كالإنصاف من نفسك وإن كان على خلاف هواك وكالسعي لقضاء حوائج الناس وإدخال السرور عليهم وأمثال ذلك، عن النبي ﷺ قال (ثلاث لا تطيقها هذه الأمة: المواساة للأخ في ماله، وإنصاف الناس من نفسه وذكر الله على كل حال) ^(٢) فإن بهذه الأمور قوام الدين وصلاح الأمة، عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال (نظام الدين خصلتان: إنصافك من نفسك

(١) تفسير الدر المنثور - السيوطي: ١٨٢/٢.

(٢) بحار الأنوار: ٢٧/٧٥ ح ١١.

ومواساة اخوانك^(١). أو مثل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التي وصفتها الأحاديث الشريفة بأنها سبيل الأنبياء ومنهاج الصلحاء وأسمى الفرائض وأشرفها. أو مثلاً العفاف للرجل والمرأة والتزهر عن الأمور الدنيّة، عن الإمام الباقر (عليه السلام) قال (ما عبد الله بشيء أفضل من عفة بطن وفرج)^(٢) وغيرها من الطاعات العظيمة كالتفقه في الدين ونشره بين الناس ورعاية الأيتام والمعوزين وتزويج المؤمنين ونحو ذلك.

الفئات المترافقة:

وقد بيّنت الآية الشريفة الفئات المترافقة وهم الأنبياء الذين يبلغون رسالات ربهم.

والصديقون الذين آمنوا بربهم وأطاعوه وأطاعوا رسله ظاهراً وباطناً وصدّقت أفعالهم أقوالهم.

والشهداء الذين حملوا الرسالة الإلهية ودعوا الناس إليها وسعوا لتطبيقها في حياة الأمة رغم العنت والمشقة حتى ضحّوا بأرواحهم واستشهدوا في سبيل الله تعالى، وكانوا شهداء على الأمة فأقاموا عليها الحجة البالغة.

والصالحون الذين بذلوا جهدهم في تطبيق التعاليم الإلهية في حياتهم وجعلوا الصلاح منهاجاً لحياتهم.

(١) غرر الحكم: ٩٩٨٣.

(٢) الكافي: ٧٩/٢، ح ١.

اسعوا لتكونوا من الصالحين:

فالإنسان الذي يريد أن يكون مع الأنبياء والأئمة الطاهرين (عليهم السلام) يستطيع ذلك بتوفيق الله وألطافه عندما يكون من الصالحين والعاملين المضحين، روى أبو بصير قال أبو عبد الله الصادق (عليه السلام): (يا أبا محمد لقد ذكركم الله في كتابه فقال ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ (النساء: ٦٩) فرسول الله (صلى الله عليه وآله) في هذا الموضع النبي، ونحن الصديقون والشهداء، وأنتم الصالحون، فتسموا بالصلاح كما سماكم الله^(١).

وذكر هذه المراتب بالتدرج يدل على أن الوصول للمرتبة العليا يتم باستيفاء المرتبة السابقة فإن لم يكن من الصالحين يسعى ليكون منهم وفق ما عرفناه آنفاً، والصالحون يسعون ليكونوا من الشهداء، وهم يطلبون سبيل الصديقين الذين يسيرون على هدى الأنبياء ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ (يوسف: ٧٦).

وينبغي الالتفات إلى أن هذه المعية لا تعني المساواة في الدرجات والمقامات والقرب من الله تعالى والتنعم برضوانه، بل كل حسب استحقاقه ﴿فَسَأَلْتُ أَوْدِيَّةً بِقَدَرِهَا﴾ (الرعد: ٧)، وتؤكد الآية الثانية أن ذلك لا ينال إلا بفضل من الله تعالى وتوفيقه، وهو العالم بحقائق عبادته واستحقاقاتهم، والإشارة إليه بـ (ذلك) للإشعار بأنه ليس سهل المنال، وانه مطلب عظيم يستحق بذل كل الجهد لتحقيقه.

(١) الكافي - الشيخ الكليني: ١٥/١٠٤، ط. دار الحديث.

من آثار الصلاح هو المعية الإلهية:

ونريد الآن أن نتقدم خطوة أخرى ونقول أن الإنسان يمكن أن يحظى بهذه الرؤية المباركة هنا في الدنيا قبل الآخرة بحسب ما يظهر من بعض الروايات، فقد روى الكشي في رجاله بسنده عن اسماعيل بن سلام واسماعيل بن جميل قالا: بعث إلينا علي بن يقطين فقال: اشتريا راحلتين، وتجنبنا الطريق - ودفع إلينا أموالاً وكتباً - حتى توصلنا ما معكما من المال والكتب إلى أبي الحسن موسى (عليه السلام) ولا يعلم بكما أحد، قالا: فأتينا الكوفة فاشترينا راحلتين وتزوّدنا زاداً، وخرجنا نتجنب الطريق، حتى إذا صرنا ببطن الرمة شددنا راحلتنا، ووضعنا لها العلف، وقعدنا نأكل، فبينما نحن كذلك، إذ راكب قد أقبل ومعه شاكري، فلما قرب منا فإذا هو أبو الحسن (عليه السلام)، فقمنا إليه وسلّمنا عليه، ودفعنا إليه الكتب وما كان معنا، فأخرج من كمّه كتباً فناولنا إيّاها، فقال: هذه جوابات كتبكم، فقلنا: إن زادنا قد فني، فلو أذنت لنا فدخلنا المدينة، فزرنّا رسول الله (صلى الله عليه وآله) وتزوّدنا زاداً فقال: هاتا ما معكما من الزاد، فأخرجنا الزاد إليه فقلّبه بيده فقال: هذا يبلغكما إلى الكوفة، وأما رسول الله (صلى الله عليه وآله) فقد رأيتما، إني صليت معهم الفجر، وإنّي أريد أن أصلي معهم الظهر، انصرفا في حفظ الله^(١)، ومحل الشاهد تأكيد (عليه السلام) لهما بأنهما قد رأيا رسول الله (صلى الله عليه وآله) فعلاً وتحقق مرادهما وأمرهما بالرجوع إلى الكوفة.

والشاهد الآخر من حياة الإمام الهادي (عليه السلام)، فقد روى الكليني في الكافي، في بصائر الدرجات بسنده عن صالح بن سعيد قال دخلت على أبي الحسن

(١) معجم رجال الحديث: ٢٤٩/١٣، عن رجال الكشي.

(عليه السلام) فقلت: جعلت فداك، في كل الأمور أرادوا إطفاء نورك والتقصير بك حتى أنزلوك هذا الخان الأشنع خان الصعاليك، فقال (عليه السلام): (ههنا أنت يا ابن سعيد؟ ثم أوماً بيده فقال: انظر، فنظرت فإذا بروضات آنقات، وروضات ناضرات، فيهن خيرات عطرات، وولدان كأنهن اللؤلؤ المكنون، وأطيّار وظباء وأنهار تفور، فحار بصري والتمتع، وحسرت عيني، فقال: حيث كنا فهذا لنا عتيد، ولسنا في خان الصعاليك)^(١).

بل الأمر أقرب من ذلك لأننا نحظى بوجود بقية الله الأعظم الإمام المهدي (عليه السلام) بين ظهرائنا وإن كنا لا نعرفه شخصياً، ونخاطبه في دعاء الندبة (متى ترانا ونراك)، وتحدث الشواهد التاريخية الكثيرة على إمكان ذلك لمن رضي عنه الإمام (عليه السلام) لخير وجده فيه، يُروى أن عابداً كان يتمنى لقاء إمام الزمان (عليه السلام) وبعد فترة من الرياضات الروحية والتعب والمشقة لم يصل إلى شيء واخذ اليأس يدب إلى قلبه، وفي ليلة من الليالي بينما كان قائماً يتعبد إذا بهاتف يناديه: (الوصول إلى المولى يعني شد الرحال إلى ديار الحبيب) فشدَّ الرحال من جديد واخذ يزيد من الصلاة والتعب حتى انتهى الأمر به إلى المكوث في المسجد أربعين يوماً فأتاه نداء آخر يقول: (إن سيدك تجده في سوق الحدادين يجلس في باب رجل عجوز يصنع الأقفال) فذهب مسرعاً فوجد الإمام (عجل الله تعالى فرجه) يشع نورا فارتعدت فرائص العابد إلا أن الإمام (عجل الله تعالى فرجه) طلب منه أن ينظر ما سيحصل، فجاءت عجوز منحنية الظهر بيدها قفل عاطل وقالت للبائع أرجوك اشتر هذا القفل بثلاثة دنائير فقال البائع: إن هذا القفل بثمانية

(١) بحار الأنوار: ٥٠/١٣٣ ح ١٥.

دنانير وإذا أصلحته يصبح بعشرة فتصورت العجوز انه يسخر منها إلا انه بادر بإعطائها سبعة دنانير وقال لها: لاني أبيع واشتري أخذته بسبعة دنانير لأربح ديناراً فذهبت العجوز مسرورة فالتفت الإمام (عجل الله تعالى فرجه) الى العابد وقال: (كونوا هكذا كهذا العجوز كي نأتيكم نحن بأنفسنا لا حاجة الى التعبد أربعين يوماً ولا فائدة من الجفر والحروف فقط اصلحوا أعمالكم)^(١).

درس عملي:

ونريد أن نخلص الآن إلى درس عملي وهو أنك إنما تطلب قرب رسول الله (ﷺ) لأنه سبب مقرب إلى الله تعالى وأنتك تعيش بقربه سمواً روحياً متميزاً وهذا تأثير أكيد كالمغناطيس الذي يؤثر في الحديد ويجذبه من دون أن يلامسه، ولكن الله تعالى بكرمه ورحمته ولطفه بعباده لم يشأ حرمان عباده من هذه المؤثرات المباركة، حيث دلت أن الحالة المعنوية المتألقة التي ترجوها من الكون في حضرة رسول الله (ﷺ) والأئمة المعصومين (سلام الله عليهم أجمعين) يمكن أن تحققها بدرجة ما من خلال توفير بيئة الطاعة وتهيئة أسبابها كالحضور في المساجد والروضات المطهرة واستثمار الأزمنة الشريفة ومجالس ذكر الله تعالى والمعصومين (عليهم السلام) والاستفادة من العلماء الذين يقربونك من الله تعالى، فهذه هي الجنة المعجلة، عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال (الجلسة في الجامع خير لي من الجلسة في الجنة، لأن الجنة فيها رضا نفسي والجامع فيه رضا ربي)^(٢).

(١) ثلاثة يشكون: ٢٤١.

(٢) وسائل الشيعة، كتاب الصلاة، أحكام المساجد، باب ٣/ ح ٦.

القبس/٣٧

سورة النساء: ﴿٧٥﴾

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ﴾

موضوع القبس: وجوب العمل لإنقاذ المجتمع من الظلم والجهل والتخلف والحرمان

قال الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ (النساء: ٧٥).

في الآية استنكار واستهجان لحالة التقاعس والقعود عن أداء المسؤولية لدى البعض، وحث وتحريض واستنهاض المؤمنين للقتال في سبيل الله تعالى وتحرير المستضعفين رجالاً ونساءً وصبياناً الذين يتحكم فيهم المستكبرون والطغاة المتفرعنون ويضغطون عليهم بمختلف الأساليب الوحشية ليركوا دينهم الإسلامي، وهم ليسوا في أنفسهم ضعفاء وإنما استضعفهم المستكبرون بأدوات الظلم والبطش التي يمتلكونها فسلبتهم القدرة على التغيير ولم يعودوا يمتلكون إلا الدعاء من ربهم ان ينقذهم من هؤلاء الظلمة، وقد عبّر عن ذلك بألفاظ تعبير وانسبه للإخلاص فلم يقولوا يالقومنا أو ياللغرب أو وامعتصماه كما في بعض الحوادث، وإنما قالوا ﴿رَبَّنَا﴾ فهم يستغيثون بالله تعالى ويطلبون منه تعالى أن ينجدهم بإخوانهم المؤمنين ﴿وَاجْعَل لَّنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِنْ لَدُنْكَ

نَصِيرًا.

فيدعوهم الله تعالى إلى القتال في سبيله ويستغرب من تقاعس البعض ويتساءل مستنكراً ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ﴾ وأنتم تطلبون إحدى الحسنين النصر أو الشهادة وكلها في عين الله تعالى وفيها أجر عظيم، وقد أضاف إليها الجانب العاطفي بأن هؤلاء اخوانكم في الدين أو نظراؤكم في الإنسانية فكيف تسمحون ببقائهم تحت الظلم والقهر والتعذيب والحرمان وأنتم قادرون على تحريرهم واستعادة كرامتهم.

وقد رفع الله تعالى من شأن هؤلاء العاملين الرساليين بأن جعلهم هم الولي والنصير من قبله تبارك وتعالى لتحرير الناس الذين يستجيب بهم دعاء المؤمنين وفي ذلك تحفيز عظيم للنهوض والتحرك حتى يفوزوا بهذه المنزلة العظيمة.

والآية الكريمة ككثير من الآيات غيرها تكشف عن كون الجهاد هو عمل في سبيل إعلاء كلمة الله تعالى وتحرير الإنسان من الظلم والفساد والضلال وليس لجني مصالح اقتصادية أو توسيع نفوذ وهيمنة أو تصفية حسابات سياسية ونحو ذلك خلافاً للأمم المادية التي تدّعي التحضرّ والتقدم فان حروبها جميعاً للحصول على مصالح مادية ضيقة أو الحفاظ عليها.

ويستفاد من الآية أهمية وجود النخبة الرسالية الصالحة المؤهلة لقيادة الأمة وتهبّ لنجدتها وتحمل هم الأمة جميعاً والتي تعزّز اقتدارها بالقوى المعنوية والمادية لتحقيق الأهداف المرجوة.

فالآية لا تختص بذوي المهاجرين من مكة إلى المدينة الذين بقوا في مكة وعانوا من اضطهاد قريش بل تشمل كل بلد يعاني فيه المجتمع من الاستضعاف

العقائدي او الأخلاقي او الاقتصادي او السياسي او الفكري وقد أطلق القرآن الكريم عنواناً عاماً لهذه البلدان بقوله تعالى ﴿هَذِهِ الْقَرْيَةُ الظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ (النساء: ٧٥).

والآية وإن ذكرت القتال باعتباره الأسلوب المناسب يومئذ لردع مشركي مكة اللذين حشدوا الجيوش لمحاربة الإسلام وأهله، لكن الآية لا تختص بالقتال لان مورد النزول لا يخصص الآية، وانما تشمل قبل ذلك أي أسلوب من أساليب التي يستطيع بها المؤمنون انقاذ المستضعفين من مشاكلهم وحرمانهم واضطهادهم وتخلفهم، وآخر الدواء الكي كما قيل في المثل وهو القتال والمواجهة المسلحة، والا فالمطلوب هو العمل لاستعادة كرامة الإنسان وحريته وحقوقه، من خلال الدعوة إلى الله تعالى وتطبيق النظام الإلهي بالحكمة والموعظة الحسنة قال تعالى ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (النحل: ١٢٥).

ويمكن استفادة هذا التعميم بتقريبين:

١- ما ذكرناه آنفاً من عدم خصوصية لذكر القتال فنجرد الآية عن الخصوصية ونعمم الخطاب الى كل أساليب الإنقاذ بحسب حالات الاستضعاف، وتدل على هذه المعنى روايات كثيرة إلى ان القتل يمكن ان يكون معنوياً ومادياً والحياة كذلك.

٢- ان لفظ القتال لا يختص بالعمل المسلح فيمكن ان يشمل الخطاب والبيان والموقف والمقاطعة وحتى الصمت أحياناً لذا يصح ان يقال ان السيدة الزهراء (عليها السلام) وابنتها العقيلة زينب (عليها السلام) قاتلتا ايما قتال اقض مضاجع الظلمة ولكنه لم

يكن بالسيف وانما بالكلمة والموقف والرفض والمقاطعة.

والمستضعفون عرفتهم آية أخرى قال تعالى ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ ١ فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ٢ (النساء: ٩٨-٩٩) فهم عاجزون فكرياً أو بدنياً أو اجتماعياً أو مالياً أو كبَلَّتْهم ظروف خارجة عن القدرة على التغيير، روى الشيخ الكليني في الكافي بسنده عن زرارة قال (سألت أبا جعفر (عَلَيْهِ السَّلَامُ) عن المستضعف فقال: هو الذي لا يستطيع حيلة يدفع بها عنه الكفر، ولا يهتدي بها إلى سبيل الايمان) ٣ وروى الشيخ الصدوق بسنده عن عمر بن إسحاق قال: (سئل أبو عبدالله (عَلَيْهِ السَّلَامُ): ما حدُّ المستضعف الذي ذكره الله عز وجل، قال: من لا يُحسن سورة من سور القرآن، وقد خلقه الله عز وجل خَلْقَةً ما ينبغي له ان لا يحسن) ٤.

فهؤلاء المستضعفون لهم حق على القادرين على إخراجهم من حالة الاستضعاف هذه بالأدوات المتاحة وأولها والشيء الرئيسي فيها إخراجهم من حالة الجهل والعمى الفكري الذي ضرب عليهم بطرق شتى كحرمانهم من أدوات المعرفة الصحيحة أو تقديس أفكار ورموز وسلوكيات موروثية وتجعل خطوط حمراء لا يجوز الاقتراب منها والتفكير فيها فضلاً عن مناقشتها وتقييمها.

فكان واجباً على من يمتلك العلوم والثقافة الصحيحة أن يأخذ بأيديهم ويصحح أفكارهم ويبصرهم ويعلمهم ما ينفعهم وفي ذلك ثواب عظيم. ففي الاحتجاج وتفسير العسكري (عَلَيْهِ السَّلَامُ) عن أمير المؤمنين (عَلَيْهِ السَّلَامُ) قال (من كان من

(١) الكافي: ٢/٢٩٧/ح ٣.

(٢) معاني الأخبار: ٢٠٢/ح ٧.

شيعتنا عالما بشريعتنا فأخرج ضعفاء شيعتنا من ظلمة جهلهم إلى نور العلم الذي حبوناه به جاء يوم القيامة وعلى رأسه تاج من نور يضيئ لأهل جميع العرصات، وعليه حلة لا يقوم لأقل سلك منها الدنيا بحذافيرها ، ثم ينادي مناد يا عباد الله هذا عالم من تلامذة بعض علماء آل محمد ألا فمن أخرجه في الدنيا من حيرة جهله فليتشبث بنوره ليخرجه من حيرة ظلمة هذه العرصات إلى نزه الجنان فيخرج كل من كان علمه في الدنيا خيرا أو فتح عن قلبه من الجهل قفلا، أو أوضح له عن شبهة^(١).

وفي نفس المصدر عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال (علماء شيعتنا مرابطون بالشجر الذي يلي إبليس وعفاريته، يمنعونهم عن الخروج على ضعفاء شيعتنا، وعن أن يتسلط عليهم إبليس وشيعته النواصب، ألا فمن انتصب لذلك من شيعتنا كان أفضل ممن جاهد الروم والترك والخزر ألف مرة لأنه يدفع عن أديان محبيننا، وذلك يدفع عن أبدانهم)^(٢).

إن الله تعالى يريد من عباده الذين يمتلكون ما يساعدون به هؤلاء المستضعفين ان يعيدوا إليهم دينهم وكرامتهم وحریتهم وعزتهم، وما كان القيام الفاطمي ولا القيام الحسيني الا غضباً لله تعالى ولرسوله ولأداء هذه المسؤولية تجاه عباد الله تعالى كما ورد في زيارة الإمام الحسين (عليه السلام) (وَبَذَلَ مُهْجَتَهُ فِيكَ لَيْسَتْ نَقْدَ عِبَادِكَ مِنَ الْجَهَالَةِ وَحَيْرَةِ الضَّلَالَةِ)^(٣) وفي زيارة أخرى (وَبَذَلَ مُهْجَتَهُ

(١) بحار الأنوار: ٢/٢/ ح ٢.

(٢) بحار الأنوار: ٥/٢/ ح ٨.

(٣) مفاتيح الجنان، زيارة الاربعين.

فِيكَ حَتَّى اسْتَنْقَذَ عِبَادَكَ مِنَ الْجَهَالَةِ وَحَيْرَةِ الضَّلَالَةِ^(١).

وهذا الغضب لله تعالى خصلة كريمة يحبها الله تعالى ويبغض من لا يتصف بها، في كتاب الكافي بسنده عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال (إن الله عز وجل بعث ملكين إلى أهل مدينة ليقلباها على أهلها^(٢)) فلما انتهيا إلى المدينة وجدا رجلا يدعو الله ويتضرع فقال: أحد الملكين لصاحبه: أما ترى هذا الداعي؟ فقال: قد رأيته ولكن أمضي لما أمر به ربي، فقال: لا ولكن لا أحدث شيئا حتى أراجع ربي فعاد إلى الله تبارك وتعالى فقال: يا رب إنني انتهيت إلى المدينة فوجدت عبدك فلانا يدعوك ويتضرع إليك، فقال: امض لما أمرتك به فإن ذا رجل لم يتمعر^(٣) وجهه غيظا لي قط^(٤).

وفي الكافي والتهذيب عن الإمام الباقر (عليه السلام) قال: (أوحى الله تعالى إلى شعيب النبي (عليه السلام): اني معذب من قومك مائة ألف، أربعين ألفاً من شرارهم وستين ألفاً من خيارهم، فقال (عليه السلام): يا رب هؤلاء الأشرار، فما بال الأخيار؟ فأوحى الله عز وجل إليه: داهنو اهل المعاصي ولم يغضبوا لغضبي)^(٥).

(١) مفاتيح الجنان، زيارة العيدين.

(٢) حيث كانت الأمم السابقة تعاقب بعقوبات جماعية كما يحكي القرآن الكريم عن عدة حالات منها واعفيت الامة الخاتمة من ذلك.

(٣) لم يتمعر وجهه: أي لم يتغير الى الصفرة.

(٤) الكافي: باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ح ٨، (الغضب لله تعالى شرط صدق الايمان: خطاب المرحلة: ج ١٠ / ص ٣٣٩).

(٥) الوسائل: ١٦/١٤٦ ح ١، (الغضب لله تعالى شرط صدق الايمان: خطاب المرحلة ج ١٠ ص ٣٣٩).

فثوكد هنا من جديد الحاجة إلى استشعار هذه المسؤولية والقيام غضباً لله تعالى لإنقاذ عباد الله من الانحراف والفساد والانحلال والظلم والأخذ بأيديهم إلى حياة حرة كريمة عزيزة والخطاب موجه الى الجميع ولكل منكم دوره سواء كان من الحوزة العلمية أو الجامعيين وعموم الواعين بل الناس جميعاً، ولا تستغرب هذا فان أي مواطن يكون مسؤولاً عن اختيار الكفوء المخلص الشجاع في قول الحق الأمين على دين الناس وحقوقهم كالموقف الأخير في تصحيح قانون العنف الأسري الذي قُدم للبرلمان مؤخراً لإقراره وقد تضمن مواد تضاهي النمط الغربي في السلوك وتسلب حق الآباء في تربية ابنائهم على السلوك الصحيح وضبط تصرفاتهم بحجة الحرية الشخصية ونحو ذلك والجميع - والاسلاميون منهم - بين موافق أو ساكت، ويكون التكليف أأكد في الشرائع المستهدفة بالتخريب أكثر كالنساء والشباب.

وشهر رمضان المبارك الذي تقترب منّا أيامه فرصة ثمينة للقيام بهذه المسؤولية ونفض غبار التقصير والتعاس.

ملحق: ما قدست أمة لم يؤخذ لضعيفها من قوتها بلا تردد

روى جابر قال: (رجعت الى رسول الله ﷺ) مهاجرة البحر) وهم المسلمون الذين أمرهم النبي ﷺ) بالهجرة الى الحبشة تخلصاً من تعذيب قريش وملاحقتهم برئاسة جعفر بن أبي طالب ومكثوا هناك أكثر من عشر سنوات وعادوا في السنة السابعة من الهجرة الى المدينة (قال: (الا تحدثوني بأعاجيب ما رأيتم بأرض الحبشة؟) قال فتية منهم: بلى يا رسول الله، بينا نحن جلوس، مرّت بنا عجوز من عجائز رهاينهم - أي رجال الدين المسيحيين - تحمل على رأسها قلة من ماء، فمرّت بفتى منهم) وهو طائش ومغرور بشبابه وقوته قد أسكره الشباب والقدرة ونسي قدرة الله عليه، وبدل ان يشكر الله تعالى على هذه النعم فانه يستعملها في المعصية والظلم وهكذا يغتر الكثير بقوتهم وقدرتهم ويظهرونها على ضعاف الناس ومن لا حول لهم ولا قوة (فجعل احدى يديه بين كتفيها، ثم دفعها، فخرّت على ركبتيها، فانكسرت قُلَّتْها، فلما ارتفعت، التفتت اليه فقالت: سوف تعلم يا عُذْر! - يوم القيامة - اذا وضع الله الكرسي وجمع الاولين والآخرين وتكلمت الايدي والارجل بما كانوا يكسبون، فسوف تعلم كيف أمري وأمرك عنده غداً) فتأثر النبي ﷺ) ورقّ لحال العجوز وهي ليست على دينه وغضب من فعل الشاب الظالم (قال: يقول رسول الله ﷺ): (صَدَقَتْ صَدَقَتْ، كيف يُقدِّس الله أمة لا يؤخذ لضعيفهم من شديدهم) ^(١).

والحديث مروي في كتبنا عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (ما قدست أمة لم

(١) سنن ابن ماجه: ١٨٦/٤، كتاب الفتن باب ٢٠ ح ٤٠١٠، ٤٠١١، ٤٠١٢.

يؤخذ لضعيفها من قوِّيها غير متعتع^(١).

فاذا أرادت الأمة أن تحيا كريمة عزيزة قوية مهابة فلا بد ان تنتصف للمظلوم وتأخذ بحقه من الظالم، ولكي تصل الأمة الى هذا المستوى لابد ان تكون القوانين السائدة عادلة منصفة والجهة التي تشرّعها خيرة تراعي المصالح العليا للعباد والبلاد وتعمل ضمن الشريعة الإلهية، وأن تكون السلطة التنفيذية مهنية مخلصه نزيهة كفوءة يكون همها وهدفها خدمة الانسان وسعادته وكرامته.

وأن تكون السلطة القضائية حافظة للحقوق العامة والخاصة لا تفرط فيها تحت ضغط التهديد او الترغيب او الميل او الهوى او المجاملة والمداهنة والصفقات المتبادلة ولا غير ذلك.

وان يكون الاعلام بصيراً دقيقاً متابعاً يرشد العمل ويشخص الخلل ويثني على الاحسان، فكم من قضية إنسانية او مظلومية او فساد غصّ المسؤولين الطرف عنه وعقدوا الصفقات لتقاسم الكعكة لكن الاعلام لما فضحهم اضطروا لأنصاف المظلوم وتقويم الاعوجاج بمقدار ما.

وقبل هذا وذاك لابد ان تسود المجتمع ثقافة نصره المظلوم والضرب على يد الظالم لتشكل هذه الثقافة حصانة من الانحراف ولان السلطات المذكورة نتاج هذا المجتمع وثقافتها وسلوكها منه، وأهم قنوات هذه الثقافة والمعرفة: الدين الذي هو منظومة من العقائد والأخلاق والاحكام والسنن التي تعصم الانسان من الوقوع في الخطأ والخطيئة والضلالة والانحراف والظلم.

ولا نقصد بالدين مجرد الشكليات الظاهرية بل حقيقته وجوهره الذي يظهر

(١) وسائل الشريعة: ١٢٠/١٦ كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، باب وجوبهما، ح ٩.

على شكل سلوك عفيف وقلب سليم ونظرة بصيرة وحكمة، والا فان كثيراً من الموصوفين بالتدين الظاهري على مستوى المظاهر وإقامة الشعائر الدينية الا انه في سلوكه ابعد ما يكون عن الدين، سواء في علاقته مع أهله او في عشيرته او في وظيفته او في عمله او علاقاته وغير ذلك، ولا يكون محضره خيراً ولا يأمر بمعروف ولا ينهي عن منكر بل يجامل ويداهن على حساب الحق.

روى صاحب كتاب المناقب انه (رجع علي (عليه السلام) الى داره في وقت القبط والصيف حار شديد الحر في الكوفة والإمام (عليه السلام) شيخ تجاوز الستين من العمر وقد أثقلته الهموم والمسؤولية - فإذا امرأة قائمة تقول: إن زوجي ظلمني وأخافني وتعدى علي وحلف ليضربني، فقال: يا أمة الله اصبري حتى يبرد النهار ثم اذهب معك إن شاء الله، فقالت: يشتد غضبه وحرده علي، فطأ رأسه - وكأنه يفكر في إيجاد سعة ومخرج لنفسه - ثم رفعه وهو يقول: لا والله أو يؤخذ للمظلوم حقه غير متعتع - فلا مجال للصبر على الظلم الا بالسعي لإزالته - اين منزلك؟ فمضى الى بابه فوقف فقال: السلام عليكم، فخرج شاب) وهو لا يعرف علياً وتعجب من مثل هذا الشاب يسكن الكوفة ولا يعرف علياً ويعني ذلك انه لم يصل خلف علي ولا استمع الى شيء من خطبه ولا خرج تحت امرته للجهاد (فقال علي (عليه السلام): يا عبدالله اتق الله فإنك قد أخففتها وأخرجتها) وبدل ان يقبل النصيحة ويشكر الناصح على سعيه في الإصلاح استكبر وطغى (فقال الفتى: وما أنت وذاك؟) فأنكر تدخل أمير المؤمنين وكأنه لا يعرف وظيفة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وقابله بالتهديد (والله لأحرقنها لكلامك) وتمادى في غيّه وزاد من تهديداته (فقال أمير المؤمنين (عليه السلام) وهو مغضب وقد استل سيف (آمر

بالمعروف وانهاك عن المنكر تستقبلني بالمنكر وتنكر المعروف؟ قال: فأقبل الناس من الطرق ويقولون: سلام عليكم يا أمير المؤمنين) وهنا عرف الشاب ان المتكلم هو أمير المؤمنين ورئيس الدولة فخاف من عقوبته (فسقط الرجل في يديه فقال: يا أمير المؤمنين أقلني - في - عثرتي، فوالله لأكونن لها أرضاً تطأني) ومثل هذا كثيرون يخافون من العقوبات الدنيوية المعجلة ولا يتقون الله تعالى في أفعالهم ولا يخشونه (فأغمد علي (عليه السلام) سيفه) ثم توجه الى المرأة وأمرها بحسن التصرف والصبر وعدم استفزاز الرجل (فقال: يا أمة الله ادخلي منزلك ولا تلجئي زوجك الى مثل هذا وشبهه)^(١).

فتلاحظ ان امير المؤمنين (عليه السلام) استحضر نفس كلمة رسول الله (صلى الله عليه وآله) وكذا الإمام الصادق (عليه السلام) في حديثه السابق.

(١) بحار الانوار: ٥٧/٤١ ح ٧ عن مناقب آل أبي طالب: ١٠٦/٢ فصل: السابقة بالتواضع.

القبس/ ٣٨

سورة النساء: ﴿٧٩﴾

﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾

تصحح الآية الكريمة جملة من الاعتقادات والتصورات المشوّهة لدى الناس، ومحل الحديث ما نجده على أرض الواقع وهو أنه إذا أصيب أحد بمصيبة كمرض أو حادث سيارة أو فقدان عزيز أو خسارة مال فإنه ينسب الفعل إلى الله تعالى ويعتقد بأن الله تعالى هو من فعل به ذلك ويجد في نفسه عتياً على ما ابتلاه الله به حتى إذا صبر وسلّى نفسه، وربما يعترض على القدر الذي تعرض له، وفي هذا الاعتقاد سوء ظن بالله تعالى، وقد يؤدي إلى أنه لا يحب الله تعالى لأنه لم يختار له ما يحب، فلا بد من تصحيح هذا الاعتقاد، لأننا لا يسعنا إلا أن نحب الله تعالى على عظيم نعمائه ومداراته لنا واختيار ما فيه صلاحنا، وأن نصحّح هذا الاعتقاد للآخرين أيضاً حتى يحبوا الله تعالى.

لأن الله تعالى لا يصدر منه إلا الخير المحض ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ (السجدة: ٧٩) وهو شفيق بعباده ورحيم بهم، فعلينا أن نعمل لتحيب الله تعالى إلى الناس لنكون من أهل الحديث الشريف عن النبي (ﷺ): (إني لأعرف ناساً ما هم أنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء بمنزلتهم يوم القيامة:

الذين يحبون الله ويحبونه إلى خلقه يأمرونهم بطاعة الله فإذا أطاعوا الله أحبهم الله^(١).

فالآية الكريمة تقول ما أصابك من خير وما فعلت من حسنات فهو من الله تبارك وتعالى لأنه تعالى هو الذي هداك إلى الإيمان وزينه في قلبك ووهبك النعم التي تمكنت بها من الطاعة ووفر لك ظروف الامتثال، ثم يتقبل منك العمل ويشبك بأحسن الجزاء، وما اجتنبت من المعاصي فبقدره الله تعالى وعصمته ومعونته لك، ورد في دعاء الإمام السجاد (عليه السلام) في طلب التوبة (اللَّهُمَّ إِنَّهُ لَا وَفَاءَ لِي بِالتَّوْبَةِ إِلَّا بِعِصْمَتِكَ، وَلَا اسْتِمْسَاكَ بِي عَنِ الْخَطَايَا إِلَّا عَنْ قُوَّتِكَ، فَقَوِّنِي بِقُوَّةٍ كَافِيَةٍ، وَتَوَلَّنِي بِعِصْمَةٍ مَانِعَةٍ)^(٢).

أما السيئة التي تصيب الإنسان فهي من فعله وتسيبه، فهو الذي لم يلتزم بقواعد السلامة والأمان أو غيره فحصل حادث سير، وهو الذي لم يعتن بالتعليمات الصحية في الغذاء وغيره فأصيب بمرض، وهو لم يحسن تدبير المال ولم يقرأ السوق والأحداث الاقتصادية بشكل جيد فخسر المال، وهو الذي اتبع شهواته ونزواته وهوى نفسه فوقع في المحذور، وهو الذي لم يتصرف بحكمة ولم يعمل بمنطق العقل وانقاد إلى غضبه فأضرته حماقته وارتكب جريمة وهكذا، فلماذا ننسبها إلى الله تعالى؟ قال أبو الحسن الرضا (عليه السلام): (قَالَ اللَّهُ يَا ابْنَ آدَمَ بِمَشِيئَتِي كُنْتَ أَنْتَ الَّذِي تَشَاءُ لِنَفْسِكَ مَا تَشَاءُ وَبِقُوَّتِي أَدَيْتَ فَرَائِضِي وَبِنِعْمَتِي

(١) مجمع الزوائد للهيتمي: ١/١٢٦، راجع قيس قوله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ (المائدة: ٥٤)، في تفسير من نور القرآن.

(٢) الصحيفة السجادية، الدعاء الحادي والثلاثون.

قَوِّتَ عَلَى مَعْصِيَتِي جَعَلْتَنكَ سَمِيعاً بَصِيراً قَوِّياً مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ وَذَلِكَ أَنِّي أُولَى بِحَسَنَاتِكَ مِنْكَ وَأَنْتَ أُولَى بِسَيِّئَاتِكَ مِنِّي وَذَلِكَ أَنِّي لَا أَسْأَلُ عَمَّا أَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ^(١)، وقال الإمام الصادق (عَلَيْهِ السَّلَامُ): (كما أن بادئ النعم من الله عز وجل وقد نحلكموه، كذلك الشر من أنفسكم وإن جرى به قدره)^(٢).

وعلى هذا فالآية الكريمة وإن كان لسانها توجيه الخطاب إلى النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) إلا أنها في الحقيقة موجهة إلى الناس من خلال النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) على طريقة (إياك أعني واسمعي يا جارة)^(٣).

وقد يكون المراد ﴿مِنْ نَفْسِكَ﴾ ما سوى الله تعالى الشامل له ولغيره إذ لا شك أن بعض ما يصيب الإنسان هو بسبب حماقة الآخرين وجهلهم أو عمدهم وعدوانهم قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ (الشورى: ٤٠) وظاهر الآية نسبة سبب المصيبة إلى الجميع وكما ازداد إيمانه والتزامه كثر ابتلاؤه بالناس، وأن ما حلَّ بالأنبياء العظام والأئمة الطاهرين (صلوات الله عليهم اجمعين) كان بسبب أفعال الناس.

ولا تنافي بين هذه الآية وآيات أخر نسبت الحسنة والسيئة إلى الله تعالى، كقوله تعالى في الآية السابقة: ﴿وَإِنْ تُصِيبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ

(١) الكافي - الشيخ الكليني: ١/ ١٥٢/ ح ٦، ط. الإسلامية.

(٢) بحار الأنوار: ١١٤ / ٥.

(٣) روى القمي في تفسيره (ج ١/ ص ١٦) عن الصادق (عَلَيْهِ السَّلَامُ) قوله: (إن الله بعث نبيه (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) إياك أعني واسمعي يا جارة).

وَأِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَّقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ (النساء: ٧٨) لاختلاف الموضوع أي المراد من الحسنة والسيئة في الآيتين اذ يراد من الحسنة والسيئة في الآية محل البحث الأفعال الموصوفة بذلك، اما في هذه الآية فيظهر من السياق أن المراد بالحسنة ما يلائم طبع الإنسان ويستحسنه من الخيرات والرفاهية وفي قبالها السيئة من النقم والبلايا، كوفرة المحصول مقابل الجذب والقحط، والأمطار مقابل الجفاف، وتكاثر الماشية مقابل عدمه وهذه كلها من عند الله تعالى وتجري وفق سنن إلهية، والإنسان يسعى لجلب الخير لنفسه لكنه ليس من الضروري نجاحه في ذلك وهذا دليل على أن الأمر ليس كله بيده، قال أمير المؤمنين (عليه السلام): (عرفت الله بفسخ العزائم، وحل العقود، ونقض الهمم)^(١) فيكون موضوعها غير موضوع الآية التي نحن فيها، وتكون الحسنة والسيئة نسبية حينئذٍ، فالآية الكريمة نزلت للرد على عقيدة فاسدة حيث كانوا ينسبون الخير إلى الله تعالى إذا كثرت الأمطار وأينعت الأراضي وساد الأمن وإذا حصل شر كالقحط والجفاف نسبوه إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله)، وهو من التفريق بين الله ورسوله والطعن في القيادة الربانية لإيجاد المبرر لعصيانها وعدم تحمل معاناة الطاعة ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ۖ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ (النساء: ١٥٠-١٥١) على نهج بني إسرائيل الذين كانوا يتطهرون بموسى

(عَلَيْهِ) ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَافِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف: ١٣).

ويمكن الجواب بناءً على وحدة الموضوع في الآيتين وهو ما يلائم الطبع كالنعم والخيرات والرفاهية أو ما ينافرها كالنقم والبلايا بقرينة الإصابة التي لا تقال للأفعال إلا بلحاظ آثارها والحسنة والسيئة، أو أن الموضوع الواحد هو الأفعال السيئة والحسنة وإنما نسبت السيئة إلى الله لأنها ما وقعت إلا بإذنه وضمن القوانين التي أجرى الخلق عليها ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (التغابن: ١١) ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا﴾ (التوبة: ٥١) ولو شاء الله تعالى لدفعها كما عطل خاصية الإحراق لنار إبراهيم (عليه السلام)، فالفعل ينسب إلى الله تعالى من هذه الجهة لكنه لا ينفي المسؤولية عن فاعله، كمن رمى نفسه من شاهق فإنه مسؤول عن إتلاف نفسه، ولكن أيضاً لولا قانون الجاذبية الذي وضعه الله تعالى لمصلحة مخلوقاته ولتستقيم حياتهم لما هوى نحو الأسفل، ففي هذا القانون جنبه إيجابية حسنة من الله تعالى، وفيه جنبه سيئة من الإنسان ومثاله أن من زرع العنب لا يلام لو اتخذته أحد خمرًا، وصانع السكين للانتفاع بها لا يؤاخذ لو استعملها أحد في جريمة، فالقانون من طرف الله تعالى خير محض لكن الإنسان الأحق أساء الاستفادة منه ﴿فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ (المائدة: ٩٩).

وتشرح الرواية التالية هذه العلاقة فقد روي أن أمير المؤمنين (عليه السلام) كان مستنداً إلى جدار آيل للسقوط فقام عنه، فقليل له: يا أمير المؤمنين أتفر من قضاء الله؟ قال (عليه السلام): (أفر من قضاء الله إلى قدره عز وجل)^(١)، أي أن الله تعالى قضى أن الحائط الثقيل إذا سقط على إنسان فإنه يسبب هلاكه لكن تقدير الأسباب له طرف بيديّ فأستطيع تجنب الوجود إلى جواره.

والخلاصة أنه على مستوى العقيدة لا بد من التسليم بأن الله تعالى هو مدبر الأمور ومسبب الأسباب ولا يستقل أحد بشيء دون معونته ﴿وَالِيهِ يَرْجِعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾ (هود: ٤٣) أما على مستوى الفعل والوقوع والتحقق فإن الإنسان هو السبب المباشر لحصول السيئة، لكنه لا يستطيع أن يفعل ما يشاء إلا بإذن الله وتقديره، وهذا معنى قول الإمام الصادق (عليه السلام): (لا جبر ولا تفويض وإنما أمر بين أمرين)^(٢) الذي ردّ به المذاهب الباطلة^(٣)، فلو فرض أن شخصاً له يد مشلولة لا تتحرك إلا بجهاز فإذا ارتكب هذا الشخص جريمة فإنه مسؤول عن فعله ويعاقب عليه إلا أن الفعل يصح نسبته إلى مشغل الجهاز لأنه لولاه لما استطاع هذا الشخص فعل شيء.

ورغم أن السيئة من فعل العبد إلا أن الله تعالى لم يوكله إلى نفسه رحمةً به وشفقةً عليه فتولى رعايته والإحسان إليه من خلال عدة أمور:

(١) توحيد الصدوق: ٣٦٩.

(٢) ميزان الحكمة: ١/ ٣٦٣.

(٣) لا يسع المنصف من طوائف المسلمين إلا التسليم بهذه العقيدة التوحيدية النقية (راجع تفسير في ظلال القرآن عند هذه الآية).

١- أنه تعالى يدفع عنه ويمنع وقوعه وإن أتى الإنسان بأسبابه، قال تعالى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ (الرعد: ١١) يحفظونه من امر الله بأمر الله^(١) لكنه مع إصرار الإنسان على ارتكاب الخطأ فإن هذه الحماية ترتفع في لحظة ما لعدم صحة تعطيل القوانين، قال أمير المؤمنين (عليه السلام): (إن مع كل إنسان ملكين يحفظانه، فإذا جاء القدر خليا بينه وبينه، وإن الأجل جنة حصينة)^(٢).

٢- إن الله تعالى يعفو عن كثير من سيئات الإنسان ويلغي تأثيراتها السلبية وما يصيبه فهو من القليل المتبقي، قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ (الشورى: ٣٠) وقال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ (فاطر: ١٥).

٣- إن الله تعالى يثيب العبد على ما يصيبه وإن كان بسببه ويجعل البلاء كفارةً للذنوب، وبذلك يحوّل الله تعالى البلاء والمصيبة التي جرّها العبد على نفسه إلى نعمةٍ لصالحه، في علل الشرائع عن علي بن الحسين عن أبيه (عليه السلام) قال: (قال رسول الله ﷺ): (ولو كان المؤمن على جبل لقيض الله عز وجل له من يؤذيه ليأجره على ذلك)^(٣) حتى أن الروايات دلّت على أن المؤمن لما يرى ما أعدّ الله

(١) راجع قيس قوله تعالى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾

(الرعد: ١١) في تفسير من نور القرآن.

(٢) شرح نهج البلاغة: ٢١ / ١٩.

(٣) علل الشرائع: ٤٥ / ١.

تعالى له من الثواب العظيم يتمنى أنه لم يرفع عنه بلاء؛ عن عبد الله بن أبي يعفور قال: (شكوت إلى أبي عبد الله (عليه السلام) ما ألقى من الأوجاع وكان مسقماً، فقال لي: يا عبد الله، لو يعلم المؤمن ماله من الأجر في المصائب لتمنى أن يُقرض بالمقاريض)^(١).

٤- إنه سبحانه يجعل البلاء سبباً لتكامل الفرد وقربه من الله تعالى، لأن طول فترة الرفاهية والرخاء تؤدي إلى ضعف في الإيمان وغفلة عن الله تعالى، قال علي (عليه السلام): (كفى بالسلامة داءً)^(٢) وقال (عليه السلام): (إذا رأيت الله سبحانه يتابع عليك البلاء فقد أيقظك)، (إذا رأيت الله سبحانه يتابع عليك النعم مع المعاصي فهو استدراج لك)^(٣) فتكون في البلاء نعمة التذكير والرجوع إلى الله تعالى روي عن الإمام الصادق (عليه السلام) قوله: (ما من قبض ولا بسط إلا والله فيه المن والابتلاء)^(٤).

في الكافي بإسناده عن عبد الرحمن بن الحجاج قال: (ذكر عند أبي عبد الله (عليه السلام) البلاء وما يخص الله عز وجل به المؤمن، فقال: سئل رسول الله (ﷺ) من أشد الناس بلاء في الدنيا فقال: النبيون ثم الأمثل فالأمثل، ويتلي المؤمن بعد على قدر إيمانه وحسن أعماله فمن صح إيمانه وحسن عمله اشتد بلاؤه ومن سخط إيمانه وضعف عمله قل بلاؤه)^(٥).

(١) بحار الأنوار: ١٩٦ / ٧٨.

(٢) بحار الأنوار: ٨١ / ١٧٤ ح ١.

(٣) غرر الحكم: ٤٠٤٦-٤٠٤٧، ميزان الحكمة: ٤٦٢/١.

(٤) التوحيد: ٣٥٤ ح ١.

(٥) الكافي: ٢ / ٢٥٢.

﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾

موضوع القبس: الصلاة فرض ثابت

يؤكد هذا الجزء من الآية الكريمة أهمية الصلاة في الإسلام وانها فرض ثابت مكتوب على المسلمين وان لها أوقات معينة يجب الالتزام بها. روى الشيخ الكليني في الكافي بسنده عن داود بن فرقد قال (قلت لابي عبد الله (عليه السلام): قوله تعالى ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ قال كتاباً ثابتاً، وليس أن عجلت قليلاً أو أخرت قليلاً بالذي يضرك ما لم تضيع تلك الإضاعة^(١).

ولاشك في مدخلة التوقيتات والالتزام بها في التربية المثمرة لان ترك العمل الى رغبة الشخص يؤدي الى إهماله وتضييعه كما هو واضح من سيرة الناس، كما ان عدم الالتزام بالوقت يضيع بعضاً من ثمراتها وهو اجتماع المؤمنين على فعل موحد مما يعطي للصلاة هيبتها وتأثيرها الروحي.

وان فرض الصلاة في أوقات معينة لا يعني اهمال ذكر الله تعالى في بقية الأوقات بل يصرح الجزء السابق من الآية بلزوم ذكر الله تعالى في كل وقت وعلى كل حال حتى والحرب قائمة ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾

(١) الكافي: ٣/ ٢٧٠/ ح ١٣.

أهمية الصلاة:

إنَّ للصلاة أهمية كبرى في الدين ودوراً مهماً في حياة الإنسان ومصيره، عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام) (قال: قال رسول الله (ﷺ): ما بين المسلم وبين أن يكفر إلا ترك الصلاة الفريضة متعمداً أو يتهاون بها فلا يصلّيها)^(١).

وروي عن الإمام الباقر (عليه السلام) قوله: (الصلاة عمود الدين، مثلها كمثل عمود الفسطاط، إذا ثبت العمود ثبت الأوتاد والأطناب، وإذا مال العمود وانكسر لم يثبت وتد ولا طناب)^(٢).

وعن علي (عليه السلام) قال: قال رسول الله (ﷺ) إنَّ عمود الدين الصلاة، وهي أول ما يُنظر فيه من عمل ابن آدم، فإن صحَّت نُظر في عمله، وإن لم تصحَّ لم يُنظر في بقيّة عمله)^(٣).

لذا كان مقياس صلاح الإنسان عند أهل البيت (عليهم السلام) هو اهتمامه بصلاته، عن هارون بن خارجة قال: (ذكرت لأبي عبد الله (عليه السلام) رجلاً من أصحابنا فأحسن عليه الثناء، فقال لي: كيف صلاته؟)^(٤).

روى أبي بصير قال: دخلت على أمّ حميدة أعزّيها بأبي عبد الله (عليه السلام)، فبكّت وبكيت لبكائها، ثمّ قالت: يا أبا محمّد، لو رأيت أبا عبد الله (عليه السلام) عند الموت لرأيت عجباً، فتح عينيه ثمّ قال: (اجمعوا كلّ من بيني وبينه قرابة، قالت: فما تركنا أحداً إلاّ جمعناه، فنظر إليهم ثمّ قال: إن شفاعتنا لا تنال مستخفاً

(١) الوسائل ج ٤/ ص ٤٣.

(٢) الوسائل ج ٤/ ص ٢٧.

(٣) الوسائل ج ٤/ ص ٣٤-٣٥.

(٤) الوسائل ج ٤/ ص ٣٢.

بالصلاة^(١).

ويظهر أن هذه وصية النبي (ﷺ) وأهل بيته جميعاً، روي عن زرارة عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام) (قال: لا تتهاون بصلاتك، فإن النبي (ﷺ) قال عند موته: ليس مني من استخفَّ بصلاته، ليس مني من شرب مسكراً، لا يرد عليّ الحوض لا والله)^(٢)، بل هي وصية كل الأنبياء (عليهم السلام)، عن الإمام الصادق (عليه السلام) (أحبُّ الأعمال إلى الله عز وجل الصلاة، وهي آخر وصايا الأنبياء)^(٣).

فلا يغتر البعض بما يقال له أنه إذا فعل كذا فقد وجبت له الجنة، أو دخل الجنة بغير حساب مما يكثر منه الخطباء على المنابر من دون ذكر قيوده وشروطه.

فضل الصلاة وثوابها:

وقد ورد في فضل المصلي وثواب الصلاة شيء كثير، عن الإمام الباقر (عليه السلام) قال: (قال رسول الله (ﷺ) إذا قام العبد المؤمن في صلاته نظر الله عز وجل إليه، أو قال: أقبل الله عليه حتى ينصرف، وأظلمت الرحمة، من فوق رأسه إلى أفق السماء، والملائكة تحفّه من حوله إلى أفق السماء، ووكل الله به ملكاً قائماً على رأسه يقول له: أيها المصلي، لو تعلم من ينظر إليك ومن تناجي ما التفت ولا زلت من موضعك أبداً)^(٤). وعن أبي جعفر (عليه السلام) أنه قال: للمصلي ثلاث خصال: إذا هو قام في صلاته حَفَّت به الملائكة من قدميه إلى أعنان السماء، ويتناثر البر

(١) الوسائل ج ٤/ ص ٢٦-٢٧.

(٢) الوسائل ج ٤/ ص ٢٣-٢٤.

(٣) من لا يحضره الفقيه: ١/ ٢١٠/ ح ٦٣٨.

(٤) الوسائل ج ٤/ ص ٣٢.

عليه من أعنان السماء إلى مفرق رأسه، ومملك موكل به ينادي: لو يعلم المصلّي من يناجي ما انفتل^(١).

وعن الإمام الباقر (عليه السلام) (قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): لو كان على باب دار أحدكم نهر فاغتسل في كل يوم منه خمس مرّات، أكان يبقى في جسده من الدرن شيء؟ قلنا: لا، قال: فإنّ مثل الصلاة كمثّل النهر الجاري، كلّما صلّى صلاة كفّرت ما بينهما من الذنوب)^(٢)، وعن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال: (إذا قام الرجل إلى الصلاة أقبل ابليس ينظر إليه حسداً، لما يرى من رحمة الله التي تغشاه)^(٣).

الصلاة التامة:

إن الصلاة التي تكون لها هذه القيمة لا بد أن تكون تامة في أجزائها وشرائطها التي يذكرها الفقهاء في رسائلهم العملية. عن الإمام الباقر (عليه السلام) (قال: بينا رسول الله (صلى الله عليه وآله) جالس في المسجد إذ دخل رجل فقام يصلي، فلم يتم ركوعه ولا سجوده، فقال (صلى الله عليه وآله): نقر كنقر الغراب، لئن مات هذا وهكذا صلاته ليموتنّ على غير دين)^(٤).

المحافظة على أوقات الصلوات:

ومن المهم جداً لكي تؤدي الصلاة غرضها المنشود وتحقق منها الآثار المباركة: المحافظة عليها في أوقاتها، عن الإمام الصادق (عليه السلام) (قال: قال رسول

(١) الوسائل ج ٤/ ص ٣٣.

(٢) الوسائل ج ٤/ ص ١٢.

(٣) الخصال: ٦٣٢/ ح ١٠.

(٤) الوسائل: ج ٤/ ص ٣١-٣٢.

الله (ﷺ) لا يزال الشيطان ذعراً من المؤمن ما حافظ على الصلوات الخمس لوقتهنّ فإذا ضيَّعنّ تجرّأ عليه فأدخله في العظام^(١) وعن الصادق (عليه السلام) - في حديث -: (إنّ ملك الموت يدفع الشيطان عن المحافظ على الصلاة، ويلقنه شهادة أن لا إله إلا الله، وأنّ محمّداً رسول الله، في تلك الحالة العظيمة)^(٢)، وعن النبي (ﷺ) قال (ما من عبد اهتم بمواقيت الصلاة ومواضع الشمس إلا ضمنت له الرُوحَ عند الموت، وانقطاع الهموم والأحزان، والنجاة من النار)^(٣).

من خطبة لأمير المؤمنين (عليه السلام) في نهج البلاغة انه قال في كلام يوصي أصحابه: (تعاهدوا أمر الصلاة، وحافظوا عليها، واستكثروا منها، وتقربوا بها، فإنّها كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً، ألا تسمعون إلى جواب أهل النار حين سئلوا: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿المدثر: ٤٢-٤٣﴾ وإنّها لتحتّ الذنوب حتّ الورق، وتطلقها إطلاق الربق، وشبّهها رسول الله بالحمّة تكون على باب الرجل فهو يغتسل منها في اليوم واللييلة خمس مرّات، فما عسى أن يبقى عليه من الدرن، وقد عرف حقها رجال من المؤمنين، الذين لا تشغلهم عنها زينة متاع، ولا قرّة عين من ولد ولا مال، يقول الله سبحانه: ﴿رَجَالٌ لَا تُلْهِهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾ (النور: ٣٧)، وكان رسول الله (ﷺ) نصباً بالصلاة بعد التبشير له بالجنّة، لقول الله سبحانه ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ (طه: ١٣٢) فكان يأمر بها أهله ويصبر عليها

(١) الوسائل: ج ٤ / ص ٢٨.

(٢) الوسائل: ج ٤ / ص ٢٩.

(٣) بحار الأنوار: ٨٣ / ٩ / ٥.

نفسه^(١).

علموا أولادكم الصلاة:

ولأجل أن تصبح الصلاة جزءاً أساسياً من حياة الإنسان لا يستطيع أن يحيا بدونها فقد أمر المعصومون بإلزام الصبيان بالصلاة من وقت مبكر كعمر (٦-٨) سنين بحسب استعداداته الذهنية وفهمه لما يقال له.

روى محمد بن مسلم: أنه سأل أحد الإمامين الباقر والصادق (عليهما السلام) (في الصبي، متى يصلّي؟ فقال: إذا عقل الصلاة قلت: متى يعقل الصلاة وتجب عليه؟ قال: لست سنين)^(٢).

ويستغرب الإمام (عليه السلام) من الآباء والأمهات الذين لا يتابعون أداء أطفالهم للصلاة، روى أحدهم قال (سألت الرضا (عليه السلام) أو سئل وأنا أسمع، عن الرجل يجبر ولده وهو لا يصلّي اليوم واليومين؟ فقال: وكم أتى على الغلام؟ فقلت: ثماني سنين، فقال: سبحان الله، يترك الصلاة؟! قال: قلت: يصيبه الوجع، قال: يصلّي على نحو ما يقدر)^(٣).

الفرق بين الزاني وتارك الصلاة:

إن المتابع لحال المسلمين - خصوصاً في البلدان المترفة والتي تكون فيها فرص المغريات والشهوات كثيرة - يجد عند كثير منهم إهمال أمر صلاتهم،

(١) الوسائل: ج ٤/ ص ٣٠ - ٣١.

(٢) الوسائل: ج ٤/ ص ١٨ - ١٩.

(٣) الوسائل: ج ٤/ ص ٢٠.

وعدم الالتزام بها في أوقاتها وهذه قضية حيوية وشيء خطير لابد من معالجته بالالتفات إلى ما ذكرناه من أهمية الصلاة والعقوبة الغليظة على من ضيّعها وأهمّلها، بحيث لا يُقاس به حتى مرتكب الكبائر كالزنا وشرب الخمر، ويعلّل الإمام الصادق (عليه السلام) ذلك بقوله (لأن الزاني وما أشبهه إنما يفعل ذلك لمكان الشهوة لأنها تغلبه، وتارك الصلاة لا يتركها إلاّ استخفافاً بها)^(١).

حملة لتفعيل الصلاة في حياتنا:

إن من تكليفنا اليوم وفي كل يوم أن نطلق حملة شاملة لإعادة المسلمين إلى صلاتهم بالإقناع أو بالإلزام لمن كانت له سلطة وقيومة، كالوالدين على أبنائهم، أو إدارات المدارس على الطلبة، وأن نقوم بتيسير السبل لذلك من خلال إنشاء المصليات داخل الجامعات والمدارس والمؤسسات الحكومية، وتفعيل دور المساجد ونحوها من الآليات لتكون ممن تناله شفاعة النبي (صلى الله عليه وآله) والإمام جعفر الصادق (عليه السلام).

لذة الصلاة:

إن من استشعر العبودية لله تبارك وتعالى واعتزّ بها يجد في الصلاة لذة كبيرة، ولا يجد للحياة طعماً ولا معنى إذا خلت من الصلاة، ولا يكتفي بالصلوات المفروضة لأنه يجد الأوقات بينها كثيرة لا يتحملها بلا صلاة فيتنفل بما يسّر الله تعالى له خصوصاً في الليل، فإن ما بين المغرب والفجر وقت طويل.

عن الإمام الصادق (عليه السلام) - لما سُئِلَ عن أفضل الأعمال وأحبها إلى الله -

(١) الوسائل: باب ١١، ٢.

قال: (ما أعلم شيئاً بعد المعرفة أفضل من هذه الصلاة، ألا ترى أنّ العبد الصالح عيسى بن مريم قال: ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ﴾ (مريم: ٣١))^(١) وعن النبي (ﷺ) قال (ليكن أكثر همك الصلاة، فإنها رأس الإسلام بعد الإقرار بالدين)^(٢).

ولما سأل أبو ذر الغفاري رسول الله (ﷺ) عن الصلاة، قال (ﷺ): (خير موضوع، فمن شاء أقلّ ومن شاء أكثر)^(٣).

ولاشك أن الكلام عن الصلاة لا يستوعبه مجلس واحد، ولكننا أحببنا إثارة أصل الموضوع لأهميته ليكون فاتحة لعمل واسع بإذن الله تعالى، فلنحرص جميعاً على أن نكون ممن أحسن صلاته وأكثر منها وحافظ عليها في أوقاتها.

(١) الكافي: ٣ / ٢٦٤ / ح ١.

(٢) بحار الأنوار: ٧٧ / ١٢٧ / ح ٣٣.

(٣) معاني الأخبار: ٣٣٣ / ح ١.

﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ﴾

لكي نعالج العلل لا المعلولات فقط:

لا شك أنّ الابتلاءات التي تعصف بالعراق وأهله شديدة قلّما يتعرّض لمثلها شعب آخر، ولا تقتصر على الوضع الأمني الذي أصاب الناس بالخوف والقلق حيث لم تعد فيه مدينة آمنة، وإنّما يتعدّاه إلى الوضع الاقتصادي المزري بكثير من الناس، وكذا الجانب الخدمي والاجتماعي والسياسي البائس.

وهذه الأوضاع المزرية لها أسبابها طبعاً، والمصلح الحاذق - كالطبيب الماهر - يبحث عن علّة الداء فيعالجها، ولا يكتفي بمعالجة الأعراض المرضية ولسنا بصدد بيان هذه العلل، وإنّما نريد أن نلفت النظر، إلى أن هذه البلاءات يمكن أن يكون تأثيرها على الأمة إيجابياً فتكون سبباً ومقدمة ليقظة الأمة ونهضتها وحركتها نحو ما يصلحها ويعيد إليها عزّتها وكرامتها، ويمكن أن يكون دورها سلبياً فتكون سلباً ليأس الأمة وفشلها وإحباطها ونومها وانهارها، ومثال ذلك: أنّ من يكون متعباً بحاجة إلى النوم فإنّه يتشاءب، ومن يستيقظ من نومه يتشاءب، فالحالة واحدة وهي (التشاؤب) إلّا أنّها قد تكون مقدّمة ومؤشراً للصحة والاستيقاظ والنشاط والحيوية، وقد تكون علامة على الكسل والخمول والركود والنوم.

ولا شك أنّ المطلوب من الأمة الحيّة الواعية المتطلّعة إلى الارتقاء والازدهار، تجعل هذه الصعوبات والمحن والضغوط سبباً لتكاملها وتقدّمها

ويقظتها واستشعارها لمسؤولياتها.

درس من معركة أحد:

وهذا الدرس نستفيده من القرآن الكريم وهو يتناول تداعيات معركة أحد، قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ (النساء: ١٠٤) فالآية تدعو المؤمنين إلى عدم الضعف والاستكانة والانهازام أمام الضغوط والتحديات وأن لا يقصروا في متابعة القوم والاستمرار في مواجهتهم في كل ساحات العمل والتحدّي سواء كانت عقائدية أو فكرية أو اقتصادية أو اجتماعية أو سياسية أو عسكرية وغير ذلك، وتهيئة كل أسباب ومقومات هذه المواجهة، ولا يقعدكم ما يصيبكم من ألم القتل والجراح والخسائر والجهود، لأن الآخر يصيبه نفس ما يصيبكم ومع ذلك فإنه لا ينسحب من المواجهة ويستمر في استهدافكم فلماذا تشعرون أنتم بالوهن والضعف والانسحاب، مع أن عندكم ميزة ليست عند أعدائكم وهي أنكم ترجون ما عند الله تعالى من الرضوان ومجاورة أحبائه وأوليائه (صلوات الله عليهم أجمعين) وهذا يشكل حافزاً ودافعاً قوياً يفتقده خصمكم.

من كان مع الله كان الله معه:

ولهذا جاءت الآية الأخرى لتطمئن المؤمنين وتقول لهم ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران: ١٣٩) فالضعف والتخاذل والخوف والقلق غير مبرر لأنكم الأعلىون دائماً بطاعتكم لله تبارك وتعالى ورجائكم لما عنده وموالاة أوليائه، فأنتم أعلىون إن كنتم ترجون من الله تعالى

رضوانه.

وأنتم أيّها الأحبّة في الموصل وسهل نينوى قد كثر استهدافكم لأسباب سياسية واقتصادية وجغرافية وقومية وطائفية فكثير أعداؤكم وعظمت محنتكم، لكن لا يكن كل ذلك سبباً للتنصّل عن مسؤولياتكم التي يمكن أن نلفت النظر إلى عناوين بعضها:

- ١- وحدتكم لأنّ فيها قوّتكم وقدرتكم على تحصيل حقوقكم وتوجب احترام الآخرين بوجودكم، والالتفاف حول المخلصين من أبنائكم.
- ٢- تأسيس المنظمات الخيرية لمساعدة العوائل المحتاجة والأرامل والأيتام وهم كثر خلّفتهم المحنة الشديدة والطويلة والشرسة وقد أعطيت الأذن للمؤمنين بأن يصرفوا حقوقهم الشرعية في هذا المورد.
- ٣- تشجيع جملة من شبابكم الواعين المحبّين للعلم ليلتحقوا بالحوزة العلمية في النجف الأشرف ليكونوا حلقة الوصل مع المرجعية الرشيدة وليفقهوكم في الدين ليعزّزوا عقيدتكم ويثبّتوا قلوبكم على الحق.
- ٤- المواظبة على إقامة شعائر الدين من صلوات الجمعة والجماعة وإحياء الشعائر الحسينية وإعمار المساجد، وجعلها منبراً للتوعية والتربية والتزوّد بالأخلاق والمعرفة.

لكي تستجيبوا لله ورسوله:

وأنتم بالتزامكم بهذه الخطوات العملية وأمثالها تتحقّق استجابتكم للآية المتقدمة (وَلَا تَهْنُؤْا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ) لأنّ عدم الوهن يتحقّق من خلال الاستمرار بالنهوض بالواجبات التي أشرنا إلى عدد منها.

إنَّ المتقاعس والمتخاذل سوف لا ينجو من البلاء وسيصيبه بشكل أو بآخر فتكون خسارته مضاعفة لأنه سيدوق الألم وسيحرم من الأجر والثواب لأنه لم يربط لأداء مسؤولياته، فترون الانفجارات لا تفرق بين سني وشيعي أو عربي وشبكي أو صغير وكبير أو رجل وامرأة، عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال: (إنَّك إن صبرت جرت عليك المقادير وأنت مأجور، وإن جزعت جرت عليك المقادير وأنت مأزور)^(١) فالأقدار والبلاءات جارية على كل حال وأنت بموقفك - إيجاباً أو سلباً - محدّد أثرها عليك؛ والمهم أن تكون دائماً ممن ترجو الله تبارك وتعالى وتحسب عنده، واجعل هذا دائماً الفرق بينك وبين خصمك كما أشارت إليه الآية المتقدّمة ومحتكم هذه تلزم الجميع بالوقوف إلى جانبكم ومد يد العون لكم ورفع الظلم والحيث عنكم، وتؤكد أكثر على أبناء قوميتكم ومنطقتكم الذين تبوؤوا المواقع المتنفّذة بأصواتكم ولا يجوز لهم الانشغال عن همومكم وآلامكم بمصالحهم الشخصية والفئوية.

(١) منتخب ميزان الحكمة: ٣٦٠ رقم ٣٤٥٥.

القبس/٤١

سورة النساء: ﴿١١٢﴾

﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نُّجْوَاهُمْ﴾

موضوع القبس: مسؤولية الكلمة وأهميتها تأثيرها

(النجوى) هو الحديث المتخفي، وتبين الآية الكريمة أن كثيراً من الكلام الذي يتهامس به الناس ويتداولونه في مجالسهم لا خير فيه لذا فانهم يتحدثون به خفية وتدعوهم الآية الى ان تكون احاديثهم ثمرة ومنتجته لذا استثنت الآية وقالت (الا من امر بصدقة او معروف او اصلاح بين الناس بهذا المضمون وردت الآية الأخيرة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ (المجادلة: ٩) فالمشكلة ليست في اسرار الحديث واخفائه وانما في مضمونه ومؤداه والغرض منه، اذ من المعلوم ان بعض احاديث الخير والمعروف والاصلاح تجري سراً وفي الكتمان لمصلحة ما، كالاصلاح بين الزوجين، وكاحاديث الوعي الاسلامي في زمن الطواغيت ونحو ذلك.

فعلينا ان ندرك أهمية (الكلمة) فانها من أوسع القنوات الموصلة إلى رضا الله تبارك وتعالى فمن خلالها تكون النصيحة وبها تتم الموعظة وتجري الهداية ويتحقق الإصلاح وينتشر العلم والمعرفة وتبنى الحضارة وتتقدم الإنسانية وتتكامل التربية فهي وعاء لهذه الطاعات العظيمة وغيرها.

ورد في الرواية انه سئل علي بن الحسين (عليه السلام) عن الكلام والسكوت أيهما

أفضل؟

فقال (عليه السلام): لكل واحد منهما آفات، فإذا سلما من الآفات فالكلام أفضل من السكوت، قيل: كيف ذلك يا ابن رسول الله (ﷺ) قال: لان الله عز وجل ما بعث الأنبياء والأوصياء بالسكوت، إنما بعثهم بالكلام، ولا استحققت الجنة بالسكوت، ولا استوجبت ولاية الله بالسكوت، ولا توقيت النار بالسكوت، إنما ذلك كله بالكلام، ما كنت لأعدل القمر بالشمس، إنك تصف فضل السكوت بالكلام ولست تصف فضل الكلام بالسكوت^(١) ففهم الإمام من حاله انه واقع في شبهة أن السكوت واعتزال الناس ومقاطعتهم أفضل لما بلغه من الأحاديث الشريفة التي تحث على السكوت وقلة الكلام فبين له الإمام (عليه السلام) أن الكلام إذا كان خالياً من السوء والفحشاء فهو أفضل بالتأكيد وقال له: وهل بُعث الأنبياء إلا بالكلام، قال تعالى: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ (النساء: ١١٤) حتى عُذَّت (الكلمة الطيبة صدقة)^(٢) في بعض الأحاديث.

وفي المقابل فإن الكلمة السيئة لها ضرر بليغ ومدمر وإن كثيراً من الكبائر التي وعد الله بها النار مرتبطة بالكلمة كالغيبة والنميمة والبهتان والكذب والافتراء والسب والشتم والإيذاء وإشاعة الفاحشة وغيرها لذا ورد في الحديث (وهل يكب الناس على مناخرهم في النار إلا حصائد ألسنتهم)^(٣) وألف العلماء

(١) بحار الانوار: ج ٦٨ / ص ٢٧٤ / ح ٣.

(٢) وسائل الشيعة: كتاب الصلاة، أبواب احكام المساجد، باب ٢٧، ح ٣.

(٣) الكافي: ج ٢ / ص ١١٥.

والمربون والأخلاقون كتباً في (آفات اللسان).

لذلك خصص المشرع الأقدس حصة كبيرة من تعاليمه لتهديب هذه الكلمة وتوجيهها لتكون نافعة ببناء فرس ملامح الكلمة الطيبة ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ ١. تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴿إِبْرَاهِيمَ: ٢٢-٢٥﴾ وحذر من ضرر الكلمة الخبيثة ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ (إبراهيم: ٦١) وحذر من مغبة الكلمة الضارة.

فمثلاً اعتبر من يقول ولو شطر كلمة في المشرق فقتل بها شخص في المغرب اعتبره قاتلاً، كما يفعل اليوم صناع ثقافة التكفير والقتل والظلم والعدوان فيطيعهم وينخدع بضلالاتهم شخص في المشرق أو المغرب ويقوم بعملية إجرامية يكون وزرها الأول على صانع هذه الثقافة.

ويوجد بهذا الصدد حديث شريف مهم ويشكل ضربة قاضية لهؤلاء الذين يروجون صناعة القتل والرعب لمجرد الاختلاف في الرأي أو تضرر المصالح فقد روى الإمام الصادق (عليه السلام) عن جده رسول الله (صلى الله عليه وآله) (أنه قال "يعذب الله اللسان بعذاب لا يعذب به شيئاً من الجوارح فيقول: أي رب عذبتني بعذاب لم تعذب به شيئاً، فيقال له: خرجت عنك كلمة فبلغت مشارق الأرض ومغاربها فسفك بها الدم الحرام وعزتي لأعذبنك بعذاب لا أعذب به شيئاً من جوارحك")^(١). فإذا استشعرنا هذه الأهمية فإن هذا الشعور سينظم برامج التعامل مع الكلمة

(١) وسائل الشيعة، مج ٨، كتاب القضاء، أبواب صفات القاضي، باب ٤، ح ٤.

وسيراقبها ويتحكم بها، فإن الكلمة في وثاقتك وتحت سيطرتك ما دمت لم تطلقها فإذا أطلقتها فستكون أنت في وثاقها وتحمل تبعاتها ومسؤوليتها، وكم شخص ذهب ضحية الكلمة سواء في الدنيا أو في الآخرة كقاضي القضاة للمعتصم العباسي الذي وشى بالإمام الجواد (عليه السلام) وهو يعلم أن ذلك سيخلّده في النار كما قال هو نفسه.

ونحن اليوم نشهد ثورة معلوماتية هائلة وتكنولوجيا اتصالات عظيمة لم تحلم بها البشرية من قبل، تفتح لنا الأبواب الواسعة لإيصال خطاب السلام والسعادة للبشرية، ولم يعد الطغاة قادرين على حبس الكلمة ومنع وصولها إلى الناس كما كانوا يفعلون عبر التاريخ ولسانهم واحد ﴿مَا أَرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى﴾ (غافر: ٢٩)، واضطر الإسلام لحمل السيف في وجوه هؤلاء الطغاة ليحرّر شعوبهم من عبادتهم ويترك لهم الخيار في اعتناق العقيدة التي يقتنعون بها تحت شعار ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ (البقرة: ٢٥٦) و﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ (الأنفال: ٤٤) و﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ (الكهف: ٢٩) و﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ (الإنسان: ٣) وشجّع الحوار وثقافة الرأي الآخر ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ (البقرة: ١١١) ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (العنكبوت: ٤٦) ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (النحل: ١٢٥).

كما أننا نعيش بفضل الله تبارك وتعالى فرصة عظيمة لإيصال الكلمة الطيبة إلى مسامع العالم التواق للسلام والسعادة والخير، بعد أن فشلت أمامه كل

الأيديولوجيات وبعد أن فشل غير اتباع أهل البيت (عليه السلام) في عرض الإسلام بشكله الصحيح مما اوجب نفوراً وارتداداً لدى معتنقيه، فالعالم كله ينتظر منكم يا اتباع أهل البيت (عليه السلام) أن تعكسوا لهم الصورة النقية الناصعة للإسلام المملوءة بالرحمة وحب الخير والسلام والطمأنينة لكل البشر.

وقد مرّت علينا عقود من سنيّ الكبت وسلب الحرّيات والحجر على الكلام، وقد أزاله الله تعالى ليلبونا أنشكر ونؤدي حق هذه النعمة، أم نكفر والعياذ بالله ونسيء استخدام هذه الحرية.

فهذه عوامل ثلاثة:

- ١- وسائل الاتصالات المتطورة.
- ٢- فشل الإيديولوجيات في تحقيق السعادة للبشرية وتوفير الأمن والسلام والطمأنينة لها.
- ٣- توفر الحرية الكاملة لممارسة الدعوة إلى الله تبارك وتعالى والحق والهداية والصالح.

تضاعف علينا مسؤولية استثمار (الكلمة) في أداء الرسالة التي ائتمنا الله تبارك وتعالى وقبلنا حملها بعد أن اعتذرت السماوات والأرض وسائر المخلوقات عن حملها ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ ﴿الأحزاب: ٧٢﴾

القبس/٤٢

سورة النساء: ﴿١٤٢﴾

﴿مُذَبِّبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾

موضوع القبس: التذبذب في المواقف

العلم وحده لا يكفي:

لا شك أن الحديث عن فضل العلم وطلبه، وفضل العلماء ودرجاتهم لا ينقضي، والأقلام التي تكتب عنه لا تجف ولن تجف إن شاء الله تعالى، لكن الحديث عن العلم وحده لا يكفي، لأن العلم وحده لا يكفي، ولا بد أن ينضم إليه الحديث عن العمل بهذا العلم، وإلا فإن الكثير ممن ضلوا وانحرفوا وأضلوا لم تكن مشكلتهم في نقص العلم، بالعكس فقد كان لديهم علم كثير، وما استطاعوا أن يخلقوا فتنة في المجتمع، ويضلوا أمة كثيرة من الناس إلا من جهة أن عندهم علماً فاستطاعوا التأثير في الناس، وبدون ذلك العلم لم يكن أحدٌ يعاب بهم. فالعلم قد يكون وبالأعلى صاحبه، والأحاديث في ذلك كثيرة^(١) حتى جعلت أشد الناس حسرة يوم القيامة شخصاً حمل علماً ونقله إلى الآخرين فاستفادوا منه، لكنه هو لم ينتفع منه ولم يعمل به.

(١) ورد النبي (ﷺ) قوله: (أشد الناس حسرة يوم القيامة عالم علم الناس ونجوا به، وارتهن هو بسوء عمله) الإمتاع والمؤانسة، أبي حيان التوحيد، ص ٢٤٤، وعن يزيد الصائغ، عن أبي جعفر (عليه السلام)، قال: (يا يزيد ان أشد الناس حسرة يوم القيامة الذين وصفوا العدل ثم خالفوه، وهو قول الله عز وجل: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾ (الزمر: ٥٦)) المحاسن - أحمد البرقي: ج ١/ ص ١٨٠.

نماذج من علماء السوء:

وقد ذكرنا في حديث سابق مثلاً على ذلك وهو علي بن أبي حمزة البطائني^(١) الذي تزعم انشاقاً على الإمام الرضا (عليه السلام)، وكان عنده علم كثير ورواياته تملأ الكتب وشبهه الإمام الكاظم (عليه السلام) هو وأصحابه بالحمير ليذكره بالآية الشريفة ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (الجمعة: ٥٥).

ميادين العلم:

والعمل بالعلم له ميادين (أولها) النفس فيصلحها ويهذبها ويكاملها (ثم) المجتمع فينقل ما تعلمه وعمل به إلى الآخرين ليساعدهم على الصلاح والهداية، فإن زكاة العلم إنفاقه وبذله للآخرين، والعلم يزكو وينمو ويبارك فيه بالإنفاق^(٢).

مُذَبِّدِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ:

ومع وضوح هذه المقدمة، إلا أننا نشهد اليوم أمثلة كثيرة على عدم العمل

(١) أنظر: ترجمة علي بن أبي حمزة البطائني في معجم رجال الحديث: ٢٣٩/١٢، ورجال الكشي رقم ٣١٠.

(٢) قال كميل بن زياد: أخذ بيدي أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام)، فأخرجني إلى الجبان، فلما أصرحت بنفسي الصغداء، إلى أن قال: (يَا كَمِيلُ، الْعِلْمُ خَيْرٌ مِنَ الْمَالِ، الْعِلْمُ يَحْرُسُكَ وَأَنْتَ تَحْرُسُ الْمَالَ. وَالْمَالُ تَنْفُسُ الْفَقَةِ، وَالْعِلْمُ يَرْكُو عَلَى الْإِتِّفَاقِ، وَصَنِيعُ الْمَالِ يَزُولُ بِزَوَالِهِ. يَا كَمِيلُ بْنُ زِيَادَ، مَعْرِفَةُ الْعِلْمِ دِينٌ يُدَانُ بِهِ، بِهِ يَكْسِبُ الْإِنْسَانُ الطَّاعَةَ فِي حَيَاتِهِ، وَجَمِيلَ الْأُخْدُوثةِ بَعْدَ وَفَاتِهِ. وَالْعِلْمُ حَاكِمٌ، وَالْمَالُ مَحْكُومٌ عَلَيْهِ) نهج البلاغة: ٣٣٩.

بالعلم وعدم تحويله إلى واقع نعيشه ونتمثله في حياتنا، في أوساط من يسمون بالمتدينين فضلاً عن غيرهم، والمورد الذي أريد أن أذكره محاولة البعض منهم أن يخوض في الدنيا ويمعن في طلبها مع زعمه المحافظة على دينه وآخرته، وهو أعجز من تحقيق ذلك؛ لأن الآخرة والدنيا بهذا الشكل ضرّتان لا تجتمعان كما ورد في الحديث الشريف (الدنيا والآخرة ضرّتان بقدر ما تقرب من أحدهما تبعد عن الأخرى)^(١)، وكان يمكنه أن يجعل الدنيا مزرعة للآخرة، فإن الكمالات والجنان لا تنال إلا بهذه الدنيا.

فتوجد فئة من الناس تحاول أن تنال الدنيا التي فتحت أبواب كثيرة لها اليوم من الامتيازات والمصالح من خلال العمل مع جهة ما، لها نفوذها وتسلطها ومواقعها ومناصبها، مع الاعتراف بأنها لا توصل للآخرة بل تصد عنها، ويقول إنني ما زلت أرجع في الأمور الدينية إلى الجهة الفلانية التي يعتقد أنها مبرئة للذمة أمام الله تعالى، وكأنّه لا تنافي بين الأمرين، وأنّه يمكن أن يكون مع جهة في دينه، ومع جهة أخرى في دنياءه، وهو بذلك يخدع نفسه ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ (النساء: ١٤٢) فهم ممن وصفهم الله تعالى ﴿مُذَبِّبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ (النساء: ١٤٣).

فمثل هذا الشخص يسقط ولا يستطيع المقاومة حتى النهاية، فإذا أراد الخير لنفسه فليحزم أمره وليتخذ موقفاً حاسماً بأن يجعل الله تعالى نصب عينيه ويختار ما فيه سلامة دينه ويتبع الجهة التي تبرأ ذمته وتوصله إلى الفلاح فيما يحب ويكره،

(١) عوالي اللثالي - ابن أبي جمهور: ٢٧٧/١.

فيأتمر بأمرها وينتهي بنهيتها ويعمل ضمن إطارها.

كربلاء: نموذج لصراع الدنيا والآخرة:

وأمامنا مثالان من كربلاء وهما يعبران عن حالة التنازع هذه والنتيجة التي انتهوا إليها.

أحدهما: عمر بن سعد فقد حاول أن يتجنب قتال الحسين (عليه السلام) ويتبعد عن هذه الجريمة العظمى بالتوجه إلى إحدى الولايات، لكنه بقي محبباً للعالم مع ابن زياد وله طمع في نيل ولاية الري وجرجان، حتى وصل إلى مفترق الطريق عندما كلفه ابن زياد بقيادة الجيش الذي خرج لقتال الحسين (عليه السلام)، وبات تلك الليلة في حيرة وترددٍ شديدين كما يظهر من أبياته الشعرية التي قالها:

أترك ملك الري والري مُنيّتي أم ارجع مأثوماً بقتل حسين^(١)

وخرج إلى كربلاء على رأس الجيش ولكنه ظلّ يتأمل أن يأخذ الدنيا بيد من دون أن يخسر الآخرة باليد الأخرى وبقي أياماً في كربلاء يجتمع مع الحسين (عليه السلام) في خيمة نصبت لهما ويتبادلان الأحاديث، والإمام (عليه السلام) يبذل المحاولات لإقناعه بالعدول عن هذا الخسران الممين، حتى جاء الشمر بكتابٍ من ابن زياد يأمره بمناجزة الحسين (عليه السلام) الحرب أو ترك قيادة الجيش للشمر، وهنا سقط ابن سعد واختار الدنيا فخسر آخرته ودنياه ولم يستطع الجمع بينهما.

ثانيهما: الحرّ الرياحي^(٢) الذي كان قائداً في الجيش الأموي وخرج على

(١) أنظر: مقتل الحسين (عليه السلام) للخوارزمي: ٣٥١/١.

(٢) أنظر: مقتل الحسين (عليه السلام)، أبو مخنف الأزدي: ١٣٤.

رأس ألف فارس لاعتراض الإمام (عليه السلام) في الطريق بعد دخوله العراق والمجيء به إلى الكوفة، وحاول أيضاً أن يحتفظ بموقعه وامتيازاته من دون أن يتورط في دم الحسين (عليه السلام)، فنقذ أوامر قيادته بمنع الحسين (عليه السلام) من الرجوع إلى الحجاز، إلا أنه طلب منه (عليه السلام) أن يذهب باتجاه لا يمر بالكوفة فاختار (عليه السلام) طريق كربلاء وظل الحر يسايره، وهو يتمنى العافية والسلامة وأن لا تنتهي الأمور إلى القتال ويبقى محتفظاً بامتيازاته، إلا أنه في النهاية وصل إلى ساعة الحسم يوم عاشوراء حينما وقع القتال، فعاش صراعاً قاسياً ومريراً جعله يرتعد ويرتجف بدرجة استغربها من حوله وظنوا أنه جبن من المواجهة، فقال له أحدهم: لو قيل من أشجع أهل الكوفة لما عدوناك فما هذا الخوف؟ قال: ويلك إنني أخير نفسي بين الجنة والنار ولا أختار على الجنة شيئاً، وأدركه اللطف الإلهي واستنقذه من النار ونقله إلى حيث السعادة الأبدية، ولم يستطع أي أحد غيره أن يتخذ نفس الموقف لشدة وصعوبته.

ولو كان كل من هذين النموذجين قد ترك طلب الدنيا وتخلّى عن زينتها الزائفة ليضمن آخرته من أول الأمر لما وقع في هذا المأزق الكبير الذي لا ينجح فيها إلا من عصم الله تعالى.

كونوا من السابقين:

وهنا تبرز الفئة الثالثة التي حسمت أمرها من البداية واتبعت الحق ولم تؤثر عليه شيئاً كعلي بن الحسين الأكبر (صلوات الله عليهما) الذي يجيب أباه لما علم منه أنهم سائرون إلى الموت بقوله: (يا أبت لا أراك الله سوءاً، ألسنا على الحق؟ قال: «بلى، والذي إليه مرجع العباد») قال: فإننا إذاً لا نبالي أن نموت مُحَقِّين؛ فقال

له الحسين (عليه السلام): «جزاك الله من ولدٍ خيرٍ ما جرى ولدًا عن والده»^(١).

فمثل هذا الفريق نجح من أول الأمر ولا يعاني ولا يجد صعوبة ولا تردداً ويمضي قدماً.

فعلينا - أيها الأحبة - أن نحذر أنفسنا ثم الآخرين من الإقدام على ما يوجب زلل الأقدام ويقرب من حافة الهاوية مغترين بالقدرة على النجاة في ساحة الحسم والامتحان، فإنها مجازفة غير مأمونة العواقب حينما نضع رجلاً هنا ورجلاً هناك، والدنيا مليئة بالامتحانات والفتن.

وهذا ما حاوله من قبل أبو هريرة فينقل^(٢) أنه كان يصلي مع علي (عليه السلام) ويأكل من موائد معاوية فإذا وقعت المعركة انحاز إلى الجبل، ف قيل له في ذلك قال: الصلاة مع علي أتم والأكل مع معاوية أدمم والجبل أسلم، وحاول بحسب زعمه أن يحصل على الآخرة مع علي (عليه السلام) وعلى الدنيا مع معاوية، لكن هذا غير ممكن وما كان لمعاوية أن يدعه يتمتع بديناه بلا ثمن وهو أن يبيع له دينه كعمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة.

وعلينا أن نستفيد من علمنا لأنفسنا وللآخرين ونحسم أمرنا باتباع الحق وسوف يجمع الله تعالى لنا الدنيا والآخرة بفضلِهِ وكرمه.

(١) أنظر: الإرشاد للمفيد: ٨٢/٢.

(٢) شذرات الذهب في أخبار من ذهب - ابن العماد الحنبلي: ٢٦٥/١.

القبس/٤٣

سورة النساء: ﴿١٤٨﴾

﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلِمَ﴾

موضوع القبس: مسؤولية الاعلام والنشر

قال الله تبارك وتعالى: ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً عَلِيماً﴾ (النساء: ﴿١٤٨﴾)، وتبين الآية أدباً من آداب الإسلام في عدم جواز إظهار عيوب الناس ومثالبهم حسداً أو تشفيماً أو فضولاً أو مجاملة ونحو ذلك، لما فيه من مفسدات كثيرة سنشير إليها إن شاء الله تعالى، وهذا الأدب فيه تأسس بصفة من صفات الله الحسنى وهو ستار العيوب.

﴿لَا يُحِبُّ﴾ تعبير آخر عن المبعوضة، فما لا يحبه الله يعني أنه مكروه عنده سبحانه ولا يريده، لعدم وجود منطقة رمادية تحتمل الأمرين كما عندنا نحن البشر؛ لأنها نابعة من الجهل أو الضعف أو المداهنة ونحو ذلك من الأسباب التي يتنزه الله سبحانه عنها، ومحبة الله تعالى ثوابه وحسن جزائه، وبغض الله تعالى عقابه وعدم استحقاق رحمته، لتنزهه تعالى عن الحب والبغض الموجود في المخلوقات إلا أنه تعبير كنائي عن الإرادة وعدم الإرادة باعتبار أن الحب والبغض هما باعثان لهما.

﴿الْجَهْرَ بِالسُّوءِ﴾ إعلانه وإظهاره وإذاعته ونشره وإطلاع الناس عليه، وبالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ كل كلام سيئ في نفسه أو يسوء الآخر، وهو هنا مطلق يشمل كل قبيح على مستوى الفرد أو المجتمع، فمن الجهر بالسوء على صعيد الأفراد

إيذاء الآخرين بكلمات جارحة، أو الافتراء عليهم واتهامهم بأمور هم بريئون منها، أو نقل أخبار عن أشخاص وترويجها لمجرد أنه رآها في بعض مواقع التواصل الاجتماعي والقنوات الإعلامية من دون تثبت وتحقيق، ومنه أيضاً النشر العلني لكلام قاله شخص في مجلس خاص ولا يرضى بنشره، أو فضح شخص فعل سيئة سراً أو مجلس خاص فسربها أحدهم ونشرها، روى في تفسير العياشي عن الإمام الصادق (عليه السلام) قوله: (الجهر بالسوء من القول أن يذكر الرجل بما فيه)^(١).

أقول: أما ذكره بما ليس فيه فهذا بهتان عظيم.

ومن الجهر بالسوء التنايز والتعير بالألقاب والأنساب والانتماءات كالقومية أو اللون أو العشيرة أو المدينة أو المهنة أو الشريحة الاجتماعية التي تؤذي صاحبها، روى الشيخ الكليني بسنده عن عمرو بن نعمان الجعفي قال: (كان لأبي عبد الله (عليه السلام) صديق لا يكاد يفارقه إذا ذهب مكاناً، فينما هو يمشي معه في الحدائين ومعه غلام له سِنديّ يمشي خلفهما إذا التفت الرجل يريد غلامه ثلاث مرات فلم يره فلما نظر في الرابعة قال: يا ابن الفاعلة أين كنت؟ قال: فرفع أبو عبد الله (عليه السلام) يده فصفك بها جبهة نفسه، ثم قال: سبحان الله تقذف أمه! قد كنت أرى أن لك ورعاً فإذا ليس لك ورع، فقال: جُعِلت فداك، إن أمه سنديّة مشركة، فقال: أما علمت أن لكل أمة نكاحاً، تنحّ عني، قال: فما رأيت يمشي معه حتى فرّق الموت بينهما. وفي رواية أخرى: إن لكل أمة نكاحاً تحتجزون به من

(١) تفسير العياشي: ج ١ / ص ٢٨٣. إذا قرئ (يذكر) فهذا تعريف الغيبة، وبالتشديد (يذكر) فهو من

التعير والتحقير، وكلاهما من السوء.

الزنا^(١).

أقول: عاقبه الإمام (عليه السلام) بهذه المقاطعة القاسية لأنه قال كلمة مسيئة تؤذي الآخر، وهو يظن أنها كلمة حق باعتبار أن أم العبد كانت مشركة فلم تتزوج بنكاح الإسلام فتكون زانية.

ومن الجهر بالسوء على صعيد المجتمع نشر الضلالات والشبهات والعقائد المنحرفة، والتشكيك في العقائد الحقّة، وترويج الأخبار المكذوبة، وكل ما يدعو إلى الفسق والفجور والانحراف، أو ما يثير الفتن ويمزق المجتمع، أو الدعوة إلى أشخاص غير صالحين وتحبيبتهم إلى الناس.

ومن الجهر بالسوء إسباغ الصفات المقدّسة والألقاب العظيمة لمن لا يستحقها، والمدح والثناء بأعمال لم يقم بها، فعلى الممدوح أن يرفضها ويستنكرها، فقد روى القمي في تفسيره عن الإمام (عليه السلام) قال: (إن جاءك رجل وقال فيك ما ليس فيك من الخير والثناء والعمل الصالح فلا تقبله منه وكذّبه، فقد ظلمك)^(٢).

وإنما حرّم الجهر بالسوء لأنه سبب نشر العداوة والبغضاء والحقّد في أوساط المؤمنين مما يؤدي إلى تنازعهم وتفرّقهم وتمزّق وحدة المؤمنين، ولأن الجهر بالسوء يشجّع ضعاف النفوس على إشاعة الفحش والكلام البذيء ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (النور: ١٩).

(١) الكافي: ج ٢، ص ٤٢٣.

(٢) تفسير القمي: ١٤٥.

فلا بد أن يلتفت من لا يتورع عن نشر القول السيئ إلى أنه يمكن أن يوصل المجتمع إلى هذه النتائج.

ومن المؤسف ان نجد أكثر الأخبار رواجاً لدى المتابعين هي أخبار الفضائح والتسقيط (ونشر الغسيل) كما يعبرون فتحوّلت هذه الوسائل من التواصل الاجتماعي إلى التقاطع الاجتماعي بسوء تصرف الناس وظلمهم لأنفسهم.

﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَذِنَ لَهُ فِي الرَّدِّ عَلَى الظَّالِمِ وَكَفَلَ لَهُ حَقَّ التَّظَلُّمِ، وَإِنَّ مَنْ دَافَعَ عَنْ نَفْسِهِ، وَنَفَى افْتِرَاءَاتٍ نَسَبَتْ إِلَيْهِ وَفَضَحَ مَكَائِدَ ظَالِمٍ لَهُ، وَذَكَرَ مَظْلُومِيَّتَهُ عِنْدَ مَنْ يَرْجُوهِ لِرَفْعِ الظُّلْمِ عَنْهُ لَا يَكُونُ فَعْلُهُ مَبْغُوضاً وَهُوَ مُسْتَثْنَى مِنْ حَرَمَةِ نَشْرِ فَضَائِحِ النَّاسِ وَإِذَاعَةِ مَا أَسْرَوْهُ مِنْ ظُلْمٍ وَسُوءٍ وَلَا حَرَمَةِ لِمَثَلِ هَذَا الظَّالِمِ، وَإِنْ فِي التَّشْهِيرِ بِهِ إِذْلَالاً لَهُ وَاسْقَاطاً لِسَمْعَتِهِ بَيْنَ النَّاسِ حَتَّى يَتَوَقَّفَ مِنْ يَفْكُرَ بِالظُّلْمِ عَنْ فَعْلِهِ ﴿وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِّنْ سَبِيلٍ﴾ ٥١ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿الشورى: ٥١-٥٢﴾، بل قد يكون المَبْغُوضُ عَدَمُ دِفَاعِ الْمَظْلُومِ عَنْ نَفْسِهِ وَاسْتِكَانَتِهِ وَخُنُوعِهِ لِلظُّلْمِ وَالْبَغْيِ؛ لَذَا مَدَحَ اللَّهُ قَوْماً بِقَوْلِهِ: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾ (الشورى: ٣٩).

روى في مجمع البيان عن الإمام الباقر (عليه السلام) قوله: (فلا بأس للمظلوم أن ينتصر ممن ظلمه بما يجوز الانتصار به في الدين)^(١)، أي من دون أن يتجاوز حدود الحق، فلا يجوز اغتيال الظالم الا للمظلوم وفي خصوص مورد الظلم، ولذا

(١) مجمع البيان، للشيخ الطبرسي: ج ٣، ص ٢٢٥.

انتهت الآية بقوله تعالى ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ (النساء: ١٦٨) فلا يغيب عنه ظلم الظالم ولا تجاوز المظلوم حقه.

وعلى هذا فإنه يمكن أن يفهم قوله تعالى ﴿إِلَّا مَنْ ظَلِمَ﴾ على عدة وجوه:
١- من وقع عليه الظلم فله أن يجهر بالسوء لدفع الظلم عنه وهو الأقرب لأنه المعنى الظاهر ولا يحتاج إلى تقدير وهو المروي كقوله (عليه السلام) في تفسير علي بن إبراهيم (أي لا يحب أن يجهر الرجل بالظلم والسوء ويظلم الا من ظلم فقد أطلق له أن يعارضه بالظلم)^(١).

٢- الا لمن ظلم: فيجب الدفاع عن كل مظلوم لا يستطيع رد الظلم وأخذ حقه.

٣- على من ظلم: وهو المظلوم الخانع المستسلم الذي لا ينتصر لنفسه.
واتضح مما تقدم ان ﴿مَنْ ظَلِمَ﴾ لا تختص بمن وقع عليه ظلم شخصي في نفسه أو ماله أو سمعته، وإنما تشمل الظلم النوعي، فالإلحاد ظلم لي أنا الموحد لله تعالى، والإساءة إلى رسول الله (ﷺ) أو التحريف في الدين ظلم لي أنا المسلم، وتسخيف قضية المهدي (عجل الله فرجه) أو الشعائر الحسينية ظلم لي أنا الموالي لأهل البيت (عليهم السلام)، ونشر المثلية وتحوّل الجنس ظلم لي أنا الإنسان ذو الفطرة السليمة، فعليّ أن أنتصر وأدفع الظلم إذا وقع أي شيء من هذا، روي عن الإمام الباقر (عليه السلام): (ثلاثة ليست لهم حرمة: صاحب هوى مبتدع، والإمام الجائر، والفاسق المعلن الفسق)^(٢)، وروى الشيخ الكليني بسنده عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال (قال

(١) تفسير القمي: ١٥٧/١.

(٢) قرب الإسناد: ١٧٦/ح ٦٤٥.

رسول الله (ﷺ): إذا رأيتم أهل الريب والبدع من بعدي فأظهروا البراءة منهم وأكثروا من سبهم، والقول فيهم والوقعة، وباهتوهم كيلا يطمعوا في الفساد في الإسلام، ويحذرهم الناس ولا يتعلموا من بدعهم يكتب الله لكم بذلك الحسنات ويرفع لكم به الدرجات في الآخرة^(١).

وقد استثنت الروايات أيضاً من حرمة قول السوء عدة موارد منها: لدفع الضرر عن المغتاب^(٢) ولنصح المستشير، والنهي عن المنكر وابطال شهادة الفاسق. وقد شرّع هذا الاستثناء ليردع المجاهرين بالسوء، ويمنع اتكالهم على حرمة الغيبة فيفعلون ما يشاؤون ظلماً وعدواناً، وليكفل للمظلوم حقه في الدفاع عن نفسه، ولا تكون حرمة الغيبة سبباً لحرمانه من هذا الحق.

ولكي لا يحصل تنافي بين هذا الحكم وما ورد من استحباب العفو والصفح لا بد أن نعرف لكل منهما مورده بحسب الأولوية، فقد يكون العفو والصفح والستر على فاعل السوء أولى في ندمه وتوبته، أو يكون في الجهر بالسوء على الظالم تشجيع له على التماذي في ظلمه لسقوط جلباب الحياء ونحو ذلك فلا يصح الجهر بالسوء، وقد يكون في الردّ عليه وفضحه علاج له لردعه وكفّه عن الظلم وفعل السوء وحينئذٍ يكون الجهر بالسوء راجحاً ولا يحمد العفو والسكوت. بل قد يكون من المستثنى من ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ﴾ هو توبيخ

(١) بحار الأنوار: ج ٧٤/ص ٢٠٢.

(٢) كالرواية الصحيحة التي وردت عن الإمام الصادق (عليه السلام) في ذم زرارة وهو من خيرة أصحابه ثم فسرها الإمام (عليه السلام) بحمايته من السلطة الجائرة كخرق العبد الصالح لسفينة المساكين لدفع غضب الظالم لها. (أنظر: رجال الكشي: ٣٤٩/١ ح ٢٢١).

وزجر المظلوم الذي لا يفعل ما يستطيع لدفع الظلم فإنه ليس من الجهر بالسوء توبيخ هذا المظلوم المتخاذل؛ لأن هذا الزجر والتوبيخ من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهما أقوى عون وناصر لدين الله تعالى وأوليائه العظام.

وجملة ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ﴾ لها مفهوم حاصله: أن الله تعالى يحب الجهر بالخير والمعروف والطيب من القول، وقد أشارت إليه الآية التالية: ﴿إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تُعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفْوًا قَدِيرًا﴾ (النساء: ١٤٩)، قال تعالى ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ١١٤).

أرجو أن يكون يوم المنبر في الأول من صفر القادم فرصة لانطلاقة جديدة وقفزة في مشروع الدعوة إلى الله تبارك وتعالى وأوليائه العظام، فالمصطلح يسميكم منصّة ونحن نسميكم منبراً للإسلام ولالحق ولما فيه خير الإنسانية وصلاحها، ولا بد من تكريس المنابر الإعلامية لهذه الأغراض النبيلة.

فائدة: الآية مما يستدل به على أن الأحكام تابعة للمصالح والمفاسد في متعلقاتها، وأنه عند التزاحم يقدم الأهم على المهم.

ويستدل بها على الرخصة في استعمال الثقة، فإن من ظلم وهُدّد وقهر له ان يجهر بالسوء من القول المخالف لعقيدته لكي يدفع عن نفسه الضرر.

ملحق / الثبات على الحق في زمان الفتن

روى الشيخ الصدوق (رضوان الله تعالى عليه) في إكمال الدين بسنده عن عبد الله بن سنان قال: (قال أبو عبد الله (عليه السلام): ستصيبكم شبهة فتبقون بلا علم يرى ولا إمام هدى، لا ينجو منها إلا من دعا بدعاء الغريق، قلت: وكيف دعاء الغريق؟ قال: تقول: يا الله يا رحمان يا رحيم، يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك، فقلت: يا مقلب القلوب والأبصار ثبت قلبي على دينك، فقال: إن الله عز وجل مقلب القلوب والأبصار ولكن قل كما أقول: يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك^(١)).

يرسل الإمام الصادق (عليه السلام) إلى شيعته في زمان الغيبة الكبرى هذه الرسالة ليُعدَّهم ويدلِّهم على طريق النجاة من الفتن التي ستعصف بهم، ولا يوجد بينهم إمام معصوم يرجعون إليه، وإن وجدت علومهم (عليه السلام) عبر الروايات التي نقلها أصحابهم البررة إلا أنها اختلطت بالمكذوبة والمدسوسة والمحرّفة، واختلفت فيها الأنظار والاجتهادات والتأويلات، فأصبح تمييز الحق فيها ومعرفته صعباً، لا يهتدي إليه إلا من بلغ أسنى المراتب العلمية، وحباه الله تعالى بنور البصيرة والفتنة، وجعل له فرقاناً يفرز الحق من الباطل والشبهات والضلالات.

وتفيد الرواية وغيرها أن الشبهات والفتن واقعة حتماً، وتزداد تعقيداً وصعوبة كلما تقدم الزمان، واستحدثت وسائل شيطانية لم تكن معروفة من قبل حتى بلغت ذروتها في زماننا الحاضر وهي تنذر بالمزيد من التسافل والانحطاط، فهذا واقع مفروض وإنما الكلام في الخطوة التالية وهي كيفية مواجهة تلك الفتن

(١) كمال الدين وتمام النعمة - الشيخ الصدوق: ٣٥١/٢ ح ٥٠.

والخروج منها بسلام.

وقد علّمنا الإمام (عليه السلام) من خلال الدعاء هذه الكيفية، اذ الدعاء في مدرسة أهل البيت (عليه السلام) ليس مجرد كلمات يحرك الإنسان بها لسانه، وإن كان في ذلك ثواب لمن قرأها، وإنما يمثل مدرسة تنهل منها الإنسانية العقائد الحقة والعلوم والمعارف النافعة والأخلاق الفاضلة، حيث كان الدعاء وسيلتهم لتزويد الأمة بها بعد أن ضيق الطغاة عليهم الخناق.

والدعاء ليس مجرد طلب من الله تعالى بدون عمل، فمن طلب الرزق وجلس في بيته يلعب ويعبث يعدّ ساخراً من نفسه، والمفروض أن يسعى ويتعرض للرزق، وكما قيل: خطوة من الرب وخطوة من العبد، فالإمام (عليه السلام) لما يعلم هذا الدعاء يريد معه عملاً، ولما تقول في الدعاء (ثبت قلبي) لابد ان تسعى انت لتحصيل أسباب الثبات وموجباته.

فدعاء الغريق يبين أن النجاة من الفتن والشبهات تتحقق في الثبات على المبادئ الدينية التي تؤخذ من العين الصافية، وعدم الانجرار وراء الشعارات والادعاءات، فانها ترفع للوصول إلى المآرب الدنيوية، فإذا حصل أصحابها على ما يبتغون داسوا تلك الشعارات بأقدامهم، لذا ورد في رواية أخرى وكأنها تشرح هذه حين سأل الراوي (فكيف نصنع جُعِلَتْ فداك حينئذ؟) قال (عليه السلام): إذا كان ذلك فتمسّكوا بما في أيديكم حتى يصحّ لكم الأمر^(١)، أي لا تخوضوا مع الخائضين ولا تندفعوا تحت ضغط السلوك الجمعي ولا تتحركوا وفق الاهواء والامزجة والتعصبات، وانما عليكم الثبّت من أي أمر.

(١) بحار الأنوار: ١٣٣/٥٢ ح ٣٧.

وذلك بالتمسك بسفن النجاة التي تخلصكم من أمواج الفتن العاتية وبدونها،
فأنكم تغرقون في تلك الأمواج وتخسرون الدنيا والآخرة، قال أمير المؤمنين
(عليه السلام) (أيها الناس شقوا أمواج الفتن بسفن النجاة)^(١).

وسفن النجاة التي تتمسكون بها، والعين الصافية التي تأخذون منها مواقفكم
إزاء مختلف القضايا، هم المعصومون (عليهم السلام) في زمان الحضور، ونوابهم بالحق
في زمان الغيبة، وهم مراجع الدين العاملون المخلصون العارفون بحقائق الأمور
ولوابس الزمان، فاثبتوا على ما يرشدوكم إليه، ولا تزيغوا عنه طرف أنملة فإنه
يؤدي إلى الهلاك، وأضرب لكم مثلاً مما يفعله بعض المغامرين حيث يربطون
حبلًا بين قمتي جبلين أو بين برجين شاهقين من ناطحات السحاب ويعبرون عليه
مشياً، فلا بد أن يحافظوا على اتزانهم بأقصى دقة لأن أي ميلان يعني وقوعهم في
وادي سحيق وتحطمهم، ولتحقيق ذلك يستعينون بعصا طويلة يمسكونها من وسطها
يحفظون بها توازنهم، ونحن بحاجة إلى دقة أكبر من هذه للثبات على الحق، لأن
الصراط المستقيم الذي يعبر على وادي جهنم للوصول إلى الجنة وصفته
الأحاديث بأنه (أدق من الشعرة وأحد من السيف)^(٢) فمن لا يحفظ استقامته عليه
يسقط في جهنم والعاذ بالله تعالى.

فيا أيها الأحبة: لا تخذعكم الشعارات الرنانة والمصطلحات الخادعة، ولا
يدفعكم الحماس والتهريج والسلوك الجمعي إلى فعل لم تتبين لكم الحجة
الشرعية، كما قال الإمام (عليه السلام) في الحديث السابق (حتى يصح لكم الأمر) فأن

(١) بحار الأنوار: ٢٨ / ٢٣٣.

(٢) بحار الأنوار: ٨ / ٦٥.

الله تعالى قال ﴿فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ (يونس: ٣٢).

وفي الرواية فائدة أخرى غير ما ذكرنا وهي النهي عن إضافة شيء إلى الدين سواءً على مستوى الدعاء أو الزيارة أو الشعائر، فأن الراوي أضاف كلمة (الأبصار) وهي حق لأن الله تعالى مقلب القلوب والأبصار كما في قوله تعالى ﴿يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ (النور: ٣٧) إلا أن الإمام (عليه السلام) نهاه عن إضافتها حيث لم يقلها (عليه السلام) في الدعاء، وإذا كانت مثل هذه الإضافة منهيًا عنها وهي في نفسها حق، فكيف بمن يصطنع قصصاً وروايات عن أهل البيت (عليهم السلام) ومصائبهم لأجل تعظيم مناقب أهل البيت (عليهم السلام) بزعمهم أو ابكاء الناس أو يتدع طقوساً ويسميها شعائر، أو يصوغ زيارة من عنده أو يشيد قبوراً لم تثبت نسبتها إلى أصحابها بحجة شرعية وهكذا، فلنحذر من هذه الأفعال المنهي عنها.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾

موضوع القبس: ليس لله تعالى مع أحد قرابة

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ (المائدة: ﴿١٨﴾).

تعالج الآية الكريمة ظاهرة جاهلية تسقط فيها المجتمعات عندما تكبر أنانيته ولا تستشعر العبودية لله تعالى، وهي الشعور بالاستعلاء والتمييز عن بقية الناس لا لكمالٍ حازوه أو فضيلة اتصفوا بها، وإنما لمجرد انتمائهم إلى عقيدة معينة أو جنس بشري أو اتجاه فكري أو عشيرة أو مدينة معينة ونحو ذلك من أشكال التعصب للانتماء بحيث تشعر الجماعة أنهم شعب الله المختار، وأنهم الجنس البشري الأرقى والأفضل لمجرد هذا الانتماء من دون عمل صالح يستحقون به التقدم على الآخرين.

ولكي تميّز مثل هذه الجماعة نفسها فإنها تشرّع لنفسها أحكاماً خاصة بها، كما كانت قريش تسمي نفسها بالْحُمُس في الجاهلية فلا تزوّج نساءها إلى غيرهم لكنهم يتزوجون من الآخرين وغير ذلك، وجرت على ذلك بعض القبائل إلى اليوم.

ولقد فضح القرآن الكريم العقائد المنحرفة لليهود والنصارى التي كانوا يروجونها ليقنعوا الآخرين بتفوقهم عليهم وأن لهم الكلمة العليا، وعلى الآخرين أن يتبعوهم، وهم يعلمون قبل غيرهم بطلان هذه الاعتقادات، لكنهم يراهنون على تجهيل الناس للوصول إلى هدفهم وهو تحصيل المزيد من المكاسب الدنيوية والاستئثار بخيرات الناس وإخضاعهم لأهوائهم، وقد تصطدم مصالحهما فيزيّف كل منهما عقيدة الآخر ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ﴾ (البقرة: ١١٣).

فتنقل الآية الكريمة عن اليهود والنصارى أنهم لم يكتفوا بجعل العزيز والمسيح ابنين لله سبحانه وتعالى عما يصفون ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ غُزِيرًا ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ (التوبة: ٣٠) وإنما وصفوا أنفسهم أيضاً بأنهم أبناء الله وأحبّاءه، سواء على النحو الذي قالوه في أنبيائهم، أو على نحو الكناية للتعبير عن شرفهم ومنزلتهم الرفيعة وقربهم من الله تعالى، وهو الظاهر، ويكون حينئذٍ قوله تعالى: ﴿وَأَحِبَّاءُهُ﴾ عطفًا تفسيريًا، وبذلك فإن لهم خصوصية لا يشاركهم فيها أحد كالحصانة من القانون وعدم المحاسبة على أفعالهم مطلقاً لأنهم أبناء مدللون محبوبون، فلا يعاملون كسائر الناس، وذكرت كتبهم المقدسة ذلك في مواضع عديدة^(١).

وقد أكدت الروايات تبنيهم هذه الدعوة، فقد روى السيوطي بسنده عن ابن

(١) نقل الآلوسي في تفسيره (روح المعاني: مج ٣، ٣٧١) مقاطع مما جاء في كتبهم، وذكر السيد الطباطبائي في (الميزان: ٥/ ٢٥٣) مواضع هذه الدعوى في الأنجيل والتوراة ومزامير داود.

عباس قال: (أتى رسول الله ﷺ) ابن أبي، وبحري بن عمرو وشاس بن عدي، فكلمهم وكلموه ودعاهم إلى الله وحذرهم نقمته، فقالوا: ما تخوفنا يا محمد، نحن والله أبناء الله وأحباؤه كقول النصارى، فأنزل الله فيهم ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى...﴾ إلى آخر الآية^(١).

وفي هذا منتهى الغطسة والاستعلاء لأن معنى ذلك أنهم أفضل من أنبيائهم الذين حينما نسبوهم إلى الله تعالى كانوا معصومين من الخطأ والخطيئة ومع ذلك تحملوا البلاءات الشديدة، أما هؤلاء فوصفوا أنفسهم بالبنوة وهم غارقون في المعاصي واتباع الشهوات وملوثون بأنواع الموبقات والجرائم كقتل الأنبياء وتحريف الكتاب السماوي والتمرد على أنبيائهم، فهم أكرم على الله تعالى من أنبيائهم كما في الرواية الآتية عن الإمام الرضا (عليه السلام) مع أخيه زيد، فهم إذن يريدون بهذه الدعوى خداع أنفسهم بأنهم لا يحاسبون ولا يعذبون لأنهم فوق القانون وأن لهم الجنة خالصة دون غيرهم ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ (البقرة: ١٣٠) وإذا أراد الله أن يعذب أحداً منهم فلزمن بسيط ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٨٠)، وهكذا ادعى النصارى أن المسيح افتداهم من العذاب بالصلب فلا يعاقبون على ذنوبهم.

فردَّ الله تعالى دعواهم بجوابين: نقضي وحلي بحسب المصطلح.

أما النقضي فقوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ﴾ (المائدة: ١٨) إن

كنتم أبناء الله وأحباءه فالمفروض أن لكم عند الله تعالى كرامة وخصوصية تقيكم العذاب، وقد عذب الله تعالى في الدنيا أسلافهم ولعنهم وضرب عليهم الذلة والمسكنة وسلط عليهم عباده وجعل منهم القردة والخنازير كما تفيد الآيات الكريمة، وكذلك هم، وأقسى أنواع العذاب هو خذلانهم وحرمانهم من التوفيق حتى ارتكبوا الذنوب الكبيرة، فتكون الباء بيانية وليست سببية، فلا ميزة لكم على الناس وإنكم تحاسبون كبقية الناس ﴿بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ (المائدة: ١٨) وفي آية أخرى ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (الجمعة: ٦) وقال تعالى في غيرها: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة: ٩٤) فمقتضى دعواكم أن لكم النعيم المقيم في الآخرة فلماذا أنتم حريصون على الدنيا وتخافون الموت؟

والجواب الحلي ببيان أن الله ليس له قرابة مع أحد ولا يجامل أحداً وأن مقياس التكريم هو تقوى الإنسان وعمله الصالح ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَاكُمْ﴾ (الحجرات: ١٣) وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ (آل عمران: ٣١)، فمن أراد التوفيق ليكون حبيباً عند الله تعالى فليطع الرسول وليلتزم بما جاء به ليكون حبيب الله حقاً وليحظى بالكرامة لديه، ويقيه عذاب النار، روى السيوطي بسنده عن أنس قال: (مرَّ النبي ﷺ) في نفر من أصحابه وصبي في الطريق، فلما رأت أمه القوم خشيت على ولدها أن يوطأ،

فأقبلت تسعى وتقول: ابني ابني.. فأخذته، فقال القوم: يا رسول الله، ما كانت هذه لتلقي ابنها في النار! فقال النبي (ﷺ): ولا الله يلقي حبيبه في النار^(١).

وإنما يجازى كل إنسان بعمله خيراً كان أو شراً ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿(الزلزلة: ٧-٨)﴾ ويخبرهم في آية أخرى بأن ما تدعونه هو مجرد أمني مستحيلة التحقق ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ (النساء: ١٢٣).

وتنتهي الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ فالله تعالى مالك كل شيء وهو المهيمن على كل شيء، فمن حماقة والجهل أن يطلقوا هذه الدعاوى وكأنهم يفرضون على الله تعالى ما يجب فعله، ويريدون تحديد تصرفات الله تبارك وتعالى.

وحينما تكشف الآيات الكريمة هذه الدعاوى وترد عليها بقوة البرهان فإن الهدف لا يقتصر على فضح هؤلاء المدعين المتاجرين بالدين من أجل الدنيا، وإنما تهدف أيضاً إلى تحذير المسلمين من الوقوع في مثل هذه الاعتقادات الجاهلية، فقيدت قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ - بسبب التفضيل وهو - تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ (آل عمران: ١١٠) وليس لمجرد أنكم مسلمون بالاسم والكلام من دون أفعال.

وقد حرص الأئمة المعصومون (عليهم السلام) على تحذير شيعتهم من الاغترار بما

ورد في فضل الموالين لأهل البيت (عليه السلام) ومنزلتهم عند الله تعالى كالذي ورد في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ (البينة: ٧) بأنهم علي وشيعته^(١) وهكذا في غيرها من الآيات الكريمة، فمن وصية الإمام الباقر (عليه السلام) لجابر: (يا جابر، أيكفني مَنْ ينتحل التشيع أن يقول بحبنا أهل البيت، فوالله ما شيعتنا إلا من اتقى الله وأطاعه) إلى أن قال (عليه السلام): (يا جابر، لا تذهبن بك المذاهب، حسب الرجل أن يقول: أحبُّ علياً وأتولاه ثم لا يكون مع ذلك فعلاً؟ فلو قال: إني أحبُّ رسول الله - فرسول الله (صلى الله عليه وآله) خيرٌ من علي (عليه السلام) - ثم لا يتبع سيرته ولا يعمل بسنته: ما نفعه حبه إياه شيئاً، فاتقوا الله واعملوا لما عند الله، ليس بين الله وبين أحدٍ قرابة، أحبُّ العباد إلى الله عز وجل وأكرمهم عليه أتقاهم وأعملهم بطاعته، يا جابر فوالله ما يتقرب إلى الله تبارك وتعالى إلا بالطاعة وما معنا براءة من النار ولا على الله لأحد من حجة، مَنْ كان الله مطيعاً فهو لنا ولي ومن كان الله عاصياً فهو لنا عدو، وما تُنال ولايتنا إلا بالعمل والورع)^(٢).

وروى الشيخ الكليني (رضوان الله تعالى عليه) بسنده عن الإمام الباقر (عليه السلام) أيضاً: (والله ما معنا من الله براءة ولا بيننا وبين الله قرابة ولا لنا على الله حجة ولا نتقرب إلى الله إلا بالطاعة، فَمَنْ كان منكم مطيعاً لله تنفعه ولايتنا، ومن كان منكم عاصياً لله لم تنفعه ولايتنا، ويحكم لا تغتروا، ويحكم لا تغتروا)^(٣).

(١) راجع قبس قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ (البينة: ٧) في تفسير من نور القرآن.

(٢) الكافي، للشيخ الكليني: ٢ / ٧٤-٧٥، الأمالي، للصدوق: ٧٢٥، بحار الأنوار: ٩٧ / ٦٧.

(٣) الكافي: ٢ / ٧٦، بحار الأنوار: ١٠٢ / ٦٧.

فالمقياس هو العمل ولا بد من تقييد الإطلاقات الدالة على فضل الشيعة أو من زار الإمام الحسين (عليه السلام) أو من بكى عليه ونحو ذلك بهذا القيد، وهو صريح قوله تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ (الأنبياء: ٢٨).

أشفق طاووس اليماني - وهو من كبار فقهاء التابعين - لما رأى كثرة عبادة الإمام السجاد (عليه السلام) وبكائه وتشديده على نفسه فقال له مخففاً: (ما هذا الجزع والفرع؟ ونحن يلزمنا أن نفعل مثل هذا ونحن عاصون جانون، أبوك الحسين بن علي وأمك فاطمة الزهراء، وجدك رسول الله (صلى الله عليه وآله)؟! قال: فالتفت إليّ وقال: هيهات هيهات يا طاووس دغ عني حديث أبي وأمي وجدي، خلق الله الجنة لمن أطاعه وأحسن، ولو كان عبداً حبشياً^(١)، وخلق النار لمن عصاه ولو كان ولداً قرشياً، أما سمعت قوله تعالى ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ (المؤمنون: ١٠١) والله لا ينفعك غداً إلا تقدمة تقدمها من عمل صالح^(٢).

وكان الأئمة (عليهم السلام) أكثر تشديداً على من انتسب إليهم لأن ضررهم على الدين أخطر إن أساءوا، روى الشيخ الصدوق في كتابه العيون بسنده عن الوشاء قال: (كنتُ بخراسان مع علي بن موسى الرضا (عليه السلام) في مجلسه وزيد بن

(١) الإمام (عليه السلام) ليس في مقام التفضيل أو التقسيم الطبقي وإنما في مقام النقص على ما قاله السائل.

(٢) بحار الأنوار، للعلامة المجلسي: ٨٢ / ٤٦.

موسى^(١) حاضر قد أقبل على جماعة في المجلس يفتخر عليهم ويقول: نحن ونحن، وأبو الحسن (عليه السلام) مُقبل على قومٍ يحدثهم، فسمع مقالة زيد فالتفت إليه فقال: يا زيد أغرّك قول ناقلي^(٢) الكوفة: أن فاطمة (عليها السلام) أحصنت فرجها فحرّم الله ذريتها على النار؟ فوالله ما ذاك إلا للحسن والحسين وولد بطنها خاصة، فأما أن يكون موسى بن جعفر (عليه السلام) يطيع الله ويصوم نهاره ويقوم ليله وتعصيه أنت ثم تجيئان يوم القيامة سواء؟ لأنّك أعز على الله عز وجل منه، إنّ علي بن الحسين (عليه السلام) كان يقول: لِمُحسننا كِفْلان من الأجر وَلِمُسِيننا ضِعْفان من العذاب^(٣).

(١) ثار زيد بن الإمام الكاظم (عليه السلام) على المأمون العباسي في البصرة وقتل العباسيين وأحرق دورهم، فأرسل المأمون إليه جيشاً فأحمد ثورته واعتقل وأرسل إليه، وأراد المأمون بخبث أن يخدع الناس بأن أهل البيت (عليهم السلام) طُلاب دنيا وورثاسة وأنهم لا يتورعون عن القتل وإيذاء الناس للوصول إلى هدفهم فعرض على الإمام الرضا (عليه السلام) أن يطلق سراح أخيه إكراماً له، لكن الإمام (عليه السلام) كان له بالمرصاد، روى الشيخ الصدوق: (لَمَّا حَمَلَ زَيْدُ بْنُ مُوسَى بْنِ جَعْفَرٍ إِلَى الْمَأْمُونِ وَقَدْ كَانَ خَرَجَ بِالْبَصْرَةِ وَأَحْرَقَ دُورَ وَلَدِ الْعَبَّاسِ وَهَبَ الْمَأْمُونُ جَرْمَهُ لِأَخِيهِ عَلِيِّ بْنِ مُوسَى الرُّضَا (عليه السلام) وَقَالَ لَهُ: يَا أَبَا الْحَسَنِ لَئِنْ خَرَجَ أَخَوُكَ وَفَعَلَ مَا فَعَلَ لَقَدْ خَرَجَ قَبْلَهُ زَيْدُ بْنُ عَلِيٍّ فُقِتِلَ، وَلَوْ لَا مَكَانُكَ مِنِّي لَقَتَلْتَهُ فَلَيْسَ مَا أَتَاهُ بِصَغِيرٍ، فَقَالَ الرُّضَا (عليه السلام): يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَا تَقْسُ أَخِي زَيْدًا إِلَى زَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ فَإِنَّهُ كَانَ مِنْ عُلَمَاءِ آلِ مُحَمَّدٍ غَضِبَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فَجَاهَدَ أَعْدَاءَهُ حَتَّى قُتِلَ فِي سَبِيلِهِ) عيون أخبار الرضا: ١٧٢، باب ٢٥، ح ١.

(٢) في معاني الاخبار: ١٠٦ (بقالي) وهو الأقرب.

(٣) عيون أخبار الرضا: ٤٤٧، باب ٥٨، مؤسسة أنصاريان.

﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾

موضوع القبس: تيه الأمة بسبب عصيانها القيادة الربانية

تتحدث الآية الكريمة عن التيه الذي قضى الله تعالى به على بني إسرائيل أربعين سنة بسبب عصيانهم لأوامر نبيهم (ﷺ) بالدخول إلى الأرض المقدسة قال الله تبارك وتعالى ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ (المائدة: ٥١). وفيها عدة دروس منها:

١- كشف حقيقة بني إسرائيل وتدينهم المزيف وتآمرهم على الدعوات الإلهية.

٢- تحذير الأمة من الوقوع في أخطاء الأمم السابقة، وتحمل نتائجها الكارثية.

٣- إطلاع قادة المسلمين على التجارب السابقة والاستفادة منها في تحديد المواقف الحاسمة.

٤- تسلية أئمة الإسلام بسرد هذه المصائب والبلاءات، ليروا أن ما يتعرضون له ليس بدعاً من البلاء فقد تعرض له القادة الربانيون من قبل.

وليبيان أجواء القضية وملخص الواقعة نقول: إن بني إسرائيل لما نجّاهم الله تعالى من فرعون وجنوده وعبروا سالمين إلى الجهة الأخرى وغرق فرعون وجنوده، وإذا بهم يطالبون النبي موسى (ﷺ) بأصنام ليعبدوها ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي

إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ (الأعراف: ١٣٨) ثم وقعوا في فتنه عبادة العجل الذي صنعه السامري وعالجها موسى (عليه السلام) وتاب الله تعالى على قومه، ثم أغدق عليهم النعم وآتاهم ما سألوه بعدما شكوا الجوع والعطش والحر ففجّر موسى (عليه السلام) من الأرض عيون ماء وأنزل الله تعالى لهم من السماء حلوى ولحم طير وظللهم بالغمام ليقبهم حر الشمس، قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (الأعراف: ١٦٠).

ثم ذكّرهم الله بالنعم الكثيرة التي أنعمها عليهم ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ (المائدة: ٢٠) من بعثة موسى (عليه السلام) إليهم وإنزال التوراة ونجاتهم من بطش فرعون وغيرها، وكذا بما اختصهم من النبوة والملك أي ما جمع لهم من الهداية إلى التوحيد، وجعلهم ملوكاً وهو إن كان خطاباً للجميع فهو يعني استقلالهم بعد التخلص من استعباد الفراعنة حتى ملكوا أمورهم وصارت لهم الزعامة الدينية التي تتضمن القيادة الاجتماعية ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ٥٤) وإن

صح قصد البعض من خطاب الجميع فإن من بني إسرائيل من آلت اليه السلطة ايضاً مثل يوسف وسليمان (صلوات الله عليهم اجمعين).

وروى في الدر المنثور في تفسير جعلهم ملوكاً عن ابي سعيد الخدري عن رسول الله (ﷺ): كانت بنو إسرائيل إذا كان لأحدهم خادم ودابة وامرأة كتب ملكاً).

أقول: هذا المعنى داخل فيما ذكرناه لأن من ملك هذه استقل بنفسه، وأشكل عليه بان هذه النعمة لا تختص ببني إسرائيل فما وجه الامتنان عليهم؟ وأجاب بعضهم بان بني إسرائيل اول من اتخذ الخدم، وهو مخالف للوقائع التاريخية، ويمكن الإجابة بان وجه الامتنان بلحاظ حالتهم السابقة حيث كانوا عبيداً مستخدمين أذلاء عند الفراعنة، ويؤيد ذلك ما روي عن النبي (ﷺ) انه قال: (من أصبح آمناً في سربه، معافى في بدنه، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذاقها)^(١).

وقد ذكرهم تعالى بهذه النعم التي ذكرناها آنفاً وهي متضمنه معجزات وآيات باهرات لم تتحقق لأي من الأمم السابقة ليحثهم على طاعة أوامر الله تعالى ونبيهم العظيم ويحببها إليهم، مضافاً الى ابتداء خطابه بـ(يا قوم) ليذكرهم بانه منهم وانه يريد الخير لهم، وهذا درس يستفيد منه الوعاظ والمبلغون بإثارة الارتباط الروحي بالله تعالى قبل أن يدعواهم إلى الطاعة.

وبعد هذا كله أمرهم أن يدخلوا الأرض المقدسة وهي ارض الميعاد التي وعدوا بإقامة دولة الحق فيها ويكونون فيها ملوكاً ويبعث فيهم الأنبياء، ليشبثوهم

(١) الأماي - الشيخ الطوسي: ٤٢٨، مجمع البيان: ١٨١/٣.

على طريق الهدى والاستقامة، والمقصود بها القدس وما حولها وهو ما ورد في بعض الروايات ^(١) بقرينه قوله تعالى ﴿إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ (الإسراء: ١) وقوله تعالى ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَعَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ (الأعراف: ٣٧).

إذ ان البركة تعني الخير الكثير، واعظم مصاديقه إقامة الدين فيها وتخليصها من رجس الكفر والشرك التي توجهوا إليها بعد خروجهم من مصر ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ (المائدة: ١١)، وتتضمن دعوته (ﷺ) وعدا صادقاً ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ بأنها ستكون لهم ليحفظهم ويطمئنهم، ويدلُّ التحذير في نهاية الآية على أنه (ﷺ) كان يتوقع منهم العصيان والتمرد والنكوص على الاعقاب والخمول وإدارة ظهورهم لنيهم الكريم (ﷺ)، فهم هم الذين رافقوه من مصر وجرّعوه الغصص والآلام ووقعوا في الفتن العظمى التي أشرنا إلى بعضها.

وقد صدق ظنه (ﷺ) عليهم إذ كان جوابهم بعد كل تلك النعم والمكانة والتفضيل أن أعلنوا تمردهم على أمر نبيهم (ﷺ) معتردين بوجود قوم اولي ضخامة بدنية وشدة وبأس، وهم طغاة ^(٢) يجبرون الناس على طاعتهم، واشترطوا

(١) في (بحار الانوار: ١٧٨/١٣) فانطلقوا يؤمّون الأرض المقدسة وهي فلسطين، وإنما قدسها لأن يعقوب (ﷺ) ولد بها، وكانت مسكن أبيه إسحاق ويوسف (ﷺ).

(٢) في (تفسير النور: ٢٥٢/٢) عن موسوعة فريد وجدي ((الجبارون هم قوم العمالقة من الساميين عاشوا في شمال شبه الجزيرة العربية بالقرب من صحراء سيناء، هاجموا مصر واستولوا عليها لفترات طويلة، ودام حكمهم هناك ما يقرب من خمسة قرون)).

لتنفيذ الأمر خروج أولئك من الأرض المقدسة وهم يعلمون إن الجبارين لا يخرجون ولا يتخلون عن سلطتهم من تلقاء أنفسهم ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَدْخُلُهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ (المائدة: ٢٢).

ولم يطع الأمر إلا قلة قليلة ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنَّ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (المائدة: ٢٣).

فهما من الذين يخافون الله تعالى، والخوف من الله تعالى هو المحرك الرئيسي لكل عمل صالح وقد يكون عندهما خوف من الجبارين المتسلطين في الأرض المقدسة إلا إن خوفهما من الله تعالى كان أعظم وهو الغالب عليهما، فأذهب الله تعالى عنهم ذلك الخوف، إذ أنعم الله تعالى عليهما بالإخلاص له فجعلهم من أوليائه ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (يونس: ٦٤) فهم داخلون في قوله تعالى ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ (النساء: ٦٩).

وذكرت الروايات أن أحدهما يوشع بن نون وصي موسى (عليه السلام) وآخر وهما من أبناء عمومته^(١) وكانا من نقباء بني إسرائيل الأثني عشر، وقالوا إن الغلبة ستتحقق لكم بمجرد اقتحامكم لأول مدينة من مدن الجابرة وهي أريحا على ما

(١) تفسير العياشي: ١/ ٣٠٣/ ٦٨، البرهان: ٣/ ٢١١.

قيل ^(١) تصديقاً لقول امير المؤمنين (عليه السلام) (وما غزي قوم في عقر دارهم الا ذلوا) ^(٢)، وقطعاً بالوعد لأنهما تلقياه من موسى (عليه السلام)، ولأن الله تعالى كافٍ من يتوكل عليه، فأمرنا قومهما بالتوكل على الله تعالى ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ (الطلاق: ٣).

وفي الآية درس عظيم وهو انه إذا عرض عليك أمر فيه رضا الله تعالى وكان محفوفاً بصعوبات فلا تتهيبه ولا تتردد وأقدم عليه وحينئذ سييسره الله تعالى ويجعله هيناً وهو قول امير المؤمنين (عليه السلام) (إذا هبت امرأ فقع فيه) ^(٣) فان التردد والخوف يؤدي الى الفشل وضياح فرص التوفيق، قال (عليه السلام) (قرنت الهيبة بالخبية) ^(٤)، لذا حث الأحاديث الشريفة على الإسراع الى عمل الخير لان التواني يؤدي الى ضعف العزيمة وترك العمل، قال الإمام الباقر (عليه السلام) (من همّ بشيء من الخير فليعجله فان كل شيء فيه تأخير فان للشيطان فيه نظرة) ^(٥).

ورغم هذه الفرصة العظيمة للنصر التي لا تتطلب أزيد من عقد العزم وإخلاص النية، والإقدام على العمل من دون تقاعس، ومباغثة الخصم، وحينها يُنزل الله تعالى عليهم نصره وتأييده وسكينته، إلا أنهم أصرّوا على التمرد والعناد، وإدخال اليأس من استجابتهم على قلب موسى (عليه السلام) حتى يتوقف عن دعوتهم

(١) الدر المنثور: ٤٨/٣ ط. دار الفكر.

(٢) نهج السعادة: ٥٢٧/٢، ميزان الحكمة: ٥٦٢/١.

(٣) غرر الحكم ودرر الكلم: ٢٩٠/ح ١٥٤.

(٤) شرح نهج البلاغة - ابن أبي الحديد: ١٣١/١٨.

(٥) وسائل الشيعة: ١١٣/١، أبواب مقدمة العبادات، باب ٢٧/ح ١٠.

إلى الطاعة ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنَ نَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ (المائدة: ٢٤) و﴿لَنْ﴾ تفيد التأييد مع المجيء بلفظ ﴿أَبَدًا﴾ للتأكيد.

قولهم ﴿وَرَبُّكَ﴾ فكأن الله تعالى هو رب موسى دونهم فالقضية لا تعنيهم، وانهم لا يريدون رباً يكلفهم بمواجهة الأعداء وتحمل المصاعب، فهم يريدون أن تتحقق النتائج من دون عمل يقدّمونه وإنما يكفيهم الله ورسوله وهم قاعدون، وقد تملكهم صفة الجبن والاستسلام والضعف نتيجة لطول استعبادهم من فرعون، وهذه نظرية اجتماعية ينبغي الالتفات إليها، لذا استنهضهم موسى (عليه السلام) وعمل على إعادة الثقة لأنفسهم بتذكيرهم بنعم الله تعالى الكثيرة والعظيمة وما تحقق لهم من أسباب القوة.

وحينئذ شعر النبي موسى (عليه السلام) بالإحباط والياس المؤلم القاسي من صلاح هذه الجماعة رغم كثرة ما أغدق الله تعالى عليهم من النعم وأراهم من المعجزات وأظهر (عليه السلام) استسلامه لله تعالى وإيمانه الراسخ بصدق وعده، وناداه بصفة الربوبية، لأن الله تعالى ربّه ورعاه وصنعه من أول أمره ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ (المائدة: ٢٥) فإنه ليس له سلطة عليهم ولا يستطيع إجبارهم وإكراههم على الطاعة والهداية والصلاح، وإن كان يوجد صالحون في قومه كالرجلين إلا أنه لا يملك منهم مثلما يملك من أخيه هارون النبي فإنه طيع له ومسلم لأمره ولديهما من التأييد الإلهي ما ليس لغيرهما، فإن ملك النفس والتسلط عليها بتمام السلطنة لا تكون إلا للمخلصين من عباد الله

تعالى الذين استخلصهم الله تعالى لنفسه ﴿لَا تُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ ﴿الحجر: ٣٩-٤٠﴾ ويمكن ان يكون معناها اني لا املك الا نفسي واخي كذلك لا يملك الا نفسه، ومؤداهما واحد فان من تمام ملك هارون نفسه تسليمه لأخيه موسى (عليه السلام).

ومن أدبه (عليه السلام) مع ربه فإنه أوكل أمر تحقيق الوعد الإلهي بالتمكين في الأرض ووراثتها إلى الله تعالى، ولم يطلب من ربه عقوبة معينة على قومه ولا اتخاذ قراراً محدداً، كيف وقد كرّس حياته لصلاحهم وانقاذهم، وإنما أوكل أمر الفصل بينه وبين قومه العاصين المتمردين إلى ربه، فانه اشفق عليه واولى بتدبير شؤونهم، وإنما وصفهم بالفاسقين واستحقاقهم المباينة مع عباد الله الصالحين لتكرّر عصيانهم مرات عديدة، فأنهم بعد أن رأوا معجزة فلق البحر وإغراق فرعون وجيشه ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ (الأعراف: ١٣٨) حتى عبدوا العجل الذي صنعه لهم السامري، وبلغت بهم الوقاحة حداً عظيماً ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ (البقرة: ٥٥) وفي كل مرة يتوب الله تعالى عليهم ويفيض عليهم نعماً خاصة لكم ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (البقرة: ٥٦) ويعودون هم إلى عصيانهم وتمردهم.

وهنا شاءت الإرادة الإلهية نوعاً من التربية والإصلاح لبني إسرائيل فيه مشقة ضرورية لهم فهو رحمة وان كان ظاهرة العذاب، وذلك بأن يقعوا في التيه والحيرة

التي اختاروها لأنفسهم أربعين سنة، ومن المعلوم تأثير عدد الأربعين في موجبات التكامل، وقد استحقوا هذه القسوة بتمردهم على قيادتهم الربانية المعصومة يتيهون في الأرض ليس لهم حياة مستقرة ولا مستقبل مضمون، ولا يستطيعون دخول الأرض المقدسة ولا الرجوع إلى بلدهم الأصلي مصر، وكان معهم موسى وهارون (عليهما السلام) والوصي يوشع ألا انهم لم يُمنعوا من دخول الأرض المقدسة فكانوا يزورونها، وتوفي موسى (عليه السلام) خلال هذه الفترة^(١) وأخوه قبله، ونشأت أجيال جديدة من بني إسرائيل من رحم المعاناة والايمان، تحلّوا بالعزة والثبات والشجاعة فقدّر الله تعالى لهم الخروج من التيه بقيادة الوصي يوشع بعد انتهاء مدة التيه^(٢) ودخلوا الأرض المقدسة مع طالوت ببركة فئة قليلة ﴿وَلَمَّا بَرَرُوا لِحِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبَّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصَرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ ﴿البقرة: ٢٥٠-٢٥١﴾ وتحقق قوله تعالى ﴿الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ (المائدة: ١١) لكن ليس للمخاطبين المباشرين لعصيانهم، إذ إن الوقت غير معين فيها ولا الأشخاص لأن الخطاب موجه إلى الأمة جميعاً، فصدق الوعد الإلهي في أبناء المخاطبين.

وقد وعدهم الله تعالى بوراثة الأرض والتمكين فيها إذا صبروا على الطاعة والاستقامة ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ (الأعراف: ١٣٧).

(١) سفينة البحار: ١/ ٤٨٣.

(٢) الدر المنثور: ٣/ ٥٢.

يسرد القرآن الكريم هذه القصة على المسلمين في أوائل تشكيل الدولة الإسلامية بعد الهجرة والظاهر إن نزولها قبل معركة بدر بقرينة ذكر المقداد لها في كلمته الآتية ليعلمهم أن أساس الإيمان الطاعة، وليحذرهم مغبة عصيان القائد الرباني العظيم ويحذرهم من الثمن الباهظ الذي يدفعونه، لكنهم لم يستوعبوا هذا الدرس ولا غيره مما حكاه القرآن الكريم وأعادوا نفس أخطاء بني إسرائيل، وقد أخبرهم النبي (ﷺ) باقتصاصهم آثار بني إسرائيل، فقد روى الإمام الباقر (عليه السلام) عنه (ﷺ) قوله: (والذي نفسي بيده لتركبن سنن من كان قبلكم، حذو النعل بالنعل والقذة بالقذة حتى لا تخطئون طريقهم ولا تخطئكم سنة بني إسرائيل)^(١).

فوقعت الأمة في حيرة وتيه بسبب انقلابها على أعقابها بعد رحيل رسول الله (ﷺ) ﴿أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ (آل عمران: ٩٢).

حيث نكثت بيعة الغدير وخلفت عترته وراء ظهورهم، وازاحوهم عن مقامهم السامي الذي رفعهم الله تعالى، فأضاعوا القرآن بتضييعهم للعترة لأنهما صنوان لا يفترقان بنص حديث الثقلين المشهور.

وقد عبّر أمير المؤمنين (عليه السلام) عن هذا الضياع والتهيه الذي وقعت فيه الأمة بقوله (عليه السلام): (أيها الناس لو لم تتخاذلوا عن نصر الحق، ولم تهنوا عن توهين الباطل. لم يطمع فيكم من ليس مثلكم، ولم يقو من قوي عليكم. لكنكم تهتم متاه بني إسرائيل. ولعمري ليضعفن لكم التيه من بعدي أضعافا بما خلفتم الحق وراء

(١) تفسير العياشي: ١/ ٣٠٣/ ٦٨، البرهان: ٣/ ٢١١، بحار الأنوار: ٢٨/ ٨

ظهوركم، وقطعتم الأدنى ووصلتم الأبعد^(١) وهكذا ضاعت الأمة في تيه طويل لا زالت تتخبط فيه.

روى العياشي في تفسيره عن الإمام الباقر (عليه السلام) قال: (ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لما قبض لم يكن على امر الله الا علي والحسن والحسين وسلمان والمقداد وأبو ذر فمكثوا حتى قام علي (عليه السلام) فقاتل من خالفه^(٢)).

أقول: هؤلاء أكمل من ثبت على الامر ولا ينفي وجود الصلحاء الآخرين كعمار وذو الشهادتين وابن التيهان وابي أيوب ونظرائهم.

وقد ثبت على الحق في المفاصل الحاسمة عبر التاريخ ثلة من الأفذاذ، كالمقداد الذي خاطب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بعد أن تخاذل فلان وفلان عن مواجهة قريش، حينما أفلتت قافلتهم ووجد المسلمون أنفسهم في قبال جيش أكثر عدداً وأقوى تسليحاً فقال: (لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ والذي بعثك بالحق لو ضربت أكبادها إلى برك الغماد لاتبعناك)^(٣) فسّر رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وأشرق وجهه ثم تبعه الأنصار بمثل هذه الكلمات.

إن إنقاذ الناس من التيه والحيرة المؤديين إلى الضلال والانحراف الذي أوقعت الأمة نفسها فيه لمخالفتها لوصية رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في أمير المؤمنين (عليه السلام) وأهل بيته (صلوات الله عليهم أجمعين)، كان هو الدافع لقيام الإمام

(١) نهج البلاغة: ٧٩/٢، نور الثقلين: ٦٠٩/١.

(٢) تفسير العياشي: ٦٨/٣٠٣/١.

(٣) الدر المنثور: ٢٧١/٣.

الحسين (عليه السلام) بحر كته المباركة، فقد ورد في زيارة الإمام الحسين (عليه السلام) يوم الأربعين (وبذل مهجته فيك ليستنقذ عبادك من الجهالة وحيرة الضلالة)^(١) وهكذا على طول الزمان يكلفنا عصيان العاصين وتمرد الفاسقين وخبث الماكرين من طلاب الدنيا هذه التكاليف الباهظة، ولا تنتبه الأمة من غفلتها إلا بعد فوات الأوان، ولا يوفق إلا قلة ممن أكرمهم الله تعالى بالوعي والبصيرة فيتخذون الموقف اللائق بهم كأصحاب الإمام الحسين (عليه السلام).

فالنداء الذي أطلقه الإمام الحسين (عليه السلام) يوم عاشوراء (هل من ناصر ينصرنا)^(٢) ليس مختصاً بالقوم الموجودين على أرض المعركة بل هو موجّه الى كل الأجيال حتى قيام يوم الساعة يدعوهم (عليه السلام) لنصرته على تحقيق الأهداف التي خرج من أجلها، فالحرب مستمرة وان تنوعت أساليب المواجهة وادواتها. نسأل الله تعالى الثبات على الحق وأن نكون على بصيرة من أمرنا.

(١) مفاتيح الجنان: ٥٤٣.

(٢) شجرة طوبى - الشيخ الحائري: ٣٣٨ / ٢.

القبس/٤٦

سورة المائدة: ﴿٨﴾

﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسٍ يَدِي إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِلَيَّ أَخَافُ
اللَّهُ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾

موضوع القبس: من مبادئ الإسلام في التعايش السلمي

أدب من آداب القرآن واخلاقه ونموذج راقى للسلام والتعايش الذي تنشده البشرية اليوم وكل يوم ذكره الله تعالى ضمن قصة ابني آدم هابيل وقابيل، قال الله تبارك وتعالى ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ (المائدة: ٢٧) والنبأ: الخبر ذو الفائدة العظيمة الذي يفيد العلم، وهو هنا يتعلق بواقعة حدثت لابني آدم في بداية وجود البشر على الأرض وفيها الكثير من المواعظ والعبر، والقربان ما يتقرب به إلى الله تعالى، ولم تذكر الآيات الكريمة كيفية حصول العلم بالقبول وعدمه، لكن الروايات دلت على ان علامة القبول ان تأكله النار.

وتفيد صحيحة ابي حمزة في الكافي عن الإمام الباقر (عليه السلام) (ان آدم أمر قابيل وهابيل ان يقربا قرباناً وكان هابيل صاحب غنم وكان قابيل صاحب زرع فقرّب هابيل كبشاً وقرب قابيل من زرعه ما لم يُنقّ، وكان كبش هابيل من أفضل غنمه وكان زرع قابيل غير نقي فتقبل قربان هابيل ولم يتقبل قربان قابيل وكان

القربان اذا قُبِلَ تأكله النار^(١).

فالأمر بتقديم القربان كان من النبي آدم (عليه السلام) كجزء من تربيتهما وتعويدهما على الطاعة والأعمال الصالحة، أو لمعرفة المستحق لوراثة ابيهما معنوياً وفي سؤال وجّه إلى الإمام الصادق (عليه السلام) (فقيم قتل قابيل هابيل؟ فقال: في الوصية)^(٢).

ويظهر من بعض الآيات الشريفة ان هذه التي كانت علامة القبول هي ايضا علامة استحقاق تحمل الرسالة الإلهية، قال تعالى ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (آل عمران: ٨٣). فالآية الكريمة تشير الى ان السر في القبول وعدمه هو اخلاص النية لله تبارك وتعالى وتنقية العمل وإحسانه المعبر عنه بالتقوى فذكرت الآية معياراً عاماً للقبول ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ (المائدة: ٢٧) وذكره هابيل بأدب ولم يقل لأخيه انك لست من المتقين، وبدلاً من ان يدعن قابيل للحقيقة، ويسعى لإصلاح حاله ويعالج سبب عدم القبول ويعود إلى طاعة ربّه فإنه حسد أخاه حسداً شديداً وأصدر قراره بقتل أخيه لكن أخاه الصالح هابيل المتأدّب بآداب الله تعالى قابل أخاه بموقف إنساني نبيل كان كافياً لردع أخيه عن فكرته السيئة فرفض ان يتصرف بنفس التصرف ولا يقدم على قتل أخيه وان كان أخوه عازماً على قتله، لأنه لا يفعل الا ما فيه رضا الله تبارك وتعالى ولا يستفزّه خطأ الآخر فيدفعه

(١) الكافي: ١١٣/٨ ح ٩٢.

(٢) تفسير العياشي: ٣١٢/٨٣ ح ٩٣.

لارتكاب خطأ مماثل ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اَعْدِلُوا هُوَ
أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (المائدة: ٨).

في بعض قصص الأنبياء انه اتى له بأسرى في نهاية معركة انتصر فيها فقال
بعض أصحابه اقتلهم فامتنع النبي المنتصر ف قيل له انهم يقتلون أسرانا فقابلهم
بالمثل، قال: انهم ليسوا قدوة لنا، وقد سجل القرآن الكريم زجره عن مثل هذا
السلوك بقوله ﴿إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُكُمْ﴾ (النساء: ٧٥)، وفي سيرة أمير المؤمنين (عليه السلام)
أنه أخبر ان عبد الرحمن بن ملجم سيقته ف قيل له: لم لا تقتله قال (عليه السلام): لا
يجوز القصاص قبل الجناية^(١).

وهذا المبدأ شاهد على سمو القانون الاسلامي وتفوقه على القوانين الوضعية
التي تجيز ما يسمى بالضربة الاستباقية أي ضرب الخصم اذا علم أو ظنّ بانه
يستهدفه او لردعه عن التفكير بذلك.

ويجب الالتفات الى ان هابيل انما امتنع عن خصوص مد يده لقتل أخيه
ابتداءً ولمجرد الضربة الاستباقية اما بسط يده في الدفاع عن نفسه فهذا حق
مشروع له بل يجب عليه ان لا يمكّن خصمه من نفسه، لذلك فان قتل هابيل كان
اغتيالاً، في تفسير العياشي بسنده عن ابي جعفر (عليه السلام) قال (لما قرب ابن آدم
القربان فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر، قال: تُقبّل من هابيل ولم يُتقبّل من
قابيل، دخله من ذلك حسد شديد وبغى على هابيل، ولم يزل يرصده ويتبع خلوته
حتى ظفر به متنحياً من آدم فوثب عليه وقتله)^(٢).

(١) بحار الأنوار: ج ٢/ ص ٢٧٩.

(٢) تفسير العياشي: ١/ ٣٠٦/ ح ٧٧.

واستعمال القرآن الكريم لمفردة التطويع، يكشف عن ان هذا الفعل الشنيع ما كان مستساغاً في أول الأمر لأنه خلاف الفطرة وحكم العقل بقبح الظلم والعدوان، ولازالت البشرية في أول تكونها ولم ينتشر الفساد في الأرض فاستمر الشيطان في تزيين القتل واستثارة الحسد في نفسه الأمانة بالسوء حتى انقاد لهواه مما يبين خطورة رذيلة الحسد وأمثاله من الدوافع الذاتية السيئة على سلوك الفرد بغض النظر عن تأثير البيئة الاجتماعية إذ لم يتشكل يومئذ مجتمع بعد، ونفذ قابيل ما تأمره به نفسه ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (المائدة: ٣٠).

ولا يخفى ما في كلمة ﴿فَطَوَّعَتْ﴾ من دلالة على المحاولات المتكررة والضاغطة لدفعه إلى تنفيذ الجريمة ولو أغلق على نفسه باب التفكير فيها لما وصل إلى هذه النتيجة، وهذا هو الحال في فعل المعاصي خصوصاً الكبائر فإنه لا يفعلها بمجرد خطورها على ذهنه ولكن استجابته لعملية الدعوة المتكررة والتزيين تجعله يستسلم لفعلها ففي رواية الكافي المتقدمة (ان ابليس أتاه فقال له: يا قابيل قد تُقبَّل قربان هايل ولم يُتقبَّل قربانك وإنك إن تركته يكون له عقب يفتخرون على عقبك ويقولون: نحن أبناء الذي تُقبَّل قربانه، فاقتله كي لا يكون له عقب يفتخرون على عقبك فقتله).

وهذه اللطيفة القرآنية نور آخر نقتبسه من الآية الكريمة حاصله: ان الايمان ليس مجرد عقيدة نظرية وإنما هو سلوك والتزام بما يريده الله تعالى وتحكيم شريعته في الحياة، حيث كشفت الاخبار أن إيمان قابيل كان نظرياً فقط. ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ لأنه خسر نفسه حيث أوردتها النار بهذا الأثم

العظيم وتحمل أثم أخيه^(١)، وخسر أخاه الصالح المحبّ له الشفيق عليه، وخسر ديناه لأن حياته أصبحت منكدة كثيبة ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ (المائدة: ٣١)، وخسر كرامته وسمعته الاجتماعية.

والآية الكريمة تشخّص مشكلة خطيرة وبلاءً عظيماً يتعرض له الصالحون والمصلحون عند ما يناصبهم العداة ويكيد لهم من لا يرونه عدواً لهم ويتورعون عن القيام بفعل يشبه ما يريد فعله الخصوم ونتيجة ذلك أن يتلقى العدوان بنفس صابرة مطمئنة ويدافع عن نفسه بما يتيسّر له.

وفي الحديث الشريف عن الإمام الصادق (عليه السلام) (لا ينفك المؤمن من خصال اربع جارٍ يؤذيه وشيطان يغويه ومنافق يقفو أثره ومؤمن يحسده، ثم قال (عليه السلام) اما انه أشدهم عليه، قلت: كيف ذاك؟ قال: انه يقول فيه القول فيصدق عليه^(٢).

فالخصم إذن مؤمن لا تستطيع ان تؤذيه او تعتدي عليه لكنه يحسد ويبغي ويفتري ويشوّه الصورة ويسقط السمعة والكرامة ولا تستطيع أن تقابله بالمثل.

وقد ابتلي أمير المؤمنين (عليه السلام) بهذا البلاء فقد بغى عليه وقاتله مسلمون مقربون إليه يحرص كل الحرص على اكرامهم، وكان (عليه السلام) يمنع أصحابه من أن يبدأوا خصومهم بالقتال، وإنما يقاتلون دفاعاً عن

(١) عن الإمام الباقر (عليه السلام) قال (من قتل مؤمناً متعمداً أثبت لله عز وجل على قاتله جميع الذنوب وبرئ المقتول منها) (بحار الأنوار: ٣٧٧/١٠١ باب ٣٦ ح ٤٢).

(٢) الخصال: ١٧٠/ أبواب الأربعة، ح ٧٠.

انفسهم.

ومن خطاب الإمام الحسين (عليه السلام) يوم عاشوراء لأهل الكوفة (سللتم علينا سيفاً لنا في ايمانكم، وحششتهم - أي اوقدتم - علينا ناراً اقتدحناها على عدونا وعدوكم فأصبحتم أولياء لأعدائكم على أوليائكم)^(١) فهؤلاء الرجال والسلاح الذي بأيديهم هم لنا ويجب ان يكونوا من جند الإسلام لأنهم مسلمون بحسب الظاهر، لذا كان (عليه السلام) يمنع أصحابه من ان يبدؤهم بقتال ولم يقاتلوا الا دفاعاً عن انفسهم.

ومن قصيدة دعبل الخزاعي الشهيرة:

إذا وتروا مدّوا إلى واتريهم أكفّاً عن الأوتار منقبضات

(١) الملهوف: ١٥٥، الاحتجاج: ٩٧/٢، تحف العقول: ٢٤٠.

القبس ٤٧

سورة المائدة: ﴿٥٥﴾

﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾

موضوع القبس: الحب الإلهي

حببوا الله تعالى للناس:

ورد في حديث نبوي شريف أنه توجد فئة من الناس لهم مقام رفيع يوم القيامة يغبطهم عليه الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين، وتشرأبُ أعناق طالبي الكمال إزاء مثل هذه الأحاديث ويقبلون عليها بكلهم، والحديث الشريف عن النبي (ﷺ) قال: (إني لأعرف ناساً ما هم أنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء بمنزلتهم يوم القيامة: الذين يحبون الله ويحبونه إلى خلقه يأمرونهم بطاعة الله فإذا أطاعوا الله أحبهم الله)^(١).

فمن الغريب أنك تجد بعض الناس يتحمس في الدعوة إلى محبة حزبه أو فريقه الرياضي الذي يشجعه، أو الشخص الذي يعجبه، ويغفل عن الدعوة إلى محبة خالقه الكريم ويزهد في هذه المنزلة الرفيعة وهي منزلة قد لا يبدو من الصعب وصول الإنسان إليها بلطف الله تبارك وتعالى وتوفيقه إذ ليس عليه إلا أن يحبب الله تعالى إلى مخلوقاته.

يأمر الله تعالى النخبة من عبادة ليكونوا من الدعاة إلى محبة الله تعالى، ففي حديث عن الإمام الباقر (عليه السلام) قال: (أوحى الله تعالى إلى موسى (عليه السلام): أحببني

(١) مجمع الزوائد للهيتمي: ١/ ١٢٦.

وحببني إلى خلقي، قال موسى: يا رب إنك لتعلم أنه ليس أحداً أحبُّ إلي منك فكيف لي بقلوب العباد؟ فأوحى الله إليه: فذكّرهم نعمتي وآلائي فإنهم لا يذكرون مني إلا خيراً^(١)، وورد مثله^(٢) عن النبي داود (عليه السلام).

كيف تحب الله تعالى؟

وهذا الحديث يبين طريقاً لتحبيب الله تعالى إلى خلقه بتذكيرهم بنعمه التي لا تُعدّ ولا تحصى، ولا تحتاج معرفتها إلى مؤونة كبيرة، وليقم الإنسان بمراجعة لنفسه وحاله ليعرف سعة النعم، فمثلاً إذا جلس على الطعام ورأى أنواع المواد الداخلة في إعدادة، وكم بُذل عليها من جهود لتصل إليه بهذا الشكل، ولننظر في الخبز الذي هو طعام مشترك لكل الناس كيف تعب الزّراع لإنتاج حبات القمح ثم طحنت وعُجنت وخبزت، وكل مرحلة من هذه المراحل يقوم عليها عمال ومكائن ولوازم أخرى كالوقود والماء وغيرها، فإذا تأمل الإنسان في هذه المنظومة الواسعة من النعم التي تشترك لتقدم له رغيف الخبز، أحبّ الإنسان خالقه الذي هيأ له كل هذه الأسباب وذلل له كل الصعوبات، وإذا تأمل في الأنواع الأخرى من طعامه وشرابه فإنه سيعجز عن إدراكها فضلاً عن استقصائها. لذلك حكي عن البعض أنه كان يبكي حينما يقدّم له الطعام لما يراه من أعظم النعم.

وهذا لا يعني اقتصار النعم على المطعم والمشرب، ومن ظن ذلك فهو جاهل،

(١) بحار الأنوار: ١٣ / ٣٥١.

(٢) بحار الأنوار: ١٤ / ٣٨.

فإن لله تبارك وتعالى على عبده نعماً لا تحصى على رأسها الإيمان بالله تعالى وتوحيده ونعمة الإسلام وولاية النبي وأهل بيته الطاهرين (صلوات الله عليهم أجمعين) وقد تضمن دعاء الإمام الحسين (عليه السلام) يوم عرفه جملة من تلك النعم من قبل خروجنا إلى هذه الدنيا، ولو تعرّف الإنسان على عجائب بدنه لرأى عجباً. في أمالي الشيخ الطوسي عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: (من لم يعلم فضل الله عليه إلا في مطعمه ومشربه فقد قصر علمه ودنا عذابه)^(١) فإذا علم الإنسان بعض ما أنعم عليه ربه -وهي لا تعد ولا تحصى- أحبه، لأن الإنسان مجبول فطرياً على حب من أحسن إليه، ولو أن شخصاً وقرّ لآخر واحدة من نعم الله كالحياء بإنقاذه من غرق أو موت محقق أو وقرّ له نعمة البصر أو السمع أو الطعام لأحبه وكان مديناً له طول حياته بذلك الإحسان. فكيف لا يحب الله تعالى الذي وقرّ له كل هذه النعم.

عرفوا الله تعالى بما هو أهله من الكمال:

ومن الوسائل الأخرى لتحبيب الله تعالى إلى خلقه بيان صفاته الحسنى وتعريفه إلى خلقه بما هو أهله من الكمال فإن الإنسان ينجذب فطرياً إلى الجمال والكمال، وذلك يتطلب معرفة فإنه لا حب إلا بمعرفة، فنحن لم نر رسول الله (صلى الله عليه وآله) ولا أمير المؤمنين (عليه السلام) ولا الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء والحسن والحسين والأئمة المعصومين والأنبياء والرسل (صلوات الله عليهم أجمعين) ولم نعايشهم ولكنهم وُصفوا لنا بمحاسن الأخلاق واطلعنا على سيرتهم الكريمة وسمو

ذواتهم ومواقفهم النبيلة فأحببناهم، أما الجاهل بهم فإنه لا يعرفهم حتى يحبهم، وهكذا العلماء من السلف الصالح (قدس الله أرواحهم) فإن العامي الذي لا يعرف قيمة إنجازاتهم العظيمة يكون حبه هامشياً مجملاً، أما العلماء الذين وقفوا على مؤلفاتهم وسبروا أغوار علومهم وعلموا قوة ملكاتهم والجهود المضنية التي بذلوها فإنهم يحملون لهم كل الحب والإجلال والتعظيم.

وهكذا إذا تعرّف الإنسان على الصفات الحسنى لخالقه أحبه، فمثلاً إذا عرف سعة عفوه عن المذنبين وقرأ قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (الزمر: ٥٣) وقرأ بعض الروايات، وفي الحديث: أن رجلاً قتل مائة رجل ظلماً، ثم سأل: هل من توبة؟ فدل على عالم، فسأله فقال: ومن يحول بينك وبين التوبة؟ ولكن أخرج من القرية السوء إلى القرية الصالحة فاعبد الله فيها، فخرج تائباً فأدركه الموت في الطريق، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فبعث إليهم ملكاً فقيل: قيسوا ما بين القريتين، فإلى أيتهما كان أقرب فاجعلوه من أهلها، فوجدوه أقرب إلى القرية الصالحة بشبر، فجعلوه من أهلها^(١).

أو عرف سعة رحمة الله تبارك وتعالى بعباده وأنه تعالى وزّع جزءاً من مائة جزء من رحمته على مخلوقاته فيها تتراحم، تصوروا أن رحمة الأمهات والآباء بأبنائهم لدى الإنسان والحيوان والمشاعر النبيلة التي تتدفق عند رؤية مبتلى أو عاجز أو ذوي عاهة، تشكّل هذه كلها جزء من مائة جزء من رحمة الله تعالى التي

(١) مستدرک الوسائل: ج ١٨ / ٢٦٠.

لا حدود لها، والقصص في رحمة الله تعالى وتدييره لأمر خلقه ورعايتهم عجيبة. أو عرف كيف أن الله يستر على المذنبين والخاطئين ويحفظ كرامتهم ويصون سمعتهم بين الناس كقصة السيد بحر العلوم (قُلَيْبٍ) الذي أمره الإمام المهدي (أرواحنا له الفداء) بأن يزور رجلاً عادياً من عامة الناس ويشره بعلو منزلته لخصلة أحبها الله تعالى فيه وهي أنه لما تزوج امرأة لم يجدها باكراً فطلبت منه الستر عليها وعدم فضحها فاستجاب لطلبها قربة إلى الله تعالى. أقول: إذا تعرف الإنسان على مثل هذه الصفات لخالقه أحبه قطعاً.

التعرف على سيرة الأنبياء والرسل والأوصياء:

ومما يحبب الله تعالى إلى عباده التعرف على سيرة أنبيائه ورسله وأوصيائهم المنتجبين وسمو أخلاقهم وطهارة نفوسهم، فإن رباً يكون رسله وسفرائه إلى خلقه مثل نبينا الأكرم محمد (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ويكون أوليائه مثل علي بن أبي طالب (عَلِيٍّ) لجدير بأن يستأثر بحب عباده، لأنهم يعكسون صورة عن صفات ربهم. وكمثال على ذلك أن بعض الناس يحبون مرجعية ما يقلدونها لأن وكيلها ومعتمدها عندهم حسن السيرة محبوب عندهم.

أحبوا الله تعالى ثم حبيوه إلى الآخرين:

ولا بد للإنسان قبل أن يحب الله تعالى إلى خلقه أن ينطوي قلبه على حب الله تعالى، ويظهر من الآيات الكريمة والروايات الشريفة أن هذا الحب علامة الإيمان، بل لا يؤثر عليه حب غيره، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ

كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾ (التوبة: ٢٤) وقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ (البقرة: ١٦٥) وقال تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ (المائدة: ٥٤).

متى يحصل الحب الإلهي؟

وروي أنه سئل رسول الله (ﷺ): (يا رسول الله ما الإيمان؟ قال: أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليك مما سواهما)^(١) وفي حديث آخر (لا يؤمن العبد حتى أكون أحبَّ إليه من أهله وماله والناس أجمعين). ويحصل الحب لله تبارك وتعالى بعد تحقق مقدمتين، كلما قويتا قوي الحب وكُمِّل:

الأولى: تطهير القلب من حب الدنيا وتهيئته بتفريغه لحب الله تعالى، فإن القلوب أوعية لا تستوعب أمراً ما حتى تخلوها من غيره، قال تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قُلُوبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ (الأحزاب: ١٥) وقال أمير المؤمنين (عليه السلام): (إن كنتم تحبون الله فأخرجوا من قلوبكم حب الدنيا) وعن الإمام الصادق (عليه السلام): (إذا تخلص المؤمن من الدنيا سما ووجد حلاوة حب الله تعالى) ولذا وردت الوصية فيه عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (القلب حرم الله فلا تسكن حرم الله غير الله).

وروي أن النبي (ﷺ) نظر إلى مصعب بن عمير مقبلاً وعليه إهاب كبش

(١) الحديث والذي يليه تجده في مجموعة ورام (تنبيه الخواطر ونزهة النواظر): ٢٢٣/١.

قد تنطق به فقال (ﷺ): (انظروا إلى هذا الرجل الذي قد نور الله قلبه، لقد رأيتُه بين أبويه يغذونه بأطيب الطعام والشراب فدعاه حب الله وحب رسوله إلى ما ترون)^(١).

الثانية: المعرفة بالله تعالى، فإنه لا حب إلا بعد المعرفة، ولا يحب الإنسان شيئاً يجهله؛ ويكرر القرآن الكريم كثيراً الأمر بالتدبر والتأمل والتفكير في آيات الله للوصول إلى المعرفة، قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (فصلت: ٥٣).
وتفاوت الناس في حبهم لله تبارك وتعالى بمقدار تفاوتهم في هاتين المقدمتين، وتبعاً لذلك تفاوت درجاتهم عند الله تبارك وتعالى.

آثار حب الإنسان لله تعالى وعلاماته:

إذا كان الحب صادقاً فإن آثاره ستظهر على سلوك الإنسان وعلاقته بالآخرين، فهذه الآثار تكون علامات على صدق الحب، ومن دون تحققها يكون ادعاء الحب وهماً:

- ١- طاعة المحبوب والقيام بكل ما يقربه من محبوبه ويطبق ما يكسبه رضاه ويجتنب ما يسخطه، ففي الحديث: (قال رجل للنبي (ﷺ): يا رسول الله علّمني شيئاً إذا أنا فعلته أحبني الله من السماء وأحبني الناس من الأرض، فقال (ﷺ) له: ارغب فيما عند الله عز وجل يحبك الله، وازهد فيما عند الناس

يحبك الناس^(١) قال الله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (آل عمران: ٣١)، قال الإمام الصادق (عليه السلام): (ما أحب الله عز وجل من عصاه، ثم تمثّل فقال:

تعصي الإله وأنت تُظهرُ حبهُ هذا لعمرى في الفعال بدعُ
لو كان حبك صادقاً لأطعته إن المحب لمن أحب مطيع^(٢)
ولا يجتنب المحرمات فقط بل يترك المكروهات لأن الله تعالى لا يحبها.

٢- إدامة ذكر الله تبارك وتعالى، فإن المحب لا يغفل عن ذكر حبيبه ومن أحب شيئاً أكثر ذكره بلسانه أو بقلبه وعقله وأحبّ ذكر الله تعالى، عن الرسول (صلى الله عليه وآله): (علامة حب الله تعالى حب ذكر الله، وعلامة بغض الله تعالى بغض ذكر الله تعالى)^(٣)، ودوام ذكر الله تعالى حصن الإنسان من الوقوع فيما يسخط الله تعالى ويبعد منه ومفتاح الارتقاء في الكمالات وسبب لذكر الله تعالى إياه ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ (البقرة: ١٥٢).

٣- إثارة محبة الله على ما يحبه العبد، فإذا خيّر بين أمرين اختار أَرْضاهما لله تبارك وتعالى وإن كان على خلاف هواه وما تشتهيه نفسه، لأن المحب يؤثر رضا محبوبه على رضا نفسه ففي البحار عن الإمام الصادق (عليه السلام): (دليل الحب، إثارة المحبوب على من سواه).

(١) الخصال - الشيخ الصدوق: ١/٦١/ح ٨٤

(٢) أمالي الصدوق ص ٢٩٣، - بحار الأنوار - العلامة المجلسي: ج ٦٧/ص ١٧.

(٣) كنز العمال - المتقي الهندي: ٤١٤/ح ١٧٧٦.

٤- إنه سيحب كل من يرتبط بمحبوبه فيحب الأنبياء والرسل (صلوات الله عليهم أجمعين) لأنهم مبعوثون من الله تبارك وتعالى، ويحب الأئمة والأوصياء (عليهم السلام) لأنهم منتجبون من الله تبارك وتعالى، ويحب القرآن لأنه رسالة ربه إلى عباده، عن الإمام الباقر (عليه السلام) قال: (قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) للناس وهم مجتمعون عنده: أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمة وأحبوني الله عز وجل وأحبوا قرابتي لي)^(١) ويحب العلماء والفقهاء لأنهم يهدونه إلى الله تبارك وتعالى، ويحب الشعائر والمشاعر المقدسة لأنها تذكّره بالله تعالى، ويحب المؤمنين لأنهم أهل طاعة الله تعالى، عن الإمام الباقر (عليه السلام): (إذا أردت أن تعلم أن فيك خيراً فانظر إلى قلبك فإن كان يحب أهل طاعة الله عز وجل ويبغض أهل معصيته ففبك خير والله يحبك، وإن كان يبغض أهل طاعة الله ويحب أهل معصيته فليس فيك خير والله يبغضك، والمرء مع من أحب).

٥- وإذا أحبَّ العبدُ ربَّه نشطت الأعضاء للعبادة ولم يستثقلها واستزاد منها فلم يقتصر على الواجبات، بل يكثر من المستحبات لأنها محبوبه عند الله تعالى، عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (كان فيما ناجى الله عز وجل به موسى بن عمران (عليه السلام) أن قال: يا بن عمران كذب من زعم أنه يحبني فإذا جنه الليل نام، أليس كل محب يحب خلوة حبيبه، هذا أنا يا بن عمران مطلع على أحبائي إذا جنَّهم الليل حوَّلت أبصارهم من قلوبهم ومثلت عقوبتي بين أعينهم، يخاطبوني عن المشاهدة، ويكلموني عن الحضور، يا بن عمران هب لي من قلبك الخشوع ومن بدنك الخضوع ومن عينيك الدموع في ظلم الليل

(١) علل الشرائع: ٢/ ٥٩٩ ح ٥٢.

وادعني فإنك تجدني قريباً مجيباً^(١).

٦- ومن علامات حب الله تعالى أن العبد لا يكره الموت قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (الجمعة: ٦) في الرد على زعمهم ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ﴾ (المائدة: ١٨)، وكيف يكرهه وبه ينتقل الإنسان من سجن الدنيا إلى حظيرة القدس ولقاء ربه وأوليائه ((وإذا علم أنه لا وصول إلى هذا اللقاء إلا بالارتحال عن الدنيا بالموت، فينبغي أن يكون محباً للموت غير فارٍ منه، فالمحب لا يثقل عليه السفر عن وطنه إلى مستقر محبوه ليتنعم بمشاهدته. والموت مفتاح اللقاء وباب الدخول إلى المشاهدة قال النبي الأكرم (ﷺ): «من أحب لقاء الله أحب لقاء الله»^(٢)).

نعم قد يحب الإنسان البقاء في الدنيا للاستزادة من طاعة الله تبارك وتعالى ونيل رضاه وهذا لا ينافي الحب ((وفي الخبر المشهور أن إبراهيم (عليه السلام) قال لملك الموت إذ جاءه لقبض روحه: هل رأيت خليلاً يميت خليله؟ فأوحى الله تعالى إليه: هل رأيت محباً يكره لقاء حبيبه، فقال: يا ملك الموت الآن فاقبض^(٣)).
٧- ومن علامات حب الله تعالى وآثاره أنه يسعى للاتصاف بصفاته

(١) أمالي الصدوق: ٤٢٨/ مجلس ٥٧، ح ١.

(٢) المحجة البيضاء للفيض الكاشاني، كتاب مقامات القلب.

(٣) مجموعة ورام: ٢٢٣/١.

الحسنى، فالمحب يتمثل في حياته كل حركات وسكنات بل رغبات محبوه، كما نجد من يحب عالماً أو بطلاً فيقلده في ملبسه ومشيته ومطعمه وحر كاته ونحوها، فالعبد إذا أحب ربه اتصف بصفاته الحسنی.

٨- ومن علامات حبّ الله تعالى حبّ عباده ومخلوقاته والرحمة بهم والشفقة عليهم لأنهم من صنع ربه وإبداعه ولأنهم رعاياه فيسعى لإسعادهم وقضاء حوائجهم وتفريج كربهم ورفع الظلم عنهم. فالذي يقابل حاجة الناس ومعاناتهم بقسوة قلب وعدم اكتراث لا يحلّ في قلبه حبّ الله تعالى.

٩- ومن علامات حبّ الله تعالى الرضا بقضائه والتسليم لأمره روي (إن رسول الله ﷺ) مرّ بقوم فقال لهم: ما أنتم؟ فقالوا: مؤمنون. فقال: ما علامة إيمانكم؟ قالوا: نصبر على البلاء ونشكر عند الرخاء ونرضى بمواقع القضاء، فقال (ﷺ): مؤمنون برب الكعبة^(١) وقال أيضاً: (إذا كان يوم القيامة أنبت الله لطائفة من أمتي أجنحة فيطفرون من قبورهم إلى الجنان يسرحون فيها ويتنعمون كيف شاؤوا فتقول لهم الملائكة: هل رأيتم حساباً؟ فيقولون: ما رأينا حساباً، فيقولون: هل جزتم على الصراط؟ فيقولون: ما رأينا صراطاً، فيقولون لهم: هل رأيتم جهنم؟ فيقولون: ما رأينا شيئاً، فتقول الملائكة: من أمة من أنتم؟ فيقولون: من أمة محمد (ﷺ)، فيقولون: نشدناكم الله حدثونا ما كانت أعمالكم في الدنيا فيقولون: خصلتان كانتا فينا فبلغنا الله هذه المنزلة بفضلِهِ ورحمته، فيقولون: وما هما؟ فيقولون: كنا إذا خلونا نستحي أن نعصيه

ونرضى باليسير مما قسم لنا، فتقول الملائكة: يحق لكم هذا^(١).

١٠- وأن يكون الحب ممزوجاً بالخوف من الإعراض أو الإبعاد أو أن يستبدل به غيره، يروى أن الإمام (عليه السلام) إذا أحرم ولبي وقال: (ليكن اللهم ليكن) كانت ترتعد فرائضه ويقول: أخشى أن يجينني الله تبارك وتعالى: لا ليكن). وقد يكون الخوف من التوقف وعدم التوفيق لمزيد القرب من الله تعالى فيكون من أهل الحديث: (من استوى يومه فهو مغبون، ومن كان يومه شراً من أمسه فهو ملعون)^(٢).

جزاء من يحب الله تبارك وتعالى:

١- إذا أحب العبد ربه أحبه وقربه منه وأدخله جنته قال تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾، عن الإمام الصادق (عليه السلام): (من أحب أن يعلم ماله عند الله فلينظر ما لله عنده)^(٣) ويشرح الحديث الآخر كيفية معرفة ذلك عن أمير المؤمنين (عليه السلام): (من أراد منكم أن يعلم كيف منزلته عند الله فلينظر كيف منزلة الله منه عند الذنوب كذلك منزلته عند الله تبارك وتعالى)^(٤)، وفي حديث آخر عن علي (عليه السلام) قال: (من أحب أن يعلم كيف منزلته عند الله فلينظر كيف منزلته عنده فإن كل من خير له أمران أمر الدنيا وأمر الآخرة فاختر أمر الآخرة على الدنيا فذلك الذي يحب الله ومن اختار الدنيا فذلك

(١) مجموعة ورام: ٢٣٠/١.

(٢) معاني الأخبار للصدوق: ٢٤٢.

(٣) معاني الأخبار للصدوق: ٢٣٦/ح ١.

(٤) الخصال للصدوق: ٦١٧/٢.

الذي لا منزلة لله عنده^(١).

وروي في أخبار داود (عليه السلام) (يا داود أبلغ أهل أرضي أنني حبيب من أحبني، ما أحبني أحد أعلم ذلك يقيناً من قلبه إلا قبلته لنفسه وأحبته حباً لا يتقدمه أحد من خلقي، من طلبني بالحق وجدني ومن طلب غيري لم يجدني، فارفضوا يا أهل الأرض ما أنتم عليه من غرورها وهلموا إلى كرامتي ومصاحبتي ومجالستي ومؤانستي وآنسوني أوأنسكم وأسارع إلى محبتكم)^(٢).

٢- وإذا أحب الله عبده: وفقه لطاعته وجنبه معصيته، روي أن موسى (عليه السلام) قال: (يا رب أخبرني عن آية رضاك عن عبدك فأوحى الله تعالى إليه: إذا رأيته أهيئ عبادي لطاعتي وأصرفه عن معصيتي فذلك آية رضائي)، وعن الإمام الصادق (عليه السلام): (إذا أحب الله عبداً ألهمه طاعته). وفي حديث آخر (إذا أحب الله عبداً جعل له واعظاً من نفسه وزاجراً من قلبه يأمره وينهاه).

٣- وإذا أحب الله عبده: تولى أمره وتدير شؤونه، ونصره على أعدائه، وأولهم نفسه التي بين جنبيه فلا يخذله ولا يكله إلى نفسه وشهواته، وفي الحديث عن النبي (صلى الله عليه وآله): (عن جبرئيل قال: قال الله تبارك وتعالى: وإن من عبادي المؤمنين لمن يريد الباب من العبادة فأكفّه عنه لئلا يدخله عجب فيفسده، وإن من عبادي المؤمنين لمن لم يصلح إيمانه إلا بالفقر ولو أغنيته لأفسده ذلك، وإن من عبادي المؤمنين لمن لا يصلح إيمانه إلا بالغنى ولو أفقرته

(١) بحار الأنوار: ٢٦/٧٠.

(٢) الحديث والذي يليه في بحار الأنوار: ٢٦/٧٠.

لأفسده ذلك^(١) إلى آخر الحديث.

٤- وإذا أحب الله عبده: كان دليله وسدد خطاه وأنار بصيرته وما أحوجنا إلى دليل يسدّدنا ويميّز بين الحقّ والباطل ويصّرنا بحقائق الأمور، في الحديث النبوي المتقدم: قال الله تبارك وتعالى: (وما يتقرب إليّ عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه ولا يزال عبدي يتهلّ إليّ حتى أحبه، ومن أحبّته كنت له سمعاً وبصراً ويداً وموثلاً إن دعاني أجبتّه وإن سألني أعطيتّه)^(٢).

٥- وإذا أحبّ الله عبداً حشره مع من أحب، جاء إعرابي إلى النبي (ﷺ) (فقال: يا رسول الله متى الساعة؟ فقال (ﷺ): ماذا أعددت لها؟ فقال: ما أعددت كثير صلاة ولا صيام إلا أنّي أحب الله ورسوله، فقال رسول الله (ﷺ): المرء مع من أحب. قال: فما رأيت المسلمين فرحوا بشيء بعد الإسلام فرحهم بذلك)^(٣).

ما يحببكم إلى الله تعالى:

من خلال استقراء الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة تحصل على قائمة طويلة بما يحببكم إلى الله تعالى، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ (البقرة: ٢٢٢) وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَتْهُمْ بُنْيَانٌ مَرُضُوصٌ﴾ (الصف: ٤).

(١) علل الشرائع: ١٢ الباب ٩، ح ٧.

(٢) وفي المحاسن: (كنت سمعته الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ولسانه الذي ينطق به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها) (بحار الأنوار: ٢٢/٧٠).

(٣) مجموعة ورام: ٢٢٣/١.

ومن الأحاديث الشريفة^(١) عن النبي (ﷺ): (ثلاثة يحبها الله سبحانه: القيام بحقه، والتواضع لخلقه والإحسان لعباده) وعنه (ﷺ): (ثلاثة يحبها الله: قلة الكلام، وقلة المنام، وقلة الطعام، ثلاثة يبغضها الله: كثرة الكلام، وكثرة المنام، وكثرة الطعام) وعنه (ﷺ) قال: (يقول الله تعالى: إِنَّ أَحَبَّ الْعِبَادِ إِلَيَّ الْمُتَحَابُونَ بِحَلَالِي الْمُتَعَلِّقَةُ قُلُوبُهُمْ بِالْمَسَاجِدِ الْمُسْتَغْفِرُونَ بِالْأَسْحَارِ، أَوْلَئِكَ إِذَا أُرِدْتُ بِأَهْلِ الْأَرْضِ عِقَابًا ذَكَرْتَهُمْ فَصَرَفْتُ الْعِقَابَ عَنْهُمْ).

وعن رسول الله (ﷺ): (أحب العباد إلى الله عز وجل رجل صدوق في حديثه محافظ على صلواته وما افترض الله عليه مع أدائه للأمانة) وعنه (ﷺ): (أحب المؤمنين إلى الله من نصب نفسه في طاعة الله ونصح لأمة نبيه وتفكر في عيوبه وأبصر وعقل وعمل) وعن الإمام الباقر (عليه السلام): (ما عبد الله بشيء أحب إلى الله عز وجل من إدخال السرور على المؤمن) وعن الإمام الصادق (عليه السلام): (ألا وإن أحب المؤمنين إلى الله من أعان المؤمن الفقير من الفقر في دنياه ومعاشه ومن أعان ونفع ودفع المكروه عن المؤمنين)، وعن الإمام الباقر (عليه السلام) عن رسول الله (ﷺ) قال: (ما بني بناء في الإسلام أحب إلى الله عز وجل من التزويج)^(٢).

أوثق عرى الإيمان:

أيها الأحبة:

إن الله تبارك وتعالى يحبُّكم لأنه خالقكم وصانعكم وأبدع في صنعكم وجعلكم في أحسن تقويم وكرمكم وفضلكم على كثير ممن خلق وسخر لكم ما

(١) هذه الأحاديث نقلت من بحار الأنوار ومجموعة ورام.

(٢) وسائل الشيعة: كتاب النكاح، باب استحبابه، ح ٤.

في الأرض جميعاً ويباهي بكم ويتحدى بكم من اتخذوهم أرباباً من دونه وأنداداً له ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (لقمان: ٢٤) يروى أن أبا تمام الشاعر المشهور يقول إن كل بيت من شعري عندي كابني، أقول: هذا وهو بيت من الشعر مهما كان بديعاً، فما هو محل هذا الكائن العجيب عند خالقه ومبدعه.

أتحسب أنك جرمٌ صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

فأحبوا الله تبارك وتعالى وحبوه إلى عباده وأحبوا عباد الله ومخلوقاته، واجعلوا دليلكم في من تحبون ومن تبغضون حب الله لهم وبغضه إياهم، في الكافي عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (من أوثق عرى الإيمان أن تحب في الله وتبغض في الله وتعطي في الله وتمنع في الله)^(١) وفي المحاسن عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع له فهو ممن كمل إيمانه).

(١) الحديث والذي يليه في بحار الأنوار: ٢٣٨/٦٩-٢٣٩.

ملحق: الدين هو الحب، والحب هو الدين

الحب معنى شريف نبيل اودعه الله تبارك وتعالى في قلوب الناس ليجعل لحياتهم طعما جميلا ممتعا، فان الحياة بلا حب كصحراء جرداء قاحلة مخيفة، اما الحب فيحولها الى واحة خضراء مؤنسة، والحب يعطي للحياة معنى وجدوى لأنه يؤكّد عند الانسان املا وغرضا وهدفا يحى ليحققه وهو الوصول الى محبوبه، سواء كان هذا المحبوب امرا معنوياً كالقرب من الله تعالى ورسوله الكريم (ﷺ) والائمة الطاهرين (سلام الله عليهم)، او ماديا كالمال او الشهرة او السلطة او الاتصال بالجنس الاخر، ولولا هذا الامل لأصبحت الحياة بلا هدف ولا معنى مما يؤدي الى الشعور بالاحباط واليأس والموت، وقد قلت في بعض كلماتي ان من فوائد جعل رواتب للمتقاعدين والمسنين والعاجزين هو ايجاد هدف وغاية يحبونها ويعيشون على امل الحصول عليها وهو قبض الراتب فيملؤون حياتهم بعدّ الايام والساعات لبلوغ ذلك الموعد.

فالحب اذا نعمة الهية عظيمة، وقد نسب الله تعالى وجوده في قلب الانسان اليه تبارك وتعالى كما في العلاقة الزوجية ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ (الروم: ٢١) او بين الاخوة المتحابين في الله تعالى ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (الأنفال: ٦٣) بالحب تعمّر الحياة لان الانسان اذا لم يحب شيئا فانه لا يتحمس لفعله والتحرك باتجاهه، اما اذا احبّ فانه يضحى من اجل حبه ويذوب في محبوبه كالوالدين بالنسبة لأبنائهما، او القائد الرسالي بالنسبة الى شعبه، وهكذا، لذا ليس

غريباً أن نجد في الحديث الشريف عن الإمام الباقر (عليه السلام) (الدين هو الحب، والحب هو الدين)^(١) وعن سعيد بن يسار قال: (قال لي أبو عبد الله (عليه السلام): هل الدين إلا الحب؟ إن الله عز وجل يقول: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ (آل عمران: ٣١)، المؤمن إذا صافح المؤمن تفرقا عن غير ذنب)^(٢)، لأن الدين محرّك ودافع لكل عمل مثمر يجلب الخير والسعادة له وللآخرين، والحب هكذا أيضا فهما يلتقيان دائما.

لكن المشكلة في تحريف هذا العنوان الشريف النبيل وإفراغه من محتواه بل تحويله الى عكس معناه ككثير من المصطلحات والعناوين التي تناولناها في كلمات عديدة كالحرية والاستعمار والسياسة، فاصبح الحب يعني العلاقات المشبوهة بين الجنسين واتباع الشهوات والنزوات بلا تعقل وروية وخارج اطارها الصحيح مما يولّد مشاكل اجتماعية وآثار نفسية تكون عاقبتها وخيمة وان بدت في اولها كأنها سعادة ومتعة، ويوجد من يغذّي هذا المعنى السيء للحب بين الشباب وخصوصا في الجامعات ويهيئون البيئة المناسبة له، ويمجّدون من يقع فيه لاستدراج الآخرين وكسر الحواجز الاخلاقية والاجتماعية والنفسية والدينية، وتنتج دور السينما والتلفزيون والمسرح سילاً متواصلاً من الافلام والمسلسلات لتحقيق هذا الغرض وتساندهم وسائل الاعلام المختلفة وهذا كله انحراف عن الفطرة السليمة وخروج عن الروابط الاجتماعية المتينة وتحطيم للأطر الصحيحة التي تنظم العلاقة بين الجنسين، وهذا تشويه لمعنى الحب ومصادرة له وتحويله

(١) المحاسب للبرقي: ١/٢٦٣/ح ٣٢٧.

(٢) الخصال، الشيخ الصدوق: ٣٥/ح ٧٤.

الى معنى سيء، وهو ليس حبا اصلاً ولا يمكن تسميته بالحب بل هو اتباع للنزوات والشهوات الحيوانية التي لا يمكن اعطاء عنوان الحب لها.

ان الحب الانساني الحقيقي هو ما يتعلق بمن يستحق الحب وهو الله تبارك وتعالى، لان كل ما يوجب المحبة متحقق فيه سبحانه، فالله تعالى جميل ويعرف ذلك من لمساته الجميلة على الكون وما فيه من حولنا، والقلب يحب الجمال والله تعالى محسن الينا وقد تولانا باحسانه ونعمه قبل ان نكون وبعد ان كنّا، والانسان مجبول على حب من احسن اليه، والله تعالى يحبنا ويشفق علينا حتى جعل من احبّ الاشياء اليه تعالى الاحسان الى المخلوقين، عن النبي (ﷺ) قال (الخلق عيال الله، فاحبّ الخلق الى الله من نفع عيال الله، وادخل على اهل بيت سروراً)^(١)، ومقتضى المقابلة ان نبادله تعالى الحب وقد اثنى تعالى على قوم يبادلونه هذا الحب ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ (المائدة: ٥٤) وهكذا فان كل مقومات الحب متوفرة فيه تعالى.

ويتفرع عن حبه تعالى حب من يرتبط به ومن امرنا بحبه كرسول الله (ﷺ) والائمة المعصومين (عليهم السلام) والاخوة المؤمنين عن رسول الله (ﷺ) قال (افضل الاعمال الحب في الله والبغض في الله تعالى)^(٢).

وكذلك فان حب الابوين والزوجة والاولاد داخل في هذا الاطار وهو مبارك من الله تعالى ويشيب عليه لأنه مما ينسجم مع الفطرة، لكنه متى خالف ما يحبه الله تعالى وخرج عن تعاليمه فهو مذموم ويجب رفضه ونبذه ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ

(١) الكافي: ١/١٦٤/ح ٦.

(٢) كنز العمال - المتقي الهندي: ٣/٩/ح ٢٤٦٣٨.

وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾ (التوبة).

ولكي يكون الحب صادقا فلا بد ان تظهر اثاره على المحب من التملق للمحسوب والحرص على ارضائه والمصارعة الى تحقيق مراده فالحب لله تعالى لا بد ان يقترن بطاعته تبارك وتعالى وطاعة رسوله (ﷺ) والابتعاد عن معصيته قال تعالى ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (آل عمران: ٣١)

تعصي الاله وانت تزعم حبه
لو كان حبك صادقا لأطعته
هذا لعمرى في الفعال شنيع
ان المحب لمن احب مطيع^(١)
ولا بد ان يبنى الحب على المعرفة ليكون راسخاً، لان المجهول لا يمكن أن تتعلق به المحبة، ولو تعلقت فلا تدوم، فعلياً أن نزداد معرفة بالله تعالى لنزداد حباً، ومن دون النظر بعين المعرفة والبصيرة فإننا لا ندرك معنى حب الله تعالى ولا نستطيع فهم حب عابس الشاكري للإمام الحسين (عليه السلام) بذلك الشكل الذي اذهل الأعداء والأصدقاء على حدٍ سواء، يُحكى أن قيس المجنون بحبٍ ليلي قيل له أن ليلي ليست بذاك الجمال الذي يُصيب بالجنون وتهيم في الصحراء شوقاً الى لقائها، قال قيس: ذلك لأنكم نظرتم الى ليلي بعيونكم وليس بعيني، فإذا لم ننظر

الى هذه الحقائق المعنوية بعين المعرفة والبصيرة فإننا لا ندر كها.
 نضع هذه الحقائق أمام من يريدون الاحتفال بعيد الحب ليصححوا نظرهم
 للامور، وكجزء من عملية التصحيح يمكن اختيار يوم مناسب لهذه المعاني
 ليكون عيداً للحب كالأول من ذي الحجة يوم أقدس علاقة حب شريفة في
 التاريخ وهو زواج أمير المؤمنين (عليه السلام) من الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء (عليها السلام)
 ومثلها علاقة رسول الله (صلى الله عليه وآله) بام المؤمنين خديجة (عليها السلام) ونحو ذلك من
 المناسبات.

القبس ٤٨/

سورة المائدة: ﴿٥٥﴾

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾

موضوع القبس: ولاية علي بن ابي طالب (عليه السلام) في القرآن الكريم

تعرّف الآية الكريمة من هو صاحب الحق في ولاية أمور الناس، الولاية التي هي أعظم أركان الإسلام وأوثق أسسه، روى الشيخ الكليني (رضوان الله تعالى عليه) في الكافي بسنده عن زرارة عن الإمام الباقر (عليه السلام) قال: (ثُبِّيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسَةِ أَشْيَاءَ عَلَى الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالْحَجِّ وَالصَّوْمِ وَالْوَلَايَةِ، قَالَ: زُرَّارَةُ فَقُلْتُ وَأَيُّ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ أَفْضَلُ؟ فَقَالَ: الْوَلَايَةُ أَفْضَلُ؛ لِأَنَّهَا مِفْتَاحُهَا وَالْوَالِي هُوَ الدَّلِيلُ عَلَيْهِنَ^(١)... ثُمَّ قَالَ (عليه السلام) ذِرْوَةُ الْأَمْرِ وَسَنَامُهُ وَمِفْتَاحُهُ وَبَابُ الْأَشْيَاءِ وَرِضَا الرَّحْمَنِ الطَّاعَةُ لِلْإِمَامِ بَعْدَ مَعْرِفَتِهِ إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ (النساء: ٨٠) أَمَا لَوْ أَنَّ رَجُلًا قَامَ لَيْلَهُ وَصَامَ نَهَارَهُ وَتَصَدَّقَ بِجَمِيعِ مَالِهِ وَحَجَّ جَمِيعَ ذَهْرِهِ وَلَمْ يَعْرِفْ وَلَايَةَ وَلِيِّ

(١) إذ بالولاية تفتح الأبواب لمعرفة أحكام الدين وآدابه ومعارفه وحقائقه، والولي الحق هو الذي يدل الناس على كل ذلك (فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تُعَرِّفْنِي حُجَّتَكَ ضَلَلْتُ عَنْ دِينِي) (الكافي: ١/ ٣٣٧ ح ٥) فالولاية ذروة معارف الدين وحقائقه وأصوله وأرفع شيء فيه، وبطاعة الولي الحق يصل الانسان إلى طاعة الله تعالى، ومن سلك غير هذا الطريق لا يستحق على الله تعالى شيئاً مما وعد به لمخالفته شرطه إلا أن يشملته فضل الله وسعته ورحمته.

اللَّهُ فَيُؤَالِيهِ وَيَكُونُ جَمِيعُ أَعْمَالِهِ بَدَلًا لِّتِهِ إِلَيْهِ مَا كَانَ لَهُ عَلَى اللَّهِ جَلٌّ وَعَزٌّ حَقٌّ فِي ثَوَابِهِ وَلَا كَانَ مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ ثُمَّ قَالَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ): أُولَئِكَ الْمُحْسِنُ مِنْهُمْ يُدْخِلُهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ بِفَضْلِ رَحْمَتِهِ^(١)، وفي رواية أخرى عنه (عَلَيْهِ السَّلَامُ): (قَالَ: بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ عَلَى الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصَّوْمِ^(٢) وَالْحَجِّ وَالْوَلَايَةِ وَلَمْ يُنَادِ بِشَيْءٍ كَمَا نُودِيَ بِالْوَلَايَةِ^(٣)).

والولاية مصدر خير وبركة وأمان للخلق أجمعين كالنبوة ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء: ١٠٧) والإمامة كذلك قال الإمام الصادق (عَلَيْهِ السَّلَامُ): (لو خلت الأرض طرفة عين من حجة لساخت بأهلها)^(٤)، وهي مظهر لرحمة الله تعالى التي وسعت كل شيء، روى في الخرائج عن الإمام الهادي (عَلَيْهِ السَّلَامُ) أنه قال ليوسف النصراني الذي زاره (عَلَيْهِ السَّلَامُ): (... إِنَّ أَقْوَامًا يَزْعُمُونَ أَنَّ وَلَايَتَنَا لَا تَنْفَعُ أَمْثَالَكَ كَذَبُوا وَاللَّهِ إِنَّهَا تَنْفَعُ أَمْثَالَكَ..)^(٥).

ونقل هذه الرواية في فضل ولاية أهل البيت (عَلَيْهِمُ السَّلَامُ) وعظيم منزلتها وأنها لا يعدلها شيء، روى عن يونس (بن ظبيان) أنه قال للإمام الصادق (عَلَيْهِ السَّلَامُ): (لَوْلَايِي لَكُمْ وَمَا عَرَفَنِي اللَّهُ مِنْ حَقِّكُمْ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا بِحَذَائِيرِهَا قَالَ يُونُسُ: فَتَبَيَّنْتُ الْغَضَبَ فِيهِ، ثُمَّ قَالَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ): يَا يُونُسُ قِسْتَنَا بِغَيْرِ قِيَاسٍ، مَا الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا؟ هَلْ هِيَ

(١) الكافي: (ط - الإسلامية) / ج ٢ / ص ١٨.

(٢) في بعض النسخ [والصيام].

(٣) الكافي: (ط - الإسلامية) / ج ٢ / ص ١٨.

(٤) بحار الأنوار: ٢٩ / ٢٣.

(٥) الخرائج والجرائح: ١ / ٣٩٨، وأيضاً يُنظر: بحار الأنوار: ١٤٤ / ٥٠.

إِلَّا سَدُّ قُورَةٍ - أي من الجوع - أَوْ سَتْرُ عَوْرَةٍ وَأَنْتَ لَكَ بِمَحَبَّتِنَا الْحَيَاةُ الدَّائِمَةُ^(١).
والولاية المقصودة في الآية الكريمة هي ولاية أمر الأمة بكل ما تتضمنه من القيمومة والحاكمية وتدبير الشؤون والتصرف في الانفس والأموال، والنظر في ما فيه صلاح المولى عليه وفلاحه عن قرب ومباشرة، وهي التي وردت في الآية الكريمة ﴿التَّيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ (الأحزاب: ٦) بمعنى أنه أحق بأنفس المؤمنين من أنفسهم، وأمره حاكم على أمرهم، وهي التي أخذ إقرارهم عليها يوم الغدير إذ قال لهم: (... ألسنت أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟ فقالوا: اللهم بلى)^(٢)، ومن باب أولى الولاية على أموالهم وسائر شؤونهم، فهي ولاية الحاكمية والسلطنة على التصرف فيهم، ووجوب الطاعة ومن تجب طاعتهم حيث جعل الله تعالى ولايتهم وطاعتهم كولايتهم وطاعته سبحانه، قال تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ (النساء: ٥٩)، وقد أكد الإمام الصادق (عليه السلام) ذلك في رواية الكافي (في قول الله عز وجل) ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ قَالَ (عليه السلام) إِنَّمَا يَعْنِي أَوْلَىٰ بِكُمْ أَيُّ: أَحَقُّ بِكُمْ وَبِأُمُورِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ ... وَالَّذِينَ آمَنُوا يَعْنِي عَلِيًّا وَأَوْلَادَهُ الْأَئِمَّةَ (عليهم السلام) إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ... فَكُلُّ مَنْ بَلَغَ مِنْ أَوْلَادِهِ مَبْلَغَ الْإِمَامَةِ يَكُونُ بِهَذِهِ الصِّفَةِ مِثْلَهُ^(٣) فَيَتَصَدَّقُونَ وَهُمْ رَاكِعُونَ^(٤).

(١) تحف العقول: ٣٧٩/ط - جماعة المدرسين، وأيضاً يُنظر: بحار الأنوار: ٧٨ / ٢٦٥.

(٢) بحار الأنوار: ٣٧ / ٢٢٥.

(٣) في بعض النسخ المطبوعة والوسائل [بهذه النعمة].

(٤) الكافي: (ط - الإسلامية) / ج ١ / ص ٢٨٨ / ح ٣.

روى في الكافي بسنده عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (... وَصَلَ اللَّهُ طَاعَةَ وَلِيِّ أَمْرِهِ بِطَاعَةِ رَسُولِهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وَطَاعَةَ رَسُولِهِ بِطَاعَتِهِ فَمَنْ تَرَكَ طَاعَةَ وَكَلَةِ الْأَمْرِ لَمْ يُطِيعِ اللَّهَ وَلَا رَسُولَهُ ...) ^(١)، وفيه أيضاً بسنده عن الحسين بن أبي العلاء قال: (ذَكَرْتُ لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ (عليه السلام) قَوْلَنَا فِي الْأَوْصِيَاءِ إِنَّ طَاعَتَهُمْ مُفْتَرَضَةٌ قَالَ: فَقَالَ (عليه السلام): نَعَمْ، هُمْ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ (المائدة: ٥١) وَهُمْ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ ^(٢).

عن هذه النعمة العظيمة وعن هذا الأساس المتين للإسلام تتحدث الآية الكريمة، فتبدأ بـ ﴿إِنَّمَا﴾ التي تفيد الحصر فتحصر حق الولاية بالله تبارك وتعالى خالق الخلق ورازقهم ومدير شؤونهم، ومنه إلى النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ومنه إلى جماعة مصطفىة ومستخلصة من المؤمنين وصفتهم بأنهم يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة حال كونهم راكعين.

وقد تواترت الروايات من طرق الفريقين ^(٣) أنها نزلت في أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) عندما تصدق بخاتمه في صلاته وهو راکع، ونقل العلامة المجلسي عن السيد ابن طاووس: قَالَ السَّيِّدُ فِي كِتَابِ سَعْدِ السُّعُودِ: (رَأَيْتُ فِي تَفْسِيرِ مُحَمَّدِ بْنِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ مَرْوَانَ أَنَّهُ رَوَى نُزُولَ آيَةِ ﴿إِنَّمَا

(١) الكافي: (ط - الإسلامية) / ج ٢ / ص ٤٧، بحار الانوار: ١٠/٦٩.

(٢) الكافي: (ط - الإسلامية) / ج ١ / ص ١٨٧.

(٣) نقل صاحب تفسير الفرقان: ٨/ ٣٥٦، أن السيد المرعشي النجفي (رضوان الله تعالى عليه) أخرج في (ملحقات إحقاق الحق: ٢/ ٣٩٩ - ٤٠٨) نزول هذه الآية في الإمام علي (عليه السلام) عن ٣١ مصدراً.

وَلِيَكُمُ اللَّهُ... ﴿١﴾ فِي عَلِيٍّ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) مِنْ تَسْعِينَ طَرِيقًا بِأَسَانِيدَ مُتَّصِلَةٍ كُلُّهَا أَوْ جُلُّهَا مِنْ رِجَالِ الْمُخَالِفِينَ لِأَهْلِ الْبَيْتِ (عَلَيْهِمُ السَّلَامُ)....^(١)، وقد أحصى ابن شهر آشوب في المناقب جمعاً من مصادر هذه الواقعة وأصحاب رسول الله (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) الذين رَوَوْهَا^(٢) وقال الآلوسي: «... وغالب الأخباريين على أنها نزلت في علي (كرم الله وجهه)....»^(٣).

روى جمع من المفسرين وجامعي المناقب منهم الثعلبي في تفسيره بالإسناد عن أبي ذر الغفاري (رضوان الله تعالى عليه) قال: - في حديث - (أَمَا إِنِّي صَلَّيْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) يَوْمًا مِنَ الْأَيَّامِ صَلَاةَ الظُّهْرِ، فَسَأَلَ سَائِلٌ فِي الْمَسْجِدِ فَلَمْ يُعْطِهِ أَحَدٌ فَرَفَعَ السَّائِلُ يَدَهُ إِلَى السَّمَاءِ وَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي سَأَلْتُ فِي مَسْجِدِ رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) فَلَمْ يُعْطَنِي أَحَدٌ شَيْئًا، وَكَانَ عَلِيٌّ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) رَاكِعًا فَأَوْمَى بِخِنْصِرِهِ الِئِمْنَى إِلَيْهِ، وَكَانَ يَتَخَنَّمُ فِيهَا، فَأَقْبَلَ السَّائِلُ حَتَّى أَخَذَ الْخَاتَمَ مِنْ خِنْصِرِهِ، وَذَلِكَ بَعَيْنُ النَّبِيِّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ)، فَلَمَّا فَرَّغَ النَّبِيُّ مِنْ صَلَاتِهِ رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ إِلَى أَنْ قَالَ: فَوَاللَّهِ مَا اسْتَتَمَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) الْكَلِمَةَ حَتَّى نَزَلَ عَلَيْهِ جَبْرَائِيلُ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) مِنْ عِنْدِ اللَّهِ (تَعَالَى)، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ اقْرَأْ، قَالَ: وَمَا أَقْرَأُ؟ قَالَ: اقْرَأْ: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾^(٤).

(١) بحار الأنوار: ٣٥ / ٢٠١. ط - بيروت.

(٢) مناقب آل أبي طالب (عَلَيْهِمُ السَّلَامُ) - ابن شهر آشوب: ٣ / ٢.

(٣) روح المعاني: ٣ / ٣٣٤، دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون، بيروت، ط: ١، ١٤١٥ هـ. ق.

(٤) الكشف والبيان (تفسير الثعلبي): ٤ / ٨٠؛ دار إحياء التراث العربي، ط: ١، ١٤٢٢ هـ. ق.

وقال في الدر المنثور: (أخرج الخطيب في المتفق عن ابن عباس قال تصدق علي بخاتمه وهو راعع فقال النبي (ﷺ) للسائل: من أعطاك هذا الخاتم؟ قال: ذاك الراكع فأنزل الله ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾...) (١).

ولوضوح المنقبة لدى الأصحاب فقد كانت مما احتج به أمير المؤمنين (عليه السلام) عليهم يوم الشورى فقال (عليه السلام): (... نَشَدْتُكُمْ اللَّهَ، أَفِيكُمْ أَحَدٌ، نَزَلَتْ فِيهِ: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ غَيْرِي؟ قَالُوا: اللَّهُمَّ لَا... (٢)، فقال حسان بن ثابت (٣):

أبا حَسَنٍ تَفْدِيكَ نَفْسِي وَأُسْرَتِي وَكُلُّ بَطِيءٍ فِي الْهُدَى وَمُسَارِعِ

أَيَذْهَبُ مَدْحٌ مِنْ مُجِبِّكَ ضَائِعاً وَمَا الْمَدْحُ فِي جَنْبِ الْإِلَهِ بَضَائِعِ

فَأَنْتَ الَّذِي أُعْطِيتَ إِذْ كُنْتَ رَاكِعاً عَلَيَّ فِدَتِكَ النَّفْسُ يَا خَيْرَ رَاكِعِ

فَأَنْزَلَ فِيكَ اللَّهَ خَيْرَ وَلايَةٍ وَبَيْنَهَا فِي مُحْكَمَاتِ الشَّرَائِعِ

وقال أيضاً:

مَنْ ذَا الَّذِي بَخَاتِمِهِ تَصَدَّقَ رَاكِعاً وَأُسْرَهَا فِي نَفْسِهِ إِسْرَاراً

(١) الدر المنثور: ٣/ ١٠٤، ط: دار الفكر، وقد أخرج الرواية بطرق عديدة.

(٢) المسترشد في إمامة علي بن أبي طالب (عليه السلام): ص ٣٥٣.

(٣) ونسبها ابن شهر آشوب في المناقب الى خزيمة بن ثابت. أنظر: مناقب آل أبي طالب: ٢١١/٢.

مَنْ كَانَ بَاتَ عَلَى فِرَاشٍ مُحَمَّدٍ وَمُحَمَّدٌ أُسْرَى يَوْمَ الْغَارِ

مَنْ كَانَ فِي الْقُرْآنِ سُمِّيَ مُؤْمِنًا فِي تِسْعِ آيَاتٍ ثَلَاثِينَ غَزَارًا^(١)

وقد أكدت الآية التالية أن هذه الولاية هي الحدّ الفاصل الذي يميّز حزب الله الغالب، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ (المائدة: ٥٦)، روى الشيخ الطوسي بسنده عن أنس بن مالك عن النبي (ﷺ) أنه قال: (إذا كان يوم القيامة ونصب الصراط على جهنم لم يجرز عليه إلا من معه جواز فيه ولاية علي بن أبي طالب، وذلك قوله تعالى: ﴿وَقِفُّهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ (الصفّات: ٢٤) يعني عن ولاية علي بن أبي طالب (عليه السلام)).^(٢)

لكن الحساد والمبغضين والمضللين لم يدعنوا لهذا الأمر الإلهي وعاندوه، روى الشيخ الكليني بسنده عن الإمام الباقر (عليه السلام) قال: (بني الاسلام على خمس: على الصلاة والزكاة والصوم والحج والولاية ولم يناد بشيء كما نوذي بالولاية، فأخذ الناس بأربع وتركوا هذه - يعني الولاية)^(٣)، وروى أيضاً بسنده عن الإمام الصادق (عليه السلام) عن أبيه عن جده (عليه السلام) في قوله عزّ وجلّ: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ

(١) موسوعة الإمام علي بن أبي طالب للشهري: ٢٠٢ / ٢.

(٢) أمالي الطوسي: المجلس الحادي عشر / ح ١١ / ٢٩٠، الرقم: ٥٦٤.

(٣) الكافي: ١٨ / ٢ / ح ٣.

ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا ﴿النحل: ٨٤﴾ قَالَ: (لَمَّا نَزَلَتْ) ^(١) ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ اجْتَمَعَ نَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ (ﷺ) فِي مَسْجِدِ الْمَدِينَةِ فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ مَا تَقُولُونَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ؟ فَقَالَ بَعْضُهُمْ إِنَّ كَفَرْنَا بِهِذِهِ الْآيَةِ نَكْفُرُ بِسَائِرِهَا وَإِنْ آمَنَّا فَإِنَّ هَذَا ذُلٌّ حِينَ يُسَلِّطُ عَلَيْنَا ابْنُ أَبِي طَالِبٍ فَقَالُوا قَدْ عَلِمْنَا أَنَّ مُحَمَّدًا صَادِقٌ فِيمَا يَقُولُ وَلَكِنَّا نَتَوَلَّاهُ وَلَا نَطِيعُ عَلِيًّا فِيمَا أَمَرَنَا قَالَ فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾ يَعْرِفُونَ يَعْنِي وَلَايَةَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ بِالْوَلَايَةِ ^(٢).

ولذلك احتاج الأمر إلى موقف جلي حاسم يقطع الطريق على المنكرين وذلك ما حصل في بيعة الغدير، روى الشيخ الكليني بسند صحيح عن جمع من فضلاء أصحاب الإمام الباقر (عليه السلام) قال: (أَمَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ رَسُولُهُ بِوَلَايَةِ عَلِيٍّ (عليه السلام) وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ وَفَرَضَ وَلَايَةَ أُولِي الْأَمْرِ فَلَمْ يَذَرُوا مَا هِيَ فَأَمَرَ اللَّهُ مُحَمَّدًا (ﷺ) أَنْ يَفْسِّرَ لَهُمُ الْوَلَايَةَ كَمَا فَسَّرَ لَهُمُ الصَّلَاةَ وَالزَّكَاةَ وَالصَّوْمَ وَالْحَجَّ فَلَمَّا أَتَاهُ ذَلِكَ مِنَ اللَّهِ ضَاقَ بِذَلِكَ صَدْرُ رَسُولِ اللَّهِ (ﷺ) وَتَخَوَّفَ أَنْ يَرْتَدُّوا عَنْ دِينِهِمْ وَأَنْ يُكَذِّبُوهُ فَضَاقَ صَدْرُهُ وَرَاجَعَ رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فَأَوْحَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْهِ ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ (المائدة: ٦٧) فَصَدَعَ بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى ذِكْرُهُ فَقَامَ بِوَلَايَةِ

(١) الآية في سورة المائدة التي هي من اواخر سورة القرآن نزولاً.

(٢) الكافي: (ط - الإسلامية) ج ١/ ص ٤٢٧.

عَلِيٍّ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) يَوْمَ غَدِيرِ خُمٍ فَنادَى الصَّلَاةَ جَامِعَةً وَأَمَرَ النَّاسَ أَنْ يُبَلِّغَ الشَّاهِدُ الغَائِبَ ... وقال أَبُو جَعْفَرٍ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) وَكَانَتِ الْفَرِيضَةُ تُنْزَلُ بَعْدَ الْفَرِيضَةِ الْأُخْرَى وَكَانَتِ الْوَلَايَةُ آخِرَ الْفَرَائِضِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿...الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي...﴾ (المائدة: ٣) قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ (عَلَيْهِ السَّلَامُ): يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَا أَنْزَلُ عَلَيْكُمْ بَعْدَ هَذِهِ فَرِيضَةً قَدْ أَكْمَلْتُ لَكُمْ الْفَرَائِضَ ^(١).

ومنه يتضح وجه اهتمام أئمة أهل البيت (عَلَيْهِمُ السَّلَامُ) بعيد الغدير، وحثهم المؤمنين ^(٢) في أقطار الأرض على الحضور عند مرقد أمير المؤمنين (عَلَيْهِ السَّلَامُ) في النجف لإظهار عزة ولاية أمير المؤمنين (عَلَيْهِ السَّلَامُ) لتجديد البيعة معه، وإبراز هوية الولاء لأهل البيت (عَلَيْهِمُ السَّلَامُ) والدعاء بالثبات على ولايتهم، قال الإمام الرضا (عَلَيْهِ السَّلَامُ) لأحد أصحابه المقربين: (يا ابن أبي نصر أينما كنت فاحضر يوم الغدير عند أمير المؤمنين (عَلَيْهِ السَّلَامُ) فإن الله يغفر لكل مؤمن ومؤمنة ومسلم ومسلمة ذنوب ستين سنة، ويعتق من النار ضعف ما أعتق في شهر رمضان، وفي ليلة القدر وليلة الفطر، والدرهم فيه بألف درهم لإخوانك العارفين...) ^(٣)، وبولاية أمير المؤمنين (عَلَيْهِ السَّلَامُ) كمل الدين وتمت النعمة، وأنزل الله تعالى في ذلك اليوم ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾.

ولذا كانت قضية الغدير أهم قضايا الإسلام التي يجب إثارتها والاحتجاج

(١) الكافي (ط - الإسلامية) / ج ١ / ص ٢٨٩.

(٢) راجع الخطاب (٧٢٤) الخاص بهذا التوجيه في موسوعة خطاب المرحلة: ج ١٣ / ص ٤٦٢ بعنوان:

(حث المؤمنين من مختلف البلدان على زيارة أمير المؤمنين (عَلَيْهِ السَّلَامُ) يوم الغدير وتعظيم شعائره.

(٣) وسائل الشيعة: ١٤ / ٣٨٨ / باب ١١ / ح ١.

بها، وهداية الناس إليها، لأن ولاية أهل البيت (عليه السلام) تحفظ الإسلام النقي الأصيل وتحصن الأمة من الانحراف وتحفظ وحدتها وهبتها وعزتها، وما انفرط عقد الأمة وتاهت في أتون الصراعات إلا عندما أضاعت ولاية أمير المؤمنين (عليه السلام).

ورغم وضوح هذه الحقائق وتواترها لكن المخالفين الذين يصعب عليهم الاعتراف بهذا الحق لأمر المؤمنين (عليه السلام) شككوا في دلالة الآية على ولاية أمير المؤمنين (عليه السلام) فقالوا بأن الولاية هنا بمعنى النصر والمجبة وليس ولاية أمر الأمة، وهذا مردود؛ لأن الآية تفيد حصر الولاية بالموصوف فيها والحصر يعني نفيها عمّن سواه واختصاصها به، والنصر والمجبة يشترك فيها جميع المؤمنين ولا تختص بأحد من المؤمنين دون غيره كما في قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ (التوبة: ٧).

((وجه آخر في الدلالة على أن الولاية في الآية مختصة، أنه سبحانه قال:

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ﴾ فخاطب جميع المؤمنين، ودخل في الخطاب النبي (صلى الله عليه وآله) وغيره، ثم قال: ﴿وَرَسُولُهُ﴾ فأخرج النبي (صلى الله عليه وآله) من جملتهم، لكونهم مضافين إلى ولايته، ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ فوجب أن يكون الذي خوطب بالآية غير الذي جعلت له الولاية، وإلا أدى إلى أن يكون المضاف هو المضاف إليه بعينه، وإلى أن يكون كل واحد من المؤمنين ولي نفسه، وذلك محال...))^(١).

وشككوا أيضاً من جهة أن الآية وردت بصيغة الجمع فكيف يراد بها الواحد؟ وهي شبهة لا قيمة لها مقابل الروايات المتواترة، وقد رواها الصحابة وهم

أعرف بلسان العرب ولم يجدوا في ذلك حزاة، مع أن التعبير بالجمع عن المفرد مألوف ومتداول في لغة العرب للتفخيم أو أي غرض آخر، وهو مستعمل في القرآن الكريم. كما في قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَيْنَ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ (المنافقون: ٨) وقد نزلت في مقولة زعيم المنافقين ابن أبي سلول، وقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ نَحْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾ (المائدة: ٥٤) وقد ورد أنها نزلت فيه أيضاً، وقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ﴾ (البقرة: ٢١٥) والسائل واحد، والآية الأولى من سورة الممتحنة ﴿تَسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ﴾ وهي في حاطب ابن أبي بلتعة.

ولو تنزلنا فإن الممنوع استعمال لفظ الجمع في المفرد، وليس إعطاء ضابطة عامة كلية يمكن أن يحظى بها كثيرون لتحفيزهم على الوصول إليها لكنها لم تنطبق إلا على واحد كما في المقام، على أننا لا نفهم من هذا الوصف العلية لاستحقاق الولاية بحيث يدور الاستحقاق مدارها وإنما أريد بها الإشارة إلى المستحق والتعريف به وقد روي عن عمر بن الخطاب أنه قال: (وَاللَّهِ لَقَدْ تَصَدَّقْتُ بِأَرْبَعِينَ خَاتِماً وَأَنَا رَاكِعٌ لِيُنْزَلَ فِيَّ مَا نَزَلَ فِي عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) فَمَا نَزَلَ^(١)).

وقالوا أيضاً: إن التصديق بخاتم ليس من الزكاة، وهو مردود؛ لأن الزكاة أطلقت في القرآن على كل إنفاق في سبيل الله تعالى وليس على خصوص

(١) أمالي الصدوق: ١/ ١٨٦، تحقيق مؤسسة البعثة، وينظر أيضاً: مناقب آل أبي طالب (عليه السلام) - ابن

الحصة المعلومة.

وقالوا: إن علياً (عليه السلام) معروف بخشوعه في الصلاة حتى استلوا سهما من رجليه وهو يصلي دون أن يحسّ بالألم فكيف سمع كلام السائل؟
وفيه غفلة عن أن الخشوع إنما ينافي الغفلة عن الله تعالى والانشغال بأمور الدنيا ولا يعني الغياب عن الوعي وعدم الإحساس بما حوله، والالتفات إلى الأمور التي فيها طاعة الله تبارك وتعالى كإجابة السائل من طاعة الله تعالى فهو عبادة في عبادة.

فلنتعرف على أولي الأمر الحقيقيين، روى الشيخ الكليني في الكافي والشيخ الصدوق في التوحيد عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (قال أمير المؤمنين (عليه السلام) أعرفوا الله بالله والرسول بالرسالة وأولي الأمر بالأمر بالمعروف والعدل والإحسان)^(١)، فهذه أولويات ولي الأمر وهذه وظائفه وبها يعرف، وقد جسد أمير المؤمنين الإحسان بما نطقت به الآية الكريمة من الإحسان إلى الناس حتى وهو في حال الصلاة وهذا الحديث حجة على الذين يتصدون لولاية أمور الأمة بالسيف وتزييف الحقائق والمكائد وبغير استحقاق ويزعمون أنهم أولو الأمر الذي عناهم الله تعالى بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ (النساء: ٥٩) لكن أعمالهم تفضحهم، لأنها بعيدة عما ذكره الحديث الشريف من الوظائف.

ولنتمسك بهذه الولاية ولنحافظ على حدودها وآدابها، روي في تحف العقول من وصية الإمام الباقر (عليه السلام) لجابر الجعفي (... واعلم بأنك لا تكون لنا

(١) الكافي: ١/ ٨٥، التوحيد: ٢٨٦.

وَلَيْتَ حَتَّىٰ لَوْ اجْتَمَعَ عَلَيْكَ أَهْلُ مِصْرَكَ وَقَالُوا إِنَّكَ رَجُلٌ سَوَاءٌ لَّمْ يَخْزُوكَ ذَلِكَ وَلَوْ
 قَالُوا إِنَّكَ رَجُلٌ صَالِحٌ لَّمْ يَسُرَّكَ ذَلِكَ وَلَكِنْ اعْرِضْ نَفْسَكَ عَلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ فَإِنَّ
 كُنْتَ سَالِكًا سَبِيلَهُ زَاهِدًا فِي تَرْهِيدِهِ رَاغِبًا فِي تَرْغِيهِ خَائِفًا مِنْ تَخْوِيفِهِ فَأُثِّبَتْ
 وَأُبْشِرَ فَإِنَّهُ لَا يَضُرُّكَ مَا قِيلَ فِيكَ وَإِنْ كُنْتَ مُبَايِنًا لِلْقُرْآنِ فَمَا ذَا الَّذِي يَغُرُّكَ مِنْ
 نَفْسِكَ إِنَّ الْمُؤْمِنَ مَعْنِي بِمُجَاهَدَةِ نَفْسِهِ لِيُغْلِبَهَا عَلَىٰ هَوَاهَا فَمَرَّةً يُقِيمُ أَوْدَهَا^(١)
 وَيُخَالِفُ هَوَاهَا فِي مَحَبَّةِ اللَّهِ وَمَرَّةً تَصْرَعُهُ نَفْسُهُ فَيَتَّبِعُ هَوَاهَا فَيَنْعَشُهُ اللَّهُ^(٢) فَيَنْتَعِشُ
 وَيُقِيلُ اللَّهُ عَثْرَتَهُ فَيَتَذَكَّرُ وَيَفْزَعُ إِلَى التَّوْبَةِ وَالْمَخَافَةِ فَيَزِدَادُ بَصِيرَةً وَمَعْرِفَةً لِمَا زِيدَ
 فِيهِ مِنَ الْخَوْفِ وَذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ
 الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ (سورة الأعراف: ٣٥) (...)^(٣).

ولنحذر الطرد والحرمان منها، وعدم الثبات عليها، ومن موجبات الطرد
 تشويه صورة المؤمن في المجتمع والخط من منزلته وإسقاطه من أعين الناس
 خصوصاً إذا كان بأخبار مفتراة وشبهات وضلالات لا واقع لها، روى في الكافي
 بسنده عَنْ مُفَضَّلِ بْنِ عُمَرَ قَالَ: (قَالَ لِي أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام): مَنْ رَوَى عَلَى مُؤْمِنٍ
 رَوَايَةً يُرِيدُ بِهَا شَيْنَهُ وَهَدَمَ مُرُوءَتَهُ لِيَسْقُطَ مِنْ أَعْيُنِ النَّاسِ أَخْرَجَهُ اللَّهُ مِنْ وَلَايَتِهِ
 إِلَى وَلَايَةِ الشَّيْطَانِ فَلَا يَقْبَلُهُ الشَّيْطَانُ)^(٤).

أقول: إخراجهم من ولاية الله تعالى أمر طبيعي لأنه أثبت بتسقيطه للمؤمنين

(١) الأود: العوج. وقد يأتي بمعنى القوة.

(٢) نعشه الله: رفعه وأقامه وتداركه من هلكة وسقطة. وينعش أي ينهض - وينشط.

(٣) تحف العقول: ٢٨٤، بحار الأنوار: ١٦٢ / ٧٨.

(٤) الكافي: (ط - الإسلامية) / ج ٢ / ص ٣٥٨.

أن ولايته لله تعالى غير صادقة ولا يستحق أن ينتسب إليها، وأما عدم قبول الشيطان بولايته سواء كانوا شياطين الإنس أو الجن، فإن براءة شياطين الإنس من اتباعهم ومنفذي إرادتهم يثبتها الواقع المعاش حيث يتبرأون منهم بعد فعلتهم الشنيعة ويزعمون أنهم لا يمثلونهم، والقرآن حافل بحكاية هذه الحوارات بين المستكبرين واتباعهم كقوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا أُنْحُنْ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ﴾ (سبأ: ٢٢).

وأما شياطين الجن فقد حكى القرآن جملة منها، كإغراء المشركين بالخروج إلى حرب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في بدر ﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (الأنفال: ١٨)، وذلك لأن إبليس يعرف من الله تعالى ما لا يعرفه هؤلاء النافهون.

أو لأن المؤمن ينجيّه الله تعالى من التسقيط وهدم المروءة فيرى الشيطان أن غرضه من هذا التشويه لم يتحقق فيرفض انتساب الفاعل إليه.

وقيل في وجه عدم قبول الشيطان: أن فعله أشنع من فعل إبليس الذي عصى أمر ربه بالسجود لآدم (عَلَيْهِ السَّلَام) إلا أنه لم يسقط آدم (عَلَيْهِ السَّلَام) في أعين الملائكة ولم ينقل عنه ما يشينه^(١).

ملحق: مراعاة حقوق الأخوة المؤمنين شرط الولاية وثمرتها وشعارها

قلنا في مناسبة سابقة لعيد الغدير إن الأعمال المستحبة لهذه المناسبة فيها شيء لم يوجد في أي من المناسبات الأخرى، وهو عقد المؤاخاة بين المؤمنين فيقول بعضهم لبعض (آخيتك في الله وصافيتك في الله وصافحتك في الله)، وهذا يعني: إن من شروط الولاية لأمر المؤمنين وأهل بيته (عليه السلام)، ومن علامات وشعارات الولاية الصداقة لهم (عليه السلام) ومن ثمرات الولاية المخلصة: المؤاخاة مع المؤمنين وحفظ حقوق الأخوة معهم، فهذه الجوانب الثلاثة للولاية يجب ملاحظتها وتأكيدا وتجديدها في هذا العيد الأكبر، وقد علمنا المعصومون (عليه السلام) أن نشهد بهذه العلاقة الوثيقة بين المؤمنين عندما نزورهم (عليه السلام) فنقول (يا أبا عبد الله اني سلم لمن سالمكم وحرب لمن حاربكم إلى يوم القيامة)^(١).

ونريد الآن أن نضيف شيئا إلى هذا مما ورد في عقد المؤاخاة وهو أن حقوق الأخوة بين المؤمنين عظيمة لا يطيقها إلا الأفاضل من المؤمنين، لذا أستحب لهم أن يسقط بعضهم عن بعض حقوق الأخوة إلا الشفاعة والدعاء والزيارة فيقول بعضهم لبعض (أسقطت عنك جميع حقوق الأخوة ما خلا الشفاعة والدعاء والزيارة)، فإن من حق المؤمن على أخيه ألا يبخل بها عليه، إن هذا الإسقاط أريد به العفو عما يحصل من تقصير بسبب غفلة أو عصبية أو إتباع شهوة ونزوة، وهو لا يعني سقوط حقوق الإخوان لأن لها شأنًا عظيمًا عند الله تعالى، قال أمير المؤمنين (عليه السلام): (قضاء حقوق الإخوان أشرف أعمال المتقين)^(٢) وقال الإمام

(١) مفاتيح الجنان: زيارة عاشوراء.

(٢) ميزان الحكمة: ٦٨/١، عن جامع الأخبار: ٢٥٢/ ح ٦٥٠.

الصادق (عليه السلام): (ما عبد الله بشيء أفضل من أداء حق المؤمن)^(١) ولا عجب في ذلك فإن السعي لقضاء حوائج المؤمنين والاهتمام بأمورهم وإدخال السرور عليهم يتضمن جملة من الأخلاق العظيمة التي تتطلب مجاهدة للنفس كالتواضع والحياء والكرم وسلامة القلب ومداراة الناس والإيثار وغير ذلك.

والروايات الشريفة الواردة في بيان حقوق المؤمنين كثيرة، منها ما في الكافي بسنده عن سعيد بن الحسن قال: (قال أبو جعفر (عليه السلام): أيحيى أحدكم إلى أخيه فيدخل يده في كيسه فيأخذ حاجته فلا يدفعه؟ فقلت: ما أعرف ذلك فينا! فقال أبو جعفر (عليه السلام): فلا شيء إذاً، قلت: فالهلاك إذاً، فقال: إن القوم لم يعطوا أحلامهم بعد)^(٢) أي لم يبلغوا درجة الإيمان الكامل.

وقد ألف الشيخ الصدوق (رضوان الله تعالى عليه) كتاباً في ذلك سمّاه (الإخوان)، ومما رواه بسنده عن الإمام الباقر (عليه السلام) قال: (أرأيت من قبلكم إذا كان الرجل ليس عليه رداء وعند بعض إخوانه رداء يطرحه عليه؟ قال: قلت: لا، قال: فإذا كان ليس عنده إزار يوصل إليه بعض إخوانه بفضل إزاره حتى يجد إزاراً؟ قال: قلت: لا، قال فضرب بيده على فخذه ثم قال ما هؤلاء بأخوة)^(٣).

(١) وسائل الشيعة: ٢٠٣/١٢.

(٢) الكافي: ١٧٣/٢ ح ١٣.

(٣) وسائل الشيعة: ٢٦/١٢.

وفيه عن إسحاق بن عمار قال: (كنت عند أبي عبد الله (عليه السلام) فذكر مواساة الرجل لإخوانه وما يجب له عليهم فدخلني من ذلك أمر عظيم، فقال: إنما ذلك إذا قام قائمنا، وجب عليهم أن يجهزوا إخوانهم وأن يقوؤهم^(١). وإلى هذا التفاوت في درجات الإيمان يشير الإمام الباقر (عليه السلام) بقوله: (لم تتواخوا على هذا الأمر، ولكن تعارفتم عليه)^(٢).

ولكثرة هذه الحقوق وصعوبة الالتزام بها فقد كان الأئمة (عليهم السلام) يشفقون على أصحابهم ولا يبينونها كلها لهم، ففي الكافي بسنده عن معلى بن خنيس قال: (سألت أبا عبد الله عن حق المؤمن، فقال: سبعون حقاً لا أخبرك إلا بسبعة، فإنني عليك مشفق أخشى أن لا تتحمل)^(٣) وفي رواية ابن أعين أنه سأل أبا عبد الله (عليه السلام) عن حق المسلم على أخيه فلم يجبه^(٤) خوفاً عليه من عدم تحملها.

لكن هذا التشديد على مراعاة حقوق الإخوان وصعوبة القيام بها لا يصح أن تكون نتيجته عدم الإكثار من الإخوان المؤمنين خشية التفريط بحقوقهم، وإنما يستحب الازدياد منهم مع السعي الممكن لأداء حقهم كما في إكثار الإخوان من بركات في الدنيا والآخرة، روى الشيخ الصدوق في ثواب الأعمال بسنده عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (من استفاد أخاً في الله استفاد بيتاً في الجنة)^(٥)، وقال

(١) وسائل الشيعة: ٢٧/١٢.

(٢) بحار الانوار: ٢٠٥/٦٨، عن الكافي.

(٣) وسائل الشيعة: ٢٠٧/١٢ ح ١١، عن الكافي: ١٣٩/٢ ح ١٤.

(٤) وسائل الشيعة: ٢٧/١٢ ح ٥.

(٥) وسائل الشيعة: ١٦/١٢ ح ١.

(عَلَيْهِ السَّلَامُ): (استكثروا من الإخوان فإن لكل مؤمن دعوة مستجابة، فإن لكل مؤمن شفاعته)^(١).

ولا بد من الالتفات إلى أننا لو فرضنا أن الله تعالى أسقط وجوبها إذا أسقطها صاحبها، فإن محبوبيتها عنده سبحانه كافية للحث على القيام بها، كما أن الأمر الوارد في الآية الكريمة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَظْهَرُ﴾ (المجادلة: ١٢) أسقطه الله تعالى شفقة على المؤمنين بقوله ﴿أَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ (المجادلة: ١٣) ألا أن محبوبيته لكونه سبباً للطهارة والخير باقية وتحث على العمل.

وفي ضوء ما تقدم فإن ما يحصل من إساءة وتسقيط وتشهير وافتراء بين المؤمنين على مواقع التواصل الاجتماعي أو في أحاديث المجالس، لمجرد الاختلاف في الرأي أو الموقف أو جهة الانتماء أو أي شيء آخر هو من أعظم المنكرات المحرمة في الشريعة، وتزداد سوءاً كلما انتشرت أكثر، وصاحبها وناشرها غير معذورين، لأن بإمكانهم بل يجب عليهم التثبت من الأمر واستيضاح الحقيقة من المعني بالقضية مباشرة، وإلا فإنهم يرتكبون كبائر عديدة، وعلينا التأمل طويلاً في الرواية التالية في من يتحدث عن أخيه المؤمن بسوء ليسقط سمعته الاجتماعية قال الإمام الصادق (عَلَيْهِ السَّلَامُ): (من روى على مؤمن رواية يريد بها

شينه وهدم مروته ليسقط من أعين الناس أخرجه الله من ولايته إلى ولاية الشيطان
فلا يقبله الشيطان)^(١).

(١) الكافي: ج ٢/ ص ٣٥٨.

﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾

وجوب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر قرانياً ٢/

في الآية الكريمة تويخ وتقريع للربانيين والأخبار لتركهم فريضة النهي عن المنكر، وكذا لتركهم الأمر بالمعروف المستفاد بالاقتران بين الفريضتين^(١) وتصف تخليهم عن وظيفتهم ببئس الصنيع.

والربانيون نسبة إلى الرب سبحانه وتعالى، ويمكن أن يراد بهم ما نسميهم في عرفنا (المتدينين) وهم الذين يغلب عليهم الالتزام بالشرعية فنسبوا إلى صاحب الشريعة سواء كانوا من العلماء أو غيرهم، أو يراد بهم واجهة المؤسسة الدينية والقائمون بالوظائف الدينية كأئمة المساجد وخطباء المنابر والجمعة وسدنة العتبات المقدسة، أما الأخبار فهم العلماء وحملة العلم سواء كانوا صالحين أو فاسقين.

وذكر قول الإثم وأكل السحت من دون المنكرات لا يخصص الآية بها لعدم الخصوصية ولدلالة آيات أخرى على العموم كقوله تعالى: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ (المائدة: ٧٩)، وإنما ذكر قول الإثم وأكل السحت خاصة

(١) بحث مفصلاً في البحوث التمهيدية في القسم الأول من كتاب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر في موسوعة فقه الخلاف.

لأنهما المذكورات في الآية السابقة ﴿وَتَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعمَلُونَ﴾ (المائدة: ١٢٠)، ولأنهما أصل المعاصي المتفشية في المجتمع. فقول الإثم يتضمن الغيبة والنميمة والكذب والافتراء والبهتان وإيذاء الآخرين والتضليل وترويج الشبهات وتحريف الكلم عن مواضعه والتغريب بالآخرين والتدليس عليهم وغيرها كثير.

أما أكل السحت فيشمل موبقات كثيرة كالفوائد الربوية والرشوة في القضاء وسرقة أموال الشعب وأخذ الأثمان على إلقاء الأحكام بغير ما أنزل الله تعالى، وشرعنة عمل الظالمين، والتطيف في الميزان وبيع المحرمات وأكل المال بالباطل والظلم ونحوها كثير.

فالآية تدعو إلى العمل بهذه الفريضة وتذم تاركها بأشد الذم، وهي عامة في دلالتها لكل المنتسبين إلى الشريعة، ولو قلنا بأن خطابها خاص لشريحة العلماء والمتدينين، فإن ذلك لا ينافي عموم الوجوب، وإنما خصت هؤلاء لأن الوجوب عليهم أكد والامتنال متوقع منهم أكثر من غيرهم لمعرفة بعض هذه الفريضة وشدة وجوبها وسوء عاقبة تركها، كما ورد في الحديث الشريف عن الإمام الصادق (عليه السلام): (لنحملن ذنوب سفهائكم على علمائكم)^(١).

ولا يرد هنا إشكال اجتماع وجوبين على موضوع واحد باعتبار الوجوب العام للفريضة الشامل للأخبار والربانيين، وهذا الوجوب الخاص المستفاد من الآية، لأن هذا الخطاب فيه مزيد تأكيد على هؤلاء الخاصة وتذكير بمسؤوليتهم المضاعفة

(١) وسائل الشيعة: كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، باب ٧، ح ٣.

عن الفريضة، مضافاً إلى نقاشنا في أصل الكبرى فإننا لا نمنع منها كما تقدم^(١).
قال العلامة الطبرسي: ((فدَمَّ هؤلاء - أي الربانيين والأخبار - بمثل اللفظة التي
ذَمَّ بها أولئك^(٢)، وفي هذه الآية دلالة على أن تارك النهي عن المنكر بمنزلة
مرتكبه وفيه وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر))^(٣).

قال في ظلال القرآن: ((إن سمة المجتمع الخير الفاضل الحي القوي
المتماسك أن يسود فيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. أن يوجد فيه من يأمر
بالمعروف وينهى عن المنكر؛ وأن يوجد فيه من يستمع إلى الأمر بالمعروف
والنهي عن المنكر؛ وأن يكون عرف المجتمع من القوة بحيث لا يجرو
المنحرفون فيه على التنكر لهذا الأمر والنهي، ولا على إيذاء الأمرين بالمعروف
الناهين عن المنكر.

هكذا وصف الله الأمة فقال: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ
بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ (آل عمران: ١١٠)، ووصف بني
إسرائيل فقال: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ (الأحزاب: ٧٩). فكان ذلك
فيصلاً بين المجتمعين وبين الجماعتين.

أما هنا فينحى باللائمة على الربانيين والأخبار، الساكتين على المسارعة في
الإثم والعدوان وأكل السحت؛ الذين لا يقومون بحق ما استحفظوا عليه من كتاب

(١) انظر: أسمى الفرائض الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، القسم الأول: ص ٩٢.

(٢) يقصد قوله تعالى: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ في هذه الآية وقوله تعالى: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ﴾ في الآية السابقة.

(٣) مجمع البيان: مج ٢: ٣٣٦.

الله))^(١).

أقول: ينبغي الالتفات إلى أن مطلوبة هذه الوظيفة من الربانيين وعلماء الدين لا تعني أن يتركوا كل أعمالهم ومسؤولياتهم وواجباتهم ويتفرغوا لأمر هذا ونهي ذاك ويترصدا كل منكر لينهوا عنه ويراقبون أفعال الناس ويتجسسوا عليهم ليأمروهم وينهوهم، فهذه سيرة غير عقلانية ولا متشرعية، وإنما عليهم أن يكونوا متصفين بهذه الصفة ويكون ديدنهم ذلك ويمتلكون حاسة الغضب لله تعالى إذا غصبي، ولا يترددون في الامتثال عند تنجّز التكليف.

((ثم إن قوله سبحانه: ﴿يَفْعَلُونَ﴾ إما مجاز؛ لأن الترك ليس فعلاً -على قول المشهور-، وإما حقيقة، ويراد بالفعل الذي أوجب تركهم الأمر والنهي، وذلك عبارة عن تكاليفهم على الدنيا وأخذهم الرشوة على سكوتهم والأول أقرب سياقاً والثاني أقرب والله العالم))^(٢).

أقول: ليس في التعبير مجاز، وإنما هو على نحو الحقيقة؛ لأن الترك يصدق عليه فعل إذا اقترن بالقصد، كالصوم الذي هو كفٌّ عن المفطرات مقترناً بنية القربة إلى الله تعالى. مضافاً إلى أن التقريب الذي ذكره للاستعمال على نحو الحقيقة مقبول، ومراد من الشارع المقدس، وهو الالتفات إلى علل الأفعال قبل نفس الأعمال والعلاج لا بد أن يتناول العلل، وقد نبّهنا على ذلك في خطابات متعددة.

(١) في ظلال القرآن: مج ٢/٧٩٠.

(٢) الفقه: ١٦٤/٤٨.

القبس/٥٠

سورة المائدة: ﴿٦٤﴾

﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾

موضوع القبس: المسلمون وحرب الجيل الخامس... العراق انموذجا

الآية من سورة المائدة التي تتكفل بشكل رئيسي تنظيم الأمة الإسلامية من الداخل ورسم علاقاتها مع الآخرين والتحذير من مكائد ودسائس أعدائهم. وهذا الجزء من الآية يبين أن أعداء الإسلام سوف لا يتوقفون عن إشعال نار الحروب ضد المسلمين، وسوف يستمرون بتأجيج نيران الحروب على المسلمين بكل اشكالها، وإمدادها بما عندهم من وقود مادي ومعنوي، للقضاء على هذا الدين العظيم الذي من الله تعالى علينا به كأعظم هبة للإنسانية لكن الله تعالى يخيب مساعيهم ويبطل مكرهم، روى العياشي في تفسيره عن الإمام الباقر (عليه السلام) قوله في تفسير الآية (كلما أراد جبار من الجبابرة هلكة آل محمد (عليه السلام) قصمه الله تعالى) ^(١).

وشُبِّهَت الحرب بالنار لأنها مثلها تلتهم وجودات الناس الجسدية والروحية بحسب نوع الحرب المستعرة.

ولعل تشبيه الحرب بالنار لأن بواعثها ودوافعها نيران في باطن الإنسان، كنار الحقد والحسد والتعصب والطمع والشهوة.

أو لأن هذه الحروب ستتجلى في حقيقتها نيراناً تحرق موقديها ومؤججيها

(١) تفسير العياشي: ج ١، ٣٣، - تفسير القمي: ج ١ / ١٧١.

﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ (البقرة: ٥١).

وتشير بقية الآية إلى صفة أخرى راسخة في اعداء الاسلام وهي نشر الفساد في الارض ولعلها هي سبب اشغالهم المستمر للحروب، قال تعالى ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ (المائدة: ٦٤) والسعي هو السير السريع، فهم يجتهدون في تدبير المكائد والخطط والفتن وهي كثيرة ومتنوعة لإفساد أهل الأرض حتى يسيطروا على العالم، ولكن الله تعالى لا يدعهم وشأنهم بل يخيب مساعيهم لأن الله تعالى لا يحب المفسدين لذا فانه تعالى ينصر عباده العاملين لإحلال الصلاح بدل الفساد بشرط أن يباينوا عمل المفسدين ولا يجاملونهم ولا يصانعونهم لأن المؤمن يُحِبُّ من أحبَّ الله ويبغض من أبغض الله ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ (المائدة: ٦٤).

ويشير هذا التعليل الى إن حرب الإسلام مع اعدائه هي حرب الصلاح على الفساد وليست حرباً عنصرية ولا قومية ولا طائفية ولا عرقية ولا لمصالح سياسية أو اقتصادية.

وقد تكفل الله تعالى بأن يطفئ نار حقدهم وعدوانهم وحروبهم كلما أشعلوها ما دام المسلمون ملتزمين بما عاهدوا الله تعالى من التمسك بدينهم وأقاموا الإسلام في حياتهم ورجعوا الى ربهم ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ (الحج: ٣٨) ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ (محمد: ٧) ﴿لَنْ يَضُرَّكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُؤْلَوْكُمْ الْأَذْبَارُ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ﴾ (آل عمران: ٣٣).

وقد صدقت الآية في إخبارها فيما يتعلق بالحروب التي أشعلها مشركو قريش واليهود وقبائل العرب فقد أطفأها الله تعالى ونصر رسوله (ﷺ) وأعز جنده.

والاعداء يعلمون هذه الحقيقة لأنهم درسوا أوضاع المسلمين وسيرة قادتهم وعرفوا أن سر انتصارهم هو التمسك بدينهم والإخلاص لربهم، لذا فهم يعملون بكل ما أوتوا من إمكانيات ومنها تسخير عملائهم وادواتهم في بلاد المسلمين من اشخاص ومؤسسات وحكام لتميع العقيدة في قلوب المسلمين وتمزيق وحدتهم وإذكاء الصراعات والخلافات بينهم بإثارة التعصب للانتماءات المختلفة السياسية أو العشائرية أو القومية أو المناطقية أو الطائفية، وإشاعة الفساد والانحلال، لذلك فإنهم كلما تعرّفوا على مزيد من الحق والقوة والحجة لدى المسلمين ازدادوا حقدًا وعداءً وظلمًا، قال تعالى في جزء سابق من الآية ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ (المائدة: ٦٤)، لأنهم يعرفون أنه الحق وان سبب معاداتهم للمسلمين لأنهم على الحق.

إذن فتحقق وعد الله تعالى بإطفاء نيران حروبهم يتطلب ورعاً واجتهاداً، وتضحيةً وثباتاً، ووعياً وبصيرةً، لأن سنة الله تعالى جرت بدفع عدوان الناس على بعضهم وفسادهم في الأرض بمواقف شجاعة حازمة واعية من المؤمنين وليس بمعجزات الا في حالات استثنائية تتطلبها كجعل النار برداً وسلاماً على إبراهيم (عليه السلام)، قال تعالى ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (البقرة: ٢٥١).

فمثلاً حرب التشكيك في العقائد وإلقاء الشبهات في الدين أو تشويه صورة

قادة الإسلام أو التضليل ونشر الفساد والانحراف واجهها القرآن الكريم والمعصومون (عليه السلام) بالحجج والبيانات الدامغة الكافية لإطفاء تلك النيران، ولكن على المسلمين ان يتسلحوا بالعلم والمعرفة والتفقه في الدين والتدبر في تلك الحجج والبيانات لينتصروا في تلك الحرب بنصر الله تعالى.

وإذا غاب هذا الشرط لا تتحقق هذه السنة الإلهية لذا نرى الأعداء يحققون نصراً هنا أو هناك في فترات محدودة من الزمن لكن النصر النهائي يكون للمؤمنين، فالإشكال على الآية الكريمة بأننا نراها خلاف الواقع ناشئ من النظرة الضيقة المحدودة في أفق الزمن، وعدم فهم أهدافهم الحقيقية في السيطرة على العالم والتحكم بأمور البشر لنقيس على أساسها النجاح والفشل فانهما يقاسان على أساس تحقق الغرض وعدمه.

ومن علائم فشلهم ان الإسلام يغزوهم في عقر دارهم بمواجهة ناعمة ويستغيث كبارؤهم من ضياع هويتهم وثقافتهم ويقولون متهمين ان أوروبا ستنتضم إلى منظمة الدول الإسلامية عما قريب، وتقول احصائياتهم الأخيرة مطلع عام ٢٠٢٢م ان ثاني أكثر أسماء مواليد البريطانيين شيوعاً هو أسم (محمد).

ولعل جواباً آخر يتحصل من قول السيد الطباطبائي (قدس سره) ((والآية على ما يدل عليه السياق تسجل عليهم خيبة المسعى في إيقاف النيران التي يوقدونها على دين الله سبحانه، وعلى المسلمين بما انهم مؤمنون بالله وآياته، واما الحروب التي ربما أمكن أن يقودوا نارها لا لأمر الدين الحق بل السياسة أو تغلب جنسي أو ملي فهي خارج عن مساق الآية))^(١).

(١) الميزان في تفسير القرآن: ٣٦ / ٦.

ويشير الجزء السابق من الآية الى شكل من اشكال النصره الإلهية الموجبة لإطفاء نار حروبهم على المسلمين، بإلقاء الاختلاف بينهم قال تعالى ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ (المائدة: ٦٤) وفي آية أخرى ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ (المائدة: ٦٤) وهذا الاختلاف والتنازع نتيجة طبيعية لتوجهاتهم المادية وأنانياتهم وعدم تورعهم عن ارتكاب أي وسيلة لتحقيق أهدافهم وحب الاستعلاء والسيطرة ﴿تَحَسَّبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾ (الحشر: ٢٥).

إن كل هذه الألفاف الإلهية تؤكد حقيقة ان المؤمنين هم بعين الله تعالى وانه تبارك وتعالى معهم ويدبر شؤونهم، وإن نسبت هذه التدابير غفلة أو جهلاً أو عناداً إلى الحظ أو الصدفة وغيرهما، وهذه الألفاف الإلهية من الرعاية الخاصة غير تسيير الخلق بعنايته تعالى وسننه وقوانينه، قال أمير المؤمنين (عليه السلام) (عرفت الله سبحانه بفسخ العزائم وحل العقود ونقض الهمم)^(١).

واغراض الحروب وأهدافها وإن كانت ثابتة تقريباً منذ القدم وهي التي ذكرناها الا أن أنماطها مختلفة من حيث خططها وميادینها والتقنيات والأدوات المستعملة فيها وآثارها وتداعياتها وهي متغيرة بحسب التغيرات في عالم البشر. وقد صنف المختصون في العلوم الحربية الحروب إلى عدة أجيال تطورت إليها عبر التاريخ بلحاظ المتغيرات الآتية.

فالجيل الأول: هي الحروب القديمة بالسيف والرمح والسهم واستخدام

(١) نهج البلاغة: القسم الرابع، الحكمة: ٢٥٠.

الخيول والعربات والمعدات الحربية الأخرى وقد امتدت إلى العصور الوسطى.

والجيل الثاني: هي حروب الأسلحة النارية والمدفعية.

ثم تلاهما الجيل الثالث والرابع ويختلف معها من حيث الخطط والأدوات التي تعتمد إنهاك العدو واستنزاف قدراته المادية والمعنوية حتى ترغمه في النهاية على الانصياع لشروط المنتصر وتستخدم فيها الاتصالات والإعلام والحرب النفسية والطابور الخامس وحرب العصابات وإضعاف الثقة بالنفس وبالقيادة فلا يوجد للحرب ميدان واحد كما في الجيلين الأول والثاني.

ويعيش العالم اليوم حرب الجيل الخامس، وقد أُلِّفَتْ كتب ونشرت مقالات في خصائص هذا الجيل من الحروب وآلياته وتأثيراته.

أدوات الحرب الناعمة:

ويمكن أن نشير إلى عدد من واجهات هذه الحرب وأدواتها ليلتفت المسلمون إلى الأخطار التي تواجههم، وليعرفوا ان هذه الحالات والأوضاع المأساوية التي يمرون بها ليست ظواهر جزئية مشتتة حصلت قضاءً وقدرًا وإنما هي خطط في منظومة كاملة من إدارة الصراع يتحالف القائمون عليها من أجل تحقيق أهدافهم مع أنظمة رسمية أو كيانات غير رسمية كفصائل المتمردين والجماعات القومية أو الانفصالية أو القبلية ومؤسسات ووسائل إعلامية وعصابات خارجة عن القانون.

ومن أدوات هذه الحرب:

١- الغزو الثقافي والفكري لتغيير طرق تفكير الناس وطمس هويتهم وانقلاب

المفاهيم عندهم بحيث يرون مبادئهم ومعتقداتهم واخلاقهم تخلفا ورجعية وكتباً وتضييقاً للحريات الشخصية ونحو ذلك حتى تتحقق تبعيتهم لثقافة العدو وافكاره ونظراته الى الحياة ويصبح العوبة تسيرها أيدي الاعداء وهو ما حذر الرسول الكريم (ﷺ) أمته منه بقوله: (كيف بكم اذا رأيتم المعروف منكراً والمنكر معروفاً)^(١)

٢- تمزيق وحدة المجتمع ونسيجه بإثارة التعصبات الطائفية والقومية والجغرافية والعشائرية والسياسية وسائر الانتماءات الأخرى حتى على مستوى مباريات كرة القدم التي توجب صراعات مقيمة حتى تستنزف قدراته وتشغله بهذه الصراعات الهامشية والمناكفات التافهة عن العدو الحقيقي الذي يسعى للقضاء عليهم.

٣- تغذية الارهاب والترويج له لخداع مزيد من الشباب الضائعين ودعم الجماعات الارهابية مادياً ومعنوياً وتيسير وصول المخدوعين الى المناطق التي يحددونها للصراع وهي بلاد المسلمين خاصة وهم بذلك يحققون اهدافاً عديدة: إضعاف النظام السياسي في بلاد المسلمين لإجباره على الخضوع لإرادتهم وتنفيذ سياساتهم ، واستنزاف قدرات المسلمين في هذه الصراعات، وخلق فتن وازمات تمزقهم من خلال تبادل الاتهامات وتحشيد كل طرف ضد الآخر للدفاع عن هويته ووجوده، وتخليص بلادهم من وجود هؤلاء الارهابيين والتكفيريين والقاء شرهم على اخوانهم المسلمين.

٤- الحرب الاقتصادية من خلال المقاطعة وفرض الحصار الاقتصادي وخلق

(١) التهذيب: ج ٦/ ص ١٧٧/ ح ٣٥٩.

أزمات اقتصادية تزيد من نسبة الفقر ولا يجد الشعب ما يسدُّ رمقه واغراق الدولة بالديون فتضطر الحكومة الى إيقاف برامج التنمية والرفاهية والخدمات الأساسية فيؤدي ذلك إلى رهن القرار السياسي بإرادة المستكبرين وفرض سياسات تخدم مصالح الدول المتحكمة من خلال المؤسسات الدولية المالية المانحة للقروض بشروط والتحكم بالسوق من خلال الاحتكار أو اغراقه بالبضائع مما يؤدي إلى إيقاف عجلة العمل وتعطيل الإنتاج فيرهق ميزانية الدولة بالاستيراد وارتفاع معدل البطالة مما يسبب اختلالات اجتماعية كبيرة تكون سبباً للجرائم والسرقات.

وتدخل في هذا الصنف الحرب المالية أيضاً بتخفيض قيمة العملة الوطنية وإضعافها حتى تفقد قدرتها التنافسية مع العملات الأخرى وتزداد اسعار المواد الغذائية والاساسية فيعجز المواطن عن تلبية احتياجاته ويؤدي الى كساد السوق وتسريح العاملين وتفشي البطالة والفقر، وهذا ما حصل في العراق مع بداية عام ٢٠٢١م.

٥- حرب المياه التي هي شريان الحياة والتنمية والاستقلال، وشحة المياه تؤدي الى تهديد الأمن الغذائي وفقدان الاستقرار والحياة الكريمة ويؤدي الى انحسار الزراعة وازدياد البطالة والاستيراد من الخارج وما يترتب على ذلك من اخطار جمة.

٦- الحرب البيولوجية باستخدام سلالات من الجراثيم والفيروسات لإحداث أمراض تهدد حياة البشر والحيوان والنبات وقد ابتلي العراقيون بهذه الأسلحة خلال عدة حروب عانوا منها خلال العقود الأخيرة.

٧- حرب البيئة: حيث استخدم سلاح التغيرات البيئية لتهديد الأمن البيئي واستقرار المنظومة الزراعية والبيئية بإحداث بعض الظواهر الطبيعية المصطنعة مما يحدث التلوث والتصحر والاحتباس الحراري وأمثالها من التغيرات البيئية الخطيرة.

٨- حرب المخدرات بترويج تجارتها وتعاطيها لتخدير العقول وتدمير الأجساد بواسطة عصابات ومافيات وهي أخطر الحروب وتستهدف الشباب بدرجة أساسية لتلقي بهم في أودية الضياع والهلاك وتقويض بنية المجتمع من أساسها وتحولهم من طاقات منتجة مثمرة إلى مجرمين، وقد أُستهدفت المجتمعات الإسلامية بهذا الداء الفتاك وانتشر في أوساطها ولازلنا نسمع يوماً باللقاء القبض على عدد من تجار المخدرات بحيث يبلغ عددهم سنوياً بالألاف، فكم يا ترى عدد المتعاطين؟

٩- إقامة القواعد العسكرية بعنوان توفير الحماية من التهديدات الخارجية أو الإرهابية إلا أنها سرعان ما تتحول إلى أداة لفرض الإرادة والتدخل في القرار السياسي والسيطرة على الثروات وتجنيد العملاء.

وبالنسبة للمعالجات ومواجهة هذا الجيل من الحروب فلا شك أنها تقع بشكل رئيسي على مسؤولية الحكومة فإن واجبها حفظ أمن الدولة والمواطن بكل أشكاله الشخصي والبيئي والغذائي والاجتماعي والاقتصادي وغيرها، من خلال إقامة الحكم الرشيد الذي ينال ثقة الشعب ويجعله مدافعاً عن حكومته ومسارعاً إلى المشاركة في الانتخابات ليختار الثلة الصالحة القادرة على حسن إدارة البلاد. وهنا يبرز دور الحوزة العلمية والنخب المثقفة في توعية الشعب وتنبيهه الى

هذه المخاطر وكيفية مواجهتها وقد لمسنا الآثار المباركة لإطلاق حملة مكافحة المخدرات خلال شعبان الحالي وفي الزيارة الشعبانية ولا زالت مستمرة فعلينا تفعيل هذه المبادرات في جميع الاتجاهات ليتحقق وعد الله تعالى بإطفاء النيران التي يوقدها اعداؤهم، ولا شك ان شهر رمضان فرصة عظيمة للقيام بهذه المسؤولية بلطف الله تعالى وتأييده.

القبس/٥١

سورة المائدة: ﴿٦٧﴾

﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ
وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾

يوم الغدير عيد الله الأعظم

كل آيات القرآن عظيمة وجليلة، وهذه الآية من أعظم الآيات القرآنية وأجلها قدراً لأنها أسست لمستقبل الإسلام بعد النبي (ﷺ) وخلوده وحفظته وصانته من الانحراف والتشويه في أهم منعطف ومفصل تاريخي بوفاة النبي (ﷺ) وغياب شخصه عن مسرح الحياة.

﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ﴾ أمر متوجه إلى الرسول (ﷺ) وخطب بهذا العنوان بصفته حامل رسالة إلهية عظيمة مهيمنة على كل الأديان وقيمة عليها وخالدة تنظم شؤون الحياة لكل البشرية مدى الأجيال، ولأنه رسول فإنه لا يملك الا تبليغ الرسالة كما يريد المرسل ﴿وَمَا عَلَى الرُّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ (النور: ﴿٥١﴾).

﴿بَلِّغْ﴾ أي أوصل الرسالة بوضوح وحسم وهو تعبير أقوى من (أبلغ) ولا يتحقق التبليغ الا بأمرين: كون البيان واضحاً معبراً عن المطلوب بدقة، وكونه معلناً صريحاً وحاسماً ومشهوراً للناس.

﴿مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ ولم يذكره صريحاً تعظيماً له وللإشارة إلى أنه منزل إليك من الله تعالى وليس لك أي يد فيه حتى لا يتهم بمحاباة أو مصلحة شخصية وغير ذلك، ولأنه منزل إليك فليس لك خيار إلا تبليغه.

وهذا الأمر المراد تبليغه لا يراد به كل ما انزل إليك - كما قال بعض العامة - لأن الجملة تصبح لغواً وتحصيل حاصل مع الجملة التالية وتصبح كالتالي ((وإن لم تبْلغ ما انزل إليك فما بْلغت ما انزل إليك)).

وليس هو قضية التوحيد أو النبوة أو البعث يوم القيامة ونحو ذلك من العقائد الحقة لأن هذه كلها بْلغها النبي (ﷺ) منذ بداية البعثة من دون تردد فلا تحتاج إلى التطمين التالي ﴿وَاللَّهُ يَعِصُكُمْ مِنَ النَّاسِ﴾.

وليس هذا الأمر من قبيل الأحكام الشرعية لأنها بْلغت كلها تدريجياً بحسب نزول الآيات الأمرة بها.

وإنما هو أمر محدد أنزله الله تعالى إليك في آيات سابقة وبوحي متكرر في مناسبات متعددة لتبْلغه ولكنه لم يكن حاسماً قاطعاً كما يراد تبليغه الآن، وهو أمرٌ مهم وخطير بحيث أنه يعدل الرسالة كلها، وإن لم يبْلغه فكأنه لم يبلغ الرسالة كلها كما أفاد الجزء التالي من الآية.

﴿مِنْ رَبِّكَ﴾ اختار الرب دون الأسماء الحسنى وإضافه إليه (ﷺ) لإظهار مزيد من الرحمة والحنو على رسول الله (ﷺ) بأن هذا الأمر أنزله ربك الذي ربّاك وتكفل بك وحماك ونصرك وأعلى شأنك فلتطب نفسك وليطمئن قلبك.

﴿وَإِنْ لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ جملة لم يرد مثلها في القرآن الكريم وتعزّز التأكيدات المتكررة على تبليغ هذا الأمر، وظهرها التهديد إلا أن هذا المعنى غير وارد لأن النبي (ﷺ) لا يحتمل فيه عدم التبليغ حتى يذكر جزاؤه، وقد قال تعالى ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ (الأنعام: ١٢٣) فالآية في حقيقتها تعبير عن أهمية القضية بحيث أن اهمالها يعني التفريط بكل الرسالة وكأنه

(ﷺ) لم يفعل شيئاً خلال مدة الدعوة التي تجاوزت عشرين عاماً.
 وكان يُشقّ على النبي (ﷺ) تبليغ هذا الأمر لأنه كما يظهر من الآية يتعلق به
 ((حكم نازل، فيه شوب انتفاع للنبي (ﷺ) واختصاصه بمزية حيوية مطلوبة
 لغيره أيضاً يوجب تبليغه والعمل به حرمان الناس عنه، فكان النبي (ﷺ) يخاف
 إظهاره فأمره الله بتبليغه وشدّد فيه، ووعد العصمة من الناس وعدم هدايتهم في
 كيدهم إن كادوا فيه)).

﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ ليس المقصود بالناس اليهود وأمثالهم لأنهم
 قد قضى عليهم قبل ذلك بسنين ولم تبق لهم باقية، ولا يراد بهم المشركون لأن
 شوكتهم كسرت بفتح مكة ودخلوا في الإسلام طوعاً أو كرهاً، وإنما المراد بهم
 جماعة من أصحاب النبي (ﷺ) كان يتوقع منهم التمرد والعصيان والانشقاق.
 ولأن هذا الأمر يعرّضه (ﷺ) للاتهام بأنه يتبغي به مصلحة شخصية أو
 محاباة^(١) وقد بلغ النبي (ﷺ) أحكاماً فيها ما يفسّر على أنه مصلحة شخصية له

(١) روى الحسكاني في شواهد التنزيل (عن ابن عباس وجابر قالوا: أمر الله محمداً (ﷺ) أن ينصب
 علياً للناس ليخبرهم بولايته، فتخوف رسول الله (ﷺ) أن يقولوا حابي ابن عمه، وأن يطعنوا في
 ذلك عليه، فأوحى الله إليه ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ﴾ الخ فقال رسول الله (ﷺ) بولايته يوم غدیر
 الخم).

وروى عن زياد بن المنذر عن أبي جعفر محمد بن علي (عليه السلام) إلى أن قال (إن جبرئيل هبط إلى
 النبي (ﷺ) فقال: ان الله يأمرك أن تدلّ أمتك على وليهم على مثل ما دللتهم عليه من صلاتهم
 وزكاتهم وصيامهم وحجهم ليلزمهم الحجة من جميع ذلك، فقال رسول الله (ﷺ): يا ربّ ان قومي
 قريبو عهد بالجاهلية وفيهم تنافس وفخر، وما منهم رجل الا وقد وتره وليهم، وإنّي أخاف - أي من

كثروجه بأكثر من أربعة ولم يكن فيها حزاة ولا تردد لأنها لا تتعارض مع مصالحهم، لكن هذا الأمر المقصود بالآية من نوع خاص، لأنه يمس مصلحة مهمة لهم ويهدم طموحاً ملحاً ينتظرون تحقيقه وهو خطر عظيم قد يؤدي إلى إنهيار الكيان الإسلامي فأحب النبي (ﷺ) تأجيل تبليغه إلى وقت الضرورة لأنه يتعلق بما بعد وفاته (ﷺ).

وهذا التحليل العقلاني المستفاد من ظاهر الآية الكريمة وتسلسل فقراتها ينسجم مع ما ورد في مصادر العامة والخاصة من نزولها في التبليغ بولاية أمير المؤمنين (عليه السلام) الأمر بعد رسول الله (ﷺ) وقد نزلت فيه منذ بداية الدعوة الإسلامية آيات كثيرة كقوله تعالى ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (الشعراء: ٢١٤) فجمع النبي (ﷺ) بني هاشم وأنذرهم ثم أخبرهم بأن علياً وزيره وخليفته. وتوالت الاخبارات حتى آية الولاية ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ (المائدة: ٥٥) لكنها لم تصل إلى درجة التبليغ القاطع الحاسم وإقامة احتفال التنصيب الرسمي كما يقال، خشية أن يتهموا (ﷺ) في ابن عمه. ولما علم الله تعالى أن أجله (ﷺ) قريب أمر بإنجاز الأمر فوراً وقد أشار (ﷺ) إلى ذلك فإنه قال قبل تبليغ الأمر (أيها الناس يوشك أن أقبض قبضاً سريعاً فينطلق بي...).

وهذه القضية المهمة التي جعل تبليغها يعادل تبليغ الرسالة كلها هي تعيين

تكذيبهم - فأنزل الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ﴾. (شواهد التنزيل: ١٩١/١-١٩٢) وراجع تفسير الآية في أسباب النزول للواحدي ونزول القرآن لأبي نعيم.

القيادة المعصومة التي تخلف النبي (ﷺ) وتواصل حمل رسالة الإسلام وصيانتها ونشرها لتستمر في أداء دورها، أي نقل ارتباط الرسالة من الحامل الشخصي وهو النبي (ﷺ) إلى الحامل النوعي لها الذي يتصف بصفات الرسول (ﷺ) وعلى رأسها العصمة والعلم وهو أمير المؤمنين ومن بعده الأئمة الطاهرون من بنيه (صلوات الله عليهم أجمعين) فان دوام الرسالة وحفظها يتحقق بوجود المؤهل لحملها والا تموت الرسالة بموت حاملها كما حصل في شرائع الأنبياء السابقين حيث بقيت عرضة للتلاعب والتزوير وقد شرحنا ذلك في بحث مستقل^(١).

وان مصدر قلقه (ﷺ) علمه بأن قوماً من أصحابه كانوا يتطلعون للسلطة من بعده ويتظرون موته (ﷺ) ليمسكوا بزمامها مدعومين بقطاع واسع ممن اسلموا كرهاً وانصياعاً للواقع أو طمعاً في أن يكون لهم شيء في دولة الرسول الكريم (ﷺ) خصوصاً من قريش، وهذا ما ورد على لسان عمر بن الخطاب في أكثر من محاورة مع ابن عباس وفي أحداها قال يا بن عباس! أتدري ما منع قومكم منه بعد محمد؟ فكرهت أن أجيئه، فقلت: إن لم أكن أدري فأمر المؤمنين يدريني، فقال عمر: كرهوا أن يجمعوا لكم النبوة والخلافة فتبجحوا على قومكم بجحاً بجحاً، فاخترت قريش لأنفسها ووفقت^(٢) وهذا يعني ان قريشاً كانت تجتمع وتناقش كيفية الاستيلاء على السلطة بعد رسول الله (ﷺ) وفق مصالحها هي وليس مصلحة الإسلام، وقد عازمت على انتزاع الأمر من علي (عليه السلام).

(١) سيأتي بعنوان (كيف خطط رسول الله (ﷺ) للخلافة من بعده).

(٢) تاريخ الطبري: ٣٠/١ ط. مصر الأولى في ذكر سيرة عمر من حوادث سنة ٢٣ هـ

وهذا ما كشف عنه أمير المؤمنين (عليه السلام) واشتكى منه لاحقاً بقوله (اللهم إني أستعديك على قريش ومن أعانهم فإنهم قد قطعوا رحمي وأكفئوا إنائي وأجمعوا على منازعتي حقا كنت أولى به من غيري)^(١).

وهؤلاء هم من كان يخشى النبي (صلى الله عليه وآله) من فتنهم وتقليبهم الأمور لو نصبَ علياً خليفة من بعده، وكثير منهم ينظر إلى النبي (صلى الله عليه وآله) على أنه ملك وزعيم نجح في بسط سلطانه كأبي سفيان في كلمته التي قالها عندما بويع لابن عمه عثمان بالخلافة (تلاقفوها يا بني أمية تلاقف الكرة بيد الصبيان فوالذي يحلف به أبو سفيان فلا جنة ولا نار ولا معاد)^(٢) وأكد بها قوله السابق حينما رأس جيش رسول الله (صلى الله عليه وآله) على مشارف مكة وقد اضأوا النيران فقال للعباس بن عبدالمطلب (لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيماً)^(٣) فقال له العباس (ويلك انها النبوة).

فلم يكن خوف رسول الله (صلى الله عليه وآله) على نفسه فقد صدع بالدعوة وحيداً ولم يشنه بطش قريش وقسوتها ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ (الأحزاب: ٣٣).

فأمن الله تعالى نبيه من هذه المخاوف، وصدق وعده حينما انهال الجميع فوراً على بيعه أمير المؤمنين (عليه السلام) إماماً وخليفة من بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله)، وكان اول المبايعين أبا بكر وعمر وهما يقولان (هنيئاً لك يا ابن ابي طالب، أصبحت

(١) نهج البلاغة: ٣٣٦ الخطبة ٢١٧.

(٢) الجوهرى: السقيفة ٣٩ - ٤٠، ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة ٤٤ / ٢.

(٣) بحار الأنوار: ٢١ / ١٠٤، مجمع البيان في تفسير القرآن: ٤٧١ / ١٠.

وأُمسيت مولى كل مؤمن ومؤمنة^(١) وفي رواية أخرى قال ابن الخطاب (بخ بخ لك يا ابن أبي طالب)^(٢) وظلّ يكرر الاعتراف بولاية علي (عليه السلام) في كل مناسبة^(٣) كما سيأتي ان شاء الله تعالى.

ولما تم الأمر استبشر النبي (صلى الله عليه وآله) وملاه السرور واطمأن على خلود الإسلام والقرآن ومستقبل الرسالة لأن الله تعالى قيض لها من يحفظها ويصونها ونزل قول الله تبارك وتعالى ﴿الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (المائدة: ٣) لأن فئات كثيرة كانت تعول على وفاة النبي (صلى الله عليه وآله) للتخلص من الإسلام بعد أن فشلت كل خططهم ومؤامراتهم للقضاء عليه، أما اليوم فقد دخل اليأس قلوبهم لأن النبي (صلى الله عليه وآله) وإن ارتحل بشخصه إلى الرفيق الأعلى فإنه سيبقى محفوظاً بأخيه وصنوه علي بن أبي طالب (صلوات الله وسلامه عليه).

ان هذا الذي أوردنا من التفسير الظاهر من الآية الكريمة ينطبق تماماً على القضية التي نزلت فيها ونقلها جمع كبير من الصحابة أحصي منهم (١١٠) ذكرت

(١) مسند أحمد: ٢٨١/٤ وسنن ابن ماجه باب فضائل علي، والرياض النضرة: ١٦٩/٢.

(٢) شواهد التنزيل: ١٥٧، ١٥٨/١.

(٣) أورد جملة منها في (الفرقان في تفسير القرآن: ٤٣/٩) منها ما أخرجه الطبراني وفي الفتوحات الإسلامية: ٣٠٧/٣: حكم علي مرة على اعرابي بحكم فلم يرض بحكمه فتلّبه عمر بن الخطاب وقال له: ويلك إنه مولاك ومولى كل مؤمن ومؤمنة.

أسمائهم في المصادر^(١) وألف جمع غفير من علماء الفريقين كتباً خاصة فيه فقد صنف مسعود بن ناصر السجستاني^(٢) كتاب (الدراية في حديث الولاية) من سبعة عشر جزءاً روى فيه الحديث عن ١٢٠ صحابياً^(٣) وألف فيه ابن عقدة^(٤) الذي وثقه ارباب المذاهب وسمى كتابه ((الولاية ومن روى غدير خم)) ورواه من ١٠٥ طرق وألف الطبري^(٥) صاحب التفسير والتاريخ ((كتاب الولاية)) وروى الحديث من خمس وسبعين طريقاً^(٦).

وننقل النص من مصادر العامة فقالوا ((لما صدر رسول الله من حجة الوداع نزلت عليه في اليوم الثامن عشر من ذي الحجة آية ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ

(١) راجعها في بحار الأنوار: ١٨١/٣٧-١٨٢ وذكرهم باسمائهم في (الفرقان في تفسير القرآن: ٢٥/٩) وأضاف لهم التابعين وتابعيهم وفي سائر القرون وقد أوفى المرحوم العلامة الأميني البحث والاستقصاء وسجل كل هذه الاسماء و الوثائق في المجلد الأول من كتاب الغدير: ٢١٤-٢٢٣ وبذل صاحب تفسير الفرقان جهداً وافياً في استقصاد مصادر التفسير والحديث والتاريخ (الفرقان في تفسير القرآن: ٢٣/٩).

(٢) محدث، قال عنه بعض مؤرخيه ان فوائده من الأخبار لا تحصى توفي سنة ٤٧٧ هـ (الاعلام للزركلي: ١١٧/٨).

(٣) بحار الأنوار: ١٢٦/٣٧.

(٤) أحمد بن محمد، حافظ مكثر فقد كان يقول: احفظ مئة ألف حديث بأسانيدھا توفي سنة ٣٣٢ هـ (الاعلام: ١٩٨/١).

(٥) محمد بن جرير: مؤرخ مفسر إمام مجتهد قلده بعض الناس عرض عليه القضاء وديوان المظالم فأبى، صاحب التاريخ المعروف ووصف بأنه أوثق المؤرخين ، له تفسير مطبوع بثلاثين جزءاً وكتب كثيرة أخرى توفي سنة ٣١٠ هـ (الاعلام: ٢٩٤/٦).

(٦) بحار الأنوار: ١٨٣/٣٧.

إِلَيْكَ...﴾ فنزل غدير خمّ من الجحفة وكان يتشعب منها طريق المدينة ومصر والشام ووقف هناك حتّى لحقه من بعده وردّ من كان تقدّم ونهى أصحابه عن سمّرات متفرقات بالبطحاء أن ينزلوا تحتهنّ، ثم بعث إليهن فقمّ ما تحتهن من الشوك ونادى بالصلاة جامعة وعمد إليهنّ وظلّل لرسول الله (ﷺ) بثوب على شجرة سمرة من الشمس، فصلى الظهر بهجير ثمّ قام خطيباً فحمد الله وأثنى عليه، وذكر ووعظ وقال ما شاء الله أن يقول، ثمّ قال: ((إني أوشك أن أدعي فأجيب، وإني مسؤول وأنتم مسؤولون، فماذا أنتم قائلون؟)) قالوا: نشهد أنّك بلّغت ونصحت فجزاك الله خيراً، قال: ((أليس تشهدون أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً عبده ورسوله وأنّ الجنّة حقّ وأنّ النار حقّ؟)) قالوا: بلى نشهد ذلك. قال: ((اللهمّ أشهد)) ثم قال: ((ألا تسمعون؟)) قالوا: نعم. قال: ((يا أيّها الناس إني فرط وأنتم واردون عليّ الحوض وإن عرضه ما بين بصري إلى صنعاء فيه عدد النجوم قدحان من فضّة، وإني سائلكم عن الثقلين، فأنظروا كيف تخلفوني فيهما)). فنادى مناد: وما الثقلان يا رسول الله؟ قال: ((كتاب الله، طرف بيد الله وطرف بأيديكم، فاستمسكوا به، لا تفلّوا ولا تبدّلوا؛ وعترتي أهل بيتي، وقد نبّأني اللّطيف الخبير أنّهما لن يتفرّقا حتّى يردا عليّ الحوض، سألت ذلك لهما ربّي، فلا تقدموهما فتهلكوا، ولا تقصروا عنهما فتهلكوا، ولا تعلّموهما فهم أعلم منكم)) ثم قال: ((ألستم تعلمون أنّي أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟)) قالوا: بلى يا رسول الله! قال: ((ألستم تعلمون - أو تشهدون - أنّي أولى بكلّ مؤمن من نفسه؟)) قالوا: بلى يا رسول الله. ثم أخذ بيد عليّ بن أبي طالب بضبعه فرفعها حتّى نظر الناس إلى بياض إبطيهما، ثم قال ((أيّها الناس! الله مولاي وأنا مولاكم؛ فمن كنت مولاه،

فهذا عليّ مولاه. اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وأنصر من نصره، وأخذل من خذله، وأحب من أحبه، وأبغض من أبغضه)). ثم قال ((اللهم اشهد)) ثم لم يتفرقا - رسول الله وعليّ - حتّى نزلت هذه الآية: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (المائدة: ٣). فقال رسول الله (ﷺ): ((الله أكبر على إكمال الدين وإتمام النعمة، ورضا الربّ برسالتي والولاية لعليّ))^(١).

وروى جمع من علماء العامة عن ابن مسعود أنه قال (كنا نقرأ على عهد رسول الله (ﷺ) ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ - أَنْ عَلِيًّا مَوْلَى الْمُؤْمِنِينَ - وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾)^(٢).

ومما اشكلوا به ان المولى لها عدة معانٍ في اللغة كالناصر والحبيب وغيرهما فلا تتعين بولي الأمر، وهو احتمال مدفوع بصريح الحديث النبوي الشريف لأنه (ﷺ) بين مراده من الولي، وتكذبه أيضاً ظروف الحادثة فهل أوقف النبي (ﷺ) تلك الجموع الحاشدة ليقول اني أحبّ علياً وأنه نصرني ونحو ذلك من الأمور الواضحة عند كل أحد.

ان مما يؤسف له تحكم الاهواء والعصبيات في اذهان المفسرين الذين لم

(١) نقلناه بواسطة معالم المدرستين للمرحوم السيد مرتضى العسكري: ٤٨٣/١-٤٨٦ عن مجمع الزوائد للهيتمي: ١٠٥/٩ و ١٦٣-١٦٥ وشواهد التنزيل للحسكاني: ١٩٢/١-١٩٣ ومسند أحمد: ٢٨١/٤ وسنن ابن ماجة ٤٣/١ ح ١١٦ وغيرها.

(٢) الفرقان في تفسير القرآن: ١٩/٩ عن الحافظ ابن مردويه/١٠٨، الدر المنثور: ٢٩٨/٣، الشوكاني في فتح القدير، الاربلي في كشف الغمة.

يستقوا علومهم من أهل بيت النبوة فشرّقوا وغرّبوا واوردوا وجوهاً في تفسير الآية وسبب نزولها مما لا يناسب أجواء نزول الآية وظروف الحدث، ولا يليق صدوره منهم وفيهم ذوو عقول كبيرة والمهم عندهم صرفها عن الحقيقة التي نزلت الآية لبيانها ورواها جمع كبير من الصحابة والتابعين مع انهم يكتفون في تفسير الآية برواية واحدة عن هذا الصحابي أو ذاك ولا نريد الاطالة في عرض هذه الوجوه ومناقشتها.

أقول: وإذا كانوا إلى اليوم يرفضون سماع هذه الحقيقة والايان بها مع تواتر روايتها والقطع بصدورها فكيف كانوا في لحظة الحدث مما يعطينا فكرة عن مخاوف رسول الله (ﷺ) من إبلاغ هذا الأمر.

وظل أمير المؤمنين وأهل بيته (عليهم السلام) وشيعته يؤكّدون هذا الحق الثابت حتى لا يضيّعه المحرّفون، ومن أقواله (عليه السلام) في ذلك (فوالله ما زلت مدفوعاً عن حقي، مستأثراً عليّ منذ قبض الله نبيه صلى الله عليه حتى يوم الناس هذا)^(١).

وقال في الخطبة الشقشقية (أما والله لقد تقمصها فلان (ابن أبي قحافة) وانه ليعلم ان محلي منها محل القطب من الرحي)^(٢).

وقال (عليه السلام) (لقد علمتم أنني أحق الناس بها من غيري، ووالله لأسلمن ما سلمت أمور المسلمين، ولم يكن فيها جور إلا علي خاصة التماساً لأجر ذلك وفضله، وزهداً فيما تنافستموه من زخرفه وزبرجه)^(٣).

(١) نهج البلاغة: ٤٩، الخطبة ٦.

(٢) نهج البلاغة: ٤٧، الخطبة ٤.

(٣) نهج البلاغة: ١٠٢، الخطبة ٧٤.

وقال (عليه السلام) (فوالله إنني لأولى الناس بالناس، لم تكن بيعتكم إياي فلتة، وليس أمري وأمركم واحدا. إنني أريدكم لله وأنتم تريدونني لأنفسكم)^(١).

وقال (عليه السلام) (فلما مضى تنازع المسلمون الأمر من بعده، فوالله ما كان يلقي في روعي ولا يخطر ببالي أن العرب تزعج هذا الأمر من بعده (صلى الله عليه وآله) عن أهل بيته ولا أنهم منحوه عني من بعده، فما راعني إلا انشغال الناس على فلان يبايعونه، فأمسكت يدي حتى رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الإسلام، يدعون إلى محق دين محمد (صلى الله عليه وآله)! فخشيت إن لم أنصر الإسلام وأهله أن أرى فيه ثلما أو هداما، تكون المصيبة به علي أعظم من فوت ولايتكم، التي إنما هي متاع أيام قلائل)^(٢).

واعتبر الأئمة المعصومون (عليهم السلام) يوم الغدير أعظم أعياد الإسلام لعظمة النعمة التي من الله تعالى بها فأكمل بها الدين ورضي الإسلام لنا ديناً، روى الكليني بسنده عن سالم قال (سألت أبا عبد الله (عليه السلام) هل للمسلمين عيد غير يوم الجمعة والأضحى والفطر؟ قال: نعم أعظمها حرمة. قلت: وأي عيد هو جعلت فداك؟ قال: اليوم الذي نصب فيه رسول الله (صلى الله عليه وآله) أمير المؤمنين (عليه السلام) وقال: من كنت مولاه فعلي مولاه)^(٣) ومثلها عدة روايات في نفس الباب.

وفي آماله الشيخ الصدوق بإسناده عن الإمام الصادق (عليه السلام) عن آبائه (عليهم السلام) قال (قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): يوم غدير خم أفضل أعياد أمتي وهو اليوم

(١) نهج البلاغة: ١٩٤، الخطبة ١٣٦.

(٢) نهج البلاغة: ٤٥١، الخطبة ٦٢.

(٣) وسائل الشيعة: ٤٤٠/١٠ أبواب الصوم المندوب، باب ١٤، ح ١.

الذي أمرني الله تعالى ذكره فيه بنصب أخي علي بن أبي طالب (عليه السلام) علماً لأمتي يهتدون به من بعدي وهو اليوم الذي أكمل الله فيه الدين وأتم على أمتي فيه النعمة ورضي لهم الإسلام ديناً^(١).

وروى الشيخ في التهذيب عن الإمام الصادق (عليه السلام) قوله (وهو عيد الله الأكبر)^(٢).

لذا يعبر الإمام الباقر (عليه السلام) بأسف وحسرة عن تضييع الأمة لهذا الأمر الإلهي العظيم الذي يعدل الرسالة كلها، بقوله (عليه السلام) (تعطى حقوق الناس بشهادة شاهدين وما اعطي أمير المؤمنين (عليه السلام) حقه بشهادة عشرة آلاف نفس يعني الغدير) ومثله عن الإمام الصادق (عليه السلام).

وقد جعل الأئمة (عليهم السلام) برنامجاً عبادياً مكثفاً في هذا اليوم شكراً لله تعالى على هذه النعمة وجعل عليها ثواباً عظيماً كالصوم والصلاة والدعاء والصدقة وتبادل التهاني مع المؤمنين، وزيارة أمير المؤمنين (عليه السلام) ولو من بعد لمن يتعذر عليه زيارة مرقد الشريف عن قرب، روى ابن أبي نصر قال (كنا عند الرضا (عليه السلام) والمجلس غاص بأهله فتذكروا يوم الغدير فأنكره بعض الناس^(٣) فقال الرضا (عليه السلام): حدثني أبي عن أبيه (عليه السلام) قال: ان يوم الغدير في السماء أشهر منه في الأرض) ثم قال (يا ابن أبي نصر، أينما كنت فاحضر يوم الغدير عند أمير المؤمنين

(١) تفسير نور الثقلين: ١/٣٦٨/ح ٢٩ من تفسير سورة المائدة.

(٢) وسائل الشيعة: ٨/٨٩ أبواب الصلوات المندوبة باب ٣/ح ١.

(٣) الظاهر ان ذلك كان أيام ولايته العهد زمن المأمون فكان مجلسه الرسمي عاماً لكل الناس وليس للموالين فقط.

(عَلَيْهِ السَّلَامُ) وبعد ان ذكر ثواب ذلك قال (والله لو عرف الناس فضل هذا اليوم بحقيقته لصافحتهم الملائكة في كل يوم عشر مرات)^(١).

ويمكن أن نفهم من الآية الكريمة أن على العاملين الرساليين ان لا يترددوا ولا يتلكأوا في نصره مشروع الإسلام والتحرّك به مهما حاول الناس - بكل ما يحويه اللفظ من استصغار في هذا الموضع - وضع العراقيل وبث التهم والشبهات لأن الله تعالى يعصمه من هذه المكائد والخبث والشيطنة وإنه تعالى ينصر من ينصره ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ﴾ (الحج: ٤٠) وقد ورد هذا المعنى في خطبه لأُمير المؤمنين (عَلَيْهِ السَّلَامُ) قال فيها (فأمرُوا بالمعروف وانهوا عن المنكر، واعلموا ان الأمر بالمعروف والنهي عن النكر لن يقرَّباً أجلاً ولن يقطعاً رزقاً)^(٢).

(١) وسائل الشيعة: ٣٨٩/١٤ أبواب المزار، باب ٢٨/ح ١.

(٢) وسائل الشيعة: ١٢٠/١٦، أبواب الأمر والنهي، باب ١/ح ٧.

ملحق: كيف خطط رسول الله (ﷺ) للخلافة من بعده^(١)

الإمامة ضرورة عقلائية:

إن الإمامة وولاية أمر الناس ضرورة اجتماعية لا يختلف فيها اثنان، وقد أطبق عليها جميع العقلاء، ولا يمكن لحياة المجتمع المتحضر ونظام معاشه أن يستقيم بدون إمام ورئيس يدير مع جهازه شؤون الأمة ويدبر أمورها. فوجود النظام الحاكم في المجتمع بمنزلة العقل في جسم الإنسان الذي يوجه بوصلة الحياة، وبدونه تحصل الفوضى والتشتت والصراعات وتضيع مصالح العباد والبلاد.

ومن كلمات أمير المؤمنين (عليه السلام) في ذلك: (لا بد للناس من أمير برّ أو فاجر، يعمل في أمره المؤمن ويستمتع فيها الكافر ويبلغ الله فيها الأجل ويجمع به الفيء ويقا تل به العدو وتأمين به السبل ويؤخذ به للضعيف من القوي حتى يستريح برّ أو يُستراح من فاجر)^(٢).

ضرورة الإمامة في الشرع:

والحكم في الشرع ضروري كذلك فقد أجمع علماء الإسلام على ضرورة وجود إمام، وإذا كان بينهم خلاف ففي التفاصيل ككيفية تعيين الإمام ومؤهلاته

(١) محاضرتان ألقاهما سماحة الشيخ محمد العقبوي على طلبة الحوزة العلمية في مسجد الرأس الشريف المجاور لمقر أمير المؤمنين (عليه السلام)، في النجف الأشرف بمناسبة عيد الغدير يومي (١٦/١٧ ذي الحجة ١٤٢١هـ - ١٢/١٣/١٤٢٠م) وقد أضاف إليهما بعض الزيادات الضرورية. وقام أحد الفضلاء لاحقاً بتخريج النصوص من مصادرها.

(٢) نهج البلاغة: ١/٨٧ الخطبة ٤٠.

وصلاحياته لا في أصل احتياج الأمة، فأبناء العامة يقولون بالشورى^(١)، أو أن الأمر لمن غلب حتى لو قهر الأمة بالسيف^(٢) وتقمّص إمامتها قهراً، ونحن - الإمامية - نقول أنها بالنص^(٣)، وأنها حق جعله الله تبارك وتعالى لمن اجتمعت فيه شروطها، سواء سمحت له الظروف بالقيام فعلاً بالأمر أو صودرت حرите ومُنِع من ممارسة دوره كاملاً، كما في الحديث الشريف: (الحسن والحسين إمامان إن قاما وإن قعدا)^(٤) أي قاما بالأمر أو قعدا عنه لأي سبب من الأسباب.

وقد اهتم رسول الله (ﷺ) بهذا الأمر بدقة، فكان (ﷺ) لا يُخرج سرية إلا عليها أمير مهما قلّ أفرادها، بل في الحديث عن رسول الله (ﷺ): (الإمام الجائر خير من الفتنة)^(٥) وإذا خرج اثنان للسفر فليؤمرا أحدهما^(٦)، وكان (ﷺ)

(١) البخاري/باب رجم الحبلى ١٢٠/٤ عن معالم المدرستين، المراجعات المراجعة ٨٠.

(٢) الأحكام السلطانية ص ٧-١١ لقاضي القضاة أبو يعلى الفراء الحنبلي - عن معالم المدرستين - أقوال مدرسة الخلفاء ص ٥٥٨.

(٣) أحصى الصافي الكلبيكاني في كتابه (منتخب الأثر) أكثر من خمسين رواية في هذا المجال، وقال بعد ذلك النصوص الواردة في ساداتنا الأئمة الاثنا عشر بلغت في الكثرة حداً لا يسعه مثل هذا الكتاب وكتب أصحابنا في الإمامة وغيرها مشحون بها واستقصاؤها صعب جداً (منتخب الأثر ص ١٤٥ والرواية الأولى منتخب الأثر ص ٩٧ باب ٨ فيما يدل على الأئمة الاثنا عشر بأسمائهم (نقلاً عن مدخل إلى الإمامة).

(٤) البحار ج ١٦ باب ١١ ص ٣٠٧.

(٥) شرح نهج البلاغة لابن ميثم البحراني: ١٠٣/٢.

(٦) كتاب المحجة ج ٤ آداب السفر عن أبو داود ج ٢ ص ٣٤ عن أبي هريرة عن النبي ص قوله (إذا كنتم ثلاثة في سفر فأمروا أحداكم).

إذا خرج لغزوة لا يترك المدينة بدون خليفة له^(١)، بل روي في حديث: (والِ ظُلُومٌ غُشُومٌ خَيْرٌ مِنْ فِتْنَةٍ تَدُومُ)^(٢)؛ لأنه به تحفظ الثغور وتقوم مصالح العباد، لذا تعامل الأئمة (عليهم السلام) بإيجابية مع السلطات الحاكمة في ما فيه مصالح العباد وحفظ النظام الاجتماعي ورفي الدولة الإسلامية وصيانة كرامتها، إلى درجة أنهم جوزوا في بعض الظروف دفع الزكاة والخراج إلى السلطة وجعلوها مبرئة للذمة كأنها واصله إليهم^(٣).

المصالح المهمة من تعيين الخليفة:

في ضوء هذه الضرورة المجمع عليها عقلاً وشرعاً كان من مسؤوليات حامل الرسالة - أي رسالة - ووظائفه بل أهمها على الإطلاق تعيين الخليفة والإمام البديل لعدة مصالح مهمة:

١ - ديمومة الرسالة واستمراريتها في أداء دورها، فإن أية رسالة مهما كانت تمتلك من نقاط قوة - كرسالة الإسلام - تموت بموت صاحبها، فإنه من المقطوع به ارتباط الرسائل والدعوات بحاملها القيمين عليها المدافعين عنها المستوعبين لأسرارها، لذلك فإنها تنتهي بنهاية صاحبها إلا أن يواصل الطريق من هو جدير بحملها، وأنت ترى الرسائل السماوية - وهي أكمل الدعوات -

(١) معالم المدرستين / ج ١ / ذكر من استخلف الرسول (ﷺ) على المدينة في غزواته.

(٢) ميزان الحكمة للريشهري: ٢٣٦٧/٣ والغرر والدرر: ح ١٠١٠٩.

(٣) وسائل الشيعة: كتاب الزكاة، أبواب المستحقين، باب ٢٠.

حُرِّفَتْ وشُوِّهَتْ بعد فترة يسيرة من غياب أصحابها^(١).

٢- قطع الطريق أمام غير المؤهلين لهذا المنصب الإلهي، فإن الإمرة والزعامة خصوصاً الزعامة الدينية بما لها من قدسية وهيبة وجاه من أهم ما تنزع إليه النفس الأمارة بالسوء، ففي الحديث: (آخر ما ينزع من قلوب الصديقين حب الجاه)^(٢) إذن سيكون المتربصون بها كثيرين والحالمون بها والساعون إلى تحصيلها أكثر. وقد اعترفوا أنه ما عانت الأمة من شيء كما عانت من مسألة الإمامة والخلافة وأن الولايات التي أصابتها والدماء التي سفكت ترجع في الأصل إلى هذا الأمر، وهذا واضح تاريخياً.

٣- صيانة الأمة من التشتت وحمايتها من التمزق، فإن من شأن تعدد المتصدين لهذا المنصب أن تتعدد الأحزاب والفرق الموالية لهم، وكلُّ يجرُّ النار إلى قرصه، فيتمزق أمر الأمة وتصبح طرائق قديداً، وها هي الأجيال بعد الأجيال تدفع ثمن التيه والضياع وآل أمرها إلى الانحلال، لذا قال تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ (آل عمران: ١٠٣) ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ (الأنفال: ٤٦) وحبل الله الممدود إلى الخلق هما الثقلان كتاب الله

(١) كمثال على ذلك المسيحية بمجرد أن رفع عيسى (عليه السلام) أصبح الإنجيل الذي هو حاوي على كل ما يتعلق بالرسالة عدة أناجيل مزورة وموضوعة كإنجيل متي ويوحنا ولوقا ومرقس فلم يبق من الدين المسيحي إلا الاسم.

(٢) المحجة البيضاء ج ٦ / فصل حب الجاه ص ١٠٧.

وأهل بيت نبيه (صلوات الله عليهم أجمعين) كما دلت عليه النصوص الشريفة^(١). وقد أشارت الزهراء (سلام الله عليها) إلى هذه الفكرة المهمة في خطبتها فقالت: (وجعل إمامتنا نظاماً للملة)^(٢) أي بها تنتظم أمورهم وتستقر.

٤- إن حامل الرسالة لا يستطيع أن يستمر بمشروعه حتى النهاية ويقدم كل ما عنده قبل أن يطمئن إلى وجود البديل؛ لأنه قبل ذلك يخشى على مستقبل الرسالة، فإذا أحرز اجتماع الشروط في الشخص البديل استطاع أن يتقدم بلا تردد أو خوف على مستقبل الرسالة، هذا الخوف الذي أشار إليه نبي الله موسى (عليه السلام)، لذا كان أول دعاء له: ﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيْرًا مِنْ أَهْلِ﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿أَشْدُدْ بِهِ أَزْرِي﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴿طه: ٣٩-٣٢﴾ وفي كلمات أمير المؤمنين (عليه السلام): (لَمْ يُوجِسْ مُوسَى (عليه السلام) خِيفَةً عَلَى نَفْسِهِ، بَلْ أَشْفَقَ مِنْ غَلْبَةِ الْجُهَالِ وَدَوَلِ الضَّلَالِ)^(٣).

شرفية موقع الإمامة في الفكر الإسلامي:

هذه أمور يدركها كل عاقل، ويزداد الأمر وضوحاً كلما ازدادت أهمية الرسالة كدين الإسلام الذي جاء رحمة للعالمين وخالداً إلى يوم القيامة، فهو - أي الإسلام - بهذه السعة والشمول طويلاً - على مدى الزمان - وعرضاً - لجميع

(١) راجع كتاب (شكوى القرآن) ملحق قيس قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ (الفرقان: ٣٠) في تفسير من نور القرآن.

(٢) البحار ج ٦ باب ٢٣ ص ٣١٥.

(٣) نهج البلاغة، خطبة ٤ ص ٣٩.

البشر-، وكلما تعاظم منصب الشخص الراحل والغائب عن الساحة ازدادت المسؤولية والأخطار حول المنصب.

وأشرف موقع هو إمامة المسلمين وولاية أمورهم وخلافة رسول الله (ﷺ) التي قدر لها أن تشمل شرق الأرض وغربها، كما بشر بذلك رسول الله (ﷺ) عندما كان يحفر مع المسلمين في الخندق وضرب على صخرتين فأضاءتا له^(١) ولهم، وأكدها القرآن ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَعَانِمَ كَثِيرَةً﴾ (الفتح: ٢٠) ﴿وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ (الصف: ١٣)، فكيف لا تتناوشه المطامع وتتجاذبه الأهواء.

(ما ضلَّ صاحبكم وما غوى):

أفمثل رسول الله (ﷺ) يجهل هذه الأمور الواضحة، وهو المتصل بسبب إلى الله تبارك وتعالى، ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ (النجم: ٣-٤)، وهو القائل: (من مات ولم يوص مات ميتة جاهلية)^(٢) فهل يكون هو (ﷺ) أول من يخرج عن ربة الإسلام ويموت على الجاهلية ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ (الكهف: ٥)، أم يقال أن هذا الحديث وارد في الوصية بالمال ونحوه للورثة وغيرهم؟ فهل هذه الأمور أهم من الوصية بالأمة وحفظ كيانها من الضياع؟!

أم يقال أنه (ﷺ) فوجئ بأجله قبل أن يفكر بمستقبل الأمة وقبل أن يستعد

(١) سيرة الأئمة الاثني عشر لهاشم معروف الحسني ج ١/ ص ٢٩٠.

(٢) مناقب آل أبي طالب بن شهر آشوب ج ١ ص ٢١٧.

للتخطيط للبديل مهما كان شكله وصيغته، وهو الذي نعى نفسه مراراً وصرح بقرب وفاته في حجة الوداع، وحينما قال: (إن جبرائيل كان يعارضني بالقرآن في السنة مرة، وعارضني في هذه السنة مرتين، وما ذلك إلا لدنو أجلي)^(١).
 أم يقال أنه (ﷺ) لم يكن حريصاً على الأمة ولا مهتماً بأمرها، فلتواجه قدرها بنفسها ولو آل أمرها إلى الفناء، ولتذهب أتعابه سدى ﴿كَأَلَّتِي نَقَضْتُ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا﴾ (النحل: ٩٢)، وهذا لا يصدر من أبسط الناس؛ فالراعي لا يترك غنمه إذا خرج لحاجة أو سفر حتى يعين لها راعياً، ولم يفعلها الخلفاء من بعده، فالأول نص على الثاني، وهو يقول: إني أخشى أن ألقى الله وقد تركت أمة محمد (ﷺ) دون أن أولي عليها أحداً^(٢)، وجعل الثاني الأمر شورى بين ستة من أصحاب رسول الله (ﷺ)^(٣)، وقد أرسلت إليه أم المؤمنين عائشة بعدما طعن: أن أوص من يخلفك، ولا تترك أمة محمد بعدك هملاً وبدون راع.

خطر الاعتراض من الداخل الإسلامي:

فكيف برسول الله (ﷺ) أكمل العقلاء وسيد الحكماء، وهو يرى بعينه الأخطار المحدقة بالأمة من الداخل والخارج، ففي الداخل كان المنافقون والمرجفون في المدينة - على تعبير القرآن - والقائلون: ﴿لِيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ (المنافقون: ٨) وقد ازدادت شوكتهم بعد الفتح حيث استسلم الكثير ممن

(١) صحيح البخاري باب عرض جبرائيل القرآن على النبي.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ص ١٦٤ - ١٦٥ في شرحه للخطبة الشقشقية.

(٣) راجع معالم المدرستين ج ١ ص ٥٤٤.

يتربص بالإسلام وبنبيه السوء رضوخاً للأمر الواقع، ولم يسلموا ولم يقتنعوا بالإسلام و﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ (الحجرات: ١٤).

وكانوا يعارضون تصرفات رسول الله (ﷺ) علناً وينتقدونه ويشككون في صحة أفعاله، والشواهد على ذلك كثيرة كما في صلح الحديبية^(١) حينما منعوا رسول الله (ﷺ) من التوقيع على وثيقة الصلح، وعندما عارضوا الإحلال من الإحرام في متعة الحج^(٢)، وحينما منعه من كتابة كتاب لا يضلون بعده أبداً في رزية يوم الخميس^(٣)، وحينما كانوا يصلّون نوافل رمضان جماعة في المسجد وقد

(١) راجع نظريات الخليفين: ج ١.

(٢) عن معالم المدرستين ج ٢: في رواية الصحابي البراء بن عازب بسنن بن ماجة ومسند أحمد ومجمع الزوائد قال: خرج رسول الله (ﷺ) وأصحابه فأحرمنّا بالحج فلما قدمنا مكة، قال: (اجعلوا حجكم عمرة) فقال الناس: يا رسول الله قد أحرمنّا بالحج فكيف نجعلها عمرة؟ قال: (انظروا ما أمركم به فافعلوه) فردوا عليه القول، فغضب فانطلق ثم دخل على عائشة غضبان فرأت الغضب في وجهه، فقالت: من أغضبك أغضبه الله، قال: (ما لي لا أغضب وأنا أمر أمراً فلا أتبع).

(٣) رزية يوم الخميس: ما أخرجه البخاري بسنده عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن ابن عباس، قال: لما حضر رسول الله (ﷺ) وفي البيت رجال فيهم عمر بن الخطاب قال النبي (ﷺ) هلم اكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده، فقال عمر: إن النبي قد غلب عليه الوجد، وعندكم القرآن حسبنا كتاب الله، فاختلف أهل البيت فاختصموا، فمنهم من يقول: قربوا يكتب لكم النبي كتاباً لا تضلوا بعده ومنهم من يقول ما قال عمر، فلما أكثروا اللغو والاختلاف عند النبي قال لهم رسول الله (ﷺ) تحوموا عني، فكان بن عباس يقول: إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله (ﷺ) وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب من اختلافهم ولغظهم. (وقد تم التصرف في الحديث إذ نقلوا المعنى فقط

نهاهم (ﷺ) عن ذلك مراراً^(١)، وحينما تخلفوا عن جيش أسامة رغم لعنه (ﷺ) للمتخلفين عنه^(٢).

مضافاً إلى أن الانتشار السريع للإسلام وقصر فترته بالنسبة لعظمة الوظيفة التي جاء من أجلها، وهي نقل أمة كاملة من حضيض الجاهلية وظلماتها إلى نور الإسلام وسعادته أدّى إلى وجود قاعدة عريضة في المجتمع لم تصل إلى درجة كافية من فهم الرسالة واستيعابها والتفاعل مع تفاصيلها، وهم معرضون للانحيار والهزيمة مع أول امتحان يواجههم في حالة غيابه (ﷺ)، وقد أخبره بذلك القرآن الكريم: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ (آل عمران: ١٤٤) وهو ما وقع فعلاً حين ارتدت الجزيرة ولم يبق على الإسلام إلا تلك الثلّة القليلة في المدينة المنورة التي عرّكتها التجارب وصلّبت عودها الامتحانات المتتالية مع رسول الله (ﷺ)^(٣).

لان اللفظ الثابت هو أن النبي يهجر ولكنهم حرفوه تهدياً للعبارة ودفاعاً عن عمر. (المراجعات: المراجعة ٨٦).

(١) الوسائل: كتاب الصلاة باب عدم جواز الجماعة في صلاة النوافل في شهر رمضان، الحديث الأول.

(٢) راجع في استقصاء هذه الموارد كتاب (النص والاجتهاد) للسيد شرف الدين.

(٣) وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى ذلك في سورة المائدة آية ٥٤: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

نموذج من الانحراف الإسلامي:

وقد أشارت أم المؤمنين عائشة إلى هذا الانحراف الذي حصل في مسيرة المسلمين عندما كانت تحرّض على الثورة ضد الخليفة الثالث عثمان، يروي الطبري^(١): كانت السيدة عائشة من أشد الناس على عثمان، حتى أنها أخرجت ثوباً من ثياب رسول الله (ﷺ) فنصبته في منزلها، وكانت تقول للداخلين إليها: هذا ثوب رسول الله لم يبلّ وقد أبلى عثمان سنته، وقالوا إنها كانت أول من سمى عثمان نعثلاً (اسم أحد اليهود بالمدينة) وكانت تقول: (اقتلوا نعثلاً! قتل الله نعثلاً) هذا ولم يمرّ على وفاة رسول الله (ﷺ) أكثر من عقدين من الزمان.

حملات اليهود بعد وفاة النبي (ﷺ):

وكان في الداخل اليهود الذين لا ينسون لرسول الله (ﷺ) وللإسلام القضاء عليهم وتهجيرهم من ديارهم وقتل رجالهم وسبي نساءهم وزوال دولتهم ونفوذهم في المدينة، لذلك كانت هجمة التشكيكات التي بثوها في الأمة بعد وفاته (ﷺ)، وأسئلته المتنوعة الكثيرة التي كانت تعجز خليفة المسلمين وأصحاب رسول الله (ﷺ)، فأصيب المسلمون بالإحباط والضعف والهزيمة أمامهم، وكانت حملة منظمة وليست اعتباطية ظهرت فجأة بعد غياب رسول الله (ﷺ) وإقصاء الخليفة الحق الذي كان لهم بالمرصاد رغم إبعاده عن القيادة الدنيوية، لكنه كان يرى مصلحة الدين وإعلاء كلمة التوحيد فوق كل شيء، حتى اشتهرت كلمة الخليفة الثاني: (لا أبقاني الله لمعضلة ليس لها أبو

(١) تاريخ الطبري ٤٧٧/٣ وقد نقلناه عن كتاب (بنور فاطمة اهتديت) /١٩٠.

الحسن^(١) وما علمنا أنه احتاج إلى أحد سواه^(٢).

العدو الخارجي والكيد بالإسلام:

ومن الخارج كان هناك المتربصون بالإسلام شرّاً الذين أعيتهم الحيل في القضاء عليه، حيث بدأوا بتعذيب أصحابه (ﷺ) وقتلهم، ثم حاصروه ومن معه في شعب أبي طالب اقتصادياً واجتماعياً، ثم تآمروا على قتله فهاجر إلى المدينة^(٣) وبات علي في فراشه^(٤) ثم جهزوا الجيوش لقتاله واستئصال أمره فلم يفلحوا في القضاء عليه (ﷺ)^(٥)، ولم يبق أمامهم إلا نهاية حياته لتموت دعوته بموته (ﷺ)، بل حاول بعضهم فعلاً اغتياله أكثر من مرة كمحاولة رؤساء بني عامر، والمحاولة التي جرت أثناء مسيره إلى تبوك حيث حاول بعض المتآمرين تنفير ناقته (ﷺ) ليلقوه من السفح وتقطع أوصاله، وقد أعلم (ﷺ) الصحابي حذيفة بن اليمان بأسمائهم حتى سمي صاحب سر رسول الله (ﷺ)، وكان الخليفة الثاني لا يصلي على أحد حتى يصلي حذيفة ليعلم أنه ليس من

(١) أخرجه سبط بن الجوزي، أسد الغابة ٢٢/٤، الإصابة القسم ٢٧٠/١، تهذيب التهذيب ٣٢٧/٧، عن نظريات الخلفيتين لنجاح الطائي.

(٢) جعل الخليل بن أحمد الفراهيدي ذلك دليلاً على إمامته حينما سئل ما الدليل على إمامة أمير المؤمنين وخلافته لرسول الله (ﷺ) قال: احتياج الكل إليه وعدم احتياجه للكل.

(٣) حياة محمد (ﷺ) نهاية الفصل السادس والفصل السابع لمحمد حسين هيكل.

(٤) حياة محمد (ﷺ) الفصل العاشر لمحمد حسين هيكل.

(٥) حياة محمد (ﷺ) الفصل الثالث عشر لمحمد حسين هيكل.

المنافقين^(١).

وفي الخارج كانت أيضاً الدولتان الرومية والفارسية اللتان بدأتا تفكران جدياً في أمره (ﷺ) بعد أن غطى نوره الجزيرة كلها من اليمن جنوباً إلى تخوم الشام والعراق شمالاً، بل إنه (ﷺ) بدأ التحرش بالدولة الرومية في معركة مؤتة^(٢) وغزوة تبوك، وأرسل الرسائل إليهم يدعوهم إلى الإسلام بلهجة الواثق بالنصر والمستعلي عليهم (أسلم تسلم).

التحديات الجسيمة أمام النبي (ﷺ):

كل هذه المصاعب والتحديات التي تواجه الأمة بعد وفاته (ﷺ) كانت نصب عينه (ﷺ) وهو صاحب القلب الرحيم الذي نذر حياته لله تبارك وتعالى ولإصلاح الإنسانية وإنقاذها من الظلمات إلى النور، وقد وصفه القرآن الكريم: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (التوبة: ١٢٨)، فكيف يترك أمر الأمة سدى؟! ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ (يونس: ٣٥) و﴿فَأَنْتَى تُؤْفِكُونَ﴾ (فاطر: ٣) فهذا الاحتمال -أي ترك الأمة سدى من دون إرشادها إلى من يتولى أمرها- مرفوض قطعاً.

بقي احتمالان آخران تبنت كل واحدٍ منهما طائفة من المسلمين.

(١) راجع (المحلى) لابن حزم الأندلسي، (شرح نهج البلاغة) لابن أبي الحديد عن (نظريات الخليفين: محاولة اغتيال النبي).

(٢) معركة مؤتة: كانت في سنة ثمان من الهجرة.

عقيدة العامة في الإمامة:

الأول: - وهو الذي التزم به العامة - إيكال الأمر إلى الأمة نفسها فهي تختار من تشاء، وهو مرفوض أيضاً لعدة وجوه:

١- قصور الأمة عن تحمل مثل هذه المسؤولية، وقد عجزت عن أقل من هذا الأمر عندما واجهت التحديات بعد وفاة رسول الله (ﷺ)، حتى بعد أن نالت تربية إضافية خلال عقود من السنين.

ففي خلافة أمير المؤمنين (عليه السلام) عندما بدأ أصحاب رسول الله (ﷺ) يتقاتلون بينهم لم يعرفوا حكم هذه الحالة، عن الشافعي: أخذ المسلمون السيرة في قتال المشركين من رسول الله (ﷺ) وأخذوا السيرة في قتال البغاة من علي (عليه السلام) ^(١).

وبعد ذلك بعقود مرت الدولة الإسلامية بأزمة مع الدولة الرومية، عندما أرادت أن تسكّ عملة فيها شتم نبي الإسلام وتتداول في بلاد المسلمين، فأنقذ الموقف الإمام الباقر (عليه السلام) ^(٢)، وهكذا ظلت الأمة عاجزة عن حل مشكلاتها لولا وجود الأئمة (عليهم السلام) ^(٣)، حتى اكتملت التربية بعد (٢٦٠) عاماً بوفاة الإمام الحسن العسكري (عليه السلام)، فدخلت الأمة مرحلة (وسطية) بين الوجود الفعلي للإمام والغيبة التامة، فكانت الغيبة الصغرى التي استمرت (٧٠) عاماً لتبدأ الغيبة الكبرى بعد أن

(١) كشف الغمة: ١/ص ١٢٤، شرح نهج البلاغة: ٢٣٠/٩.

(٢) رواه الدميري في حياة الحيوان عن المحاسن والمساوي للبيهقي ورواه بهذا المضمون عن شذرات العقود للمقريزي عن سيرة الأئمة الاثني عشر/القسم الثاني/الإمام الخامس محمد الباقر (عليه السلام) لهاشم معروف الحسني.

(٣) الغيبة الصغرى والكبرى للسيد الشهيد محمد صادق الصدر (قدس سره).

رسم الأئمة (عليهم السلام) كل المعالم الرئيسية والخطوط العامة لمسيرة الأمة، وقبل هذه المراحل المتتابعة من التربية كانت الأمة عاجزة.

وكان هذا العجز واضحاً في الصدر الأول للإسلام لقرب عهدهم بالجاهلية الهمجية وقلة فترة الرسالة وانشغالهم عن استيعاب تفاصيلها، كما عبّر الخليفة الثاني حينما سئل عن قلة استفادته من رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: (ألهانا الصفق بالأسواق)^(١)، ويقول بعضهم: كنّا نغتنم فرصة مجيء الإعرابي يسأل من رسول الله (صلى الله عليه وآله) لتعلم أحكام ديننا. فمع عجزهم عن هذه الأمور الجزئية، كيف يوكل إليهم أمر الإمامة التي بها قوام الأمة.

٢- لو كان لهذا الأمر وجود لبين رسول الله (صلى الله عليه وآله) تفاصيله إلى الأمة، فيوضح صيغة الاختيار، ومن الذين لهم هذا الحق، وما هي شروط المرشحين للإمامة وضوابط الاختيار، ومن هو الحاكم فيها عند الاختلاف، وهكذا. ونحن نعلم أن رسول الله (صلى الله عليه وآله) لم يغفل عن أبسط تفاصيل الشريعة، كأداب المائدة وأحكام التخلي، فكيف يغفل عن مسألة الإمامة وهي أصل الشريعة وأساسها؟!

٣- عدم التزام نفس الخلفاء الذين أعقبوه بمبدأ الاختيار، فالأول نص على الثاني^(٢)، والثاني جعله بين ستة من المهاجرين، فهل تراهم أول مخالفين لسنة

(١) صحيح مسلم ٢ ص ٢٣٤ في كتاب الآداب، صحيح البخاري ٣ ص ٨٣٧، مسند أحمد ٣ ص ١٩، سنن الدارمي ٢ ص ٢٧٤، سنن ابن داود ٢ ص ٣٢٠، مشكل الآثار ج ١ ص ٤٩٩. (عن كتاب الغدير ج ٦ ص ١٥٨).

(٢) شرح النهج لابن أبي الحديد / ج ١ شرح الخطبة الشقشقية.

رسول الله (ﷺ)^(١)، بل إن الخليفة الثاني يقر ويعترف (أن بيعة أبي بكر فلتة) (أو فتنة) وقى الله شرها، فمن عاد إلى مثلها فاقتلوه كائناً من كان)^(٢).

٤- إن هذا المنصب العظيم له مؤهلاته الدقيقة التي لا يعلمها إلا المطلع على الأسرار ومن لا تخفى عليه خافية في السماوات ولا في الأرض، وأولها العصمة؛ لاشتمزاز الناس من الأخذ ممن يتورط في الذنوب، وكما يظهر من الآية الشريفة ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة: ١٢٤)، إنها مرتبة فوق النبوة والرسالة ولا يبلغها الرسول إلا بعد اجتيازه لامتحانات عسيرة، وقد ورد في تفسيرها أن الله اتخذ إبراهيم عبداً خالص العبودية، أي معصوماً قبل أن يتخذه نبياً، واتخذه نبياً قبل أن يتخذه رسولاً، واتخذه رسولاً قبل أن يتخذه خليلاً، ثم ابتلاه ربه بكلمات فأتَمَّهن، ونجح في تلك الاختبارات فاستحق التكريم الإلهي ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ (البقرة: ١٢٤)^(٣).

وأنت لو استقرأت الآيات الشريفة وجدتها تنسب الإمامة إلى الجعل الإلهي، كآية المقدمة وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ

(١) شرح النهج لابن أبي الحديد / ج ١ شرح الخطبة الشقشقية، سيرة الأئمة ج ١، وسيأتي في الهوامش القادمة مزيد من التفصيل.

(٢) شرح النهج ج ٢ ص ٢٣، المراجعات / المراجعة ٨٠، مسند أحمد ٥٥/١، البخاري ١١١/٤، تأريخ الطبري ٤٤٦/٢. (عن نظريات الخليفتين).

(٣) راجع تفسير الميزان وأصول الكافي / كتاب الحجة.

فَعَلَ الْخَيْرَاتِ ﴿الأنبياء: ٣٣﴾، وقوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ (القصص: ٢٨)، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ (السجدة: ٢٤)، لذا قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ (القصص: ٢٨) ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ (الأحزاب: ٣٦).

٥- إن كون الإمامة بالتعيين والنص الإلهي مرتكز في أذهان المسلمين عامة حتى عند من لم يعتقدوا به ظاهراً، لكن كلماتهم وأفعالهم تبرز ذلك، والشاهد على ذلك ما ورد في روايات عديدة أن الناس كانوا يرددون قوله تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ (الأنعام: ١٢٤) عند ما يطلع أحدهم عن كتب على سيرة أهل البيت (عليهم السلام) ومواقفهم النبيلة السامية، فكأنه مرتكز في أذهانهم جميعاً أن حمل الرسالة أمر مجعول من قبل الله تبارك وتعالى، وليس لأحد أن يتدخل فيه.

٦- إن رسول الله (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) نفسه لم يعط لنفسه الحق في تنصيب من يلي الأمة، وإنما أوكل الأمر إلى الاختيار الإلهي، ففي سيرة ابن هشام^(١) لما دعا الرسول بني عامر للإسلام، وقد جاءوا في موسم الحج إلى مكة قال رئيسهم: أرايت إن نحن بايعناك على أمرك ثم أظهرك الله على من خالفك، أيكون لنا الأمر من بعدك؟ قال النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (الأمر لله يضعه حيث يشاء). إذا كان الأمر

كذلك فكيف يُدعى إيكاله إلى الأمة.

عقيدة مدرسة أهل البيت (عليه السلام) في الإمامة:

الثاني: ولم يبق إلا الاحتمال الآخر، وقد تبنته مدرسة أهل البيت (عليه السلام)، وأرسى قواعده رسول الله (صلى الله عليه وآله) واستوعبه الصفوة من أصحابه ودافعوا عنه وصرحوا به رغم الوعيد والتهديد ومضوا عليه شهوداً وشهداء.

وهذا موافق لسنة الله التي جرت في أنبيائه ورسله حيث كان لهم جميعاً أوصياء^(١)، فلماذا لا يكون لرسول الله (صلى الله عليه وآله) وصي ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ﴾ (الأحقاف: ١) ﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ (فاطر: ٣٥)، وقد ألفت كتب عديدة في هذا المجال بعنوان (إثبات الوصية) وأشهرها للمسعودي^(٢)، وهذا المسلك يقتضي تهيئة الشخص البديل وإعداده ليكون مؤهلاً لمواصلة وظائف ومسؤوليات الإمام والخلافة والقيادة النائبة بشكل تام وكامل وفاعل.

وهذا الاحتمال يبدو منسجماً مع النتائج التي تمخضت عن التحليل السابق

(١) وقد سلسل المسعودي في كتاب (إثبات الوصية) اتصال الحجج وأوصياء الأنبياء من لدن آدم حتى خاتم النبيين -صلوات الله عليهم أجمعين- وأوصيائه. عن معالم المدرستين ج ١ ص ٢٨٣.

(٢) المسعودي هو: أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي ينتهي نسبه إلى الصحابي عبد الله بن مسعود توفي سنة ٣٤٦هـ وفي ترجمته بطبقات الشافعية ٣٠٧/٢ قيل كان معتزلي العقيدة، وأشار إلى هذا الكتاب المكتبي في فوات الوفيات ٤٥/٢، وياقوت الحموي في معجم الأدباء ٩٤/١٣ وقال: له كتاب البيان في أسماء الأئمة، وفي الميزان لابن حجر ٢٢٤/٤: له كتاب تعيين الخليفة، سماه في الذريعة وغيرها: إثبات الوصية. (معالم المدرستين ج ٢).

وفي ضوء القابليات والمؤهلات التي اجتمعت في أمير المؤمنين^(١) الذي قيل في كثرة فضائله: (لقد أخفى أوليائه فضائله خوفاً، وأخفاها أعداؤه حسداً وحقدًا، وظهر ما بين ذلك ما ملأ الخافقين)^(٢)، وعن أحمد بن حنبل: (ما جاء لأحد من أصحاب رسول الله ﷺ) من الفضائل ما جاء لعلي بن أبي طالب^(٣).

وكان تميزه واضحاً عن بقية أصحاب رسول الله ﷺ (بكل صفات الكمال، وكان التفاف الواعين المخلصين من أصحاب رسول الله ﷺ حوله معروفاً في حياة رسول الله ﷺ) وبعد وفاته (ﷺ)، كسلمان^(٤)، وأبي ذر^(٥)، والمقداد^(٦)، وعمار^(١)، وعزز ذلك الرعاية الخاصة والإعداد المركز الذي كان

(١) وأنا إلى هنا أتكلم بشكل موضوعي ووفق الظروف المنظورة بعيداً عن النصوص وأقيم سلوك رسول الله ﷺ كمؤسس أمة ومنشئ مجتمع مدني جديد وقائد ناجح حكيم.

(٢) سيرة الأئمة الاثني عشر ج ١ علي وبيت المال ص ٣١٩ القول للحسن البصري في جواب من سألته عما يحدث الناس عنه.

(٣) مستدرك الحاكم ١٠٧/٣ بحسب كتاب (بنور فاطمة اهتديت) ١٣٦.

(٤) سلمان الفارسي أو المحمدي: كان أكثر أصحاب الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) علماً وحكمة، وكان والياً على المدائن في زمن الخليفة عمر بن الخطاب، توفي في المدائن التي كان والياً عليها في آخر خلافة عثمان سنة خمس وثلاثين وقيل أول سنة ست وثلاثين وغسله ودفنه أمير المؤمنين (عليه السلام).

(٥) أبو ذر: جندب بن جنادة: تقدم إسلامه وتأخرت هجرته، فشهد ما بعد بدر من غزوات رسول الله ﷺ، توفي منفياً بالربذة سنة اثنتين وثلاثين من الهجرة.

(٦) المقداد بن الأسود الكندي: قال الرسول (ﷺ): (إن الله عز وجل أمرني بحب أربعة من أصحابي واخبرني أنه يحبهم، فقل: من هم؟ فقال: علي والمقداد وسلمان وأبو ذر) توفي سنة ٣٣ هجرية. (الاستيعاب بهامش الإصابة ٤٥١/٣، والإصابة ٤٣٣/٣ - ٤٣٤ عن معالم المدرستين ج ١).

يحيطه به (ﷺ) منذ نعومة أظفاره والتي وصفها أمير المؤمنين نفسه بقوله: (وَقَدْ عَلِمْتُمْ مَوْضِعِي مِنْ رَسُولِ اللَّهِ (ﷺ) بِالْقَرَابَةِ الْقَرِيبَةِ، وَالْمَنْزِلَةِ الْخَصِيصَةِ: وَضَعَنِي فِي حَجْرِهِ وَأَنَا وَلَدٌ يَضُمُّنِي إِلَى صَدْرِهِ، وَيَكْنُفُنِي فِي فِرَاشِهِ، وَيُمَسِّنِي جَسَدَهُ، وَيُسَمِّنِي عَرَفَهُ. وَكَانَ يَمْضَغُ الشَّيْءَ ثُمَّ يُلْقِمُنِيهِ، وَمَا وَجَدَ لِي كَذِبَةً فِي قَوْلٍ، وَلَا خَطْلَةً فِي فِعْلٍ. وَلَقَدْ قَرَنَ اللَّهُ بِهِ (ﷺ) مِنْ لَدُنْ أَنْ كَانَ فَطِيماً أَعْظَمَ مَلِكٍ مِنْ مَلَائِكَتِهِ يَسْلُكُ بِهِ طَرِيقَ الْمَكَارِمِ، وَمَحَاسِنِ أَخْلَاقِ الْعَالَمِ، لَيْلُهُ وَنَهَارُهُ، وَلَقَدْ كُنْتُ أَتَّبِعُهُ اتِّبَاعَ الْفَصِيلِ أَثَرُ أُمِّهِ، يَرْفَعُ لِي فِي كُلِّ يَوْمٍ عِلْماً مِنْ أَخْلَاقِهِ، وَيَأْمُرُنِي بِالْإِفْتِدَاءِ بِهِ. وَلَقَدْ كَانَ يُجَاوِرُ فِي كُلِّ سَنَةٍ بَحْرَاءَ فَأَرَاهُ، وَلَا يَرَاهُ غَيْرِي، وَلَمْ يَجْمَعْ بَيْتٌ وَاحِدٌ يَوْمَئِذٍ فِي الْإِسْلَامِ غَيْرَ رَسُولِ اللَّهِ (ﷺ) وَخَدِيجَةَ وَأَنَا ثَالِثُهُمَا، أَرَى نُورَ الْوَحْيِ وَالرَّسَالَةِ، وَأَشْمُ رِيحَ النُّبُوَّةِ. وَلَقَدْ سَمِعْتُ رَتَّةَ الشَّيْطَانِ حِينَ نَزَلَ الْوَحْيُ عَلَيْهِ (ﷺ) فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا هَذِهِ الرَّتَّةُ؟ فَقَالَ: (هَذَا الشَّيْطَانُ قَدْ أَيْسَرَ مِنْ عِبَادَتِهِ، إِنَّكَ تَسْمَعُ مَا أَسْمَعُ، وَتَرَى مَا أَرَى، إِلَّا أَنَّكَ لَسْتَ بِنَبِيِّ، وَلَكِنَّكَ وَزِيرٌ، وَإِنَّكَ لَعَلَى خَيْرٍ))^(١).

وهكذا هو منه (ﷺ) حتى فارقت روحه الدنيا، يقول أمير المؤمنين (عليه السلام): (وَلَقَدْ عَلِمَ الْمُسْتَحْفَظُونَ مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ (ﷺ) أَنِّي لَمْ أَرُدَّ عَلَى اللَّهِ وَلَا عَلَى

(١) أبو اليقظان عمار بن ياسر: أسلم هو وأبوه وأمه وأسلم قديماً بعد بضعة وثلاثين رجلاً، وكان المشركون يخرجون عماراً وأباه وأمه إلى الأبطح إذا حميت الرمضاء يعذبونهم فمر بهم النبي (ﷺ) فقال (صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة)، فمات ياسر في العذاب وطعنت أمه بحربة أبي جهل، شهد عمار المشاهد كلها مع رسول الله (ﷺ) وقتل بصفين مع علي (عليه السلام) وقد جاوز التسعين من عمره.

(٢) نهج البلاغة بشرح الشيخ محمد عبده، ج ٢ ص ١٥٧.

رَسُولِهِ سَاعَةً قَطُّ. وَلَقَدْ وَاسَيْتُهُ بِنَفْسِي فِي الْمَوَاطِنِ الَّتِي تَنْكُصُ فِيهَا الْأَبْطَالُ وَتَتَأَخَّرُ الْأَقْدَامُ، نَجْدَةً أَكْرَمَنِي اللَّهُ بِهَا. وَلَقَدْ قُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) وَإِنَّ رَأْسَهُ لَعَلَى صَدْرِي. وَلَقَدْ سَأَلْتُ نَفْسَهُ فِي كَفِّي، فَأَمَرَرْتُهَا عَلَى وَجْهِي. وَلَقَدْ وُلِّيتُ غُسْلَهُ (ﷺ) وَالْمَلَائِكَةُ أَغْوَانِي، فَضَجَّتِ الدَّارُ وَالْأَفْنِيَّةُ: مَلَأَ يَهْبِطُ، وَمَلَأَ يَعْرُجُ، وَمَا فَارَقْتُ سَمْعِي هَيْئَةً^(١) مِنْهُمْ، يُصَلُّونَ عَلَيْهِ حَتَّى وَارَيْنَاهُ فِي ضَرِيحِهِ. فَمَنْ ذَا أَحَقُّ بِهِ مِنِّي حَيًّا وَمَيِّتًا؟^(٢).

الدور العلوي في الحفاظ على الدين:

ولقد أدى (عليه السلام) دوره بنجاح بعد وفاة رسول الله (ﷺ)، وحفظ الإسلام من الضياع، وكان وجوده والأئمة من بنيه بحق أماناً للأمة من الانحراف، بحيث يستغيث الخليفة الثاني ويتعوذ بالله من معضلة ليس لها أبو الحسن^(٣)، فكانت خلافة أمير المؤمنين لمقام رسول الله (ﷺ) وإمامة الخلق من بعده نتيجة طبيعية ومنطقية لتسلسل التفكير أعلاه لا يسع أي منصف أن يحيد عنها، ولم يكن النص الذي سنشير إليه - وهو حديث الغدير - هو الذي جعل من علي (عليه السلام) إماماً وخليفة بعد رسول الله (ﷺ) حتى يناقشوا في دلالاته والمراد منه، لا لشيء إلا لتصحيح الواقع الذي حصل بأي ثمن كان وبأية طريقة، ولو بإنكار وجود الشمس في رابعة النهار. فعلي عليه السلام هو الإمام بما حمله من صفات الكمال قبل النص وإنما جاء النص للإشارة إليه ولتعريفه ولقطع العذر وإتمام الحجة على المخالفين

(١) الهينة: الصوت الخفي.

(٢) نهج البلاغة بشرح الشيخ محمد عبده، ج ٢ ص ١٧١-١٧٢.

(٣) أشار إلى كلمته المشهورة (لا أبقاني الله لمعضلة ليس لها أبو الحسن).

ولحسم الموقف ووضع النقاط على الحروف - كما يقولون -.

التخطيط للخلافة:

ولعظمة هذه المسألة وأهميتها فقد كان التخطيط والتمهيد لها يؤرق عين رسول الله (ﷺ) ويقض مضجعه، فإنه يخشى ردود الفعل من هذه الأمة وهو خوف محمود كخوف موسى (عليه السلام) الذي ذكره القرآن وأشرنا إليه، ليس شخصياً وإنما على مستقبل الأمة التي هي جديدة عهد بالإسلام وما زالت رواسب الجاهلية لم تنمح من ذاكرتها، وما زال التعصب يتحكم فيها^(١)، فكيف يستطيع أن يضمن ولاءها لهذا القرار الهام الذي يصعب على النفوس الحاملة بالخلافة والقلوب المملوءة حسداً وحقداً على علي (عليه السلام) أن تنصاع إليه، كذاك الفهري الذي ما إن سمع بحديث الغدير وتنصيب علي (عليه السلام) خليفة بعد رسول الله (ﷺ) ومبايعة المسلمين له حتى جاء إلى رسول الله (ﷺ)، فقال له: هذا الأمر منك أم من الله؟ فقال (ﷺ): إنه من الله. فقال: إن كان هذا من الله فأمر علينا حجارة من السماء أو أئتنا بعذاب أليم. فما خرج منه (ﷺ) حتى نزلت عليه

(١) لاحظ كشاهد على ذلك كيف أن بشير بن سعد وأسيد بن خضير بادرا إلى بيعه أبي بكر خشية أن يفوز بها سعد بن عباد.

عن كتاب النص والاجتهاد المورد الأول يوم السقيفة ص ٨٠. واجتماع أكثر الأنصار في السقيفة يرشحون سعد بن عباد وهو سيد الخزرج، لكن ابن عمه بشير بن سعد بن ثعلبة الخزرجي وأسيد بن خضير سيد الأوس كانا ينافسانه في السيادة، فحسدها على هذا الترشيع وخافا أن يتم له الأمر فأضمرأ له الحبكة مجمعين على صرف الأمر عنه بكل ما لديهما من وسيلة وصافقهما على ذلك وعويم بن ساعدة الأوسي، ومعن بن عدي حليف الأنصار وكان مع ذلك ذوي بغض وشحناء لسعد بن أبي عباد.

صاعقة من السماء. وقد ورد أنه سبب نزول قوله تعالى: ﴿سَأَلْ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ
لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ﴾ (المعارج: ١-٢) ^(١).

الإعلان العظيم تكلل في يوم الغدير:

وبالمقابل كان (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) لا يستطيع السكوت عن إنفاذ هذا الأمر وهو يرى
نهايته تقترب، والأعداء يتربصون بدينه الدوائر، فكيف يهدأ له بال ويقرّ له قرار
قبل أن تنعقد البيعة لعلي (عَلَيْهِ السَّلَام).

حتى أذن الله تبارك وتعالى له بالتبليغ، بل أمره به وطمأنه من مخاوفه هذه بأنه
سيعصمه من الناس، وبين أهمية هذا الأمر بأنه وحده في كفة وباقي الرسالة كلها
في كفة، فقال عز من قال: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ

(١) روى الثعلبي الذي هو من قدوة مفسري المخالفين في شأن نزولها -انظر هامش ج ٨ تفسير
الرازي لأبي مسعود ص ٢٩٢ والسيرة الحلبية ج ٣ ص ٣٠٢ ونور الأبصار ص ٦٩- أنه لما كان النبي
(صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) بغدير خم نادى الناس فاجتمعوا فأخذ بيد علي (عَلَيْهِ السَّلَام) فقال من كنت مولاه فعلي مولاه
فشاع ذلك وطار في البلاد فبلغ الحارث بن النعمان الفهري فأتى النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وهو في ملأ من
أصحابه، فقال: يا محمد أمرتنا من الله أن نشهد أن لا اله إلا الله وانك رسول الله ففعلناه وأمرتنا أن
نصلي خمساً فقبلنا وأمرتنا أن نصوم شهر رمضان فقبلناه وأمرتنا أن نحج البيت فقبلناه ثم لم ترض
بهذا حتى رفعت بضبعي ابن عمك وفضلته علينا وقلت من كنت مولاه فعلي مولاه وهذا شيء منك أم
من الله، فقال النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): والذي لا اله إلا هو من الله، فولى الحارث بن النعمان يريد راحلته وهو
يقول: اللهم إن كان ما يقول محمد حقاً فأمطر علينا حجارة من السماء واتنا بعذاب اليم، فما وصل
إليها حتى رماه الله بحجر فسقط على هامته وخرج من دبره فقتله وانزل الله تعالى ﴿سَأَلْ سَائِلٌ
بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ﴿مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ﴾ (حق اليقين في معرفة أصول
الدين ج ١/ الآية الثالثة الدالة على أن الإمام بعد رسول الله (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) هو علي (عَلَيْهِ السَّلَام)).

تَفْعَلْ فَمَا بَلَغَتْ رِسَالَتُهُ وَاللَّهُ يَعِصُكَ مِنَ النَّاسِ ﴿المائدة: ٦٧﴾.

فليس غريباً أن تدرج هذه الآية المباركة وآية الولاية التي سبقتها ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ (المائدة: ٥٥) في سورة المائدة التي يستشف المتأمل فيها أن غرضها تأسيس المجتمع المسلم، وبيان مميزاته الرئيسية ومقوماته وأسس كيانه، وعرض نقاط الفرق بين المجتمع الذي يقوم على أساس الإسلام والمجتمع الذي ليس كذلك كائناً ما كان وإن سمي نفسه مسلماً، فإنه في مفهوم القرآن (مجتمع جاهلي)، فالبينونة بين المجتمعين كاملة في الأحكام (كآيات أوفوا بالعقود وحرمة الكلب والخنزير وغيرها) وفي من له حق الولاية (فقد تكررت كثيراً آيات ولاية المؤمنين والبراءة من الكافرين)، وفي الشريعة التي تنظم الحياة ﴿أَفْحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ (المائدة: ٥٥) ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ • هُمُ الظَّالِمُونَ • هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (المائدة: ٥٥-٥٦-٥٧) وتامها وعقد نظامها آية التبليغ وآية الولاية.

أعظم الأعياد في الإسلام:

ثم جعل يوم الحسم هذا أعظم عيد في الإسلام، ففيه كمل الدين وتمت النعمة بعقد البيعة والولاية لأمر المؤمنين (عَلَيْهِ السَّلَامُ)، وامتنَّ الله تبارك وتعالى على عباده بذلك فقال عز من قائل: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (المائدة: ٣).

وجلس رسول الله (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يتقبل التهاني بهذا الإنجاز العظيم ويقول لأصحابه:

هتئوني هتئوني بابن عمي أمير المؤمنين. وأفرد له خباءً ليسلموا عليه ويباعوا علياً خليفة من بعده وأميراً للمؤمنين، واستأذنه شاعره حسان بن ثابت أن يقول شعراً في المناسبة، فأذن له فأنشأ:

يناديهم يوم الغدير نبيهم بخم فأسمع بالرسول مناديا
وفيها يقول:

فقال له: قم يا علي فإني رضيتك من بعدي إماماً وهادياً
وأول من سلم عليه الشيخان وهما يقولان له: بخ بخ لك يا بن أبي طالب،
أصبحت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة^(١).
وقد نظم هذه الحقيقة التاريخية الدامغة أجيال من الشعراء جيلاً بعد جيل^(٢)،
ومنهم عمرو بن العاص الخصم الألد لعلي بن أبي طالب في قصيدته الجدلجية
التي بعثها إلى معاوية يذكره ببعض الحقائق التي تناساها، ومما جاء فيها^(٣):

(١) أخرج الإمام الواحدي في تفسير (يا أيها الرسول بلغ ...) من طريقين معتبرين عن عطية عن أبي سعيد الخدري قال: نزلت هذه الآية يوم غدير خم بعلي بن أبي طالب، فلما بلغ الرسالة بنصه (صلى الله عليه) على علي (عليه السلام) بالإمام وعهد إليه بالخلافة أنزل الله عز وجل ﴿اليوم أكملت لكم...﴾ وأول من هنا علي (عليه السلام) في يوم الغدير هما: أبو بكر وعمر بقولهما: أمسيت يا بن أبي طالب مولى كل مؤمن ومؤمنة. (أخرجه الدار قطني - الفصل الخامس من الباب الأول من صواعق بن حجر ص ٢٦ وأحمد نحو هذا القول عن عمر من حديث البراء بن عازب ص ٢٨١ ج ٤ من مسنده). (المراجعات ٥٤ وما بعدها).

(٢) راجع الموسوعة الفريدة (الغدير) للشيخ الأميني (رحمته الله).

(٣) (راجع كتاب الغدير في ترجمة عمرو بن العاص).

وكم قد سمعنا من المصطفى وصايا مخصصةً في علي
فأنحلّه إمرة المؤمنين من الله مستخلف المنحل
وقال: فمن كنت مولى له فهذا له اليوم نعم الولي
فبخب خ شيخك لما رأى عرى عقد حيدر لم تحلل
فقال: وليكم فاحفظوه فمدخله فيكم مدخلي

وقد جاء هذا البيان - خطبة الغدير - منه (ﷺ) متوجاً لبيانات سابقة لا تقل
عنه وضوحاً: (إن علياً مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي)^(١)، وإن:
(علي مع الحق والحق مع علي)^(٢) وإنه (عليه السلام) وأهل بيته كمثل سفينة نوح من
ركبها نجا ومن تخلف عنها هلك^(٣)، وأنهم والقرآن صنوان لا يفترقان، وثقلان ما
إن تمسكتم بهما لن تضلوا من بعدي أبداً^(٤) ... وغيرها كثير.

لماذا كان يوم الغدير أعظم عيد في الإسلام؟

إن عظمة هذا اليوم لها مناشئ عديدة فهو:

١- يوم الطمأنينة على بقاء الرسالة واستمراريتها بعد أن انتقل ارتباطها من
شخص رسول الله (ﷺ)، فيمكن أن تموت بموته، إلى نوع رسول الله

(١) حديث المنزلة: عن الإمام أحمد في الجزء الأول من مسنده في آخر صفحة ٣٣٠ والإمام النسائي
في خصائصه العلوية ص ٦ والحاكم في ج ٣ من صحيحه المستدرک ص ١٢٣ والذهبي في تلخيصه
معترفاً بصحته عن عمرو بن ميمون (المراجعات: ٢٦).

(٢) البحار ج ١٠ باب ٢٦ ص ٤٣٢.

(٣) الوسائل: كتاب القضاء، صفات القاضي، باب ٥، حديث ١٠.

(٤) الإمام أحمد والترمذي بعدة طرق تجدها في المراجعات: المراجعة ٨٠.

(ﷺ)، أي إلى كل من تتجمع فيه صفات وشروط الإمامة فلم يعد وجودها منوطاً بشخصه (ﷺ).

٢- وهو يوم الانتصار النهائي على مكائد الأعداء الذين لم يبق في جعبتهم من سلاح إلا موت رسول الله (ﷺ) لنتهي دعوته ففقدوا هذا الأمل الشيطاني بتنصيب أمير المؤمنين (عليه السلام) خليفة.

٣- وهو يوم حماية الأمة من التشتت ومن الضياع بتعيين الحبل الذي إن اعتصموا به بقي ريحهم وكيانهم وانتشر أمرهم وعلت كلمتهم.

٤- وهو يوم صيانتها من الانحراف بعد أن نصب لهم العلم والمحور الذي يلتفون حوله.

٥- وهو يوم أمان الأرض ومن عليها من الفناء، لما ورد في الحديث: (إن الأرض لا تخلو من حجة ظاهر أو مستور، ولولاه لساخت الأرض بأهلها)^(١).

٦- وهو يوم الهداية إلى الدين ووضوح الحق بمعرفة الحجة كما في الدعاء: (اللهم عرفني نفسك، فإنك إن لم تعرفني نفسك لم أعرف رسولك، اللهم عرفني نبيك، فإنك إن لم تعرفني نبيك لم أعرف حجتك، اللهم عرفني حجتك، فإنك إن لم تعرفني حجتك ضللت عن ديني)^(٢).

٧- وهو يوم الإمامة التي هي أس الإسلام وسنامه، فهو لا يقل أهمية عن يوم البعثة النبوية الذي انبثق فيه نور الإسلام.

(١) البحار ج ٣٦، باب ٤١، ص ٣١٥.

(٢) مفاتيح الجنان: الفصل السادس، دعاء زمن الغيبة.

التشيع يزاد وضوحاً بيوم الغدير:

لأجل هذا كله كان يوم الغدير أعظم عيد في الإسلام كما نطقت به الروايات الشريفة، وفي ذلك اليوم تبلورت فكرة (التشيع) ونضجت ثمارها وأينعت بعد أن كان قد زرع بذورها رسول الله (ﷺ) في مناسبات عديدة، ابتداءً من يوم الدار وإنذار عشيرته الأقربين في أوائل البعثة الشريفة^(١).

ولهج رسول الله (ﷺ) بهذا الاسم المحبب له ولأهل بيته (صلوات الله عليهم أجمعين) في مناسبات عديدة، أنقل بعضها من كتب العامة ليكون الخطاب أبلغ في الحجة:

١- في الدر المنثور للسيوطي ج ٨/ص ٥٨٩: روى بسنده عن جابر بن عبد الله الأنصاري، قال: كنّا عند النبي (ﷺ) فأقبل علي (عليه السلام)، فقال النبي (ﷺ): (والذي نفسي بيده إن هذا وشيعته لهم الفائزون يوم القيامة)، فنزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ (البينة: ٧).

(١) حياة محمد: الفصل الخامس، ص ١٤٢، لمحمد حسين هيكل، المراجعات: مراجعة ٢٠ قال فيها حين أنزل الله تعالى على الرسول الأكرم (ﷺ) ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ فدعاهم إلى دار عمه أبي طالب وهم يومئذ أربعون رجلاً يزيد رجلاً أو ينقصونه، وفيهم أعمامه أبو طالب وحمزة والعباس وأبو لهب، والحديث في ذلك من صحاح السنة المأثورة، وفي آخره قال رسول الله (ﷺ): يا بني عبد المطلب إني والله ما أعلم شاباً في العرب جاء قومه بأفضل مما جئتم به، جئتم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرني الله أن أدعوكم إليه، فأياكم يؤازرنني على أمري هذا على أن يكون أخي ووصيي وخليفتي فيكم؟ فأحجم القوم عنها غير علي -وكان أصغرهم- إذ قام فقال: أنا يا نبي الله أكون وزيرك عليه، فأخذ رسول الله (ﷺ) برقبته وقال: إن هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم، فاسمعوا له وأطيعوا، فقام القوم يضحكون، ويقولون لأبي طالب: قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع.

٢- ابن حجر في الصواعق المحرقة^(١): عن ابن عباس قال: لما أنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾، قال رسول الله (ﷺ) لعلي (عليه السلام): (هم أنت وشيعتك تأتون يوم القيامة راضين مرضيين ويأتي عدوك غضاباً مقمحين).

٣- كنوز الحقائق للمناوي الشافعي^(٢) قال رسول الله (ﷺ): (علي وشيعته هم الفائزون يوم القيامة)، وروى احمد عن أم سلمة قالت: كان النبي (ﷺ) عندي في ليلتي فغدت عليه فاطمة وعلي فقال رسول الله (ﷺ): يا علي أبشر فإنك وأصحابك وشيعتك في الجنة^(٣).

أشكال التخطيط النبوي لتعيين الخليفة:

لقد كان تخطيط رسول الله (ﷺ) لهذا الأمر أي تعيين الخليفة والامتداد له على ثلاثة أشكال:

الأول: النص المباشر والواضح عليه، وعدم ترك الأمر مجملاً تتقاذفه التأويلات والتفسيرات، وقد تقدم فيما مضى فكرة عنه، وأنصح بقراءة كتاب (المراجعات) للسيد شرف الدين للاطلاع على المزيد من الأدلة والنصوص ببيان قوي وحجة دامغة، مما لو دخلت فيه سأخرج عن الاتجاه العام الذي رسمته لهذا البحث.

(١) الباب (١١) الفصل الأول: الآية الحادية عشرة.

(٢) كنوز الحقائق للمناوي (ص ٨٣).

(٣) فضائل الصحابة: ٦٥٤/٢.

الثاني: الإشادة بالأشخاص المخلصين الواعين الذين يعلم (ﷺ) منهم أنهم ثابتون على الخط وواعون للهدف وراسخون في المبدأ، ولا تأخذهم في الله لومة لائم، ويقولون كلمة الحق مهما كان الثمن، كسلمان والمقداد وأبي ذر وعمار وذي الشهادتين وبلال الحبشي وأم أيمن وأم سلمة، فكان (ﷺ) يردد: (سلمان من أهل البيت)^(١) (إن الجنة لتشتاق إلى أربعة: سلمان والمقداد وأبي ذر وعمار)^(٢) (ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء ذا لهجة أصدق من أبي ذر)^(٣) (ملئ عمار إيماناً من قرنه إلى أخمص قدميه)^(٤) و(أم أيمن امرأة من أهل الجنة)^(٥) و(بلال من أهل الجنة)^(٦) وقال لأم سلمة: (لست من أهل البيت، لكنك على خير)^(٧).

فكانت هذه الأوسمة تخطيطاً منه (ﷺ) للمستقبل إذا انقلبت الأمة على الأعقاب وتاهت بها السبل في بحر الظلمات، فسيكون هؤلاء أعمدة نور تضيء لطلاب الحقيقة الدرب، وتدلّهم على شاطئ الإيمان وقد أدّوا دورهم وقالوا كلمة

(١) البحار ج ١، باب ٨، ص ١٢٣.

(٢) وسائل الشيعة: ج ٢٢ خاتمة الكتاب، باب ١٠، ص ٣٢٤.

(٣) الوسائل ج ١٠، باب ٢، ص ٢٣، سنن ابن ماجه المقدمة باب ١١، وسنن الترمذي كتاب المناقب، مناقب أبي ذر، ومسنّد أحمد، وطبقات ابن سعد. (عن معالم المدرستين).

(٤) الوسائل: ج ١٩، باب ٦، ص ٣٥.

(٥) البحار: ج ١٧، باب ٤، ص ٣٧٨.

(٦) البحار: ج ٢٢، باب ٣٧، ص ١٤٢.

(٧) أخرجه الطبراني في الدر المنثور، وروي عن طريق الخاصة.

الحق فثبتوها في لوح التاريخ^(١) لو كان هناك من يسمع، بينما لم نسمع منه (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ) كلمة واحدة في أولئك الذين انحرفوا عن علي (عَلَيْهِ السَّلَام) وخذلوه، رغم أن منهم من كان له مواقف مشهورة كالزبير بن العوام.

الثالث: وضع ضوابط يُعرف بها المستحقون لهذا الأمر وتمييزهم عَمَّن هم ليسوا أهلاً له، والذين يستخدمون أساليب لم يقم عليها دليل شرعي من أجل تثبيت استحقاقهم، أو تشويه صورة أهل الحق وإزالتهم عن موقعهم، كما كانوا يقولون: (إن قريش نظرت فاختارت، وإنها أبت أن تجتمع النبوة والخلافة في بني هاشم)^(٢) و(إن فلان - وهو الأول - أسنَّ من علي)^(٣) و(إن علياً فيه دعابة)^(٤)، والله تبارك وتعالى يخاطبهم ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ (النساء: ٦٥)، ويقول تعالى ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ (الحشر: ٧)، وقال تعالى ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ (القصص: ١٦) ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ (الأحزاب: ٣٦) فما قيمة رأي أحد واختياره كائناً

(١) راجع كتاب الاحتجاج للطبرسي.

(٢) ابن أبي الحديد: ص ١٠٧ من المجلد الثالث في شرح النهج، ابن الأثير: ص ٢٤ ج ٣ من كامله. (عن المراجعات: مراجعة ٨٤). سيرة الأئمة: ج ١ ص ٣٣٢ هاشم معروف الحسني.

(٣) الغدير: ج ٢ ص ١٢٨.

(٤) شرح النهج: ج ١ لابن أبي الحديد عن شيخه أبو عثمان في كتابه السفينانية، سيرة الأئمة: ج ١ ص ٣٣٨.

من كان بعد قضاء الله تبارك وتعالى واختياره ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغِيًّا أَنْ يُنَزَّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ (البقرة: ٩٠).

الضوابط والمعايير لتولي الخلافة:

فبهذه المعايير والضوابط التي سنذكرها إن شاء الله تعالى تستطيع الأمة أن تفرز هؤلاء المتطفلين مهما مارسوا من أساليب الخداع والتضليل، المتقمصين لأمرها بغير حق:

(فمنها) قوله تعالى: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة: ٢٤٤)، والعهد هو الإمامة؛ لأنها جاءت جواباً على سؤال إبراهيم (عليه السلام) بعد جعله إماماً، قال: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾، وقد فُسِّرَت في الروايات الشريفة بمن سجد لصنم يوماً ما^(١)، فإن من فعل ذلك سفيه، ولا يكون السفيه إمام التقي كما في الحديث^(٢)، ويشهد له قوله تعالى: ﴿إِنَّ التَّيْرَكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (لقمان: ١٣).

(ومنها) قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا﴾ (الحديد: ١٠).

(ومنها) قوله (صلى الله عليه وآله): (لا يلي أمر هذه الأمة طليق).

(١) روى الفقيه ابن المغازي الشافعي مسنداً عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): انتهت الدعوة إلي وإلى علي (عليه السلام) ولم يسجد أحدنا لصنم فاتخذني نبياً واتخذ علي وصياً. (حق اليقين في معرفة أصول الدين - الحادي عشر من الآيات الدالة على إمامة علي (عليه السلام)).

(٢) الكافي: كتاب الحجة، حديث ٤٣٨، المجلد الثاني.

(ومنها) قوله (ﷺ): (فاطمة بضعة مني، يرضى الله لرضاها، ويغضب لغضبها)^(١).

وقال (ﷺ): (يا عمار تقتلك الفئة الباغية)^(٢).

(ومنها) حشده (ﷺ) المعادين لخط الإمامة، وفيهم شيوخ قريش في جيش أسامة ذي السبعة عشر ربيعاً، ولعنه من تخلف عن جيش أسامة، وأمر بإنفاذه فوراً^(٣)، وكان ذلك منه (ﷺ) لإخلاء الساحة من الذين لا ينصاعون لإمامة أمير المؤمنين (عليه السلام).

تطبيق الضوابط على المتصدين للخلافة بغير حق:

وبملاحظة هذه المعايير والضوابط تكتشف كيف خطط رسول الله (ﷺ) لحصر الأمر بعلي (عليه السلام)، فبعض المتصدين ممن أغضب فاطمة (عليها السلام) وماتت وهي واجدة عليهم، كما أشهدتهم (صلوات الله عليها) على ذلك، فنالوا بذلك غضب الله تبارك وتعالى، وهل يلي أمر الأمة أحد من المغضوب عليهم، ثم هم من الظالمين الذين سجدوا للأصنام ردحاً طويلاً من الزمن، فلا ينالهم عهد الله تعالى، فكيف يكون أحدهم إماماً لمن كرم الله وجهه عن ذلك - كما يعترفون - وهم أيضاً ممن تخلفوا عن جيش أسامة فينالهم حكمه.

وبعضهم لم يقاتلوا لا قبل الفتح ولا بعده، وهزائمهم في الحروب معروفة،

(١) الإمامة والسياسة لابن قتيبة: ١٤/١، أعلام النساء: ٣١٤/٣. (عن نظريات الخلفيتين ج ١).

(٢) الكافي: ١١/٥.

(٣) الشهرستاني في المقدمة الرابعة من كتاب الملل والنحل. (المراجعات: مراجعة ٩٠، النص والاجتهاد - سرية جيش أسامة).

ومنهم من ولى منهزماً في معركة أحد لا يلوي على شيء ثلاثة أيام، حتى بلغ تخوم الشام، فقبل له: إن الأمر لا يستحق ذلك وقد عاد رسول الله (ﷺ) سالماً إلى المدينة.

ومعاوية ومروان ممن أسلموا بل استسلموا بعد الفتح، فلا يستوون مع من آمن وأنفق من قبل الفتح وقاتل، وهم من الطلقاء^(١) فلا يحق لهم ولاية أمر الأمة. وهم من البغاة، لأنهم قتلوا عماراً في صفين، فكيف يلي أمر الأمة باغ أثيم^(٢).

فلو كانت الأمة واعية لتلمست طريقها بوضوح، حيث لم يترك لها رسول الله (ﷺ) عذراً، فهل كان رسول الله (ﷺ) عاطفياً وبدافع الحب لابنته حين قال هذا الكلام، وهل سمعت بأحد غيور يرتقي المنبر ويشني على مزايا ابنته؟! لا طبعاً خصوصاً في مثل رسول الله (ﷺ) الذي يصفه القرآن ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ (النجم: ٣-٤). وإنما المسألة أبعد من ذلك، إنه يريد أن ينصب لهم ميزاناً يعرفون به الحق والباطل لو اختلطوا عليهم، وإن كان الأمر واضحاً لكن قلبه الكبير ورحمته ورأفته بالأمة أبت إلا أن يوالي الحجاج على هذه الأمة وينصب لها العلامات تلو العلامات حتى وهو على فراش المرض في رزية الخميس كما يسميها ابن عباس^(٣). ولأنه (ﷺ) كان يعلم أن أساليب التضليل كثيرة ووسائل الضغط قوية وشرسة، فالنص - وهو الشكل الأول من التخطيط -

(١) مستدرك نهج البلاغة: الباب الثاني، كتاب أمير المؤمنين (عليه السلام) إلى معاوية وقوله: (...واعلم يا معاوية أنك من الطلقاء الذين لا تحل لهم الخلافة ولا تعقد معهم الإمامة...).

(٢) البحار: ج ٣٦، باب ٤١، ص ٣٢٧، النص والاجتهاد: المورد ٩٥ حرب معاوية لعلي (عليه السلام).

(٣) المراجعات: المراجعة ٨٦.

يُؤوَّل ويُحرَف، وهذه الثلة المخلصة - وهو الشكل الثاني - يُضَيَّق عليها وتحبس أنفاسها، فأبو ذر ينفي إلى الربذة حتى يموت غريباً^(١)، وعمار وعبد الله بن مسعود^(٢) يداس بطنه وتوجأ عنقه، وأم أيمن امرأة أعجمية لا تقبل لها شهادة^(٣)، والحسن والحسين طفلان صغيران^(٤)، وعليّ يجر النار إلى قرصه فلا تقبل له ولا لولديه شهادة^(٥)، والزهراء (عليها السلام) تتجرع الآلام غصة بعد غصة حتى لحقت بأبيها بعد أيام وهكذا...، لذا كان الشكل الثالث من التخطيط ضرورياً ليكون شاهد عدل مدى الأجيال، تملأ أفواه مزوري الحقائق بالتراب.

ولعلك تعجب مع وضوح هذا التخطيط وقوة الحجاج المتوالية التي لم تنقطع حتى وفاته (صلى الله عليه وآله) وإذا بالأمر يزول عن مستقره ويتمص الخلافة غير علي (عليه السلام)، وهو يعلم أن محل ابن أبي طالب منها محل القطب من الرchy، ينحدر عنه السيل، ولا يرقى إليه الطير^(٦).

(١) الوسائل: ج ٢٢ باب ١٢ ص ٣٩٥، معالم المدرستين ج ١ ص ٤٥٩.

(٢) ابن مسعود: أسلم قديماً وأجهر قديماً في مكة فضربوه حتى أدموه وهاجر إلى الحبشة والمدينة، شهد بدرًا وما بعدها، وقطع عثمان عطاءه سنتين لإنكاره على الوليد ما ارتكبه زمان ولايته على الكوفة ومات سنة اثنتين وثلاثين. (أسد الغابة: ٢٥٦/٣-٢٦٠، مستدرک الحاکم: ٣/٣٢٠، ٣١٥ وراجع أحاديث عائشة ٦٢-٦٥) (عن معالم المدرستين ج ٢)، وحول مقتله راجع للتفصيل سيرة الأئمة ج ١ ص ٣٧٠ وكذلك ضرب عمار بن ياسر.

(٣) بحار الأنوار: ج ٢٨، باب ٤، ص ٣٠٢، سيرة الأئمة: القسم الأول ص ١١٨ لهاشم معروف الحسني.

(٤) سيرة الأئمة: القسم الأول ص ١١٩.

(٥) سيرة الأئمة: القسم الأول، ص ١١٨.

(٦) من كلمات لأمير المؤمنين (عليه السلام) في الخطبة الشقشقية في نهج البلاغة.

وانه لعجيب فعلاً، ولو لم يكن حقيقة ثابتة أجمع عليها المؤرخون لما صدّقنا به، وقد أوجدت في عين أمير المؤمنين قذى، وفي الحلق شجى، وفي القلوب جمرة لا تطفأ إلى يوم القيامة حتى ينتصف المظلوم من الظالم، ونعم الحكم الله والخصم محمد (ﷺ)^(١)، يقول الإمام الصادق (عليه السلام) بهذا الصدد: (إن حقوق الناس تثبت بشهادة شخصين، وقد أنكر حق جدي أمير المؤمنين وعليه سبعون ألف شاهد كانوا مع رسول الله (ﷺ) في غدير خم)^(٢).

المرجعية الدينية ومسؤوليات التخطيط لإعداد البديل:

وعلى أية حال، فليست هذه الحالة فريدة في التاريخ، بل هي تتكرر كلما تكررت ظروفها الموضوعية، وما دامت النفس الأمارة بالسوء الميالة لاتباع الهوى وإشباع الشهوات والنزوع إلى التسلط وحب الجاه، وقد عشنا مثلها فإلى الله المشتكى^(٣).

والذي أريده من هذا البيان ليس فقط ترسيخ هذه العقيدة والدفاع عنها وإن كان هذا مطلباً مهماً، لكنني بالإضافة إليه أقول: إن العلماء وعلى رأسهم المرجعية الشريفة هم ورثة الأنبياء^(٤)، ليس فقط في الحقوق والامتيازات، وإنما في

(١) من خطبة الزهراء التي احتجت بها على الصحابة في مسجد رسول الله (ﷺ). (المصنف).

راجع شرح النهج لابن أبي الحديد: ج ١٦ ص ٢١٠.

(٢) بحار الأنوار: ج ٣٧ باب ٥٢ ص ١٥٨.

(٣) يشير (دام ظله) بذلك إلى ما حصل من حركات (انقلابية) على وصية السيد الشهيد الصدر الثاني (قدس سره) رغم النصوص والإشارات المتكررة.

(٤) الكافي: ٣٢/١.

الوظائف والمسؤوليات والواجبات، خصوصاً وقد أمرنا بالتأسي برسول الله (ﷺ) بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (الأحزاب: ٢١).

ومن تمام التأسي والوراثة إعداد البديل بغض النظر عن كونه واحداً أو أكثر، وتربيته وتأهيله لهذا المنصب الإلهي الشريف، وأي تقصير فيه غير مغتفر لا عند الله سبحانه ولا عند رسوله (ﷺ) ولا أوليائه العظام ولا عند المجتمع، وبعد أن يطمئن إلى إكمال إعداد البديل علمياً وفكرياً وأخلاقياً وعقائدياً - وهي المقومات الأربعة لشخصية العالم الديني، بل كل مسلم واع مخلص - يجب أن يشير إليه صريحاً، وهذا هو الشكل الأول من التخطيط.

وأما الشكل الثاني فيؤدي بالإشادة بمجموعة من الفضلاء الورعين المخلصين من أهل الخبرة الذين يطمئن إلى استقامتهم على الطريقة وإنصافهم الحق ونزاهتهم في بيانه وبصيرتهم في الأمور، حتى يرشدوا المجتمع بإخلاص وبلا لبس وإجمال وغموض إلى المرجع البديل.

وأما الشكل الثالث ففيه صنفان من الضوابط والمعايير والشروط، فمنها شروط ثابتة، وهي الاجتهاد والعدالة وغيرها من المذكورات في الرسائل العملية، ومنها شروط متحركة بحسب الزمان والمكان والظروف الموضوعية التي تعيشها المرجعية الشريفة، وهذه يجب طرحها بحسب الحاجة وفي وقتها المناسب. وهذا الكلام كله على نحو الإشارة والإجمال، وللتفصيل محله المناسب.

مسؤولية الأمة في البحث عن المرجع البديل:

هذا بالنسبة لتكليف المرجعية، وفي مقابله توجد مسؤولية على الأمة يجب أن تعيها وتؤديها، وهي سؤال المرجع عن البديل، فإذا عينه كان من واجبه الالتفاف حوله والإشادة به ودلالة المجتمع عليه، وقد تكاملت هذه التربية عند أصحاب الأئمة (عليهم السلام)، فكانوا يسألونهم: (مَنْ الحجة بعدك) ^(١) و(إلى من المفزع إذا حدث حادث) ^(٢) وهكذا، وإذا ذهب إمام فلم يكونوا يصدّقون كل من يدعي الإمامة، بل يجرون له الامتحانات التي لا ينجح فيها أي إمام ^(٣)، كامتحانهم لجعفر أخي الإمام العسكري (عليه السلام) الذي ادعى الإمامة بعد أخيه (عليه السلام).

(١) أصول الكافي: كتاب الحجة باب الإشارة والنص على الأئمة.

(٢) نفس المصدر.

(٣) راجع كتاب أصول الكافي / كتاب الحجة.

القبس/٥٢

سورة المائدة: (٧٩)

﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾^(١)

وجوب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر قرانياً/٤

وهذه الآية صريحة في ذم كل التاركين لفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إذا اختصت الآية السابقة وهي (المائدة: ٦٣) بالربانيين والأخبار.

في الدر المنثور بعدة أسانيد عن رسول الله (ﷺ) قال: (إن بني إسرائيل لما عملوا الخطيئة نهاهم علماءهم تعزيراً، ثم جالسوهم وآكلوهم وشاربوهم كأن لم يعملوا بالأمس خطيئة، فلما رأى الله ذلك منهم ضرب بقلوب بعضهم على بعض، ولعنهم على لسان نبي من الأنبياء، ثم قرأ رسول الله (ﷺ): واللهم لتأمرن بالمعروف، وتنهين عن المنكر، ولتأطرنهم على الحق أطراً، أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض، وليلعننكم كما لعنهم)^(٢).

وإلى هنا نكتفي بتقريب الاستدلال بهذه الآيات الكريمة.

(١) عرض مجمل لهذه الآية جاء في درس البحث الخارج الفقهي لسماحته.

(٢) الدر المنثور: مج ١٢٤/٣.

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقَعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾

موضوع القبس: نشر الكراهية والبغضاء في المجتمع من عمل الشیطان

قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقَعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخُمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ (المائدة: ٩١).

روي في مجمع البيان والدر المنثور عن جملة من المحدثين عن سعد بن أبي وقاص قال: (في نزل تحريم الخمر صنع رجل من الأنصار طعاماً فدعانا فأتاه ناس فأكلوا وشربوا حتى انتشوا من الخمر، وذلك قبل أن تحرم الخمر، فتفاخروا فقالت الأنصار: الأنصار خير وقالت قريش: قريش خير، فأهوى رجل بلحي جزور فضرب على أنفي ففزره فكان سعد مفزور الأنف، قال: فأتيت النبي (ﷺ) فذكرت ذلك له فنزلت هذه الآية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخُمْرُ وَالْمَيْسِرُ..﴾ (المائدة: ٩٠) إلى آخر الآية^(١).

وفي رواية سالم بن عبد الله (إن سعد بن أبي وقاص وأصحاباً له شربوا فاقتتلوا فكسروا أنف سعد فأنزل الله ﴿..إِنَّمَا الْخُمْرُ وَالْمَيْسِرُ..﴾ الآية).

(١) مجمع البيان: ٢٣٩/٣، الدر المنثور: ١٥٨/٣.

فآلية الكريمة تبين أشد مفسد الخمر والقمار التي أوجبت تحريمهما المؤكد والتي يسعى الشيطان لإحداثها بواسطتهما وهو إلقاء العداوة والبغضاء بين المؤمنين، فإن هذا الفعل رجس، أي عمل قدر خبيث يُتنزّه منه من فعل الشيطان، ومن يقوم به فإنه من جند الشيطان ومساعد له ﴿شَیَاطِینَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ (الأنعام: ١١٣)، وأن فلاح المؤمنين ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ﴾ في اجتناب كل رجس من عمل الشيطان ﴿فَاجْتَنِبُوهُ﴾ وتنقية المجتمع من هذه الأرجاس، بل تنقية النفس أولاً من الأحقاد والضغائن والحسد والكراهية فإنها تكدر القلب وتلوث النفس وتشغل الفكر وتصدّ عن ذكر الله تعالى، وأشدّها فتكاً نشر الكراهية وإثارة البغضاء بين أفراد المجتمع، وكأنّ هدف الشيطان من إغرائكم بالخمير والميسر هو إيقاع العداوة والبغضاء بينكم، وصدّكم عن ذكر الله، وعن الصلاة، فهذه هي أهدافه الإستراتيجية كما يقال ولا يملّ من ممارستها.

لذا فإن نشر الكراهية وإيقاع العداوة والبغضاء بين المؤمنين من الجرائم الكبرى؛ لأنها تمزّق الأمة الواحدة وتهدر طاقاتها وإمكاناتها، ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا﴾ (النحل: ٩٢) وتفقدوا عزّتها وكرامتها وقوتها ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ (الأنفال: ٤٦)، فيضعفون جميعاً أمام العدو المتربص بهم، وتشغلهم عن ذكر الله تعالى كما صرحت الآية، وتصرف اهتمامهم إلى التفاهات بل تؤدي بهم إلى الموبقات، قال أمير المؤمنين

(عَلَيْهِ السَّلَامُ): (مَنْ بَالَعَ فِي الْخَصُومَةِ أَثِمَ)^(١)، والأخطر من ذلك أنها تضيّع الهدف الأسمى الذي أرسل الأنبياء وأنزلت الشرائع من أجل تحقيقه، وهو وحدة الأمة ولمّ شملها ومعالجة الاختلافات فيما بينهما ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ (الشورى: ١٣).

فيريد الشيطان بإغراءاته ووساوسه تهديم هذين الغرضين الإلهيين (إقامة الدين وجمع أمر الناس)، فلا بد من إفشال مشروع شياطين الإنس والجن بنشر المحبة والوئام والألفة والتسامح والتعاون على الخير.

وإنما ذكرت الخمر والميسر لأن الآية بصدد بيان تحريمهما، وإلا فإن أدوات الشيطان لإحداث الفتنة ونشر الكراهية والعداوة والبغضاء بين المؤمنين عديدة، وعلى رأسها إثارة العصبية القومية أو الطائفية أو العشائرية أو الحزبية أو الفئوية أو الحماس لرمز أو لفريق رياضي وأمثالها.

وقد كان رسول الله (ﷺ) حازماً في وأد هذه الفتنة ومسارعاً إلى إطفائها لأن أي تأخير أو تساهل يؤدي إلى زيادة اشتعالها ما يعسر معه معالجتها، كالذي حصل حين عودة النبي (ﷺ) والمسلمين من إحدى الغزوات وحصل شجار بين بعض أفراد الجيش من المهاجرين والأنصار ونادى كل منهما قومه ونادى زعيم المنافقين (يَا بَنِي الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ عَلَيكُمْ صَاحِبُكُمْ وَحَلِيفُكُمْ) وكاد القتال أن يقع بينهما، وفيها قال زعيم المنافقين ابن أبي سلول: (وَاللَّهِ مَا مَثَلْنَا وَمَثَلُ مُحَمَّدٍ إِلَّا

(١) بحار الأنوار: ٧٢ / ٢١٢ ح ١٠، عن نهج البلاغة.

كَمَا قَالَ الْقَائِلُ: سَمَنْ كَلْبِكَ يَا كُتْلَكَ وَاللَّهِ لَكُنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ، فَسَمِعَ ذَلِكَ النَّبِيُّ (ﷺ) فَقَالَ: دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ^(١) ثم أمر أصحابه بالرحيل فوراً والرجوع إلى المدينة، ونزلت الآية المتضمنة هذا المعنى من سورة (المنافقون).

وقد حذر النبي (ﷺ) أمته في وقت مبكر من سريان هذا الداء إليهم فقال (ﷺ): (دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الْأُمَمِ قَبْلَكُمْ: الْبَغْضَاءُ وَالْحَسَدُ)^(٢).

ولذا نهى النبي (ﷺ) عن مخاصمة الآخرين واستجلاب عداوتهم وإثارة شحنائهم، قال رسول الله (ﷺ): (مَا أَتَانِي جِبْرَائِيلُ (ﷺ) قَطُّ إِلَّا وَعَظَنِي، فَأَخَّرَ قَوْلَهُ لِي: إِيَّاكَ وَمِشَارَةَ النَّاسِ - أَيِ مَخَاصِمَتِهِمْ - فَإِنَّهَا تَكْشِفُ الْعُورَةَ وَتَذْهَبُ بِالْعِزِّ)^(٣)، وفي حديث آخر (فإنها تظهر العرة - أي الأمر القبيح المكروه - وتدفن الغرة - أي الحسن والعمل الصالح)^(٤)، لأن كلاً من الخصمين سيجهد في التفتيش عن عيوب الآخر ونقائصه ولو لم يجد فإنه سيفتري عليه أو يخلط الأمور، وسيكون المؤمن هو المغلوب ظاهراً في هذه المخاصمة لأنه يتورع عن الكذب والبهتان والغيبة والتدليس والافتراء ونشر الفاحشة، ويتجنب ما يؤدي إلى إفتتان الناس وضلالهم وابتعادهم عن الدين، ويظهر من بعض الأحاديث الشريفة أن هذا البلاء مكتوب على المؤمن، ففي رسالة الإمام الصادق (ﷺ) إلى النجاشي أنه

(١) الدر المنثور: ١٧٦ / ٨.

(٢) معاني الأخبار: ٣٦٧.

(٣) الكافي: ٣٠٢ / ٢.

(٤) أمالي الطوسي: ٤٨٢ / ح ١٠٥٢.

قال: (وحدثني أبي، عن آبائه، عن علي (عليه السلام)، أنه قال: أخذ الله ميثاق المؤمن أن لا يُصدّق في مقالته ولا يَنصِف من عدوه، وعلى أن لا يشفي غيظه - لو حاول ذلك - إلا بفضيحة نفسه - بما يفتريه الخصم -؛ لأن كل مؤمن مُلجَم - ومقيد بالورع -، وذلك لغاية قصيرة وراحة طويلة - بعد صبره على الأذى -، وأخذ الله ميثاق المؤمن على أشياء أيسرها عليه مؤمن مثله يقول بمقالته يبغيه ويحسده...) (١).

وقال (عليه السلام) (ما نُهيت عن شيء بعد عبادة الأوثان كما نهيت عن ملاحاة (٢) الرجال) (٣)، وعن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): ألا إن في التباغض الحالقة، لا أعني حالقة الشعر ولكن حالقة الدين) (٤).

وقال النبي (صلى الله عليه وآله): (ألا أنبئكم بشر الناس؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: من أبغض الناس وأبغضه الناس) (٥)، وقال أمير المؤمنين (عليه السلام): (من زرع العدوان، حصد الخسران) (٦)، وقال (عليه السلام): (من ضنّ - أي شح وحرص - بعرضه فليدع المراء)، وقال الإمام الباقر (عليه السلام): (إياكم والخصومة فإنها تفسد القلب وتورث النفاق) (٧).

(١) بحار الأنوار: ٧٢ / ٣٩٤، عن رسالة الغيبة للشهيد الثاني، والوسائل: ١٧ / ١٢٠، أبواب ما يكتسب به / باب ٤٩ / ح ١.

(٢) الملاحاة: المنازعة والمخاصمة والمجادلة. ومنه (من لاحاك فقد عاداك).

(٣) تحف العقول: ٤٢.

(٤) الكافي: ٢ / ٢٥٨ / ح ١.

(٥) سفينة البحار: ١ / ٣٣٦.

(٦) غرر الحكم: ٨٠٣٣.

(٧) ميزان الحكمة: ٥ / ٣٩٨، عن حلية الأولياء: ٣ / ١٤٨، بحار الأنوار: ١٨٦ / ٧٥.

وورد النهي عن المخاصمة حتى في الأمور الدينية إذا كانت لأجل إظهار الغلبة واستفزاز الآخر وتوهينه الموجب لنفوره، روى الشيخ الكليني بسنده عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (ولا تخاصموا بدينكم الناس، فإن المخاصمة مُمرضة للقلب)^(١).

وقال العلامة المجلسي (قدس سره) في الشرح: ((أي لا تجادلوا مجادلة يكون غرضكم فيها المغالبة والمعاندة بإلقاء الشبهات الفاسدة، لا ظهور الحق، فإن المخاصمة على هذا الوجه تمرض القلب بالشك والشبهة، والأغراض الباطلة))^(٢). وشبه أمير المؤمنين (عليه السلام) بمثال لطيف كيف أن الرد بالمثل يؤدي إلى استمرار الخصومة وازديادها، قال (عليه السلام): (الكلام ذكر والجواب أنثى فإذا اجتمع الزوجان فلا بد من النتائج)^(٣).

وقد يلبس الشيطان على المؤمنين ويخدعهم فيضفي على خصوماتهم غطاءً شرعياً مقدساً كما في الحديث (كم من ضلالة زخرفت بآية من كتاب الله)^(٤) وكم من خصومة زُخرفت بمبرر ديني، ولهذا تجد أهل الدنيا يتناسون خصوماتهم في الأعياد والمصائب والمخاطر وكأنهم لم يكونوا تخاصموا من قبل، ولكن

(١) الكافي: ٢/ ٢١٣.

(٢) بحار الأنوار: ٦٥ / ٢٠٩.

(٣) الخصال للصدوق: ١ / ٧٢ ح ١١١.

(٤) بحار الأنوار: ٩٦ / ٢، عن المحاسن: ١ / ٢٣٠، وفيه: (كونوا نقاد الكلام فكم من ضلالة زخرفت بآية من كتاب الله).

بعض المحسوبين على الدين يحتفظون بعداواتهم جيلاً بعد جيل بسبب ما أضافوه لخصوماتهم من المبررات المقدسة واتخاذهم دينهم دخلاً بينهم.

وحدث المعصومون (عليه السلام) على بذل الوسع في احتواء الخصوم وامتصاص نقيمتهم وردم الفجوة بينهم وإيضاح الأمور لهم لعل شبهة وقعوا فيها، قال أمير المؤمنين (عليه السلام): (الاستصلاح للأعداء بحسن المقال وجميل الأفعال، أهون من ملاقاتهم ومغالبتهم بمضيض القتال)^(١)، وبين كيفية ذلك وقال (عليه السلام): (احصد الشر من صدر غيرك بقلعه من صدرك)^(٢).

ويقع ضمن هذا الإطار ما صدر من التوجيه للشيعة بأن يتواصلوا مع عامة الناس حتى المخالفين في مناسباتهم ويحضروا في مساجدهم كقول الإمام الصادق (عليه السلام): (عليكم بالورع والاجتهاد، واشهدوا الجنائز، وعودوا المرضى، واحضروا مع قومكم مساجدهم وأحبوا للناس ما تحبون لأنفسكم، أما يستحي الرجل منكم أن يعرف جاره حقّه، ولا يعرف حقّ جاره)^(٣)، وقال (عليه السلام) في حديث آخر: (إنه لا بد لكم من الناس، إنّ أحداً لا يستغني عن الناس حياته، والناس لا بد لبعضهم من بعض)^(٤)، وقال (عليه السلام) في معنى ذلك: (كان أمير المؤمنين (عليه السلام) يقول: ليجمع في قلبك الافتقار إلى الناس والاستغناء عنهم،

(١) غرر الحكم: ح ١٩٢٦.

(٢) بحار الأنوار: ٧٢ / ٢١٢ / ح ١٠، عن نهج البلاغة.

(٣) الكافي: ٢ / ٤٦٤ / ح ٣، بمعنى أنكم أولى أن تفوقوا الناس وتسبقوهم للمكارم.

(٤) الكافي: نفس الموضع، ح ١.

يكون افتقارك إليهم في لين كلامك وحسن بشرك، ويكون استغناؤك عنهم في نزاهة عرضك وبقاء عزك^(١).

وأوصوا (عليه السلام) بالصبر وتحمل الأذى لتجنب اتساع دائرة العداوة والبغضاء، وطمأنهم بأن صبرهم بعين الله وأجره، وأن خصمكم سيدفعه سعيه للغلبة إلى الوقوع في الكبائر كالكذب والبهتان والافتراء، وهذه الأوزار ستكون كفارة لذنوبكم، فأني نصر أعظم من هذا تريدون، ومما ورد في ذلك قول أمير المؤمنين (عليه السلام): (لا يستطيع أن يتقي الله من خاصم)^(٢) وقول الإمام زين العابدين (عليه السلام): (كفى بنصر الله لك أن ترى عدوك يعمل بمعاصي الله فيك)^(٣)، ومثله عن الإمام الصادق (عليه السلام): (كفى المؤمن من الله نصرةً أن يرى عدوه يعمل بمعاصي الله)^(٤).

فعلى المؤمن أن تكون له أسوة من ربه - كما ورد في الحديث^(٥) - ومن الصفات الحسنى (سريع الرضا) فيزول ما في قلبه من غيظ على أخيه المؤمن بسرعة، وهذا ما أكدته حديث الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (حققت المؤمن مقامه -

(١) معاني الأخبار: ٢٦٧.

(٢) بحار الأنوار: ٧٢ / ٢١٢ ح ١٠، عن نهج البلاغة.

(٣) تحف العقول: ٢٧٨.

(٤) ميزان الحكمة: ٤٠١/٥.

(٥) الحديث الشريف: (تخلقوا بأخلاق الله) بحار الأنوار - المجلسي: ٥٨ / ١٢٩.

أي بمقدار وجوده في الموضوع الذي حصلت فيه الحادثة - ثم يفارق أخاه فلا يجد عليه شيئاً، وحقد الكافر دهره) ^(١).

لكن المؤسف أن أخبار آخر الزمان تؤكد وقوع هذه الفتن، روي عمن سمع الإمام الحسين بن علي (عليه السلام) يقول: (لا يكون الأمر الذي تنتظرونه حتى يبرأ بعضكم من بعض، ويتفل بعضكم في وجوه بعض، ويشهد بعضكم على بعض بالكفر، ويلعن بعضكم بعضاً. فقل له: ما في ذلك الزمان من خير؟ فقال الحسين (عليه السلام): الخير كله في ذلك الزمان، يقوم قائمنا ويدفع ذلك كله) ^(٢).

وهذا من الأسباب المؤخرة للظهور الميمون لأنه يرى شيعته وقاعدته التي يعول عليها في بناء دولته المباركة وهم يتراشقون بينهم ويسقط بعضهم بعضاً مما يؤدي إلى تحطيمهم جميعاً، فكم يعيش (عليه السلام) من مرارة وألم بسبب ذلك، وإن حزنه يفوق فرح أعدائه المستكبرين بهذا التفرق والضياع والتهيه، ففي رسالة الإمام المهدي (عليه السلام) إلى الشيخ المفيد (ولو أن أشياعنا وفقهم الله لطاعته على اجتماع من القلوب في الوفاء بالعهد المأخوذ عليهم لما تأخر عنهم اليمن بلقائنا، ولتعجلت لهم السعادة بمشاهدتنا على حق المعرفة وصدقها منهم بنا) ^(٣).

(١) بحار الأنوار: ٧٢ / ٢١١ / ح ٧، عن كتاب ابن قولويه.

(٢) كتاب الغيبة للشيخ الطوسي، وغيره.

(٣) الاحتجاج: ٢ / ٢٧٣.

إن الله تبارك وتعالى يوقد في آياته الكريمة جذوة الحرص لدى عباده المؤمنين على وحدة الأمة، والاسى^(١) والأشفاق من تفرقها في مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء: ٩٢)، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ (المؤمنون: ٥٢) وكأنما يريد الله تعالى أن يقول للمؤمنين هذه الأمة أمتكم ووحدها وكراماتها أمانة فاتقوا الله فيها، ليشر فيهم الحرص عليها، فحافظوا عليها واحدة، ما دمتم تعبدون رباً واحداً تحملكم عبادته على الحفاظ عليها، وفي تمزقكم عبادة غيره.

ولعله لأجل ذلك كانت التوصية للبقاء مع الجماعة مهما حصل فيها من تقصيرات، فروي أن يد الله مع الجماعة ونهي عن الشذوذ عنها، ليس لأن الجماعة دائماً على الحق، ولكن لأنها تمثل صنعة النبي (ﷺ) وحاضنة دينه، ولكي لا تتمزق هذه الأمة، ويصعب على المصلحين جمعها مرة أخرى ومخاطبتها إذا تقطعت اوصالها وتقاطع أبنائها فيما بينهم، ووجد المتعصبون من يقنن لهم تلك الخلافات والتقاطعات حتى تصبح تراثاً وجزءاً من هوية المتقاطعين، نظير ما فعله هارون (عليه السلام) حين بقي بين بني إسرائيل ولم ينفصل عنهم وهم في فتنة عبادة العجل، كما اقتضه سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ۖ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ

(١) روى الصدوق في كتاب التوحيد (ص ١٦٨) في تفسير قوله تعالى ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ (الزخرف: ٥٥) عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (إن الله لا يأسف كأسفنا ولكنه خلق أولياء لنفسه يأسفون ويرضون وهم مخلوقون مدبرون فجعل رضاهم لنفسه رضاءً وسخطهم لنفسه سخطاً وذلك لأنه جعلهم الدعاة إليه والأدلاء عليه فلذلك صاروا كذلك).

عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى • قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا •
أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي • قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي
خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿طه: ٩٠-٩٤﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾

موضوع القبس: دفع إشكال التعارض بين ما دل على وجوب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر مع آية ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾

ويحسن الآن التعرض إلى ما قيل من الإشكال بوجود التنافي ظاهراً بين هذه الآيات التي توجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (المائدة: ﴿١٣٩﴾).

وتقريب الإشكال أن آية ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ تضع عن المؤمنين وظيفة الدعوة إلى الله تبارك وتعالى و الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتكتفي منهم بالالتفات إلى إصلاح أنفسهم، ويكون معنى ﴿لَا يَضُرُّكُمْ﴾ أي لا تبعة عليكم ولا مسؤولية شرعية؛ لسقوط التكليف عنكم.

ويظهر أن البعض اتخذ من هذه الآية ذريعة لترك هذه الفريضة منذ صدر الإسلام، ففي الدر المنثور بأسناد عديدة ((صعد أبو بكر منبر رسول الله ﷺ) فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس، إنكم لتتلون آية من كتاب الله وتعدونها رخصة، والله ما أنزل الله في كتابه أشد منها ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ والله لتأمرن بالمعروف

ولتنهنَّ عن المنكر أو ليعمننكم الله منه بعقاب))^(١).

أقول: آيات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تأبى أن تكون هذه الآية حاکمة عليها على نحو النسخ والإلغاء كما يصوّر الإشكال، خصوصاً بعد جعل هذه الوظيفة سمة الأمة الإسلامية التي تتميز بها عن كل الأمم في قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾، وعليه فلا يحتمل سقوط فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بآية ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾، مضافاً إلى أن فهم آية ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ على أنه ترك وظيفتي الدعوة والأمر والنهي قابل للمناقشة فيزول الإشكال من أصله.

وهذا ما سيتضح من خلال الوجوه التي نذكرها لمعالجة الإشكال، ومنها:-

١- إن آية ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ تأتي بعد امتثال فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كالمعنى الذي تقدم^(٢) في تفسير قوله تعالى: ﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ﴾ (التحريم: ٦) وفي هذا المعنى رواية أوردها في الدر المنثور بطرق عديدة عن أبي أمية الشعباني قال: ((أتيت أبا ثعلبة الخشني فقلت له: كيف تصنع في هذه الآية؟ قال: أية آية؟ قال: قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ قال: أما والله لقد سألت عنها خيراً، سألتُ عنها رسول الله (ﷺ) قال: (بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر، حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً، وهوى متبعاً، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك

(١) الدر المنثور: مج ٢١٥/٣.

(٢) وكذلك انظر: أسمى الفرائض، القسم الأول: ص ٧٩.

بخاصة نفسك، ودع عنك أمر العوام، فإن من ورائكم أيام الصبر، الصابر فيهن مثل القابض على الجمر، للعامل فيهن أجر خمسين رجلاً، يعملون مثل عملكم)))^(١). وأخرج عن حذيفة وغيره في هذه الآية قال: ((إذا أمرتم بالمعروف ونهيتم عن المنكر)).

٢- معنى ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ﴾ أي أنتم مسؤولون عن صلاح أنفسكم والتزامها بأوامر الله تعالى ونواهيه ومنها فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الخير، وحينئذ لا تتحملون مسؤولية من ضل ممن هم مرتبطون بكم كآبائكم وأزواجكم ونحوهم، فتكون بمعنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ (الإسراء: ١٥) وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَمٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ﴾ (البقرة: ١٣٤)، خصوصاً وأن المخاطبين يومئذ كان آباؤهم وبعض أقربائهم على الشرك، ويؤيد هذا المعنى ورود لفظ ﴿إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ هنا وفي الآية السابقة عليها ﴿أُولُو كَانِ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ (البقرة: ١٧٠).

ويمكن أن يستفاد هذا المعنى مما رواه في الدر المنثور بسنده عن ابن عباس في تفسير الآية قال: ((إذا ما أطاعني العبد فيما أمرته من الحلال والحرام، فلا يضره من ضل بعده إذا عمل بما أمرته به))^(٢)، وعنه أيضاً قال إن مراد الآية: ((أطيعوا أمري واحفظوا وصيتي)) واختاره العلامة الطبرسي في المجمع^(٣).

(١) الدر المنثور، مج ٣، ٢١٥، وأوردها مختصرةً في تفسير البرهان: ٢٩٨/٣ عن مصباح الشريعة: ١٨.

(٢) الدر المنثور: مج ٣، ٢١٩.

(٣) مجمع البيان: مج ٢: ٣٩٢.

٣- إن آية ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ خاصة بدعوة الكفار إلى الإسلام فترخص في تركها وترك الجهاد، وربما يستدل له باستعمال لفظ الهداية والضلال في الآية مما يناسب كون الخطاب بلحاظ دعوة الكفار، روى في الدر المنثور بسنده عن أبي عامر الأشعري ((إنه كان فيهم شيء فاحتبس على رسول الله ﷺ)) ثم أتاه فقال: ما حبسك؟ قال: يا رسول الله قرأت هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ قال: فقال له النبي (ﷺ): أين ذهبت؟ إنما هي: لا يضركم من ضلَّ من الكفار إذا اهتديتم^(١).

أقول: هذا المعنى لا يمكن قبوله في فريضة الجهاد والدعوة إلى الله تبارك وتعالى كما لم يُقبل في فريضة الأمر والنهي؛ لأن الدعوة إلى الخير من مقومات هوية هذه الأمة وعناصرها الأساسية كما تقدم في تقريب قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ﴾.

٤- أن الآية خاصة بظرف التقية وحصول الضرر من ممارسة الفريضة فتكون دليلاً على اشتراط عدم الضرر من الامتثال.

في الدر المنثور بطرقه عن ابن مسعود في قوله تعالى: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ قال: ((مروا بالمعروف، وانهوا عن المنكر ما لم يكن من دون ذلك السوط والسيف، فإذا كان ذلك كذلك فعليكم أنفسكم)^(٢) وروى مثله عن ابن عباس.

(١) الدر المنثور: مج ٣، ٢١٥.

(٢) الدر المنثور، مج ٣، ٢١٦، ٢١٩.

أقول: لا يدل ظاهر الآية ولا سياقها على الاختصاص بظرف التقية.

٥- أن يقال: إن هذه الآية تدل على الرخصة، فتُحمل آيات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الظاهرة في الوجوب على الاستحباب كما هو مقتضى الصناعة.

وهو وجه يجري على القواعد المعمول بها لو كنّا نحن والآيات الشريفة، وعلى فرض ظهور الآية في هذه الرخصة، وروى في الدر المنثور عن الحسن أنه تلا هذه الآية فقال: ((يا لها من سعة ما أوسعها، ويا لها من ثقة ما أوثقها))^(١).

أقول: بغض النظر عن صحة الوجه فنيّاً، إلا أن فهم الرخصة بعيد لبعده الأثر المترتب عليها وهو قوله تعالى: ﴿لَا يَضُرُّكُمْ﴾ إذ من المعلوم تضرر المجتمع بوجود الفساد والانحراف فيه، وأن عدم الردع عن المنكر يؤدي إلى انتشاره وفتكه في كيان المجتمع حتى يقضي عليه، قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ (الأنفال: ٢٥).

مضافاً إلى أن نتيجة هذا الوجه مما لا يمكن قبولها لإجماع المسلمين على وجوب الفريضة في الجملة.

٦- إن آية ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ﴾ تدعو المؤمنين إلى الثبات على الحق والاستقامة، وأن يلزموا ما هم عليه، ولا يتأثروا بما عليه أهل الضلال من النعم المادية والترف فيدعوهم ذلك إلى ترك ما هم عليه، فتقول لهم الآية: إن ما عندهم هو الخير فالزموه - الذي هو معنى عليكم - ولا يغرنكم ما فاتكم مما عند أهل الضلال فتصلوا مثلهم، فتضروا أنفسكم بالتأثر بهم، ولا تخافوا من أن يكون

(١) الدر المنثور، مج ٣، ٢١٨.

لزوم طريقتكم المثلى سبباً لفوات النعم عليكم ونحوها.

فيكون هذا المعنى قريباً من قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعَنَا بِهِ
أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ (طه: ١٣١)،
وقوله تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ۚ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ
مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ (آل عمران: ١٩٦-١٩٧)، وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا إِن
نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفُ مِنْ أَرْضِنَا﴾ (القصص: ٥٧)، وهو ما يريد الله تعالى
حماية عباده منه في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا
لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفاً مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ۚ
وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَاباً وَسُرُراً عَلَيْهَا يَتَكَبَّرُونَ ۚ وَزُخْرُفاً وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (الزخرف: ٣٣-٣٥).

٧- ما يقرب من قول أمير المؤمنين (عليه السلام): (لا أصلحكم بفساد نفسي)^(١)

ويكون معنى الآية: التفتوا أولاً إلى إصلاح أنفسكم ولا تشغلوا بالعمل على
إصلاح المجتمع وتضيّعوا أنفسكم، فإذا لزم الانهماك بالعمل الاجتماعي تضيّع
أنفسكم فتركه أولى والالتفات إلى تهذيب النفس وتكميلها.

وهذه مشكلة كبيرة أفرزها واقع العمل الإسلامي الاجتماعي والحركي،
والمتصددين له على أوسع مستوياته لكنهم عندما يتعرضون لامتحانات التقوى
والاستقامة ينهارون، وقد شخّصت هذه المشكلة في جملة من خطباتي.

وتدل عليه فيما نحن رواية علي بن إبراهيم في تفسيره الآية عن النبي

(صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ) قال: (أصلحوا أنفسكم فلا تتبعوا عورات الناس ولا تذكرونها، فإنه لا يضركم ضلالتهم إذا كنتم أنتم صالحين)^(١).

وقد نبّه القرآن الكريم إلى هذه النكتة في آيات عديدة كقوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ۖ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ (الكهف: ٦-٧)، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَ بِهِ الْمَوْتُ بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَنبَأِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾ (الرعد: ٣١). أقول: والخلاصة أن على المؤمن أن يراقب الله تعالى في حركته ولا يشغله شيء عن إصلاح نفسه ويوظف كل عمل لهذا الغرض، ومن تلك الأعمال الدعوة إلى الله تعالى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولا يكلف نفسه أكثر من ذلك، فإن النتائج بيد الله تعالى وهو مدبّر الأمور ومسبب الأسباب.

وهذا الوجه اختاره السيد الطباطبائي في الميزان (قُلُوبٌ): ((إن الآية لا تنافي آيات الدعوة وآيات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فإن الآية إنما تنهى المؤمنين عن الاشتغال بضلal الناس عن اهتداء أنفسهم وإهلاك أنفسهم في سبيل إنقاذ غيرهم وإنجائهم.

على أن الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من شؤون اشتغال المؤمن بنفسه وسلوكه سبيل ربه، وكيف يمكن أن تنافي الآية آيات الدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أو تنسخها؟ وقد عدهما الله سبحانه

(١) تفسير القمي: ١/١٨٩.

من مشخصات هذا الدين وأساسه التي بنى عليها كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ (يوسف: ١٧) وقال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ (آل عمران: ١١٠).

فعلى المؤمن أن يدعو إلى الله على بصيرة وأن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر على سبيل أداء الفريضة الإلهية وليس عليه أن يجيش ويهلك نفسه حزناً أو يبالغ في الجد في تأثير ذلك في نفوس أهل الضلال فذلك موضوع عنه^(١).

٨- ما يشبه الوجه الخامس بتطبيقه على المجتمع وذلك بأن نفهم من ﴿أَنْفُسَكُمْ﴾ العموم المجموعي لا الاستغراقي؛ لأن المؤمنين كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى، فيكون المعنى: عليكم أن تلتفتوا إلى صلاح وإصلاح مجتمعكم من خلال إصلاح أنفسكم، وحينئذ يكون قوله تعالى: ﴿لَا يَضُرُّكُمْ﴾ إما من باب التطمين من قبل الله تعالى بأنهم لا يضرهم الضالون، بمعنى أن ضلالهم لا يسري ولا يصل إليكم ما دمتم عاملين على إصلاح بعضكم بعضاً، فتكون من آيات الحث على فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو تكون بمعنى أنهم ليس عليهم تضييع وظيفتهم أمام مجتمعهم من أجل أن يلتفتوا إلى إصلاح حال الآخرين.

وهذا المعنى أورده في مجمع البيان وقال: ((إن هذه أوكد آية في وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأن الله تعالى خاطب بها المؤمنين فقال: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ يعني عليكم أهل دينكم - كما قال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا

(١) الميزان في تفسير القرآن: ١٦٣/٦.

أَنْفُسَكُمْ ﴿١﴾ - لا يضركم من ضل من الكفار، وهذا قول ابن عباس في رواية عطا عنه، قال: يريد يعظ بعضكم بعضاً وينهى بعضكم بعضاً ويعلم بعضكم بعضاً ما يقربه إلى الله ويبعده عن الشيطان ولا يضركم من ضل من المشركين والمنافقين وأهل الكتاب))^(١).

وأيضاً احتمله السيد الطباطبائي، قال (قُلَيْبٌ): ((وتسع الآية أن تحمل على الخطاب الاجتماعي بأن يكون المخاطب بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مجتمع المؤمنين فيكون المراد بقوله: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ هو إصلاح المؤمنين مجتمعهم الإسلامي باتخاذ صفة الاهتداء بالهداية الإلهية بأن يحتفظوا على معارفهم الدينية والأعمال الصالحة والشعائر الإسلامية العامة كما قال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ (آل عمران: ١٠٣) وقد تقدم في تفسيره أن المراد بهذا الاعتصام الاجتماعي الأخذ بالكتاب والسنة.

ويكون قوله: ﴿لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ يراد به أنهم في أمن من أضرار المجتمعات الضالة غير الإسلامية فليس من الواجب على المسلمين أن يبالغوا الجد في انتشار الإسلام بين الطوائف غير المسلمة أزيد من الدعوة المتعارفة كما تقدم.

وهنا معنى آخر لقوله: ﴿لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ من جهة أن المنفى في الآية هو الإضرار المنسوب إلى نفس الضالين دون شيء معين من صفاتهم أو أعمالهم فتفيد الإطلاق، ويكون المعنى نفى أن يكون الكفار ضارين للمجتمع الإسلامي بتبديله مجتمعاً غير إسلامي بقوة قهرية فتكون الآية مسوقة

سوق قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ﴾ (المائدة: ٣)، وقوله: ﴿لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُؤْلَوْكُمْ الْأُدْبَارَ﴾ (آل عمران: ١٧٧) (١).

٩- ما ذكرناه في بعض كتبنا (٢) من أن التكاليف على قسمين: الفردية والاجتماعية، ونعني بالأولى تلك التي توجّه إلى الفرد بما هو فرد من دون ارتباطها بتكليف الآخرين، كالصلوات اليومية التي يجب على الفرد القيام بها سواء امتثل الآخرون أم لا، أما الثانية فهي التي يُخاطب بها الفرد بما هو جزء من المجتمع، وهذا الفرق ناشئ من كون امتثال الأولى يؤتي ثماره سواء أدى الآخرون أم لا بعكس الثانية.

فآية ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ﴾ بلحاظ الأولى أما وظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهي من الثانية، فموضوعهما مختلف.

(١) الميزان في تفسير القرآن: ١٦٧/٦ - ١٦٨.

(٢) خطاب المرحلة: ٢٩١/١ - ٢٩٢.

القبس/٥٥

سورة الأنعام: ﴿٩٦﴾

﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾

موضوع القبس: محورية التوحيد

قال الله تبارك وتعالى ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءَ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ (الأنعام: ﴿٩٦﴾)

سورة الأنعام: من السور المكية وهي سورة جليلة غنية بالمعارف الالهية الموصلة الى الحقيقة التي خلقنا من أجلها وهي معرفة الله تبارك وتعالى فإن روح العبادة المعرفة كما ورد في تفسير قوله تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: ﴿٥٦﴾) عن الإمام الحسين (عليه السلام) ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾ أي (ليعرفون)^(١).

فتحدث السورة عن محورية التوحيد وتذكر الأدلة عليه وتحتج على المشركين وتبطل عقائدهم وتشرح حقائق المبدأ والمعاد. وقد وردت في فضلها أحاديث كثيرة^(٢)، منها ما رواه الشيخ الكليني (قده) في الكافي بسنده عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (إِنَّ سُورَةَ الْأَنْعَامِ نَزَلَتْ جُمْلَةً، شَيْعَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ، حَتَّى

(١) التفسير الصافي: ج ٥/ ص ٧٥.

(٢) راجع البرهان في تفسير القرآن: ٣/ ٣١٠.

أُنزِلَتْ عَلَى مُحَمَّدٍ (ﷺ) فَعَظَّمُوهَا وَبَجَّلُوهَا، فَإِنَّ اسْمَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِيهَا فِي سَبْعِينَ مَوْضِعًا، وَلَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِي قِرَاءَتِهَا مَا تَرَكُوهَا^(١).

وفي كتاب المصباح للكفعمي عن النبي (ﷺ): (من قرأها من أولها الى قوله (تكسبون) - نهاية الآية الثالثة - وكلَّ الله به اربعين الف ملك، يكتبون له مثل عبادتهم الى يوم القيامة)^(٢) وغيرها من الأحاديث الكثيرة في آثار السورة المعنوية والمادية في سعة الرزق وشفاء الامراض والنجاة من النار.

(وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا):

﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا﴾ تأكيد بعد تأكيد باللام (وقد) واستعمال الفعل الماضي لبيان حقيقة يفترض أنها مستقبلية إلا ان الحديث عنها بالماضي لتأكيد حصولها وكأنها أمر واقع مفروغ منه ﴿جِئْتُمُونَا﴾ أي عدتم الينا بعد أن أخذتم فرصتكم في العمل والحياة بحرية في الدنيا، وكلنا عائدون الى الله تعالى ﴿إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى﴾ (العلق: ٨) ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ (البقرة: ١٥٦).

وهذا الخطاب المذكور في الآية قد يكون من الله تبارك وتعالى الى عباده مباشرة عند الموت حيث ينتقل الانسان من عالم التكليف والتحويل الى عالم الجزاء، او عند البعث يوم القيامة، وقد يكون الخطاب من الملائكة الى الناس عند قبض أرواحهم مؤدين عن الله تعالى.

(١) الكافي للشيخ الكليني: ٢/٦٢٢/ح ١٢.

(٢) المصباح للكفعمي: ٤٣٩.

(فَرَادَى):

﴿فَرَادَى﴾ أي وحداناً مجردين عن كل شيء مما كان لكم في الدنيا فلم تصحبوا معكم قوتكم البدنية ولا المال ولا الأولاد ولا العشيرة ولا الالهة التي كنتم تستقون بها، ولا الشهادات ولا العناوين والالقب، ولا المناصب ولا الجند والاعوان والسلاح وكل أسباب القوة مما كنتم تتباهون وتتبححون به في الدنيا فلم يبق منها شيء يصحبكم الى ما بعد الموت.

(كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ):

﴿كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ كما كنتم فرادى مجردين من كل شيء حينما خلقناكم في بطون امهاتكم مع فرق انكم حينما خلقتم كان لكم أبوان يتولان رعايتكما أما في الاخرة فتواجهون مصيركم وحياتكم بمفردكم. وهذه الفقرة من الاية مما يستدل به على ان المعاد الجسماني بمقتضى التشبيه.

(وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ):

﴿وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ خلفتم وراء ظهوركم في الدنيا، ولم تصحبوا معكم ما خولناكم التصرف به في الدنيا مما ذكرنا آنفاً وعهدنا اليكم بامر تدبيره وارادته - وهو معنى التحويل - حيث كنتم تتوهمون أنكم تملكون شيئاً وفي الحقيقة فأنكم لا تملكون شيئاً وإنما الملك الحقيقي لله تبارك وتعالى وقد خولكم وأوكل اليكم التصرف في بعض ما أعطاكم في الدنيا من اموال وغيرها وقد وضع لكم شريعة ورسم لكم منهجاً وصلاحيات للعمل وفق هذا

التحويل، فمنكم من التزم بحدود التحويل ومنكم من خالف وبدرجات متفاوتة للفريقين، وبالموت انتهى هذا التحويل فعادت الأمانة الى أهلها ولم تأخذوا معكم إلا اعمالكم الصالحة او السيئة ولم يبق لكم إلا كيفية تصرفكم في ما حولكم الله تعالى، فإن كان صالحاً أنتمعت به نفعاً حقيقياً، وإن كان التصرف سيئاً بقيت تبعاته وآثامه وانتقلت الأموال والعقارات وغيرها الى الورثة فينطبق عليهم ما ورد في الدعاء (إِلَهِیْ ذَهَبَتْ أَيَّامُ لَدَاتِي وَبَقِيََتْ مَا ثَعْمِي وَتَبَعَاتِي) ^(١).

اما المؤمنون المطيعون فينطبق عليهم (ذهب العناء وثبت الاجر بفضل الله تعالى)، فهم وان تركوا نفس ما حولهم الله تعالى في الدنيا الا انهم قدموا الى آخرتهم حسن صنيعهم وتصرفهم فيه، واصطحبوا معهم تلك الثمرة الطيبة، وتجد في القرآن الكريم هذه المقابلة بين التقديم والترك في الوراثة كالذي بين ما دلت عليه هذه الآية من ترك ما حولهم الله تعالى وراءهم وقوله تعالى ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ (البقرة: ١١٠) فعبر عن الاعمال الصالحة وحسن التصرف بما خوله الله تعالى بالتقديم لأنه يقدمه امامه الى الآخرة ويتزود به ليوم الحساب ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ﴾ (البقرة: ١٩٧) فهو يعمر به آخرته التي يتحول اليها، فهؤلاء وان تركوا ما حولهم الله تعالى في الدنيا الا انهم لا يأتون فرادى، قال تعالى ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (الشعراء: ٨٨-٨٩).

والباء للمصاحبة وفي الحديث النبوي الشريف (يقول ابن آدم: مالي مالي،

(١) ملحق الباقيات الصالحات في كتاب مفاتيح الجنان وهو دعاء شريف يدعى به في صلاة الوتر.

هل لك من مالك إلا ما تصدقت فأبقيت، أو أكلت فأفنيته، أو لبست فأبليت؟^(١) أما من أساء التصرف فيما خوّله الله فقد وصفه بأنه تركه وخلفه وراء ظهره لأنه بعثه في دار الدنيا ولم يستفد منه في الآخرة ولم يقدم منه شيئاً إليها، وإنما سبب له العقاب والعذاب فهذه الآية خطاب للفاسقين والكفار والمنافقين، وهؤلاء سيقال لهم في الآخرة حينما يطلبون نوراً ليتخلصوا من ظلمات يوم القيامة ﴿قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾ (الحديد: ١٣) فقد خلفوا في الدنيا ما كان يمكنهم استثماره لتحصيل النور في الآخرة.

(وما نرى معكم شفعاءكم):

﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ﴾ كانت لكم في الدنيا قوى تستندون إليها من زعامات وقيادات وآلهة صنعتها أوهامكم واهواءكم وتعصباتكم وخدعوكم بها تطيعونها وتضحّون من أجلها من دون أن تفكروا في كونها مع الحق أو غير ذلك وهل في اتباعكم لها رضا الله سبحانه أم لا، لكنها اليوم ليست معكم ﴿الَّذِينَ رَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾ فهي ليست قوى حقيقية وانما أوهام باطلة وهي لا تستحق أن تطاع أو تتبع لأنها مزيفة صنعها الاعلام او المال او المكر والخداع أو سدنة المعابد المستفيدون منها فقد كنتم تظنون انها ستشفع لكم وتنصركم وتنجيكم ولكن خابت ظنونكم، وهكذا كل باطل وضلال وانحراف فان اصلها أوهام ومزاعم لا أساس لها من الحق.

(١) مجموعة ورام: ج ١/ ص ١٦٤.

(لقد تقطع بينكم):

﴿لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ فانقطعت تلك العلائق والمودة والالفة والاواصر القوية بينكم وظهر عجزكم عن نصره بعضكم البعض وانفرط العقد الاجتماعي الذي بينكم لأنه ليس مبنياً على أساس صحيح ورجعتم إلينا وحداناً.

(وضل عنكم ما كنتم تزعمون):

﴿وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ ضاعت أحلامكم وأمانيتكم وعقائدكم الفاسدة وتبين أن الاسباب التي كنتم تتوسلون بها وتعتمدون عليها وتظنون أنها تدبر أموركم وتقضي حوائجكم سراب وخيال سواء كانت آلهة وأصنام من الحجارة والخشب أو رموز بشرية من زعامات دينية أو سياسية أو اجتماعية أو فكرية أو أهواء اتخذتموها الهة تطيعونها وتعبدوها من دون الرجوع الى حكم الله تعالى وشريعته، وضيّعتم أنفسكم وصارت عاقبتكم الخسران وظهر أمامكم ان الحق هو ما أخبركم الله تعالى به.

استيقظوا من الغفلة:

هذه الصورة التي تعرضها الآية لمشهد من مشاهد الآخرة اريد منها إيقاظ الانسان من غفلته حتى يحسب الامور بدقة ﴿وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ (الحشر: ١٨) قبل ان تصحو على هذه الحقيقة ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ (ق: ٢٢) وكان عليك قبل الان في الحياة الدنيا ان يكون بصرك حديداً وتدرک هذه الحقائق لتتدارك نفسك وتصلح حالك، اما انكشاف الحقيقة بعد الموت فانه بعد فوات الاوان على النفس ولا

ينفعها الندم والحسرة.

ففي الآية موعظة وإرشاد الى اختيار القيادة الحقّة التي توصلك الى الله تعالى وتدعوك الى التمسك بمنهج النبي محمد وآله الطاهرين (صلوات الله عليهم أجمعين) والى صرف الجهود في إكتساب ما ينفع يوم القيامة ويحقّق الفوز والفلاح وعدم تضييع العمر في تحصيل الأمور التي لا قيمة لها في الآخرة ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُورًا﴾ (الفرقان: ٢٣).

ايها الشباب أنكم في بداية طريق المسؤولية وتحمل التكاليف الإلهية فالتفتوا الى هذه الحقيقة وابنوا مستقبلكم على أسس صحيحة.

القبس/ ٥٦

سورة الأنعام: ﴿١٧٨﴾

﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾

تنزيه الأمة الإسلامية عن السب

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ (الأنعام: ﴿١٧٨﴾).

السبّ والشتم: ذكر الآخر ونبزه بما يُنقص قدره ويشين سمعته من الأوصاف القبيحة، وسبّهم الله تعالى ذكرهم له بما لا يليق بمقامه وقد سجّل القرآن الكريم جملة من مقولاتهم الباطلة كقوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ (الأنعام: ﴿٩١﴾)، وقيل: أن أصل السب القطع^(١) لأنه سبب للقطيعة أو لأنه يقطع تقدم الآخر وانتشار صيته بزمه ونسبة النقائص إليه، قال بعض المحققين: ((الأصل في هذه المادة: هو الحصر والحد بالنسبة إلى سعة شيء وانطلاقه واعتلائه، فيقال: سبّه إذا قال فيه ما يوجب حصره ويمنع عن انطلاقه واعتلائه، والسبب هو ما يُتوصّل به إلى شيء في مقام حصره والإحاطة به، فمعنى يسبّوا الله: أي يقولون فيه ما يوجب حصر مقامه وتحديد مرتبته وعلوّ شأنه))^(٢).

(١) معجم مقاييس اللغة - ابن فارس: ٦٣/٣، جمهرة اللغة - ابن دريد: مادة (سب).

(٢) التحقيق في كلمات القرآن الكريم للمصطفوي: ١٦/٥.

قال في المفردات: ((السب: الشتم الوجيع، وسبَّهم الله ليس على أنهم يسبونه صريحاً ولكن يخوضون في ذكره فيذكرونه بما لا يليق به ويتمادون في ذلك بالمجادلة فيزدادون في ذكره بما تنزه تعالى عنه)).

والآية الكريمة تبين أدباً من آداب الإسلام الراقية لحفظ كرامة المجتمع المسلم ولتنزيهه عما يشين وهو الترفع عن سب الآخر والاكتفاء بدعوتهم إلى الحق بالحجة والبرهان على نحو قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ (النحل: ١٢٥) والسب ليس من أساليبها حتى لو كان المقابل من الكفار والمشركين فضلاً عما هو أقرب، لأن ذلك يستفزهم ويدعوهم إلى الرد بما لا يليق بالخالق العظيم ظلماً وجهلاً منهم وحقاً وتعصباً فينسبون إليه سبحانه النقص والتشبيه والظلم والعجز وغير ذلك تعالى الله عما يصفون، ويكون المؤمن سبباً في هذا التجاوز عليه.

فالحكم ليس مبنياً على كون المشركين وآلهتهم يستحقون السب أو لا وإنما لترتب هذا الفعل المقيت، والله تعالى لا ينقصه هذا السب ولا يضره ولكن هذا الفعل وردة الفعل سيخلقان أجواءً متشنجة وعصبية تعيق هداية الآخرين لأنها تقطع طريق الحوار وتدفعهم إلى العناد والمكابرة، ولا يريد الله تعالى لعبادة المؤمنين أي يكونوا سبباً لزيادة آثام الآخرين، وقد استفاد العلامة الطبرسي (قدس سره) من الآية ((دلالتها على أنه لا ينبغي لأحد أن يفعل أو يقول ما يؤدي إلى معصية غيره))^(١) وقد يكون الشخص سبباً في سب والديه، روي عن رسول الله

(ﷺ) قوله: (من أكبر الكبائر أن يسبَّ الرجلُ والديه، قيل: وكيف يسبُّ والديه؟ قال (ﷺ): يسبُّ الرجل فيسبُّ أباه وأمه)^(١) فلا بد من ضبط الانفعالات والتصرف بحكمة ودقة نظر لتأثيرات هذا التصرف وتداعياته.

ومن خالف هذا النهي واتبع حماسه وعاطفته فقد عصى الله تعالى، روى علي بن إبراهيم في تفسيره بسنده عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (إنه سُئل عن قول النبي صلى الله عليه واله أن الشرك أخفى من ديب النمل على صفاة سوداء في ليلة ظلماء، فقال كان المؤمنون يسبُّون ما يعبد المشركون من دون الله وكان المشركون يسبُّون ما يعبد المؤمنون فنهى الله المؤمنين عن سبِّ آلهتهم لكيلا يسبَّ الكفار إله المؤمنين فيكون المؤمنون قد أشركوا بالله من حيث لا يعلمون فقال: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾^(٢) والشرك المقصود هو شرك الطاعة وليس شرك العبادة.

والمراد من قوله تعالى ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ يمكن أن يكون على نحو الفاعل أو المفعول به فيشمل الداعي والمدعوين أي الكفار وآلهتهم، لذا فإن النهي عن السب يتسع إلى سائر الرموز المقدسة لدى الآخر لأنه سيدفعه إلى النيل من أولياء الله الصالحين، روى العياشي في تفسيره عن عمر الطيالسي عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (سألته عن قول الله: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ قال: فقال: يا عمر هل رأيت أحداً يسبُّ

(١) بحار الأنوار: ٤٦/٧٤ ح ٦.

(٢) تفسير القمي: ١/٢١٣.

الله؟ قال: فقلت: جعلني الله فداك فكيف؟ قال: من سبّ ولي الله فقد سبّ الله^(١).
وقد دأب الأئمة المعصومون (عليهم السلام) على تربية شيعتهم على التعفّف عن السبّ، فقد ورد عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قوله لبعض أصحابه لما سمعهم يسبّون أهل الشام: (إني أكره لكم أن تكونوا سبّايين، ولكنكم لو وصفتُم أعمالهم وذكّرتُم حالهم كان أصوب في القول وأبلغ في العذر، وقتلتُم مكان سبّكم إياهم اللهم احقن دماءنا ودماءهم وأصلح ذات بيننا وبينهم وأهدهم من ضلالهم حتّى يعرف الحقّ من جهله، ويرعوي عن الغيِّ والعُدوان من لهج به)^(٢)، وفي نقل: كرهت لكم أن تكونوا لغانين شتامين^(٣).

أما سبّ المؤمن فهو من الكبائر، قال النبي (ﷺ): (سباب المؤمن فسوق وقتاله كفر)^(٤)، وروي عنه (ﷺ) قوله: (سأبّ المؤمن كالْمَشْرِفِ عَلَى الْهَلَكَةِ)^(٥) وإذا تسابّ شخصان فوزرهما على البادي، روي عن الإمام الكاظم (عليه السلام) قوله: (البادي منهما أظلم ووزره ووزر صاحبه عليه ما لم يعتذر إلى المظلوم)^(٦) وفي رواية (ما لم يعتدّ المظلوم).

لذا كان من أعظم موبقات معاوية وجرائمه سنّه سبّ أمير المؤمنين (عليه السلام) وأمر عماله على الولايات بذلك، فقد أرسل معاوية كتاباً إلى عماله قال

(١) تفسير العياشي: ١/ ٣٧٣ ح ٨٠.

(٢) نهج البلاغة: الخطبة ٢٠٦.

(٣) وقعة صفين - ابن مزاحم المنقري: ١٠٣، - شرح نهج البلاغة: ٣/ ١٨١.

(٤) كنز العمال: ٨٠٩٤، ٨٠٩٣.

(٥) كنز العمال: ٨٠٩٤، ٨٠٩٣.

(٦) الكافي: ٢/ ٣٦٠ ح ٤.

فيه: (ألا برئت الذمة ممن روى حديثاً في مناقب علي وأهل بيته، وقامت الخطبة في كل مكان على المنابر بلعن علي بن أبي طالب عليه السلام والبراءة منه والوقية في أهل بيته واللعنة لهم بما ليس فيهم عليهم السلام)^(١)، وعمل بها الأمويون سبعين عاماً عدا فترة عمر بن عبد العزيز وهي سنتان حيث أمر برفع السب، وما وجدوا في علي مثلبة يسبونه بها فافتروا عليه تهماً ليحرضوا الغوغاء عليه كاتهامه بقتل عثمان زورا وبهتاناً وهم يعلمون براءته، روي إن أحدهم سأل مروان بن الحكم فقال: (بأنكم تقولون بأن علياً تهاون في قتل عثمان) قال مروان بن الحكم: (معاذ الله إن علياً بريء من دم عثمان كبراءة الذئب من دم يوسف) فقال له: (إذن لم تقولون ذلك؟) فقال مروان بن الحكم: (إن أمرنا لا يستقيم إلا بذلك)^(٢)، وروى عمرو بن علي بن الحسين، عن أبيه علي بن الحسين عليه السلام، قال: قال لي مروان: ما كان في القوم أدفع عن صاحبنا من صاحبكم، قلت: فما بالكم تسبونه على المنابر؟ قال: إنه لا يستقيم لنا الأمر إلا بذلك)^(٣).

وروى ابن المغيرة بن شعبة: دخلت مع أبي علي معاوية فكان أبي يأتيه فيتحدث معه ثم ينصرف إلي فيذكر معاوية وعقله ويعجب بما يرى منه، إذ جاء ذات ليلة فأمسك عن العشاء، ورأيت مغتماً فانتظرت ساعة وظننت أنه لأمر حدث فينا، فقلت: ما لي أراك مغتماً منذ الليلة؟ فقال: يا بني، جئت من عند أكفر الناس وأخبثهم! قلت: وما ذاك؟! قال: قلت له وقد خلوت به: إنك قد بلغت سنّاً يا أمير

(١) بحار الأنوار: ٣٣ / ١٧٦.

(٢) الصواعق المحرقة: ص ٥٥.

(٣) شرح نهج البلاغة: ابن أبي الحديد: ١٣ / ٢٢٠.

المؤمنين فلو أظهرت عدلاً وبسطت خيراً، فإنك قد كبرت. ولو نظرت إلى إختك من بني هاشم فوصلت أرحامهم، فوالله ما عندهم اليوم شيء تخافه، وإن ذلك مما يبقى لك ذكره وثوابه. فقال: هيهات هيهات! أي ذكر أرجو بقاءه؟! مَلَكٌ أخو تيم فعدل وفعل ما فعل فما عدا أن هلك حتى هلك ذكره، إلا أن يقول قائل: أبو بكر! ثم ملك أخو عدي، فاجتهد وشمّر عشر سنين، فما عدا أن هلك حتى هلك ذكره، إلا أن يقول قائل: عمر. وإن ابن أبي كبشة ليصاح به كل يوم خمس مرات: أشهد أن محمداً رسول الله! فأني عمل لي يبقى، وأي ذكر يدوم بعد هذا لا أبا لك! لا والله إلا دفناً دفناً^(١).

ويظهر من رواية جلييلة عن الإمام الرضا (عليه السلام) أن كثيراً من روايات مثالب خصوم أهل البيت (عليه السلام) هي من صنع اعدائهم ونشروها مع ما فيها من منقصه على كبرائهم لتصل الى شيعة أهل البيت (عليه السلام) ويتداولونها، وتبين الرواية بدقة مسالك أعداء أهل البيت (عليه السلام) لعزلهم وشيعتهم عن بقية الأمة وإثارة الناس عليهم من خلال دسّ ثلاثة أشكال من الروايات أحدها التي تسبّ الرموز المقدسة لدى الآخرين ليتلاقفها أتباع أهل البيت (عليه السلام) بعاطفة وحماس واندفاع ويتحدثون بها فيتنفّر منهم الآخرون ويعزلونهم ويحاصرونهم ثم يكفّرونهم ويستحلّون دماءهم، وقد نهى النبي (ﷺ) عن ذلك بقوله: (لا تسبوا الناس فتكتسبوا العداوة بينهم)^(٢).

(١) شرح نهج البلاغة - ابن أبي الحديد: ١٢٩/٥، نقلاً عن كتاب الأخبار الموفقيات - للزبير بن بكار:

٤٦٢، ط. عالم الكتب.

(٢) الكافي: ٣٦٠/٢، ح ٣.

قال إبراهيم بن أبي محمود: (قلت للرضا (عليه السلام)): يا ابن رسول الله إن عندنا أخباراً في فضائل أمير المؤمنين (عليه السلام) وفضلكم أهل البيت وهي من رواية مخالفيكم ولا نعرف مثلها عنكم، أفنديين بها؟ فقال: يا ابن أبي محمود لقد أخبرني أبي عن أبيه عن جده عليهم السلام أن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: من أصغى إلى ناطقٍ فقد عبده، فإن كان الناطق عن الله عز وجل فقد عبد الله، وإن كان الناطق عن إبليس فقد عبد إبليس، أي أعرف من تصغي إليه ولا تتبع إلا الحق (ثم قال الرضا (عليه السلام)): يا ابن أبي محمود إن مخالفينا وضعوا أخباراً في فضائلنا وجعلوها على أقسام ثلاثة: أحدها الغلو، وثانيها التقصير في أمرنا، وثالثها التصريح بمثالب أعدائنا، فإذا سمع الناس الغلو فينا كفّروا شيعتنا ونسبوهم إلى القول بربوبيتنا، وإذا سمعوا التقصير اعتقدوه فينا، وإذا سمعوا مثالب أعدائنا بأسمائهم ثلبونا بأسمائنا، وقد قال الله عز وجل: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدَوًّا بَغِيرَ عِلْمٍ﴾، يا ابن أبي محمود إذا أخذ الناس يميناً وشمالاً فالزم طريقتنا فإنه من لزمنا لزمناه، ومن فارقنا فارقناه، إن أدنى ما يخرج الرجل من الإيمان أن يقول للحصاة: هذه نواة، ثم يدين بذلك ويبرأ ممن خالفه، يا ابن أبي محمود احفظ ما حدثتك به فقد جمعت لك فيه خير الدنيا والآخرة^(١).

فمشاريع الأعداء في ذلك الزمان وفي كل زمان خفية تنطلي على غير الفطن الذي أنار الله تعالى بصيرته وهي على ثلاثة أنحاء والهدف منها خلق قاعدة شعبية عاطفية مندفة تتقبل كل طرح يعزّز هويتها ويميزها عن الآخرين لأنهم يرون العلاقة مع الآخر صراع وجود، وهذا الصراع يستفيد منه بعض المتصدين

(١) عيون أخبار الرضا: ٢٧٢/١.

تحت هذا العنوان لترسيخ زعامتهم وهيمنتهم.

وبروايات التقصير يستفزّون المغالين المندفعين ويدفعونهم بعيداً باتجاه الغلو لأن المغالين يستمدون حماسهم من مخاصمة المقصّرين، فيخرج المغالون عن حدّ الوسطية والاعتدال الذي أمر الله تعالى به ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ (البقرة: ١٤٣) ويعادون الجميع حتى إخوانهم في العقيدة إذا لم يشاركوهم في تطرفهم وهي نتيجة طبيعية لمن يعتمد الثقافة الحماسية غير المبنية على الدليل المعروف في المصطلح بالشعبوية.

درس قرآني في علمي السياسة والاجتماع:

وهذا درس عميق في علمي السياسة والاجتماع نستفيد منه لترشيد علاقتنا في بيتنا الداخلي ومع الآخرين، وقد عمل أعداء أهل البيت (عليه السلام) كل ما بوسعهم للوصول إلى تطويق مذهب أهل البيت (عليه السلام) وجعل شيعتهم معزولين فلا ينتشر التشيع رغم ما فيه من قابلية التأثير والإقناع (فإن الناس لو علموا محاسن كلامنا لاتبعونا)^(١)، بل يؤدي إلى ردة فعل جاهلة حمقاء ضد شيعة أهل البيت (عليه السلام) للانتقام منهم واستئصالهم.

فلا بد من الرجوع إلى القواعد التي رسمها الله تعالى ورسوله (ﷺ) وأئمة أهل البيت (عليه السلام) في التعامل مع الآخرين فإنه هو الحق ﴿فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ (يونس: ٣٢).

(١) عيون أخبار الرضا (عليه السلام): ١ / ٢٧٥.

﴿وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾

موضوع القبس: بركات دفع الزكاة

شكر المنعم:

نعم الله تعالى على الناس كثيرة لا تعدُّ ولا تحصى ومنها انه تبارك وتعالى يخرج لهم من الأرض أنواع النباتات لتكون غذاءً لهم ولأنعامهم مضافاً الى الفوائد الأخرى كتحسين البيئة وجمالية الطبيعة وغير ذلك.

إنّ هذه النعم تلزمنا شكر الخالق المنعم الذي شمل برحمته كل مخلوقاته حتى من لم يعرفه ومن لم يطلب منه بل حتى على من عصاه وناواه، (وبالشكر تدوم النعم)^(١) كما ورد في الحديث الشريف، قال تعالى ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ (إبراهيم: ٧) فهذه وسيلة من يريد استزادة النعم والخيرات.

فضل الزكاة وأهميتها:

ومن تمام شكر النعمة أداء حقوقها، التي فرضها الله تعالى على ما انعم عليهم تطهيراً لنفوسهم وتنمية لأموالهم، ولفظ الزكاة يحمل هذين المعنيين (التطهير) و(النماء) والزكاة تحقق هذين الهدفين.

وقد أشير الى وجوبها في قوله تعالى ﴿وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾

(١) عيون الحكم والمواعظ - الليثي: ١٨٦.

(الأنعام: ١٥١) وقوله تعالى ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ (الذاريات: ١٩) وذكر علة فرض الله تعالى الزكاة في قوله تعالى ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ (التوبة: ١٣) وفي الرواية عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (لما نزلت آية الزكاة ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ في شهر رمضان، فأمر رسول الله (صلى الله عليه وآله) مناديه فنادى في الناس: إن الله تبارك وتعالى قد فرض عليكم الزكاة كما فرض عليكم الصلاة^(١)، وعن الإمام الصادق (عليه السلام) (ولو أن الناس أدوا حقوقهم لكانوا عائشين بخير)^(٢)، وعن الإمام الكاظم (عليه السلام) (حصّنوا أموالكم بالزكاة)^(٣)، وعن الإمام الصادق (عليه السلام) (إن الله عز وجل فرض للفقراء في أموال الأغنياء فريضة لا يحمدون إلا بأدائها وهي الزكاة)^(٤) وعن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (إنما وضعت الزكاة اختباراً للأغنياء ومعونة للفقراء ولو أن الناس أدوا زكاة أموالهم ما بقي مسلم فقيراً محتاجاً ولا مستغنى بما فرض الله له، وإن الناس ما افتقروا ولا احتاجوا وجاعوا ولا عروا إلا بذنوب الأغنياء، وحقيق على الله تبارك وتعالى أن يمنع رحمته ممن منعه حق الله في ماله، وأقسم بالذي خلق الخلق وبسط الرزق أنه ما ضاع مال في بر ولا بحر إلا بترك الزكاة)^(٥) وفي نهج البلاغة عن أمير المؤمنين

(١) وسائل الشيعة: ج ١٠/٩ ح ١.

(٢) وسائل الشيعة: ج ١٠/٩ ح ٢.

(٣) وسائل الشيعة: ج ١٤/٩ ح ١١.

(٤) الكافي - الكليني: ٣ / ٤٩٨.

(٥) وسائل الشيعة: ج ١٢/٩ ح ٦.

(عَلَيْهِ السَّلَامُ) قَالَ (إِنَّ الزَّكَاةَ جُعِلَتْ مَعَ الصَّلَاةِ قُرْبَانًا لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ فَمَنْ أَعْطَاهَا طَيِّبَ النَّفْسِ بِهَا فَإِنَّهَا تُجْعَلُ لَهُ كَفَّارَةً وَمِنْ النَّارِ حِجَازًا وَوَقَايَةً فَلَا تُتْبَعْنَهَا أَحَدٌ نَفْسَهُ وَلَا يُكْثِرَنَّ عَلَيْهَا لَهْفَهُ فَإِنَّ مَنْ أَعْطَاهَا غَيْرَ طَيِّبِ النَّفْسِ بِهَا يَرْجُو بِهَا مَا هُوَ أَفْضَلُ مِنْهَا فَهُوَ جَاهِلٌ بِالسُّنَّةِ مَغْبُوثُ الْأَجْرِ ضَالُّ الْعَمَلِ طَوِيلُ النَّدَمِ)^(١).

وعن الإمام الصادق (عَلَيْهِ السَّلَامُ) عن آبائه عن رسول الله (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ (إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بَعْدَ خَيْرٍ بَعَثَ إِلَيْهِ مَلَكًا مِنْ خَزَانِ الْجَنَّةِ فَيَمْسَحُ صَدْرَهُ وَيَسْخِي نَفْسَهُ بِالزَّكَاةِ)^(٢).
ومن وصية لأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) قَالَ: (اللَّهُ اللَّهُ فِي الزَّكَاةِ فَإِنَّهَا تَطْفِئُ غَضَبَ رَبِّكُمْ)^(٣).

وفي الحديث الشريف قال (شَابُّ سَخِيٍّ مَرَهُقٌ فِي الذُّنُوبِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ شَيْخٍ عَابِدٍ بَخِيلٍ)^(٤) ويشرح حديث آخر معنى السخي عن النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ (مَنْ أَدَّى مَا افْتَرَضَ اللَّهُ عَلَيْهِ فَهُوَ أَسْخَى النَّاسِ)^(٥) وفي حديث عن أَبِي جَعْفَرٍ الْبَاقِرِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) قَالَ (إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَرَنَ الزَّكَاةَ بِالصَّلَاةِ فَقَالَ ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ (البقرة: ٤٣)) فَمَنْ أَقَامَ الصَّلَاةَ وَلَمْ يُؤْتَ الزَّكَاةَ فَكَأَنَّهُ لَمْ يَقُمْ الصَّلَاةَ)^(٦).

وقد ذكر الفقهاء الأصول المالية التي تجب فيها الزكاة وشروط وجوبها

(١) نهج البلاغة: ١٩٩ / الخطب / الزكاة.

(٢) بحار الأنوار - المجلسي: ٩٣ / ١٩.

(٣) بحار الأنوار - المجلسي: ٩٣ / ٢٧.

(٤) بحار الأنوار - المجلسي: ٧٠ / ٣٠٧.

(٥) من لا يحضره الفقيه - الصدوق: ٦٢ / ٢.

(٦) وسائل الشيعة: ج ٩ / ٢٢ / ح ٢.

ومقدارها فتجب على الغلات الأربع: الحنطة والشعير والتمر والزبيب، وعلى الانعام الثلاث: الابل والبقر والغنم، وعلى النقدين: الذهب والفضة المسكوكين كعملة متداولة، ويوجد خلاف في وجوب الزكاة على غير هذه كالأموال التجارية والعملة الورقية ونحو ذلك، وكمثال على ذلك، قالوا: تجب الزكاة في الغلات الزراعية ضمن شروط معيّنة ذكرها الفقهاء (قدس الله أرواحهم) في الرسائل العملية، ومنها بلوغ النصاب وهو (٨٤٧) كيلو غرام فإذا كان الحاصل أقل من ذلك فلا زكاة عليه، فإذا بلغت الغلة مقدار النصاب وجبت فيه الزكاة ومقدارها (١٠٪) من الحاصل إذا كانت المزروعات تسقى بشكل طبيعي من دون آلة سيحاً بالمطر أو بفيضان النهر ونحوها، وتكون الزكاة بنسبة (٥٪) إذا كان السقي بالآلات.

الآثار المباركة للزكاة:

ومن الأحاديث الشريفة المتقدمة نستطيع تلمس عدة آثار مباركة لإخراج الزكاة:

- ١- إنها من أعظم القربات إلى الله تعالى وإنها مقرونة بالصلاة.
- ٢- توجب المحبة الإلهية للعبد وشموله بالرحمة العظيمة.
- ٣- إنها تطفي غضب الرب، وتوجب كفارة الذنوب وإنها حجاب ووقاية من النار.
- ٤- إنها اختبار يعطي فرصة للعبد لكي ينجح فيه فيستحق الجائزة، فبدون خوض الامتحان لا يرتقي الإنسان إلى مرحلة أعلى وأكمل، وإن امتحان إخراج شيء من المال صعب على الإنسان لكنه منتج ومثمر، عن الإمام الصادق (عليه السلام)

قال: (ما بلى الله عز وجل العباد بشيء أشد من إخراج الدرهم ^(١)).

٥- انها سبب لزيادة النعم ودوامها.

٦- تحصن المال من التلف والخسارة، وإن من يبخل بالزكاة يخسر أكثر

منها من المال بتلف أو سرقة أو خسارة فيخسر الدنيا والآخرة.

٧- تقضي على الفقر وتنمي الاقتصاد وتزدهر بها أحوال الناس، لأن الناس

إذا كانوا فقراء فإنهم لا يمتلكون قدرة على الشراء فيصاب السوق بالكساد، فإذا

توفر لديهم المال تحرك السوق وعاد بالنفع على نفس دافعي الزكاة وسائر

الحقوق الشرعية وهذه الحقيقة يعرفها دافعوا الضرائب في الدول الصناعية

والبنوك العالمية الممولة.

وهذا الكلام يجري في إخراج سائر الحقوق الشرعية كالخمس ورد

المظالم لوضوح انطباق الأحاديث الشريفة عليها.

التحذير الشديد من عدم دفع الحقوق الشرعية:

وإذا لم تكف هذه الروايات والآثار المباركة على إخراج الزكاة لتحفيز

الناس وتحريكهم نحو إخراجها فلنقرأ في مقابل ذلك ما ورد من تحذير شديد من

مغبة التخلف عن دفع الحقوق الشرعية ففي الحديث عن الإمام الباقر (عليه السلام) قال

(ما من عبد منع من زكاة ماله شيئاً إلا جعل الله ذلك يوم القيامة ثعباناً من نار مطوقاً

في عنقه ينهش من لحمه حتى يفرغ من الحساب، وهو قول الله عز وجل

﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَجَلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ (آل عمران: ٧٥) يعني ما بخلوا به من

الزكاة^(١).

وقد طرد النبي (ﷺ) جماعة من المسجد وحرّمهم من الصلاة معه لأنهم لم يؤدّوا حقوق أموالهم، عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام) قال (بينما رسول الله (ﷺ) في المسجد إذ قال: قم يا فلان قم يا فلان، قم يا فلان، حتى أخرج خمسة نفر، فقال: أخرجوا من مسجدنا لا تصلوا فيه وأنتم لا تزكّون)^(٢).

وفي حديث عن الإمام الصادق (عليه السلام) (من منع قيراطاً من الزكاة فليمت إن شاء يهودياً أو نصرانياً)^(٣) وفي حديث عنه قال (من منع قيراطاً من الزكاة فليس مؤمن ولا مسلم)^(٤) وهو قول الله عز وجل ﴿... رَبِّ ارْجِعُونِ ۖ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (المؤمنون: ٩٩-١٠٠).

لتساعدوا الناس:

أيها الأحبة أمام هذه الأحاديث الموجبة للزكاة والمبينة لآثارها المباركة، والعاقبة المظلمة لتاركها لا يسع الإنسان إلا المبادرة لإخراجها بالنسبة التي ذكرناها، وليس من الضرورة إيصالها إلى المرجعية الدينية فيجوز لصاحبها توزيعها على الفقراء المحتاجين أو المساهمة بها في المشاريع الخيرية والتي تخدم الصالح العام، كبناء مركز صحي أو قنطرة لعبور الناس أو مدرسة أو محطة تصفية

(١) الكافي - الشيخ الكليني: ٣/٥٠٤ ح ١٠.

(٢) الكافي - الشيخ الكليني: ٣/٥٠٤ ح ١٠.

(٣) المحاسن - البرقي: ١/٨٧ ح ٢٨ ح ٢٩.

(٤) المحاسن - البرقي: ١/٨٧ ح ٢٨ ح ٢٩.

المياه ونحوها مع الالتفات إلى أن الهاشمي الذي ينتسب إلى رسول الله (ﷺ) لا يجوز له أخذ الزكاة من غير الهاشمي، ويجوز العكس.

فما يمنع أحدكم من مساعدة أقربائه ومعارفه المحتاجين من الزكاة فيدخل السرور عليهم ويقضي حوائجهم وبنفس الوقت يؤدي هذه الفريضة العظيمة التي بها نماء لأموالكم وتحصين لها ونيل لرضا الله تبارك وتعالى.

إنّ الذي دفعنا إلى توجيه هذا الحديث إرشادكم إلى هذه الطاعة العظيمة المقربة إلى الله تبارك وتعالى ولما رأيناه من غفلة الغالبية العظمى من الناس عن هذه الفريضة ومن واجبتنا إرشادهم ونصحهم وهدايتهم والله الموفق.

القبس ٥٨١

سورة الأعراف: ﴿١٦﴾

﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾

هذا واحد من التهديدات التي أطلقها إبليس في جداله مع رب العزة والجلال كرد فعل على طرده من الجنة ومن صفوف الطائعين المرضيين عند الله تبارك وتعالى بسبب استكباره وتمرده عن السجود لآدم الذي كان يمثل النوع الإنساني المستخلف في الأرض، فعزم على الانتقام من الإنسان حسدا له ولأنه كان موضوع الابتلاء والامتحان الذي فشل فيه حيث تصرّح الآية أن السبب الذي برّر به غوايته لبني آدم وسوقهم إلى الضلال أن الأمر بالسجود لهم كان سبب طرده من رحمة الله تعالى ﴿قَالَ فِيمَا أُغْوِيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (الأعراف: ﴿١٦﴾) والباء سببية.

وعلى اثر ذلك اطلق سلسلة من التهديدات والعمليات الانتقامية إلى يوم الوقت المعلوم، ومنها ما ذكرته الآية الشريفة، بأن يترصد لهم ويلاحقهم ويمكر بهم حتى يغويهم ويضلّهم كما غوى هو وضل بسوء اختياره، ويسلب منهم نعمة الاستقامة على صراط الله تعالى.

وزيادة في المكر والتلبس فإنه يقعد لهم على الصراط المستقيم حتى لا يتوقعوا منه الشر والسوء، وقد عبّر بلفظ (القعود) المتضمن ثني بعض أجزاء الجسم للدلالة على قصد الاعوجاج المنافي للاستقامة، لذا أخبرنا الله تعالى بهذه الحقيقة وهذا التهديد الخطير لنكون حذرين يقظين لمكائد هذا العدو المبين،

وَعَلَّمَنَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ نَدْعُوهُ يَوْمِيًّا فِي صَلَاتِنَا ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾
ونطلب الهداية إلى الصراط المستقيم لتذكّر دائماً العدو الذي يريد خروجنا عنه،
وَأَنْ نَتَوَسَّلَ إِلَى اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى طَالِبِينَ الْمَعُونَةَ عَلَى مُوَاجَهَتِهِ وَالْإِنْتِصَارَ عَلَيْهِ.
وتدل الآية على أن الإنسان لو خُلِّي وطبيعته التي فطر عليها فإنه خلق ليسيّر
على الصراط المستقيم الموصل إلى الله تبارك وتعالى ﴿صِرَاطَكَ﴾ ولكن الشيطان
يقعد للناس على هذا الطريق ويتربص بهم ليحرفهم عن هذا الصراط المستقيم
ويقطع عليهم طريق الطاعة ويوجههم إلى الطرق المنحرفة الأخرى، وهذا المعنى
ورد في الحديث الشريف (كل إنسان يولد على الفطرة حتى يكون أبواه يهودانه
أو ينصرّانه)^(١).

والصيغة المؤكدة المستعملة في التهديد تدل على الإصرار على الفعل
والاستمرار فيه واستعمال الشيطان كل أدواته في التزيين والغواية والتضليل
والتمويه والشبهات ونحو ذلك، والإطباق على الإنسان من جميع جهاته، وهو ما
أشارت إليه الآية التالية: ﴿ثُمَّ لَا تَأْتِيَنَّهُمْ مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ
أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ (الأعراف: ٧).

ولعل أقرب مشهد ومسرح لهذا القعود هو ما يحصل أثناء الصلاة، فإن
اللعين يستخدم كل وسائله لسلب هذه المعراجية فيشتت ذهن المصلي في جميع

(١) رواه في البحار: ج ٣/ ص ٢٨١، عن غوالي اللثالي، وحمل قوله تعالى ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا
فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ (الروم: ٣٠) على دين الله وأورده السيد المرتضى في أول
الجزء الرابع من أماليه مرسلًا عن أبي هريرة عن النبي (ﷺ) وسنن البيهقي وأبو يعلى في مسنده
والطبراني في الكبير والسيوطي في الجامع الصغير: ٩٤/٢.

الاتجاهات وتتوالى عليه الخواطر والصوارف حتى ينتهي من صلاته وهو غير ملتفت لشيء منها.

والتعبير هنا بالجهات الحسية الأربعة كناية عن الاتجاهات المعنوية التي يتحرك نحوها الانسان (عدا الأعلى والاسفل من الجهات الست)، لأن الصراط المستقيم الموصل إلى الله تعالى لا يمكن أن يكون حسياً فكذا القعود عليه أمر معنوي فيمكن أن يكون معنى ﴿مَنْ بَيَّنَّ أَيْدِيَهُمْ﴾ مستقبلهم وأيامهم القادمة والزمن الآتي فيخوفهم من الفقر والحاجة إذا أرادوا الإنفاق ومن الموت والقتل إذا نواوا الجهاد، أو يعظم لهم المشقة والعناء إذا هموا بالحج والعمرة والزيارة ويزين لهم الحياة الدنيا ويمنيهم بما تحب نفوسهم ونحو ذلك، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ (آل عمران: ١٧٥) وقال تعالى ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ﴾ (البقرة: ٢٦٨) وقال تعالى ﴿يَعِدُّهُمْ وَيُمْنِيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ (النساء: ١٢٠).

أو أن المراد بما بين أيديهم الآخرة فينسيهم ذكر الموت وأهواله وما بعده ويشككهم في الآخرة والنشور ونحو ذلك ﴿إِنَّ هَؤُلَاءَ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ (الإنسان: ٢٧).

ويكون معنى ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أي ما خلفوه في زمانهم الماضي فينسيهم المعاصي ويسوّف الاستغفار والتوبة ويهوّن عليهم ما ارتكبوه من المظالم. أو يخوفه على ما يترك خلفه من أموال وأولاد وأهل وموقع اجتماعي ليقعده عن الإقدام على الطاعة ويبخله عن العطاء، أو يجعل من الماضي وسيرة الآباء والتقاليد

الموروثة صنماً يعبده ويتبعه فيصده عن الهداية والصلاح.

ومعنى ﴿وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ﴾ أي من جهة دينهم، لأن اليمين من اليمين والخير والقوة والسعادة، فيدخل في دينهم ما ليس منه ويغلفه بالقداسة ويجعله هو الدين وإلا فالسقوط في الجحيم، أو يغريهم باتباع قيادات دينية تضللهم وتقودهم إلى السعير، أو يدخلهم في صراعات وربما حروب تزهق فيها الأرواح وتهتك فيها الأعراض وتخرّب الديار باسم الدين ونصرة الدين، أو يزيّن لهم قتل الآخرين معنوياً بالتسقيط والافتراء والتشويه والتضليل تحت عنوان نصرة الحق وأهله وهكذا.

أما ﴿وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾ فالشمال عكس اليمين فيراد به تزيين المعاصي وتهيج الشهوات لدفعهم إلى ارتكاب الفحشاء أو المنكر واتباع الأهواء. وبهذا الشكل من التصرف في عواطف الإنسان وميوله وأهوائه وآماله وإثارة نزواته الشهوية والغضبية للتأثير على تفكيره وقراره وإلقاء الأوهام الباطلة عليه ومن ثم توجيه إرادته نحو الأفعال القبيحة وليس له سلطة أكثر من هذا ﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِّنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمُ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ (إبراهيم: ٢٢)، وهكذا يصوّر لنا القرآن الكريم إحاطة الشيطان بابن آدم وغلقه لمنافذ الوعي والبصيرة وإيقاعه في الغفلة وحرصه على غوايته ويخبر الإنسان بذلك ليكون حذراً على الدوام وملتفتاً وواعياً.

وبهذا التفسير أورد الطبرسي رواية في مجمع البيان عن الإمام الباقر (عليه السلام) (في معنى الآية ﴿مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ أهوّن عليهم أمر الآخرة ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾

أمرهم بجمع الأموال ومنعها عن الحقوق لتبقى لورثتهم ﴿وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ﴾ أفسد عليهم أمر دينهم بتزيين الضلالة وتحسين الشبهة ﴿وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾ بتحبيب اللذات إليهم وتغليب الشهوات على عقولهم^(١).

وفي تفسير علي بن إبراهيم في معنى الآية (أما ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ فهو من قبل الآخرة، لأخبرتهم أنه لا جنة ولا نار ولا نشور، وأما ﴿خَلْفَهُمْ﴾ يقول: من قبل دنياهم أمرهم بجمع الأموال وأمرهم أن لا يصلوا في أموالهم رحماً، ولا يعطوا منه حقاً، وأمرهم أن يقللوا على ذرياتهم وأخوفهم عليهم الضيعة، وأما ﴿وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ﴾ يقول: من قبل دينهم، فإن كانوا على ضلالة زيتها لهم، وإن كانوا على هدى جهدت عليهم حتى أخرجهم منه، وأما ﴿وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾ يقول: من قبل اللذات والشهوات، يقول الله ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ﴾^(٢).

ثم يذكر النتيجة التي يريد إيصال بني آدم إليها ويتوقعها ﴿وَلَا تَحْجِدُ أَكْثَرُهُمْ شَاكِرِينَ﴾ بل كافرين بها أو مقصرين في أداء حقوقها، وقال: ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾ ولم يقل: (جميعهم) لأنه يعلم أنه لا قدرة له على المخلصين الذين عرفوا نعمة الله تعالى وفرغوا أنفسهم لشكرها فلا نصيب لغير الله تعالى عندهم ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُعَوِّدَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ • إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ (ص: ٨٢-٨٣) ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ

(١) مجمع البيان للطبرسي: ٢٢٨/٤.

(٢) تفسير القمي: ١/ ٢٢٤.

لَا تُحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (الإسراء: ٣٦).

وبالجمع بين الآيات الدالة على أن كمال نعمة الدين وتمامها بولاية أهل البيت (عليه السلام) ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (المائدة: ٣) وما ورد في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ (الضحى: ١١) وإن الشكر إنما يكون على نعمة، وأفادت الآية محل البحث أن الناجين من مكائد الشيطان هم الشاكرون وما دل على أن الشكر الحقيقي هو بالثبات على اتباع أهل البيت (عليه السلام) وعدم الانقلاب عليهم كالذي حصل بعد وفاة رسول الله (ﷺ) حين وصف عدم الانقلاب بالشكر ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ (آل عمران: ١٤٤) نستنتج أن أرقى مصاديق الاستقامة على الصراط المستقيم والثبات عليه هو التمسك بولاية أهل البيت (عليه السلام) واتباعهم في الأقوال والأفعال لأن ذلك حقيقة الشكر وخلاصته وإن المعصومين من أهل بيت النبي (ﷺ) هم الدالون على الصراط المستقيم والحافظون له والذابون عنه، وقد دلت على هذا المعنى روايات عديدة في كتب الفريقين كالمروي عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: (آل محمد الصراط الذي دل الله عليه)^(١) وقول النبي (ﷺ) لعلي (عليه السلام): (أنت الطريق الواضح والصراط المستقيم) ولا يجوز أحد الصراط إلا

بولاء علي^(١).

لذا كان أشد ما يحرص عليه اللعين هو التخلص من أهل البيت (عليه السلام) فكان يغري السلطات بقتلهم وايدائهم ومحاصرتهم وإبعاد الناس عن أهل البيت (عليه السلام) واتباع منهجهم والأخذ بتعاليمهم، ففي الكافي والمحاسن للبرقي بسند صحيح عن زرارة قال: (قلت لأبي جعفر (عليه السلام): قوله تعالى: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ٥ ثُمَّ لَا تَيْتَنَّهُمْ مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿٦﴾ فقال أبو جعفر (عليه السلام): يا زرارة، إنما صمد لك ولأصحابك فأما الآخرون فقد فرغ منهم^(٢) واللعين يكون أشد الخلق فرحاً حينما يقصى قانون أهل البيت (عليه السلام) عن الحياة وتهمل أحكامهم وتنبذ أخلاقهم وسيرتهم.

ولإبليس أعوان من شياطين الجن يقومون بنفس دوره ويساعدونه على تنفيذ ما يريد ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ (الأعراف: ٣٧) ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ (الكهف: ٥٠).

ولكن اللعين لا يكتفي بالغواية عن طريق التزيين النفسي الباطني لأنه يعلم أن الحسيات أكثر تأثيراً على الإنسان فيحوّل بعض الناس إلى شياطين من الأنس بأدائهم نفس وظيفته فيتربصون بالناس ليقطعوا عليهم طريق الهداية والصلاح بشتى الوسائل الماكرة والمخادعة فبعضهم عن طريق الجنس وإثارة الشهوات وما

(١) أنظر: ينابيع المودة - القندوزي: ٤/ص ١٣٧، وص ٢٦٠.

(٢) الكافي: ١٤٥/٨، المحاسن: ١٣٨/١٧١.

أكثر القنوات ومواقع التواصل والصحف والمجلات التي تعمل بهذا الاتجاه، وبعض آخر عن طريق إثارة العصبية الجاهلية والخلافات لجرّ الناس الى القتال والعنف والموت العبي، وبعض عن طريق الفكر والثقافة الإلحادية المنحرفة، وبعض عن طريق الظلم والتسلط والقهر...، والقائمة تطول، فهؤلاء كلهم قطاع طرق الخير والسعادة والفلاح، وكلهم أدوات بيد إبليس ينقذ بهم مآربه، ومن خطبة لأمير المؤمنين (عليه السلام) قال: (اتخذهم إبليس مطايا ضلال، وجنداً يصل بهم على الناس، وتراجمة ينطق على ألسنتهم، استراقاً لعقولكم، ودخولاً في عيونكم، ونفثاً في أسماعكم، فجعلكم مرمى نبه، وموطئ قدمه، ومأخذ يده)^(١).

وقال (عليه السلام): (اتخذوا الشيطان لأمرهم ملاكاً، واتخذهم له أشراكاً، فباض وفرّخ في صدورهم، ودبّ ودرج في جحورهم، فنظر بأعينهم، ونطق بألسنتهم، فركب بهم الزلل، وزيّن لهم الخطل، فعل من شره الشيطان في سلطانه، ونطق بالباطل على لسانه)^(٢).

ومن نماذج شياطين الانس ما ورد في قوله (عليه السلام) في معاوية في كتاب أرسله إلى زياد بن أبيه وقد بلغه أن معاوية قد كتب إليه يريد خديعته باستلحاقه (فاحذره فإنما هو الشيطان يأتي المرء من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ليقتحم غفلته ويستلب غرته)^(٣).

(١) نهج البلاغة، الخطبة ١٩٠.

(٢) نهج البلاغة: الخطبة ٧.

(٣) نهج البلاغة، ج ٣، الرسالة ٤٤، ص ٦٩، قال الشريف الرضي: ومن كتاب له (عليه السلام) إلى زياد بن أبيه وقد بلغه أن معاوية كتب إليه يريد خديعته باستلحاقه.

ولعل أخفى قطاع الطرق من يتحدثون باسم الدين ويتريون بلباس أهل الدين ويحملون علوم الدين وهم يطلبون الدنيا الدنية بذلك وقد وصفتهم الأحاديث الشريفة صريحا بانهم قطاع طرق الهداية والصلاح روي عن رسول الله (ﷺ) قوله: (أشار علماء أمتنا المضللون عنا، القاطعون للطرق إلينا)^(١) وعن الإمام الكاظم (عليه السلام) قال: (أوحى الله تعالى إلى داود (عليه السلام): قل لعبادي: لا يجعلوا بيني وبينهم عالماً مفتوناً بالدنيا، فيصدّهم عن ذكرى وعن طريق محبتي ومناجاتي، أولئك قطاع الطريق من عبادي، إنّ أدنى ما أنا صانع بهم أن أنزع حلاوة محبتي ومناجاتي من قلوبهم)^(٢).

ومن امثلتهم ابن ابي دؤاد قاضي قضاة الدولة العباسية في زمن المعتصم أي مفتي الدولة الذي اغرى المعتصم بقتل الإمام الجواد (عليه السلام) حسداً وغيظاً عندما اخذ المعتصم بقول الإمام (عليه السلام) في موضع قطع يد السارق وترك اقوال فقهاء العامة في حادثة معروفة^(٣).

ومن ذلك قول أمير المؤمنين (عليه السلام): (قصم ظهري عالم متهتك وجاهل متنسك، فالجاهل يغشّ الناس بتنسكه، والعالم ينفرهم بتهتكه) وفي تكملة حديث مثله (فاتقوا الفاسق من العلماء والجاهل من المتعبدین، أولئك فتنة كل مفتون)^(٤).

(١) الاحتجاج: ٥١٣/٢، ٣٣٧.

(٢) تحف العقول: ٣٩٧.

(٣) أنظر: تفسير العياشي: ٣١٩/١.

(٤) ميزان الحكمة: ١٨٨/٦.

القبس/ ٥٩

سورة الأعراف: ﴿٢٧﴾

﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ﴾

موضوع القبس: التعري أبرز سمات المجتمع الجاهلي والمطرودين من الجنة

قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأعراف: ﴿٢٧﴾).

كرّر القرآن الكريم التحذير الشديد من الافتتان بخدع الشيطان ومكره وإغرائه وخططه التي تخفى حتى على الفطن الحاذق، وغرضه اخراجكم من جنة طاعة الله تبارك وتعالى وسعادتها، وذلك بأن يجعلكم تتخلّون عن لباسكم الظاهري بنشر التعري ولباسكم الباطني بتجريدكم من التقوى والعفاف حيث ورد في الآية السابقة ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ (الأعراف: ﴿٢٦﴾).

واقترنت بعض هذه التحذيرات بشواهد من الوقائع والأحداث لتكون أبلغ في الحجة وأوضح في الوعظ والإرشاد، ومنها هذه الآية الكريمة التي أوردت حادثة غواية إبليس لآدم (عليه السلام) وزوجه، وقد تعرض القرآن لهذه الواقعة في عدة مواضع (البقرة: ﴿٣٦-٣٧﴾) (الأعراف: ﴿١٩-٢٧﴾) (طه: ﴿١١٥-١٢٣﴾).

وخلاصتها بحسب السرد القرآني بضم الآيات الكريمة بعضها إلى بعض: أن الله تبارك وتعالى خلق آدم (ﷺ) من طين ونفخ فيه من روحه وأمر ملائكته بالسجود له ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ (الحجر: ٣١) فأطاعوا، إلا إبليس الذي كان في زمرة الملائكة فإنه استكبر وعصى الأمر ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ (البقرة: ٣٥) فطرد من الجنة. وخلق الله تعالى لآدم امرأة وزوجه إياها، وأسكنهما الجنة وأباح لهما نعيمها ﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ (الأعراف: ١٩) ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ (البقرة: ٣٥)، وتعهد الله تعالى لآدم وزوجه بتوفير كل أسباب السعادة في الجنة ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ۖ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَىٰ﴾ (طه: ١١٨-١١٩).

وانتقاماً لنفسه واستمراراً على استكباره وتمردّه، فقد أقسم إبليس حينئذٍ على أنه سيفعل كل ما يستطيع لغواية آدم (ﷺ) وإضلال ذريته وصدّهم عن طاعة الله تعالى، لحرمانهم من الجنة كما حُرّم هو لعنه الله. ومنع الله تعالى آدم وزوجه من الاقتراب من شجرة أشار إليها لأن ذلك يسبّب لهما الشقاء والعناء، ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (الأعراف: ١٩ - البقرة: ٣٥) وحذرهما من غواية الشيطان فإنه عدو لهما ويريد إخراجهما من الجنة ونعيمها، والابتلاء بالأرض وشقائها ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا

عَدُوُّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴿طه:١٣١﴾ وبذلك فإنكما تظلمان نفسيكما بحرمانها من الخير.

وعلم إبليس أن مفتاح نجاحه هو بإقناعهما بالأكل من الشجرة حتى تبدو لهما سواتهما التي كانت خافية عنهما وحينئذ سيخرجان من الجنة، لأن الجنة ليست مكاناً لمن كشف عن سواته وأبداها ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوَاتِهِمَا﴾ (الأعراف:٥٠).

وحرك إبليس أدواته لغوايتهما وإقناعهما بالأكل من الشجرة ولم يأس من النجاح، فدخل إليهما من باب النزعة الغريزية الجامحة للخلود، والتسلط على الأشياء والقدرة الخارقة والاطلاع على الغيب كالملائكة، وحب الاستطلاع الذي يدفع نحو الفضول والتطفل، ومنبعها الحرص الذي هو أساس التعلق بكل الأمور الدنيوية ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى﴾ (طه:١٣٠) وبرّر لهم مخالفة النهي بأنه لم يكن لضرر عليهما ولا لمعرة تصيبهما وإنما هو فقط لكي لا تكونا من الخالدين فلا مانع من ارتكابه ﴿وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَينِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ (الأعراف:٥٠).

وعزّز اللعين مساعيه بأن أقسم بالله تعالى على ذلك، ولم يدّر في خلد آدم وزوجه أن يقسم أحد بالله تعالى كاذباً ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ (الأعراف:٥١) واستعمل أساليب الإغراء ﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ﴾ (الأعراف:٥٢) وخديعة وإيهام بإثارة الميول الغريزية والقسم على الصدق، وفي التعبير إشارة

رائعة لاستسلامهما له بحيث أصبحا آلة سهلة بيده كالدلو الذي يرسله صاحبه في البئر العميقة، وقد فعل إبليس ذلك حيث أهبط آدم (عليه السلام) وزوجه من الجنة إلى الأرض ليكابد الشقاء والابتلاء، وهكذا من يستسلم لوساوس الشيطان فإنه كمن يتدلى في بئر عميقة ويتشبث بحبل ضعيف.

وبعد عدة محاولات تذكرها الروايات^(١) نجح إبليس في غوايتهما ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾ (البقرة: ٣٦) بسبب استسلامهما لوعود إبليس وتسويلاته، والغفلة عن المعرفة الحقيقية بأن الله تعالى هو من يهب الحياة الخالدة والملك الدائم وليس الأكل من الشجرة، وما الأشياء الأخرى إلا أسبابٌ بتدبيره سبحانه وعدم الالتفات إلى تحذيرهما من إبليس وأنه عدو مبين لهما فكيف يكون من الناصحين؟ وكيف يصدقان قوله؟ وتزلزل عزم آدم على الصدق والثبات على العهد مع الله تبارك وتعالى ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَسَى- وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ (طه: ١١٥).

وحينئذ وقع المحذور فقد ارتكب آدم (عليه السلام) ما كان ينبغي له تركه رحمة بنفسه وتحرياً لسعادتها ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ (طه: ١٢١) وتفاجئا يبدو سواتهما الظاهرية التي كانت مستورة عنهما، والباطنية وهو النقص والاستسلام للهوى والشعور الكاذب بالعصمة من الخطأ حين أسجد الله تعالى له ملائكته، وشعرا بالخجل وحاولا سترهما لأن غريزة الإنسان تدفعه فطرياً الى ذلك ﴿وَوَظَفَقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ (الأعراف: ١٢٢) لستر عورتهم الظاهرية

(١) التفسير المنسوب للإمام العسكري: ٢٢١، البرهان: ١٤٢/١-١٤٣.

وجاءهما العتاب من الله تبارك وتعالى ﴿أَلَمْ أَنُهَكُمَا عَنْ تِلْكَمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (الأعراف: ٢٢) وبظهور سوأتهما لم يعودا مؤهلين للبقاء في الجنة، فجاءهما الأمر من الله تعالى بالخروج من الجنة وتحول القرب إلى بُعد لقوله تعالى ﴿وَنَادَاهُمَا﴾ والنداء هو للبعد، ولأنه قبل المخالفة فيها قيل لهما ﴿هَذِهِ الشَّجَرَةُ﴾ وبعد المخالفة ﴿تِلْكَمَا الشَّجَرَةُ﴾ وأمرنا بالنزول إلى الأرض ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ (البقرة: ٣٦) ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا﴾ (البقرة: ٣٦) بكل ما تعني الحياة في الأرض من تحاسد وتنافس وتزاحم يؤدي إلى الصراع والعدوان والظلم ﴿بَعْضُكُم لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ (البقرة: ٣٦) - (الأعراف: ٢٢).

وأدرك آدم (عليه السلام) وزوجه الخذلان الذي أصابهما واعترفا بخطأهما، وطلبا من الله تعالى بصدق العفو والمغفرة والرحمة لستر عورتهما الباطنية ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (الأعراف: ٢٣). فاستجاب الله التواب الرحيم الشفيق دعاءهما ولم يخذلهما ويتركهما لنفسيهما، بل علّم آدم أسماء^(١) يتوسل بها إلى الله تبارك وتعالى ليقبل توبته، ففعل

(١) ورد في عدة روايات أنها أسماء النبي محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين (صلوات الله تعالى عليهم أجمعين) (البرهان: ١/ ١٥٣-١٥٨، ٢، ٥، ٦، ١٠، ١١-١٧ عن الكافي: ٨/ ٣٠٥ ذيل الحديث ٤٧٢ وروى نحوه ابن المغازلي في المناقب: ٦٣/ ح ٨٩، الدر المنثور: ١/ ١٤٧، ينابيع المودة: ٦٧ والعياشي: ١/ ٤١ ح ٢٨، ٢٧، والتفسير المنسوب للعسكري (عليه السلام): ٢٢٤/ ح ١٠٥/ ١٠٦ وفي بعضها أن الكلمات (لا إله إلا أنت سبحانك اللهم وبحمدك عملت سوءا وظلمت نفسي فاغفر لي وأنت خير الغافرين، لا إله إلا أنت سبحانك اللهم وبحمدك عملت سوءا وظلمت نفسي فاغفر لي وارحمني وأنت أرحم

بصدق وإخلاص وتوسل آدم لربه بتلك الأسماء العزيزة على الله تعالى فتاب الله عليه ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ (البقرة: ٣٧) واصطفاه وجعله نبياً ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ (طه: ١٢٢)، وكتب الله تعالى عليهما وذريتهما التكليف المبني على الحرية والاختيار ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (البقرة: ٣٨ - ٣٩) ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ (الأعراف: ٥٥).

ونبين هنا بعض الأمور:

١- ثبت بالأدلة العقلية والعقلية أن الأنبياء (صلوات الله عليهم أجمعين) معصومون لا تصدر منهم الصغائر فضلاً عن الكبائر، ولا يصدر منهم الزلل سهواً ولا غفلة ولا جهلاً فضلاً عن العمد في كل أفعالهم وحالاتهم، لذا حمل مشهور العلماء قوله تعالى ﴿وَعَصَى﴾، ﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾ على ترك الأولى والأرشد والأفضل له، وأن النهي في الآيات الكريمة محمول على التنزيه والإرشاد لما فيه مصلحة آدم وزوجه، وعليه فالمعصية هنا ليست بمعناها الاصطلاحي أي الذنب، وتكون توبة آدم من فعل المرجوح والمفضول وترك الراجح والأفضل.

الراحمين، لا إله إلا أنت سبحانك اللهم وبحمدك عملت سوءاً وظلمت نفسي فتاب علي إنك أنت التواب الرحيم (روضة الكافي: ٣٠٤/ح ٤٧٢).

٢- لم تبين الآيات الكريمة ما هي هذه الشجرة التي نهى الله تعالى عنها لعدم مدخليتها في الغرض المراد من الآيات الكريمة، فلا داعي لإيراد الروايات التي تحددها خصوصاً وأن أكثرها ضعيفة السند.

وقيل: إنها كانت رمزاً ومظهراً للدنيا كما كانت تظهر الدنيا للمعصومين (عليه السلام) على صورة امرأة حسناء في الحوادث المروية عن النبي (صلى الله عليه وآله) وأمير المؤمنين (عليه السلام)، فالميل إليها والأكل منها من التعلق بالدنيا، الذي يوجب الشقاء والتعب والنكد ﴿فَتَشَقَّى﴾ وهو ممنوع على خلفاء الله تعالى في أرضه.

وورد في بعض روايات التأويل عن الإمام العسكري (عليه السلام) أن المراد بها (شجرة العلم، فإنها لمحمد وآله خاصة دون غيرهم ولا يتناول منها بأمر الله إلا هم، قال تعالى ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ (البقرة: ٣٥) تلتمسان بذلك درجة محمد وآل محمد (صلوات الله تعالى عليهم أجمعين) وفضلهم فإن الله تعالى خصهم بهذه الدرجة دون غيرهم، وهي الشجرة التي من تناول منها بإذن الله ألهم علم الأولين والآخرين من غير تعلم، ومن تناول منها بغير إذن خاب عن مراده وعصى ربه^(١) وظلم نفسه لأنه حملها ما لا تطيق وادعى منزلة بغير حق وانكشفت له سوائه أي نقصه وعجزه عن بلوغ درجة أكمل الخلق (صلوات الله تعالى عليهم أجمعين).

٣- ورد في أكثر من رواية في الكافي أن الله تعالى (نهى آدم وزوجته أن يأكلا من الشجرة وشاء ذلك، ولو لم يشأ أن يأكلا لما غلبت مشيئتهما مشيئة الله، وأمر إبراهيم أن يذبح إسماعيل ولم يشأ أن يذبحه، ولو شاء ذبحه لما غلبت مشيئة

(١) تفسير الإمام العسكري (عليه السلام): ٢٢١، البرهان: ١/١٤٢/ح ١.

إبراهيم مشيئة الله تعالى^(١) فتعلقت مشيئة الله تعالى بهبوط آدم (عليه السلام) إلى الأرض، لأن دار الدنيا مع ما فيها من المشقة والعناء والألم إلا أنها دار التكامل والارتقاء، ولم ينل آدم مقام الاجتباء والاصطفاء إلا بعد هبوطه إلى الأرض، فالإنسان خلق ليمارس وظيفته في خلافة الله تعالى على الأرض، لكن عبر مراحل بدأت ببيان فضله ومنزلته بأمر السجود لآدم وإسكانه الجنة، ثم النهي عن الاقتراب من الشجرة والأكل منها حتى تبدو سوأتهما إذا ارتكبا المخالفة فيهبطا إلى الأرض، فمصلحة النهي في الجعل وليس المجعول كما يقال في المصطلح نظير الأمر بذبح إسماعيل (عليه السلام)، وفي رواية تفسير القمي عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (فلما أسكنه الله الجنة وأباحها له إلا الشجرة لأن الله تعالى خلق خلقاً لا تبقى إلا بالأمر والنهي والغذاء واللباس والإسكان والتناكح. ولا يدرك ما ينفعه مما يضره إلا بالتوقيف)^(٢) أي بالنص الشرعي والتعبد به والوقوف عليه.

٤- في معنى (السوأة) قال الخليل: ((السوء: نعت لكل شيء رديء، وأساء فلان أي قبح صنعه، والسوأة كل عمل وأمر شائن، والسوأة فرج الرجل والمرأة)) وقال في وجه جمع (سوءات) في الآية ((لأن العرب إذا أرادوا شيئين من شيئين من خلقه في نفس الشيء نحو القلب واليد، قالوا: قلوبهما - في قوله تعالى ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ (التحریم: ٤) - وأيديهما ونحو ذلك)) وقال صاحب: ((السوء الاسم الجامع للآفات والداء)) وقال الراغب: ((السوء كل ما يغم الإنسان من الأمور الدنيوية والأخروية ومن الأحوال النفسية والبدنية والخارجية من فوات

(١) الكافي: ١/١١٧/ح ٣-٤.

(٢) تفسير القمي: ١/٤٣.

مال وجهه وفقد حميم)) وقال أبو هلال: ((الفرق بين السوء والقبيح: أن السوء مأخوذ من أنه يسوء النفس بما قرّبه لها وقد يلتذ بالقبيح صاحبه كالزنا وشرب الخمر والغصب)) وقال ابن الأثير: ((السوأة في الأصل: الفرج، ثم نقل إلى كل ما يستحيا منه إذا ظهر من قول أو فعل)) وقال المصطفوي: ((السيء ما يكون غير مستحسن في ذاته، سواء كان في عمل أو موضوع أو حكم أو أمر قلبي أو معنوي أو غيرها))^(١).

والخلاصة: أن إطلاق السوأة على الفرج لأنه مما يقبح إظهاره، وتوجب الهم والغم إذا أطلع عليها الناس.

وفي الآيات الكريمة دلالات وعبر:

١- أن فتنة الشيطان عظيمة فلا بد أن يكون الحذر والترقب بمستواها، وأن قدراته على الإغواء والإضلال ضخمة، فهو من أول لحظة لممارسته تهديده بإغواء بني آدم كان يمتلك كل هذه المعلومات عن طبيعة الإنسان وغرائزه وميوله وطرق إغوائه، قال تعالى ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ (الأعراف: ٢٧) والعدو غير المرئي تكون مواجهته صعبة جداً مع امتلاكه العدد والعدة اللازمة لعمله، قال تعالى: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ (الإسراء: ٦٤) وفي الحديث الشريف (إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم)^(٢) وقد نجح في إغراء أبينا آدم (عليه السلام) مع الإمكانيات

(١) نقلناها عن مصادرها بواسطة (المعجم في فقه لغة القرآن: ٣٦ / ٣٥٦ وما بعدها).

(٢) بحار الأنوار: ١٨ / ٦، الكافي: ٢ / ٤٤٠ بلفظ آخر: (عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: إن آدم (عليه السلام) قال: يا رب سلطت علي الشيطان وأجريتني مني مجرى الدم).

العظيمة التي هيأها الله تعالى له والتحذيرات الشديدة، فكيف بالناس اليوم وقد ازدادت خبرة إبليس وشياطينه وكثرت عدتهم وعددهم وتعرفوا على مداخل الإنسان أكثر أعوذ بالله تعالى منه ومن شياطينه، لكن الذي يهون الخطب أنه ليس له سلطان إلا بالوسوسة وحديث النفس ولا يغتر به إلا الذين دخلوا في ولايته ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأعراف: ٢٧)، أما المؤمنون فهم داخلون في ولاية الله تعالى ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ (محمد: ١١).

٢- بناءً على أن المنهي عنه أولاً وبالذات هو الأكل من الشجرة لذا ترتبت النتيجة وهي الهبوط إلى الأرض عليه، لكن النهي تعلق بالاقتراب من الشجرة، وهذا يعني أن المطلوب ليس تجنب نفس المعصية فقط بل كل ما يؤدي إليها ويغري بها من المقدمات وإن كانت جائزة، ولا يخدع الإنسان نفسه بأنه بعيد عن المعصية وأنه يستطيع مسك زمام نفسه ولا يقع فيها، فإن الشيطان سيجرّه إليها بعد ذلك، كمن يزعم أن محادثته على (الخاص) مع امرأة أجنبية هو لتعليمها المسائل الشرعية، أو مباحثة الدروس العلمية في الجامعة، أو مناقشة شؤون العمل، ولا يلبث أن يجدا نفسيهما قد وقعا في العلاقة المحرّمة وغيرها من الأمثلة التي ذكرناها في قيس سابق^(١).

لذا حذر المعصومون (عليه السلام) من الاقتراب من المعصية كما ورد في الحديث

(١) راجع قيس قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ (النور: ٢١) في تفسير من نور القرآن.

الشريف: (إن لكل ملك حمى، وحمى الله محارمه، فمن رتع حول الحمى أوشك أن يقع فيه)^(١).

٣- أن الله تعالى يريد بأوامره ونواهيه تحقيق السعادة والخير للإنسان، ولكن الإنسان يظلم نفسه فيختار حياة العناء والمشقة بمخالفته لما يريد الله تعالى وعدم التزامه بما عاهد الله تعالى عليه وإنه تبارك وتعالى لم ينهه عن شيء - كالأكل من الشجرة - إلا بعد أن أمّن حاجاته كلها من الحلال ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى﴾ (طه: ١٣٨) فارتكاب الأشياء المحرمة حينئذٍ فيه ظلم كبير ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

٤- إن الله تعالى لم يتدخل لمنع إبليس من غواية آدم (عليه السلام) وجبره على عدم الوقوع في المخالفة لعدة فوائد:

أ- ليعرف آدم (عليه السلام) عدوه الحقيقي وليتعرف على طريقته في الخداع والمكر وأدوات عمله قبل النزول إلى الأرض ودخول ساحة الصراع الفعلية معه.

ب- ليتعلم ما يجب وما لا يجوز، وما ينبغي وما لا ينبغي عند نزوله إلى الأرض أما الجنة فهي ليست دار التكليف.

ت- ليرى بعين اليقين العاقبة الوخيمة لمعصية الله تعالى والخروج عن زي العبودية حيث يطرد من الجنة ويحرم السعادة ويبتلى بالشقاء.

ث- لتثبت سنة الاختيار وأن الإنسان يقرر مصيره بإرادته لذلك فهو مسؤول عنه، وإن النهي عن الشجرة كان لاختبار الطاعة.

(١) وسائل الشيعة: ٢٧ / ١٦٧، ح ٣٣٥٠٧، عن تفسير جوامع الجامع: ٣٥.

ج- عدم الاتكال على النفس والثقة المطلقة بحصانتها من الخطأ، والتجرد من العُجْب والكبر، ولا بديّة الاعتصام بالله تعالى والتوكل عليه وطلب تأييده.

٥- إن الأرض وما عليها من الحياة الدنيا هي دار التكامل ومزرعة الآخرة، فلا بد لمن يريد الكمال والمقام الرفيع عند الله تعالى أن يخوض التجربة فيها، وإن كان فيها مشقة وعناء فليصبر الإنسان على ما يلاقه لهذا الغرض، أما الجنة فهي دار التنعم بكرامة الله تعالى وليس فيها تكليف، لذا كانت الدنيا بما تتضمنه من طاعة الله تبارك وتعالى أحبّ إلى أولياء الله من الجنة، روي عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قوله: (الجلسة في الجامع خير لي من الجلسة في الجنة فإن الجنة فيها رضا نفسي، والجامع فيه رضا ربي)^(١).

٦- على الإنسان أن لا يثق بوعود إبليس وتسويلاته التي تلائم شهوات النفس الأمارة بالسوء ولا يسترخي للأحلام الوردية التي يصورها له ﴿وَعَزَّزْتُكُمْ الْأَمَانِي﴾ (الحديد: ١٦) ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ (الأنفال: ٤٨) بل لا بد أن ينظر في الأمور بالحكمة ودراسة العواقب.

٧- إن إبليس وشياطينه من الجن والإنس ركزوا في إغوائهم للناس على نزع لباس الستر والعفاف والحياء المادي بالتعري والكشف عما أوجب الله تعالى ستره، والمعنوي بارتكاب المعاصي وهتك لباس العفاف والحياء والورع ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ (الأعراف: ٣١) ليحرمهم من جنة النعيم والسعادة التي تتحقق بطاعة الله تعالى والحياة في رعايته ليسقط إنسانيتهم ويحولهم إلى حيوانات همها

إشباع الغرائز وتلبية الشهوات التي لا تقف عند حد ﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مِيلًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ٥٧).

إن أبرز سمات الفرد العاصي لله تعالى والمجتمع الجاهلي البعيد عن شريعة الله تعالى هو انكشاف السوأة بكل معانيها وفقدان العفة، وقد بالغت المجتمعات الفاسقة في هذا المجال وتتسابق في كشف العورات ولم يتبق لها ذرة من عفة أو حياء، وامتهنوا هذا الانحطاط وجعلوه سلعة لتمرير مشاريعهم الشيطانية، فهي حاضرة في الإعلانات التجارية وفي المسابقات الرياضية والفعاليات الفنية بل في سائر مظاهر الحياة.

وهم يهتمون المؤمنين بالتخلف وهم في الحقيقة أهل التخلف لأن العري كان سمة الأجيال الأولى من البشر غير المتحضّر قبل أن يتعلم أي شيء ثم لما رشد الإنسان اعتنى بالملابس للستر والتجمل والوقاية من الأضرار المتنوعة ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمْ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ﴾ (النحل: ٨١).

وإذا أردنا أن نتقدم خطوة باتجاه تأويل الآية الذي أوردناه في الروايات، وأنّ الأكل من الشجرة الموجب لانكشاف السوأة هو عدم مراعاة فروض الولاية لأهل البيت (عليه السلام) الذين منهم يؤخذ الإسلام المحمدي الأصيل، فإن الولاية تؤدي إلى العفة، والعفة تؤدي إلى الولاية، وإن الشخص يحرم من نعمة الولاية بمقدار نقص العفاف عنده وكان أمير المؤمنين (عليه السلام) يدعو الناس إلى الالتزام بالعفاف ليلحقوا به قال (عليه السلام): (فأعينوني بورع واجتهاد وعفة وسداد)^(١) وقال

(١) نهج البلاغة: ٣ / ٧٠، بحار الأنوار: ٤٠ / ٣٤٠.

الإمام الصادق (عليه السلام): (إنما شيعة علي من عف بطنه وفرجه، واشتد جهاده، وعمل لخالقه، ورجا ثوابه، وخاف عقابه، فإذا رأيت أولئك فأولئك شيعة جعفر)^(١) ورکز دعاء الإمام الحجة (عليه السلام) في زمن الغيبة الكبرى على اتصاف النساء بها (وعلى النساء بالحياء والعفة)^(٢).

وأن مبغض أمير المؤمنين (عليه السلام) وناصب العداوة له متهم في طهارة مولده وبعيد عن السلوك العفيف، وتنطبق هذه النتيجة على ما ورد عن النبي (صلى الله عليه وآله) قال: (يا علي لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا ثلاثة، ولد زنا ومنافق ومن حملت به أمه وهي حائض)^(٣) وأحوال الذين أسسوا النصب والعداء لأمير المؤمنين (عليه السلام) تثبت ذلك، وسعوا إلى غلق أبواب العفة كالمنع من الزواج المؤقت ليقع الناس في الزنا، وليكثر المعادون لأمير المؤمنين (عليه السلام)، وهكذا كان قتلة^(٤) الأنبياء (صلوات الله تعالى عليهم أجمعين).

وعندما وقف الإمام السجاد (عليه السلام) في مجلس يزيد وهو يعرف نفسه ومما قال (عليه السلام): (أنا ابن قليلات العيوب، نقيات الجيوب)^(٥) فإنه (عليه السلام) كان يعرض بأعداء أهل البيت (عليهم السلام) الذين عُرفوا بالفضائح والموبقات.

(١) الكافي: ٢/ ٢٣٣ / ح ٩.

(٢) مصابيح الجنان: ١٧١، عن مصباح الكفعمي.

(٣) علل الشرائع: ٥٨.

(٤) خذ مثلاً عاقر ناقة صالح، وقاتل النبي يحيى بن زكريا (صلوات الله عليهما) وعبد الرحمن بن ملجم قاتل أمير المؤمنين (عليه السلام) بعد علاقة خائنة مع (قطام).

(٥) بحار الأنوار: ٤٣ / ٣٥٦.

القبس/٦٠

سورة الأعراف: ﴿٤٣﴾

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾

وبابك مفتوح للسائلين:

نعم الله تعالى على الانسان كثيرة لا تعد ولا تحصى قلما يلتفت اليها سواء كانت مادية او معنوية، ومن تلك النعم المعنوية إمكانية الاتصال بالله تعالى متى شئت فلا يغلق بابك على عباده مطلقاً، فان شئت أن تصلي قمت وتوضأت ودخلت في الصلاة، وكذلك إن شئت ان تصوم او تدعو او تسجد او تقرأ القرآن او تزور الائمة المعصومين (عليه السلام) وغير ذلك ولا تحتاج في ذلك الى أي واسطة، هذه النعمة يذكرنا بها الإمام السجاد (عليه السلام) في الدعاء المعروف بدعاء ابي حمزة في ليالي شهر رمضان (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنَادِيهِ كُلَّمَا شِئْتُ لِحَاجَتِي، وَأَخْلُو بِهِ حَيْثُ شِئْتُ، لِسِرِّي بَعِيرٍ شَفِيعٍ فَيَقْضِي لِي حَاجَتِي) ^(١).

وفي نفس الدعاء يقول (عليه السلام) (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَدْعُوهُ فَيُجِيبُنِي وَإِنْ كُنْتُ بَطِيئاً حِينَ يَدْعُونِي، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَسْأَلُهُ فَيُعْطِينِي وَإِنْ كُنْتُ بَخِيلاً حِينَ يَسْتَقْرِضُنِي .. الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَا أَدْعُو غَيْرَهُ وَلَوْ دَعَوْتُ غَيْرَهُ لَمْ يَسْتَجِبْ لِي دُعَائِي) ^(٢).

هذه واحدة من صفات ربنا ومولانا وهكذا نحن بالمقابل، فنعم الرب ربنا

(١) مفاتيح الجنان: ٢١٩.

(٢) نفس المصدر.

ونسأله تعالى ان لا نكون بئس العبيد نحن.

وقد تكرر هذا المعنى في كلمات الإمام السجاد (عليه السلام)، روى الاصمعي انه كان يطوف بالبيت الحرام فرأى شاباً متعلقاً بأستار الكعبة في جوف الليل وهو يدعو وكان من دعائه (نَامَتِ الْعُيُونُ، وَغَارَتِ النُّجُومُ، وَأَنْتَ الْمَلِكُ الْحَيُّ الْقَيُّومُ، غَلَقْتَ الْمُلُوكُ أَبْوَابَهَا، وَأَقَامْتَ عَلَيْهَا حُرَّاسَهَا، وَبَابُكَ مَفْتُوحٌ لِلسَّائِلِينَ)^(١).

كيف نعرف عظمة نعمة مناجاة الله تعالى؟

وإذا كانت الأمور تعرف بأضدادها فلكي تعرف عظمة هذه النعمة تصور لو انكم كنتم جماعة واتيتم للصلاة في المسجد فقيل للآخرين ادخلوا وقيل لك أنت ممنوع من الدخول، وأنت لست أهلاً للصلاة والدعاء والمناجاة، كم تكون حسرتك وفصاحتك وحيأوك، هذه الحالة التي يعبر عنها الإمام السجاد (عليه السلام) في دعائه (مَالِي كُلَّمَا قُلْتُ قَدْ صَلَّحْتُ سَرِيرَتِي وَقَرُبَ مِنْ مَجَالِسِ التَّوَابِينَ مَجْلِسِي عَرَضَتْ لِي بَلِيَّةٌ أَزَالَتْ قَدَمِي وَحَالَتْ بَيْنِي وَبَيْنَ خِدْمَتِكَ، سَيِّدِي لَعَلَّكَ عَنْ بَابِكَ طَرَدْتَنِي وَعَنْ خِدْمَتِكَ نَحَيْتَنِي، أَوْ لَعَلَّكَ رَأَيْتَنِي مُسْتَخِفًّا بِحَقِّكَ فَأَقْصَيْتَنِي، أَوْ لَعَلَّكَ رَأَيْتَنِي مُعْرِضًا عَنْكَ فَقَلَيْتَنِي، أَوْ لَعَلَّكَ وَجَدْتَنِي فِي مَقَامِ الْكَاذِبِينَ فَرَفَضْتَنِي، أَوْ لَعَلَّكَ رَأَيْتَنِي غَيْرَ شَاكِرٍ لِنِعْمَائِكَ فَحَرَمْتَنِي، أَوْ لَعَلَّكَ فَقَدْتَنِي مِنْ مَجَالِسِ الْعُلَمَاءِ فَخَذَلْتَنِي...) (٢).

وكان الائمة (عليهم السلام) يعلمون امتهم الخشية من حصول هذه الحالة لهم،

(١) بحار الانوار: ٩٦/ ١٩٧ ح ١١.

(٢) الصحيفة السجادية (ابطحي): ٢٢٢.

روى الشيخ الصدوق بسنده عن مالك ابن انس امام المذهب المالكي قوله في الإمام الصادق (عليه السلام) ((وكان من عظماء العباد واكابر الزهاد الذي يخشون الله عز وجل، ولقد حجبت معه سنة فلما استوت به راحلته عند الاحرام كان كلما همّ بالتلبية انقطع الصوت في حلقه وكاد ان يخرّ من راحلته فقلت: قل يا ابن رسول الله ولا بد لك من ان تقول فقال: يا ابن ابي عامر كيف اجسر ان اقول لييك اللهم لييك واخشى ان يقول عز وجل لي لا لييك ولا سعيدك))^(١).

هذه النعمة العظيمة يحسدنا عليها إبليس لأنه يعرف عظمتها وتشتد حسرته كلما رأى الطائعين لله تعالى لذلك يبذل كل وسعه لغواية بني آدم وسلب هذه النعمة منهم، روي عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (أحب الأعمال إلى الله عز وجل الصلاة، وهي آخر وصايا الأنبياء، فما أحسن الرجل يغتسل أو يتوضأ فيسبغ الوضوء ثم يتنحى حيث لا يراه أنيس فيشرف الله عليه وهو راکع أو ساجد، إنّ العبد إذا سجد فأطال السجود نادى إبليس: يا ويله، أطاعوا وعصيت، وسجدوا وأبيت)^(٢).

نماذج من عدم التوفيق لطاعة الله تعالى:

وهكذا كثير من الخلق غير موفقين لطاعة الله تبارك وتعالى حتى اليسير منها ويجدون كأن قيوداً وأغلالاً تُكبلهم عن الطاعة، كبعض سادة قريش الذين كان النبي (صلى الله عليه وآله) يدعوهم الى النطق بالشهادتين ويقول لهم قولوا كلمة خفيفة على

(١) بحار الانوار: ٤٧/١٦، عن الخصال وعلل الشرائع وروضة الكافي.

(٢) وسائل الشيعة: ٣٩/٤.

اللسان ثقيلة في الميزان فيقولون: (لو كلفتنا بنقل الجبال عن موقعها فإنه أهون علينا من هذه الكلمات).

وامثلة هؤلاء كثيرون كامرأة سافرة اثقل شيء عليها ان ترتدي الحجاب بينما الفاطميات الزينبيات يحرصن على تمام الحجاب والعفاف، او شخص لا يصلي يكون اثقل شيء عليه تذكيره بالصلاة او شخص متمول يكره كل من يطلب منه اخراج حقوقه الشرعية بينما يبادر المؤمنون الموفقون الى دفع ما بذمتهم فورا ويزيدون.

فأعرفوا هذه النعمة واشكروا الله تعالى الذي وفقكم لهذه الطاعات ولولا لطفه تبارك وتعالى لحرمتها منها كغيرنا، وهذا هو دعاء المؤمنين الفائزين يوم القيامة ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (الأعراف: ٤٣).

ولاية أمير المؤمنين (عليه السلام):

وخذ مثالا آخر ما يعرض اليوم على الشاشات الفضائيات ووسائل التواصل الاجتماعي وتقنيات المعلومات من الحجج البالغة والبراهين الواضحة على إمامة وولاية أمير المؤمنين (عليه السلام) وأهل بيت النبي (صلى الله عليهم أجمعين) التي هي تمام نعمة الاسلام وكمال الدين ويتقن بصدقها كثيرون لكنه لا يتمكن من الايمان والاذعان ويحس بثقل الاقرار بالولاية على قلبه ويقول بعضهم لا أقولها حتى لو دخلت جهنم، بينما أنتم الموالون تكون هذه الشهادة عندكم أحلى من

العسل وأمرأ من اللبن.

روى الكليني بسنده عن ابي بصير عن أبي عبد الله الصادق (عليه السلام) في تفسير هذه الآية قال: (إذا كان يوم القيامة دُعي بالنبي (صلى الله عليه وآله) وبأمر المؤمنين والأئمة من ولده فينصبون للناس، فإذا رأتهم شيعتهم (الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله) يعني: هدانا الله في ولاية أمير المؤمنين والأئمة من ولده (عليهم السلام))^(١).

وفي الاحتجاج للطبرسي في خطبة الغدير: (مَعَاشِرَ النَّاسِ.. سَلِّمُوا عَلَى عَلِيِّ بِأَمْرَةِ الْمُؤْمِنِينَ.. وَقُولُوا: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ)^(٢).

ولم تكن هذه الهداية ممنوحة اعتباطاً لعبد وحرّم منها آخر فإن ذلك كله ينافي عدالته ورحمته ولطفه، ولا هي بالاجبار والاكراه وإلا لبطل الثواب والعقاب ولما تقدم المحسن على المسئء وإنما هي بالاختيار والارادة لكن الله تعالى بلطفه يسر أسباب الطاعة لعبده وآتاه الوسائل والأدوات التي تمكنه منها وزينها له وما على العبد إلا أن يختارها ويسعى إليها ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ • فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿الحجرات: (٧) - (٨)﴾.

(١) الكافي: ٣/٤٦١ ح ٣٣.

(٢) الفرقان: ٣٤/١١، عن نور الثقلين: ٣١/٢.

القبس/٦١

سورة الأعراف: ﴿٦١﴾

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ﴾

موضوع القبس: دعوة إلى إقامة دين الله تعالى وإتباع الأمناء عليه

سُنَّة من سنن الله تعالى في خلقه تكشف عنها الآية الكريمة، وهي أن الناس^(١) إذا آمنوا بالله تعالى وبما أنزل على رسوله (ﷺ) وتمسكوا بتعاليم الدين وثبتوا عليه، فإن الله تعالى سيفتح لهم بركات مادية ومعنوية من السماء والأرض كانت مغلقة عليهم، والتعبير بالجمع للإشارة إلى تنوع البركات وتعدددها، هذا الفتح الذي قال عنه الله تبارك وتعالى: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ (فاطر: ٢).

وهذه البركات خاصة غير النعم العامة التي يفيضها الله تعالى على جميع خلقه سواء كانوا مؤمنين أو غير مؤمنين، وبها يعيشون حياتهم ويتمتعون بها، وهي أيضاً غير النعم الذي يغدق الله تعالى بها على العاصين استدراجاً لهم ولقطع أعدارهم، فتكون وبالأعلى عليهم لأنها تكون سبباً في تماديهم وزيادة آثامهم، قال تعالى في الآية السابقة ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (الأعراف: ٩٥).

(١) وهم أهل القرى الذين ارسل لهم الأنبياء (صلوات الله عليهم أجمعين) المشار إليهم في قوله تعالى قبل آيتين ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ﴾ (الأعراف: ٩٤) والقرية الموضع الذي يجتمع فيه الناس.

وقد وصفت الآية الكريمة هذه النعم المفتوحة بالبركات وهي الخيرات الخالصة الطيبة التي تكون سبباً لحياة أفضل للناس مع ما فيها من الاستمرارية والنماء، وليست هي كالحسنة التي ذكرتها الآية السابقة فإن الحسنة ما يوافق طبع الإنسان وليس بالضرورة أن تكون خيراً له بل قد تكون وبالاً عليه كما في الاستدراج.

ومثاله اليوم الأمم الغربية فإنهم بعد أن خاضوا حربين عالميتين أهلكت عشرات الملايين منهم ودمّرت مدنها، نشأ جيل في عافية ﴿حَتَّىٰ عَفَوا﴾ ورغدٍ من العيش وانهمرت عليه النعم، فأصبح همّه الانغماس في الشهوات والملذّات بلا حدود حتى أصبح يشرعن الشذوذ الجنسي ويبيح قتل أجنة الحوامل، ويستحلّ إبادة الشعوب المستضعفة لاستعبادهم، ويظهرون عراة أمام الملأ، ويعبثون بما أنعم الله تعالى عليهم من الثمرات، وهم يظنون أنهم قد عَفَوا^(١) مما ابتلي به آبائهم.

وحينئذٍ بدأت تظهر عليهم النتائج السيئة لأعمالهم القبيحة من انهيار أخلاقي، وتفكك اجتماعي، وانقراض النسل، وأمراض فتاكة وجفاف، وأزمات في الاقتصاد والغذاء والطاقة، وخوف وقلق من المستقبل المجهول المحفوف بالمخاطر، قال تعالى ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمِلِّي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمِلِّي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ (آل عمران: ١٧٨) وقال تعالى ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا

(١) وهو معنى آخر لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ عَفَوا﴾.

أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٣٢٧﴾ (الأنعام:٣٢٧)، وهذا سيكون حتماً مصير الدول المستكبرة الظالمة.

وقد بدأت الآية بـ﴿وَلَوْ﴾ لحثّ وترغيب الأجيال الحاضرة والمستقبلية على الإيمان والتقوى، وأخذ العبرة من الأمم السابقة التي كانت عاقبتها قاسية لأن أغلب الناس لا يتعظون، ولا يعون هذه الحقيقة فيهلكون أنفسهم ومجتمعهم، واقتربت (فَتَحَنَّا) باللام لتأكيد النتيجة، فالآية الكريمة لا تتحدث عن حالة الأمم السابقة وعاقبة تكذيبهم فقط، وإنما ترشد لسنة إلهية جرت فيهم وتجري في أمثالهم فتبشّر المؤمنين وتحذّر العصاة والكافرين؛ لأن الكون بكل أجزائه يسير في حركة منتظمة بحسب ما أراد الله تعالى، فمن انسجم معها من البشر تنعم بها، ومن خالفها شقي بها، مثلاً مَنْ أراد أن يخالف قانون الجاذبية ويرمي نفسه من شاهق فإن الأرض ستجذبه وتتهشم عظامه.

ولأهمية التعرف على هذه السنة الإلهية فقد ورد التأكيد عليها في غير هذه الآية كقوله تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾ (المائدة:٦٥-٦٦).

إذن إقامة الدين في حياة الناس وتمسكهم بالإيمان والعمل الصالح سبب أكيد للسعاد ورفاهية العيش في الدنيا، ونيل رضوان الله تعالى والنعيم في الآخرة،

فالدين ليس أفعالاً عبادية يؤديها الإنسان بينه وبين الله تعالى بمعزل عن الواقع بل إنه قانون لتنظيم حياة الإنسان مع الكون كله.

لقد احتجّت الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء (عليها السلام) على أصحاب أبيها بهذه الآية الكريمة رحمةً بهم وشفقة عليهم لأنها تعلم بأن ما يحصل في ذلك اليوم إيجاباً أو سلباً سيزلزل الأرض جميعاً ويرسم خارطة مستقبل البشرية جمعاء إلى قيام الساعة، فطالبتهم بالوفاء ببيعتهم لأمر المؤمنين (عليهم السلام) التي أخذها رسول الله (ﷺ) منهم يوم غدیر خم، وأنهم إن التزموا بها فتح الله تعالى عليهم بركات من السماء والأرض، وحذرتهم من مغبة النكول والنكوص على الأعقاب، ومما قالت (عليها السلام) في حثهم على الوفاء ببيعة أمير المؤمنين (عليه السلام): (وَتَاللَّهِ، وَلَأُورِدَهُمْ مِنْهَلًا نَمِيرًا صَافِيًا رَوِيًّا فَضْفَاضًا، تَطْفَحُ ضَفَّتَاهُ -لِغَزَارَتِهِ-، وَلَا يَتَرَنَّ جَانِبَاهُ -فَإِنَّهُ نَقِي حَتَّى فِي جَوَانِبِهِ خِلَافًا لِأَنْهَارِ الدُّنْيَا-، وَلَأُصْدِرَهُمْ بَطَانًا -أَيَّ شَبْعَى-، وَنُصَحَ لَهُمْ سِرًّا وَإِعْلَانًا، وَلَمْ يَكُنْ يَتَحَلَّى مِنَ الْغَنَى بَطَائِلَ، وَلَا يَحْظَى مِنَ الدُّنْيَا بَنَائِلَ غَيْرَ رِيٍّ النَّاهِلِ، وَشَبْعَةُ الْكَافِلِ -فَكَافِلُ الْعِيَالِ يُؤْثِرُهُمْ عَلَى نَفْسِهِ-، وَلِبَانُ لَهُمُ الزَّاهِدِ مِنَ الرَّاغِبِ، وَالصَّادِقُ مِنَ الْكَاذِبِ)^(١) ثم تلت الآية الكريمة ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (الأعراف: ٩٦).

وهي (عليها السلام) لم تدعهم إلى علي (عليه السلام) الشخص فقط وإنما دعتهم إلى التمسك بعلي (عليه السلام) المشروع الذي أسسه النبي (ﷺ)، وهو الإسلام النقي كما

(١) الاحتجاج للطبرسي: ١ / ١٣٩.

أنزل من الله تبارك وتعالى، وتعاقب على تمثيله أبنائه المعصومون البررة (عليه)، ومن بعدهم مراجع الدين العظام.

فعلينا أن نستجيب لدعوة السيدة الزهراء (عليها) ونعمل على إقامة دين الله وهداية الناس إلى ما فيه خير الدنيا والآخرة وإصلاح أحوالهم، وأن نبداً من داخل أسرتنا أولاً وننتقل إلى المجتمع، وأن نستثمر كل الوسائل المتاحة خصوصاً ما كانت منها واسعة الانتشار وبالغة التأثير ولا تعيقها حدود الجغرافيا، وحينئذٍ ستحظى الأسرة والمجتمع بانفتاح هذه البركات التي لم تذكرها الآية لكنها تُعرف من الآيات الأخرى والروايات الشريفة، كحالة الاطمئنان والسكينة وزوال الخوف والقلق الذي ينكد حياة البشر اليوم ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (الرعد: ٢٨) ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (يونس: ٦٢) وينعمون بحياة هنيئة سعيدة ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (النحل: ٩٧).

ولا بد أنه سيأتي اليوم الذي تسعد فيه البشرية بإقامة دين الله تعالى وهيمنته على كافة الأنظمة والأيدولوجيات البشرية، وحينئذٍ تنفتح البركات على نحو غير متصور مما أسهبت الروايات في ذكرها، ووصف الحياة الطيبة والريادة والمرفهة التي يعيشها الناس في ظل الدولة المباركة بقيادة الإمام المهدي الموعود (صلوات الله وسلامه عليه).

اسأل الله تعالى أن يتقبل منا ومنكم هذه النصرة، ويجعلها بلسماً لجروح فاطمة الزهراء (عليها) العميقة، والحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين.

ملحق: الحل والعلاج في العودة إلى الله تبارك وتعالى^(١)

علّة البلاء:

من الحقائق التي بينها الله تبارك وتعالى من خلال القرآن الكريم لتشيتها في قلوب وعقول المؤمنين أن ما يصيبهم من بلاء وعنت وضيق وشدة فإنما هي نتيجة أعمالهم السيئة ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ (الشورى: ٣٠) ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (النحل: ٣٣) ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكُمْ﴾ (النساء: ٧٩)، وylft أنظار المسلمين من أصحاب رسول الله (ﷺ) وهم في قمة المواجهة العسكرية مع مشرقي قریش في معركة أحد أن هزيمتهم كانت بسبب عدم تهذيب أنفسهم فهذا هو السبب الحقيقي وليس الأسباب المادية ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾ (آل عمران: ١٥٥).

الله تعالى يعلمنا طريق الحل:

وفي نفس الوقت يعلمنا الحل وسيل النجاة من هذه المعاناة.
انه بالعودة إلى الله تبارك وتعالى والتضرع إليه والتوسل إليه تبارك وتعالى وتصفية القلوب مما فيها من غلٍ وضغائن ورذائل كالحسد والعجب والكراهية

(١) من النصائح والمواعظ التي كان يوجهها سماحة الشيخ (دام ظله) إلى الأمة من خلال أئمة الجمعة خلال فترة المواجهات المسلحة عام ٢٠٠٤م.

وَالْأَنْبِيَاءُ ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ
وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ • أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ
أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ • أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى
وَهُمْ يَلْعَبُونَ • أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ •
أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصْبَنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ
وَنُظْبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ (الأعراف: ٩٦-١٠١).

والمراد بالبأس هنا ليس الاستئصال كما كان يحصل للأمم السابقة على
الإسلام، فإن مثل هذا العذاب قد رُفِعَ عن هذه الأمة ببركة النبي (ﷺ)، ولكن
الأمة بقيت معرضة - بسوء تصرفها - لألوان أخرى من العذاب: نقص الثمرات،
ووقوع الفتن والحروب بينهم فيذيق بعضهم بأس بعض، تداعي الأمم الأخرى
عليهم لاستعبادهم، وهذه البلاءات كلها قد نزلت بالأمة والعياذ بالله. وقال تعالى
﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ (الطلاق: ٢)-
(٣)، ويخاطب الأمم التي تتخبط في جهلها وغفلتها وبعدها عن الطريق الحقيقي
﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْظِيكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ ثَمَرٍ مُّثْقَلٍ ثُمَّ تَكْفُرُوا﴾
(سبأ: ٤٦) أي أن تلتفتوا إلى أنفسكم فتعودوا إلى الله تبارك وتعالى أفراداً
وجماعات وتجأرون إلى الله بالدعاء والاستغاثة.

وهذا لا يعني أن هذا القيام لله تبارك وتعالى واللجوء إليه مختص بحال
الاضطرار، إذ المطلوب أن يكون الإنسان في كل حالاته ذاكراً لله تعالى مستجيراً
به طالباً منه التوفيق والتشيت على الإيمان والزيادة من عمل الخير والتأييد، بل إنه

سبحانه يعرض مستغرباً مثل هذا النموذج الذي لا يعرف الله إلا في أوقات الضيق والشدة كانقطاع السبل في البحر الهائج ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِّ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ (العنكبوت: ٦٥)، ولا يقصد الشرك الظاهري أي عبادة الأصنام ونحوها لأنه خلاف دعوتهم لله مخلصين، وإنما يريد الشرك الخفي أي الإعراض عن الله والالتجاء إلى الأسباب من دونه.

ويضرب لنا مثلاً في قوم يونس فإنهم قد أخطوا بعذاب، وظن نبيهم أنهم قد أخذوا ولم تبق فرصة لنجاتهم، فغادر المدينة إلا أنهم عادوا إلى الله وخرجوا جميعاً مستغيثين بالله أن يرفع عنهم البلاء، فاستجاب الله تبارك وتعالى لهم ونجاهم ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ (يونس: ٩٨).

وابتغوا إليه الوسيلة:

ولا يتم هذا الاتصال بالله تبارك وتعالى وينتج ثمراته إلا بولاية أهل البيت (عليهم السلام) والتوسل بهم إلى الله تبارك وتعالى وإدامة ذكرهم وإقامة شعائرهم والاستغاثة بالإمام القائم بالأمر (عليه السلام)، قال تعالى ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ (طه: ١٦٤) وقد ورد في الروايات^(١) أن الذكر هي ولاية أهل البيت (عليهم السلام) فمن لم يتمسك بهم يكن في عيشة ضيقة تعيسة خالية من الإمدادات الروحية.

(١) الكافي: ١ / ٣٦١ ح ٩٢، تفسير البرهان: ٢٥٧/٦.

وقد ورد عن الإمام الهادي في حق دعاء (يا من تُحَلُّ به عُقْدُ المكاره)^(١) وهو من أدعية الصحيفة السجادية: (إن آل محمد (صلى الله عليهم أجمعين) يدعون بهذه الكلمات عند إشراف البلاء وظهور الأعداء وخوف الفقر وضيق الصدر وغيرها).

هكذا علمنا الله تبارك وتعالى وهكذا أدبنا أهل البيت (عليهم السلام) فأين نحن من ذلك التأديب الذي يراد منه نفعنا وسعادتنا ؟

الانفعال والارتجالية:

أنا لا أنكر تقدم المستوى الإيماني لدى هذا الجيل بفضل الله تبارك وتعالى بشكل أذهل الأعداء وأصاب خططهم بالخيبة والخسران، إلا أنه مع الأسف في كثير من حالاته عبارة عن وهج عاطفي وحرارة متدفقة غير مقترن بوعي عميق وتربية راسخة للقلب والنفس، مما يجعل هذه الاندفاع في مهب الريح - والعياذ بالله - إذا لم تتداركها بما يصلحها.

وإلا بماذا تفسر انتشار الافتراء والبهتان والتسقيط والتشويه بين المؤمنين بل أصبح شغل الكثير من أهل الغفلة هو ذم العلماء والمراجع والقذح فيهم وانتقادهم، ولا أدري من أين نال هؤلاء القيمومة على الآخرين ليعطوا لهم الحق في تقييم أعمال المراجع والمفكرين؟! ألم يسمعوا الحديث الشريف عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (المؤمن أعظم حرمة من الكعبة)^(٢)، فالاعتداء على سمعة المؤمن

(١) الصحيفة السجادية (أبطحي): ٦٧/ دعاء: ٢٤.

(٢) بحار الأنوار: ج ٦٤ / ص ٧١ ح ٣٥.

وكرامته وتشويه صورته اشد من الاعتداء على الكعبة، أو على العتبات الطاهرة للأئمة المعصومين (عليهم السلام) - رغم أنها من الجرائم الشنيعة - فهل التفت المؤمنون إلى هذه الكبائر التي تورطوا فيها، وعميت بصائرهم عن رؤيتها حتى تنشر صحائف أعمالهم أمام الحكم العدل ﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ (ق: ٢٢).

هل غضبنا لله تعالى أم لأنفسنا؟

وهل غضبوا لانتهاك حرمان المؤمنين أم على العكس إنهم خاضوا في هذه الكبائر وشربوا كأسها حتى الثمالة، حتى أن بعض أئمة الجمعات استغلوا هذا الموقع الإلهي الذي يعبر عنه الإمام (عليه السلام) (اللهم إن هذا مقام أوليائك وخلفائك)^(١) استغلوه للمهاترات الكلامية وتصفية الحسابات الشخصية ولانتقاد العلماء.

التربية إلى نصف الطريق:

عن هذا النقص في تربية المشتغلين بالعمل الاجتماعي الإسلامي والأسف من عدم اكتمال التربية قال الشهيد السيد محمد باقر الصدر رائد الحركة الإسلامية في العراق^(٢)، ((إننا استطعنا أن نربي الآخرين إلى نصف الطريق)) وعلق عليه

(١) الصحيفة السجادية (أبطحي): ٣٥١/ دعاء: ١٥٠.

(٢) من بحث بعنوان (التربية الدينية) كتبه السيد الشهيد الصدر الثاني أيام إقامته الجبرية في الثمانينات وهو مخطوط محفوظ عندي، ونشر ضمن سلسلة (ما لم ينشر من تراث السيد الشهيد الصدر الثاني) (قارن).

الشهيد السيد محمد الصدر (قده): ((ولم يقل إلى نهايته لأنه لو كان الأمر كذلك لما حصل أي شيء من تلك النتائج. ولو كان أولئك المتدينون قد أصلحوا أنفسهم قبل إصلاح الآخرين، وما رسوا المقدمات المنتجة لصفاء النفس ونور القلب وعمق الإخلاص وقوة الإرادة وعفة الضمير لما عانوا ما عانوا، بل ولعلمهم لم يحتاجوا في الحكمة الإلهية إلى كل هذا البلاء الذي وقع عليهم، وإنما كانوا مع شديد الأسف مصداقاً لقوله تعالى ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ (محمد: ٣٨) ولم يكونوا مصداقاً لقوله تعالى ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ (الحج: ٤١)، وليس ذلك إلا لان الأفراد التامين من جميع الجهات والأوصاف الجامعين للشرائط عددهم قليل، وأقل من الحاجة بكثير)).

المركة الكبرى:

أيها الإخوة والأخوات زادهم الله بصيرة:

إننا مطالبون بمحاربة الشياطين في أنفسنا الأماراة بالسوء قبل كل شيء، ومهما تعاظمت شياطين الجن والأنس فإنها دون هذا العدو الأكبر الذي وصفه الحديث الشريف (أعدى أعدائك نفسك التي بين جنبيك)^(١)، بل إن كل شياطين الإنس هي ثمرة هذا الشيطان ولو أصلحنا ما في نفوسنا لم يبق شيء من تلك

(١) مستدرك سفينة البحار - النمازي: ١١٤/١٠.

الشياطين، لذا سمي النبي (ﷺ) جهاد النفس بالجهاد الأكبر^(١) ومعناه أن العدو في هذا الجهاد هو العدو الأكبر. وجهاد الأعداء الآخرين مهما تفرعنوا بالأصغر.

النصر الحقيقي:

إن نصرنا الحقيقي حينما نستطيع سحق أهوائنا وأنانيتنا ونزيل الغل والحقْد والكراهية وحب الدنيا بكل أشكالها (وأخطرها حب الرئاسة والتسلط وتصفيق الجماهير) والحسد والرياء والعجب والتكبر والعنجهية والاستعلاء وغيرها من الرذائل، ونملأ قلوبنا بالحب والرحمة والشفقة والعفو والصفح والتآلف والمودة والصبر وكظم الغيظ وغيرها من الفضائل.

هذه هي وصايا أهل البيت (عليهم السلام) وهذه تربيتهم، حتى حينما كان يظن شيعتهم أن الفرصة قد حانت وأن الثمرة قد آن قطافها، كانوا (عليهم السلام) دائماً يذهبون في الاتجاه الآخر غير الذي يفكر به الآخرون مهما قربوا من الإمام (عليه السلام)، وهو اتجاه محاسبة النفس ومراقبتها وعرضها على الميزان الذي نصبه أهل البيت (عليهم السلام)، وأقرأ كشواهد على ذلك^(٢) أقوال الإمام الصادق (عليه السلام) لمن عرضوا عليه النصرة وتسليم مفاتيح السلطة بعد القضاء على الأمويين، ونصائح الإمام الرضا (عليه السلام) للذين خرجوا لاستقباله على طول الطريق من المدينة المنورة إلى مرو.

(١) وسائل الشيعة: ١٥/١٦١ ح ١.

(٢) راجع كتاب دور الأئمة في الحياة الإسلامية.

ابتعادنا عن أدب السلف الصالح:

إننا ضيعنا حتى الحد الأدنى من ذكر الله تعالى وهو الالتجاء إليه عند الاضطرار، فها هو البلاء يحيق بنا والأعداء يتربصون بنا ولا أجد المؤمنين يعقدون مجالس الدعاء والتوجه إلى الله تعالى والاستغاثة بالمعصومين (عليه السلام) والتوسل إلى صاحب الأمر (عليه السلام) كي يتولانا برعايته مع عدم الإخلال بالواجبات الأخرى طبعاً، يروي لنا سلفنا انه إذا مر بهم بلاء اجتمعوا في المساجد والحسينيات للدعاء ولذكر مصائب أهل البيت (عليه السلام) وزيارتهم، وكان طلبة العلم في النجف يتوجهون مشياً على الأقدام إلى مسجد السهلة مستغيثين بالإمام المهدي (عليه السلام) أو كربلاء لزيارة الحسين (عليه السلام) أو أي مسجد جامع لأبناء المدينة فيرفع الله عنهم البلاء، كما فعل بقوم يونس، بل ما حصل لنفس النبي يونس (عليه السلام) فانه لما نادى ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (الأنبياء: ٨٧) جاءه الغوث والخلص ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الأنبياء: ٨٨) وقال تعالى ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ۖ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (الصافات: ١٤٣-١٤٤).

لذا يبين الإمام المهدي (عليه السلام) امتعاضه من شيعته لأجل هذه الغفلة عن الله تعالى وعن أهل البيت (عليه السلام) في كثير من اللقاءات معه (عليه السلام) ومنها قصة السيد الرشتي المذكورة في مفاتيح الجنان لما ضلَّ الطريق في ظروف صعبة قال له موبخاً لماذا تتركون زيارة عاشوراء والنافلة وزيارة

الجامعة الكبيرة^(١).

هذا هو الحل وهذا هو طريق النجاة أن نقوم لله تعالى مشى وفرادى
متآلفين ومتحابين أنقياء القلوب أصفياء النفوس ونعمل بوصايا
المعصومين (عليه السلام) ونتأدب بأدبهم ونترك التعصب والتشنج والتطرف
والأنانية وحب الدنيا.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا
حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَاكُمْ عَنْهُ إِن أُرِيدُ إِلَّا
الإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾
(هود: ٨٨).

والحمد لله رب العالمين صلى الله على محمد وآله الطيبين
الطاهرين.

(١) تفصيل الكلام في كتاب (شكوى الإمام (عليه السلام)).

القبس/٦٢

سورة الأعراف: ﴿١٥٦﴾

﴿وَأَكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُذُنَا إِلَيْكَ﴾

موضوع القبس: التوسل بالأعمال الصالحة لاستجابة الدعاء

قصة في تأثير العمل الصالح:

هذا من تمام كلام النبي الكريم موسى (عليه السلام) الذي ورد في الآية السابقة. والهود لغة: الرجوع برفق ومنه التهويدة وهو مشي الدبيب وصار الهود في التعارف التوبة، قال تعالى ﴿إِنَّا هُذُنَا إِلَيْكَ﴾ أي تبتنا، قال الراغب وهو الدعاء^(١) وطلب من الله تعالى ان يكتب لهم أي يثبت لهم في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة، وهو الدعاء الذي ذكره الله تعالى في آية أخرى ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾ (البقرة: ٢١).

ويمكن ان نفهم من الدعاء المذكور انه يجعل توبتهم ورجوعهم الى ربهم - باعتباره عملاً صالحاً يحبه الله تبارك وتعالى - سبباً ووسيلة لنيل هذا الجزاء منه تبارك وتعالى، وهذا هو الدرس الذي نريد ان نقتبسه من هذا الجزء من الآية الكريمة، ان من وسائل استجابة الدعاء الى الله تبارك وتعالى بعمل صالح مخلص يحبه الله تعالى وفقه الله تعالى اليه ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ (الطلاق: ٢-٣).

(١) مفردات غريب القرآن - الأصفهاني: ٥٤٦.

روت عدة مصادر من الشيعة والسنة عن النبي (ﷺ) انه قال (بينما ثلاثة رهط يتماشون أخذهم المطر فأووا إلى غار في جبل، فبينما هم فيه انحطت صخرة فأطبقت عليهم، فقال بعضهم لبعض: انظروا أفضل أعمال عملتموها فسلوها بها - وفي مصدر آخر: تذكرون احسن اعمالكم فادعوا الله عز وجل بها وفي مصدر ثالث: انظروا اعمالا عملتموها صالحة لله - لعله يفرج عنكم.

قال أحدهم: اللهم إنه كان لي والدان كبيران وكانت لي امرأة وأولاد صغار فكنت أرعى عليهم، فإذا أرحت عليهم غمي بدأت بوالدي فسقيتهما، فلم آت حتى نام أبوي فطبيت الاناء ثم حلبت، ثم قمت بحلابي عند رأس أبوي والصبية ينضاعون عند رجلي، أكره أن أبدأ بهم قبل أبوي، وأكره أن أوقظهما من نومهما، فلم أزل كذلك حتى أضاء الفجر اللهم إن كنت تعلم أنني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا فرجة نرى منها السماء، ففرج لهم فرجة فراوا منها السماء.

وقال الآخر: اللهم إنه كانت لي بنت عم فأحببتها حبا كانت أعز الناس إلي، فسألتها نفسها، فقالت: لا حتى تأتيني بمائة دينار، فسعيت حتى جمعت مائة دينار فأتيتهما بها، فلما كنت بين رجليها قالت: اتق الله ولا تفتح الخاتم إلا بحقه، فقمت عنها، اللهم إن كنت تعلم أنني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا فيها فرجة، ففرج الله لهم فيها فرجة.

وقال الثالث: اللهم إني كنت استأجرت أجيرا بفرق ذرة، فلما قضى عمله عرضت عليه فأبى أن يأخذها ورغب عنه، فلم أزل أعتمل به حتى جمعت منه بقرا ورعاتها، فجاءني وقال: اتق الله وأعطني حقي ولا تظلمني، فقلت له: اذهب إلى تلك البقر ورعاتها فخذها فذهب واستاقها، اللهم إن كنت تعلم أنني فعلت ذلك

ابتغاء وجهك فافرج عنا ما بقى منها ففرج الله عنهم فخرجوا يتماشون^(١).

الدروس والعبر:

أقول: يمكن استخلاص عدة دروس وعبر من هذه الحكاية:

١- إن هذه الحادثة وأمثالها تولد الاطمئنان القلبي العملي بجملة من الاعتقادات التي تؤمن بها نظرياً لكننا عملياً لا ندعن بها ولا نتوجه اليها، والإيمان النظري لا يكفي ليكون محرّكاً عملياً حتى يطمئن القلب بها وذلك عندما تقع عملياً من باب ﴿...أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالِ بَلَىٰ وَلَكِنْ لِيُظْمِنَ قَلْبِي...﴾ (البقرة: ٣٢).

فهذه الواقعة ترسخ عدة عقائد:

(منها) عقيدة ان الله على كل شيء قدير فكم واحد منا يقع في مثل المأزق وهو مطمئن الى ان الله تعالى قادر على أن يزيل هذه الصخرة بمجرد تعلق إرادته بذلك ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ أما عامة الناس فانهم يعتقدون باستحالة ذلك لاحتياج الأمر الى أجهزة وآليات لرفع الصخرة وعمال من أين نأتي بهم وهكذا، لكن الحقيقة إن ارادة الله تعالى إذا تعلق بإزالتها استجابة لدعاء هؤلاء فأنها تزول، ولا نستكثر ذلك على الخالق المقتدر فنحن البشر المخلوقون الضعفاء إذا تعلق إرادتنا بأن نقفز يرتفع الجسد الذي قد يزيد وزنه عن ١٠٠ كغم مباشرة من دون أي مؤثر خارجي سوى الارادة، فلماذا لا يتحقق كل ما تتعلق به ارادة الله تعالى

(١) بحار الانوار: ٤٢١/١٤ عن آمالي الشيخ الطوسي: ٤٠٨، ورواها الطبراني في كتاب الدعاء الحديث ١٧٨ بسنده عن علي ابن ابي طالب (عليه السلام) واخرجه البخاري في باب (التوسل بالأعمال الصالحة عند الدعاء).

وبيده كل شيء وكل شيء خاضع له ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (يس: ٨٢).

و(منها) عقيدة إن مع العسر يسرا وهذا ما حصل لهم بالصبر والدعاء والتوسل.

و(منها) إن ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ (الطلاق: ٢-٣) وقد جعل الله تعالى لهم مخرجاً بتقواهم.

و(منها) ان الله عند حسن ظن عبده إذا أحسن الظن، روي عن رسول الله (ﷺ) أنه قال (وَالَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، لَا يَحْسُنُ ظَنُّ عَبْدٍ مَوْلَاهُ إِلَّا مَا كَانَ اللَّهُ عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ، لِأَنَّ اللَّهَ كَرِيمٌ بِيَدِهِ الْخَيْرَاتُ يُسْتَحْيِي أَنْ يَكُونَ عَبْدُهُ الْمُؤْمِنُ قَدْ أَحْسَنَ بِهِ الظَّنَّ ثُمَّ يُخْلِفَ ظَنَّهُ وَرَجَاءَهُ، فَأَحْسِنُوا بِاللَّهِ الظَّنَّ وَارْغَبُوا إِلَيْهِ^(١)، فالرواية تدعونا الى حسن الظن دائماً ورجاء الخير من الله تبارك وتعالى وسيحقق الله تعالى ذلك لعباده.

٢- حسن أدب هؤلاء الثلاثة مع ربهم وصحة عبوديتهم ومعرفتهم بالله تبارك وتعالى، إذ أنهم مضافاً إلى ما حملوه من المعرفة بالله تبارك وتعالى التي ذكرناها في النقطة الأولى لم يقدموا بين يدي ربهم أي عمل يمنون به على الله تبارك وتعالى ولا طالبوا باستحقاق لهم عند ربهم ولم يزكوا أنفسهم وأعمالهم ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ﴾ (النساء: ٤٩) وغاية ما قالوا (اللَّهُمَّ إِنَّكَ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُهُ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ)، ومن معرفتهم التفاتهم

الى هذه الوسيلة للفرج والوصول الى المراد.

٣- إن من أسباب استجابة الدعاء التوسل إلى الله تبارك وتعالى والتقرب إليه بعمل صالح قد أحسنه وأخلص النية فيه من دون اتكال على العمل أو العجب به أو الجزم بصلاحه واستحقاقه للعطاء فإن هذه كلها محبطات للعمل ومن دون اقتراح على الله تبارك وتعالى ولكن من باب التقرب إلى الله تعالى بشيء يحبه.

فالأول توسل الى الله تعالى بالإحسان الى والديه والآية تقول ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (البقرة: ١٩٥) خصوصاً مع الوصية المؤكدة بالوالدين ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾.

والثاني توسل الى الله تعالى بعمل المتقين الورعين والآية تقول ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ (التوبة: ٤).

والثالث طهر نفسه من مظالم العباد وحقوقهم عنده وتاب الى الله تعالى توبة صادقة، والله تعالى يقول ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ السَّوَابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ (البقرة: ٢٢٢).

من أراد نفع الدنيا ليخلص عمله:

وهذا أحد تطبيقات قول الصديقة الزهراء (عليها السلام) (من أصدد إلى الله خالص عبادته أهبط الله عز وجل له أفضل مصلحته)^(١) فمن رغب أن يختار الله تعالى له أفضل الخيارات وأصلحها له وأكثرها نفعاً في الدنيا والآخرة فليبالغ في إخلاص عمله من الشوائب.

وقد جربت ذلك في حياتي فإن بعض الذي أعرف لهم أعمالاً صالحة أحسنوا فيها للآخرين وقعوا في شدة أو بلاء أو حاجة فسألت الله تبارك وتعالى بما أعرف عنهم من تلك الأعمال ففرّج الله تعالى عنهم وقضى حوائجهم ببركة إحسانهم.

إن اتخاذ هذه المقدمة كوسيلة لاستجابة الدعاء من الآداب القرآنية كقوله تعالى ﴿وَكَتُبْنَا لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُذُنَا إِلَيْكَ﴾ (الأعراف: ١٥٦) والله تعالى يحب التوابين فجعلوا الرجوع الى الله تعالى والتوبة اليه مقدمة للدعاء.

ومنها الآيتان ﴿١٩٣﴾-﴿٥٣﴾ من سورة آل عمران ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ (آل عمران: ١٩٣) ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ (آل عمران: ٥٣).

وورد هذا المعنى في الأدعية المباركة مثل (اللهم إنني أطعك في أحب الأشياء إليك وهو التوحيد ولم أعصك في ابغض الأشياء إليك وهو الشرك فاغفر لي ما بينهما)^(١) وهنا تصريح بالتوسل بأحب شيء الى الله تبارك وتعالى. والخلاصة أن علينا أن نحسن في اعمالنا ونخلصها الى الله تبارك وتعالى لنحظى بحبه وقبوله وتكون سبباً لاستجابة الدعاء إن شاء الله تعالى.

(١) المصباح - الكفعمي: ٢٩١، - مفاتيح الجنان: ١٦١.

القبس/٦٣

سورة الأعراف: ﴿١٥٦﴾

﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾

موضوع القبس: موجبات الرحمة الإلهية

سعة الرحمة الإلهية:

ورد في الدعاء الشريف (اللهم إني أسألك موجبات رحمتك)^(١) وطلب الرحمة أمر طبيعي لأنه لا نجاة ولا توفيق إلا برحمة الله تعالى، عن النبي (ﷺ) قال (لن يدخل الجنة أحد إلا برحمة الله، قالوا: ولا أنت؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني)^(٢).

فما هي موجبات الرحمة الإلهية؟ وهل تحتاج الرحمة الإلهية إلى موجبات وأسباب وقد وسعت كل شيء؟

في الحديث الشريف عن الإمام السجاد (عليه السلام) قال (لا يهلك مؤمن بين ثلاث خصال: شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وشفاعة رسول الله (ﷺ) وسعة رحمة الله عز وجل)^(٣).

وقيل له (عليه السلام) يوماً أن الحسن البصري قال: ليس العجب ممن هلك كيف هلك، وإنما العجب ممن نجا كيف نجا، فقال (عليه السلام): أنا أقول ليس العجب ممن

(١) البحار: ج ٨٣/ص ٦٣.

(٢) كنز العمال - المتقي الهندي: ٢٥٤/٤ ح ١٠٤٠٧.

(٣) بحار الأنوار: ٧٨/١٥٩.

نجا كيف نجا، وإنما العجب ممن هلك كيف هلك مع سعة رحمة الله^(١).
وتصدق هذا في كتاب الله تعالى فإن السؤال يوم القيامة لا يكون عن
الناجين كيف نجوا، وإنما ﴿عَنِ الْمُجْرِمِينَ • مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ﴾
(المدثر: ٤١-٤٢).

وقد أشارت عدة آيات كريمة إلى سعة رحمة الله تبارك وتعالى، قال عز
من قائل ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ
وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأعراف: ١٥٦).
وقال تعالى ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا
سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ (غافر: ٧).

مثال في الرحمة الإلهية:

ويقرب لنا النبي (ﷺ) سعة رحمة الله تعالى بقوله (إنَّ لله تعالى مائة رحمة
أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والبهائم والهوام فيها يتعاطفون وبها
يتراحمون وبها تعطف الوحش على ولدها، وأخر الله تعالى تسعاً وتسعين رحمة
يرحم بها عباده يوم القيامة)^(٢) فتصوروا سعة رحمة الله تعالى التي كتبها على نفسه
وألزم تبارك وتعالى نفسه بها، قال تعالى ﴿قُلْ لِمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ
لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ (الأنعام: ١٢) وقال تعالى ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ
يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ

(١) المصدر: ١٥٣/٧٨.

(٢) كنز العمال: ج ٤ ص ٢٤٩، ح ١٠٣٨٢.

عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٤٧﴾
 (الأنعام: ٣٤٧) بل إن الله تعالى إنما خلق الخلق ليرحمهم بأن يجعلهم أمة واحدة متفقة على التوحيد، قال تعالى ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۖ إِلَّا مَنْ رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ (هود: ١١٨-١١٩).

الرحمة العامة والخاصة:

ولكن - اعلّموا أيها الأحبة - أن الله تبارك وتعالى رحمة عامة لكل مخلوقاته وهي التي أشير إليها في موارد كثيرة كما في أدعية رجب (يا من يعطي من سأله، يا من يعطي من لم يسأله ومن لم يعرفه تحنناً منه ورحمة)^(١)، وفي دعاء آخر (ورزقك مبسوط لمن عصاك، وحلمك معترض لمن ناواك، عادتك الإحسان إلى المسيئين وسبيلك الإبقاء على المعتدين)^(٢) فجميع خلقه حتى الذين يبارزونهم بالمعصية والإنكار يرفلون بنعمه التي لا تعد ولا تحصى.

وهناك رحمة خاصة يمنُّ بها على عباده المؤمنين الذين عرفوه ودلّهم عليه بفضله وكرمه وهداهم إلى طاعته فراحوا يتحروّن رضاه، وهي التي أشير إليها في الحديث النبوي الشريف (اطلبوا الخير دهركم كله، وتعرضوا لنفحات الله، فإن الله نفحات من رحمته يصيب بها من يشاء من عباده) وعنه (ﷺ) (تعرضوا لرحمة الله بما أمركم به من طاعته)^(٣) والتعرض لها يعني التعرض لأسبابها وموجباتها،

(١) إقبال الأعمال: ج ٣ / ص ٢١١.

(٢) السابق: ص ٢١٠.

(٣) تنبيه الخواطر: ج ٢ / ص ١٢٠.

كما في الدعاء (اللهم إني أسألك موجبات رحمتك)^(١).

تعرضوا لرحمة الله تعالى:

وقد ورد في الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة ذكر الكثير من هذه الموجبات للرحمة الإلهية، فنحن لا يمكن أن نعرفها ونهتدي إليها إلا أن يهدينا الله تبارك وتعالى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ (الأعراف: ٤٣).

وبعض هذه الأسباب لا يكون الإنسان مسؤولاً عن توفيرها وإنما جعلها الله بكرمه وفضله وليس على العاقل الكيس إلا استثمارها والتعرض لها كالأضحية المقدسة للمعصومين (سلام الله عليهم) وقد حبانا الله تعالى نحن العراقيين بالعديد من أبواب الرحمة هذه، ومنها عموم المساجد، ومنها صلاة الجمعة والجماعة وحلقات العلم والمذاكرة، وعموم التجمعات الإيمانية، والأزمة الشريفة كليلة الجمعة ويومها، ومنها هذا الشهر الشريف: شهر رجب الذي لقب في الأحاديث الشريفة بالأصْب لأن الرحمة تُصَبّ فيه صَبًّا.

ما تستدربه الرحمة الإلهية:

ومن أسباب الرحمة الإلهية ما يوفرها الإنسان بفضله الله تبارك وتعالى، وقد وجدت من أهل تلك الموجبات الاتصاف بالرحمة بحيث تكون محرّكة لأفعاله ومنبعاً لمشاعره وتبنى عليها علاقاته مع الآخرين من خلال الرحمة بهم والشفقة عليهم والرفق بهم ومداراتهم والتفاعل مع قضاياهم وحوائجهم عن أمير

المؤمنين (ﷺ): (أبلغ ما تُستدّر به الرحمة أن تضمّر لجميع الناس الرحمة)^(١)، لأن الرحمة من صفات الله تبارك وتعالى، وقد وصف الله عباده الذين رضي عنهم بأنهم ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ (الفتح: ٢٩) ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ (البلد: ٥٧) ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ (الحديد: ٢٧) وقال تعالى ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (الأعراف: ٥٦).

وفي الأحاديث الشريفة عن النبي (ﷺ): (من لا يرحم لا يُرحم)^(٢) (إنما يرحم الله من عباده الرحماء)^(٣) (من رحم ولو ذبيحة عصفور رحمه الله)^(٤) (الراحمون يرحمهم الرحمن يوم القيامة، أرحم من في الأرض يرحمك من في السماء)^(٥) (قال رجل للنبي (ﷺ): أحب أن يرحمني ربّي قال (ﷺ): ارحم نفسك وارحم خلق الله يرحمك الله)^(٦).

والرحمة بالآخرين تبدأ من رحمة نفسه بأن يجنبها ما يضرّها في الدنيا ككثير من الحماقات والأفعال اللاعقلانية كالتدخين وصرف الأموال الطائلة في اللهو والعبث، وما يضرّها في الآخرة كارتكاب المعاصي والعياذ بالله وصرف العمر في التفاهات وعدم التفقه في أمور الدين والمعرفة الضرورية.

(١) غرر الحكم الآمدي: ٢١٦/ ح ٥٢٨.

(٢) الوسائل: ج ٤/ ص ١٩٧.

(٣) البحار: ج ٧٩/ ص ٩١.

(٤) كنز العمال: ج ٦/ ص ٢٦٣.

(٥) البحار: ج ٧٤/ ص ١٦٧.

(٦) كنز العمال: ج ١٦/ ص ١٢٨.

ثم تتوسع الرحمة إلى من يليه في بيته كوالديه، قال تعالى ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۖ﴾ (الإسراء: ٢٣-٢٤).

ثم الرحمة بالزوجة والزوج بالنسبة للمرأة، قال تعالى ممتناً على عباده ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الروم: ٢١) وورد في الحديث الشريف (اتقوا الله في الضعيفين اليتيم والمرأة)^(١) ثم الرحمة بالأقرباء وقد اشتق لهم اسم من الرحمة فيقال لهم الأرحام والأوامر في صلة الرحم كثيرة والنواهي عن قطعه شديدة.

ثم الرحمة بالآخرين خصوصاً إذا كانوا من ذوي الحاجة والمرضى والفقراء والمبتلين ببلاء ما، وهكذا حتى يمتلئ قلبه رحمة وشفقة على كل الموجودات، ومنبع هذه الرحمات كلها تقوى الله تبارك وتعالى وحب الله تبارك وتعالى، فالتقوى تردعه عن ظلم الآخرين والإساءة إليهم والتقصير في أداء حقوقهم وحب الله يترشح منه حب الخير لجميع الخلق حتى أعدائه بأن يسأل الله تعالى لهم الصلاح والهدى لأن الجميع عيال الله تبارك وتعالى، وخلقهم فيحبهم حباً لخالقهم وربهم ومدبر شؤونهم (وقد ورد في الحديث: (الخلق عيال الله تعالى فأحب الخلق إلى الله من نفع عيال الله، أو أدخل على أهل بيت سروراً...))^(٢) وفي حديث آخر

(١) البحار: ج ٧٦ / ص ٢٦٨.

(٢) بحار الأنوار - المجلسي: ٣١٦/٧١ / ح ٧٣.

عن الإمام الكاظم عن مثل هذا الشخص أنه معنا في درجتنا.

كالوالد الرحيم:

وكلما ازدادت ساحة مسؤولية الفرد، ازداد مقدار الرحمة الواجب توفرها، سواء كانت المسؤولية دينية - كالمرجعية الدينية ومعتمديها - أو سياسية - ككبار مسؤولي الدولة - أو اجتماعية - كزعماء العشائر أو وجهاء المجتمع - أو إدارية - كمدير الدائرة أو المدرسة - أو تعليمية - كالمدرس مع طلبته - في كتاب الخصال بسنده عن الإمام الصادق (عَلَيْهِ السَّلَام) عن أبيه (عَلَيْهِ السَّلَام) قال (إن الإمامة لا تصلح إلا لرجل فيه ثلاث خصال: ورع يحجزه عن المحارم، وحلم يملك به غضبه، وحسن الخلافة على من وُلِّيَ حتى يكون له كالوالد الرحيم)^(١) والحديث مطلق يشمل أي إمامة ورئاسة وزعامة مما ذكرنا.

من موجبات الرحمة:

وللرحمة الإلهية موجبات أخرى، وهي كثيرة نذكر منها شيئاً مختصراً لآلفات نظركم.

منها: طاعة الله ورسوله قال تعالى ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (آل عمران: ١٣٢) وقال تعالى ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (النور: ٥٦) وقال تعالى ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطاً

(١) الكافي: ج ١/ ص ٤٠٧.

مُسْتَقِيمًا ﴿النساء: ١٧٥﴾.

ومنها: الصبر على المصائب قال تعالى ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ۝ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ (البقرة: ١٥٦-١٥٧).

ومنها: الاستغفار قال تعالى ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (النمل: ٤٦).

ومنها: الإصلاح بين الإخوة المتخاصمين، قال تعالى ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (الحجرات: ١٠).

ومنها: ما ورد في الأحاديث الكثيرة من قولهم (عليه السلام) رحم الله امرءاً كذا وكذا، كقول أمير المؤمنين (عليه السلام): (رحم الله امرءاً أحيا حقاً وأمات باطلاً، وأدحض الجور وأقام العدل)^(١) وقوله (رحم الله امرءاً علم أن نفسه خطاه إلى أجله فبادر عمله وقصر أمله)^(٢).

ومنها: ما عن النبي (صلى الله عليه وآله) أنه قال (سبعة يُظْلَهُم الله عز وجل في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله عز وجل، ورجل قلبه متعلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه، ورجلان كانا في طاعة الله عز وجل فاجتمعا على ذلك وتفرّقا، ورجل ذكر الله عز وجل خالياً ففاضت عيناه من خشية الله عز وجل، ورجل دعت امرأته ذات حسب وجمال، فقال: إني أخاف الله عز وجل).

(١) الواسطي: ص ٢٦١.

(٢) ميزان الحكمة: ج ٢/ ص ١٠٥٢.

وجل، ورجل تصدّق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما يتصدق يمينه^(١).
نسأل الله تعالى أن يتغمدنا برحمته في الدنيا والآخرة وأن يوفقنا لموجبات
رحمته إنه لطيف بعباده.

(١) الخصال للصدوق: ٣٤٢/٢.

القبس/٦٤

سورة الأعراف: ﴿١٥٧﴾

﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾

يبين هذا المقطع من الآية مظهراً من مظاهر الرحمة الالهية وصفة من صفات النبي (ﷺ) وغرضاً من إرساله بهذه الشريعة السمحاء ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُم فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ (الحج: ٧٨) و(الإصر) الشد الوثيق لذا توصف علاقة الأرحام بالآصرة واستعمل المصطلح في الكيمياء فيقال (الآصرة الأيونية والآصرة التساهمية) ويطلق على العهد والميثاق بالإصر لأنه يشد صاحبه الى الالتزام به قال تعالى: ﴿أَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي﴾ (آل عمران: ٨١) ولما كان الشد الوثيق يشكّل عبئاً ثقيلاً ومشقةً على صاحبه أطلق الإصر على الحمل الشاق وما يحبس الشيء ويمنعه بالقوة، فالإصر هنا في الآية ما يثبّت الناس عن فعل الخيرات ويمنع من تحصيلهم الثواب.

و﴿الْأَغْلَالَ﴾ بمعنى القيود كما هو واضح، والمقصود بها هنا الأغلال المعنوية والعملية التي يشق عليهم تحملها والالتزام بها، وتعيق سعيهم لنيل السعادة والفلاح.

فيكون معنى الآية ان الهدف من الشريعة الالهية التي جاء بها النبي (ﷺ) هو رفع وإزالة هذه الآصار والأغلال عن الناس ليعيشوا السراحة واليسر في حياتهم وليكونوا أحراراً في دنياهم غير مكبلين بالقيود التي تعيق حركتهم نحو الكمال والسعادة والفلاح ببركة إرسال النبي (ﷺ) الى هذه الامة المرحومة. ويمكن ان نفهم عدة أشكال لهذه الأعباء والأغلال والمعوقات التي بُعث

النبي (ﷺ) بالشرعية الاسلامية لرفعها ووضعها عن الأمة:

١- أنه (ﷺ) ألغى من حياتهم التشريعات الشاقة التي كتبت على الامم السابقة عقوبة لهم أو أنهم ابتدعوها من عندهم كاشتراط قتل النفس لصحة التوبة ﴿فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ (البقرة: ١٧٠) أو قطع الاعضاء التي تقع في الخطيئة أو قرض موضع النجاسة من البدن والثوب أو صوم الوصال ونحو ذلك، هذه التي جمعها قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَىٰ الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ (البقرة: ٢٨٦) أو الرهينة والانعزال ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾ (الحديد: ٢٧).

٢- أنه (ﷺ) حررهم من كل القيود والأغلال العقائدية والفكرية والنفسية والاجتماعية التي تصيب بصيرته بالغشاوة وتضرب على عقله بالقيود فيعمى عن رؤية الحق وتكبّل إرادة الناس وتعيق حركة الاصلاح لأننا بعد ان عرفنا معنى الإصر والأغلال وأنها ما يمنع الناس عن الترقى والكمال فإذا هي تشمل كل ما يعيق هذه الحركة سواء كانت قيوداً للفكر أو السلوك أو الاعتقاد أو التعامل مع الآخرين وغير ذلك، فمن الأغلال العقائدية: الشرك والكفر والإلحاد والوثنية، ومن الأغلال الفكرية: الجهل والغفلة والتخلف والخرافة، ومن الأغلال الاجتماعية: الطبقيّة والتمييز والاستكبار والاستضعاف والاستعباد والفقر والظلم والحرمان والموروثات والتقاليد البالية التي تكون حجرة عثرة في طريق الاصلاح، ومن الأغلال النفسية الحقد والكراهية والغرور والأنانية والتعصب سواء كان لأشخاص أو عشائر أو فِرَق أو أحزاب أو قوميات أو طوائف أو حتى مرجعيات دينية، لأنها هذه كلها وغيرها مما يصدّ عن الحق ويضع غشاوة على بصيرته ويفسد فطرته

ويعيق حركة التكامل ويمنع الانسان من اختيار الطريق الصحيح بحرية و ارادة وموضوعية، وكيف يستطيع من كُبل بواحد أو أكثر من هذه القيود أن يصل الى الحق ويتعرف عليه فضلاً عن التوفيق للعمل به لذا ورد في الدعاء (اللهم أرني الحق حقا حتى أتبعه)^(١).

٣- إن المراد بالآصار والأغلال:الصعوبات والبلاءات التي تُصيب الانسان، فوضعها عن المسلمين يُراد منه أن النبي (ﷺ) بيّن لهم الوسيلة التي تحميهم وتجنبهم من هذه البلاءات والكوارث التي تصيب الناس عندما ينغمسون في المعاصي ويتمردون على السنن الإلهية ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ (الشورى:٣٠) فمن الرحمة الالهية التي جاء بها النبي (ﷺ) للبشرية أنه علمهم كيف يخلصون أنفسهم ومجتمعاتهم من هذه البلاءات ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرِيَةً آمَنَتْ فَنَقَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُّؤْنَسُ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ (يونس:٩٨).

وقد اعترف الغرب اليوم بعد عجزه عن إيقاف تمدد الأمراض الفتاكة كالإيدز وامثاله والصراعات التي تهلك الحرث والنسل بان العلاج الناجح الوحيد هو بالعودة الى الإيمان بالله والقيم الروحية والمبادئ الانسانية.

ومضافا الى ما تقدم من الوجوه ومستويات الفهم فأنا نستطيع ان نستخلص عدة دلالات من هذه الفقرة القرآنية:

أولاً:ان الشريعة الالهية توفر الحرية الحقيقية للإنسان لأنها تحرره من كل

(١) إعانة الطالبين - البكري الدمياطي: ٢١٥/١، وفي بحار الأنوار- المجلسي: ١٢٠/٨٣.

القيود والاغلال التي تكبله، فهي تخلصه أولاً من عبودية نفسه الأمارة بالسوء التي تدعوه الى طاعة الشهوات والاهواء والانفعالات وهي لا عقل لها فتوقعه في المهالك وهذه نتيجة حتمية لا تحتاج الى دليل لأن الواقع المزري للبعيد عن القانون الالهي شاهد على ذلك، وتخلصه ثانياً من عبودية غيره من بني جنسه من البشر كالحكام المستبدين والطواغيت وسدنة المعابد وأدعياء العناوين المقدسة المتاجرين بالدين من أجل الدنيا وحيازة المغنم والمصالح لذواتهم على حساب الناس، وتحرره من القلق والأوهام والضيق والاضطراب وكل الضغوط ﴿أَلَا يَذْكُرُ اللَّهُ تَظْمِينَ الْقُلُوبِ﴾ (الرعد: ٢٨).

فالحرية بمعناها الانساني النبيل تحققها الشريعة الالهية الحقّة أما الابتعاد عنها فيؤدي الى الشقاء والهلاك والالم في الدنيا قبل الآخرة، وليست الحرية بمعنى الانفلات والتمرد على السنن الإلهية الحاكمة في الكون والانسان.

ثانياً: أن هذه الشريعة المباركة دليل على صدق النبي (ﷺ) في دعواه بأنه مرسل من الله تبارك وتعالى لهداية البشر وإصلاحهم، لأنه حارب كل تلك الأغلال والآصار وسعى بكل جهده لتخليص الناس منها فدعا الناس الى توحيد الخالق العظيم ونبذ كل الالهة المصطنعة ووضع لهم قوانين العدالة والمساواة بين الناس جميعاً أمام القانون وحارب الطبقة والتمييز ونشر الأخلاق والفضيلة ونهى عن الفحشاء والمنكر والبغي والظلم، وحثّ على العلم والمعرفة بشكل مذهل.

ولو كان مدعياً بغير حق ويتبغي بدعواه الوصول الى السلطة والنفوذ وحيازة الدنيا لأستعبد الناس واستأثر بخيراتهم ولأبقاهم على قيود الجهل والغفلة والتخلف ليسيّطرو عليهم ويتمكن من مقدراتهم كما يفعل كل الطغاة والمستبدين.

وهذا معيار ينفع في تمييز القيادات الحقة في كل المجالات واولها القيادات الدينية التي يفترض انها تمثل نيابة المعصومين (عليه السلام)، لأن القرآن الكريم ومنه هذه الآية عامٌ شاملٌ لكل البشر وخالدٌ الى قيام يوم الساعة ولا يمكن تحجيم دوره بفترة نزوله.

ثالثاً: ان الآية فيها وعد وترغيب وتطمين للمؤمنين بأنهم إذا امنوا بالنبى (صلى الله عليه وآله) وأتبعوا تعاليمه واستقاموا على دينه فان الله تعالى سيرفع عنهم الكثير من الصعوبات والمكاره والبلاءات، وسيضع عنهم هذه الأغلال والآصار، وسيرحمهم. رابعاً: إن هذه الفقرة من الآية الكريمة تعرّفنا على جانب مشرق من سيرة النبى (صلى الله عليه وآله) وثمرات شريعته المباركة إذ لولا كونه رحيماً شقيقاً ودوداً له أخلاق عظيمة لما استطاع تأدية هذا الدور المبارك في رحمة العباد، وبهذه المعرفة نزداد حباً لأن المعرفة تولد الحب، وهل يمكن أن يحب الانسان شيئاً يجهله ولا يعرف عنه شيئاً، والحب يحرك نحو اتباع المحبوب وهو رسول الله (صلى الله عليه وآله).

خامساً: إن الآية والمعرفة التي استخلصناها منها تحمّلنا مسؤولية إعانة رسول الله (صلى الله عليه وآله) في تحقيق أهدافه المذكورة وهي وضع الآصار والأغلال عن الامة وتحريرها من قيودها من خلال تفعيل فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لمساعدة الناس على إزالة هذه الآصار والأغلال، والشاهد على ذلك أن نفس هذه الآية تضمّنت دعوة مباشرة لاتباعه (صلى الله عليه وآله) ليعينه (صلى الله عليه وآله) على رسالته الخالدة فيقع اجرهم على الله تبارك وتعالى وعلى رسوله الكريم (صلى الله عليه وآله) قال تعالى في ذيل هذه الآية ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (الأعراف: ١٥٧) وهذه الآية وسائر آيات القرآن

الكريم ليست خاصة بأصحابه الذين كانوا معه، بل تشمل كل المؤمنين به (ﷺ) الى نهاية الدنيا، وهم جميعا مطالبون بهذه النصرة والمؤازرة والإعانة، وتختتم الآية بقول حازم وهو أن هؤلاء الذين يجمعون هذه الأوصاف هم المفلحون لا غيرهم لأنها ظاهرة في الحصر.

أعاننا الله تعالى وجميع المؤمنين على أن نكون بهذه الصفات بلطفه وكرمه.

القبس/٦٥

سورة الأعراف: ﴿١٥٧﴾

﴿وَاتَّبِعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ﴾

موضوع القبس: القرآن نور

القرآن نور:

لقد وصف القرآن الكريم نفسه بأوصاف كثيرة ^(١) منها انه (نور) قال تعالى ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ (المائدة: ١٥)، وقال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ (النساء: ١٧٤)، وقال تعالى ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (الأعراف: ١٥٧)، ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (الشورى: ٥٢).

وقد ورد في الاحاديث الشريفة مثل ذلك، عن رسول الله (ﷺ) قال (إن هذا القرآن جبل الله والنور المبين) وعنه (ﷺ) قال (عليك بتلاوة القرآن، فانه نور لك في الارض وذخر لك في السماء) وقال أمير المؤمنين (عليه السلام) في القرآن

(١) راجع كتاب (شكوى القرآن) ملحق قبس قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ (الفرقان: ٣٠) في تفسير من نور القرآن.

(واستشفوا بنوره فانه شفاء الصدور)^(١) ومن دعاء الإمام السجاد (عليه السلام) عند ختم القرآن (وجعلته نوراً نهتدي من ظلم الضلالة والجهالة باتباعه)^(٢).

القرآن ينير طريق الهداية:

ويُعرّف النور في معاجم اللغة بانه (ما كان ظاهراً بنفسه ومُظهر للأشياء الأخرى)^(٣) فإن العين لا ترى ولا تكتشف ما حولها إلا إذا سقط عليها الضوء وانتقل الى العين، وهذا هو دور القرآن الكريم فإنه ينير طريق الهداية والايمان والصلاح والسعادة ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي - بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ (الأنعام: ١٢٢)، فمن اهتدى بنوره كان من المفلحين كما في سورة الاعراف المتقدمة، لأن فيه مصابيح النور، عن الإمام الحسن (عليه السلام) قال (إن هذا القرآن فيه مصابيح النور)^(٤).

وهذا وصف طبيعي للقرآن لأنه يتضمن بيان كل ما يقرب الى الله تعالى من الطاعات التي هي كالمصابيح التي تولد النور، قال تعالى ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ (الإسراء: ٩) وأشرف تلك المصابيح واشدها ضياءً رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال تعالى ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ (الأحزاب: ٤٦).

(١) تجد هذه الروايات ومصادرها في ميزان الحكمة: ١٧٧/٩ - ١٨٤.

(٢) الصحيفة السجادية: ١١٥.

(٣) لسان العرب - ابن منظور: ٢٤٠/٥.

(٤) بحار الأنوار - المجلسي: ١١٢/٧٥.

نور الولاية:

وولاية امير المؤمنين وأهل البيت (عليه السلام) واتباعهم نور، ورد في تفسير قوله تعالى ﴿وَاتَّبِعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ﴾ (الأعراف: ١٥٧) في الكافي عن ابي عبد الله (عليه السلام) قال: (النور في هذا الموضع امير المؤمنين والائمة (عليه السلام)^(١) ومثله في تفسير علي ابن ابراهيم والعايشي عن الإمام الباقر (عليه السلام) مثله.

وفي موضع اخر عن الإمام الباقر (عليه السلام) قال (فالذين امنوا به) يعني بالإمام (وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون، يعني الذين اجتنبوا الجبت والطاغوت أن يعبدوها، والجبت والطاغوت فلان وفلان وفلان، والعبادة طاعة الناس لهم)^(٢) قال أمير المؤمنين (عليه السلام) (إِنَّمَا مَثَلِي بَيْنَكُمْ كَمَثَلِ السَّرَّاجِ فِي الظُّلْمَةِ يَسْتَضِيءُ بِهِ مَنْ وَلَجَهَا)^(٣).

نور التقوى:

والتقوى نور قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرُسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كَفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (الحديد: ٢٨).

وبصورة عامة فان الدين والرسالة السماوية بما تضمنت من عقائد واحكام واخلاق هي مصدر النور، قال تعالى ﴿يُرِيدُونَ لِيُظْفِقُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ

(١) الكافي: ١/١٥٠ ح ٢.

(٢) الكافي: ١/٣٥٥ ح ٨٣.

(٣) نهج البلاغة: ١٢٧/خطبة ١٨٧، - ميزان الحكمة - الريشهري: ٣٣٩/١٠.

مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٨﴾ (الصف:٨) وعن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال (الدين نور)^(١).

أنوار العبادات والطاعات:

وقد ورد في روايات ذكر بعض تلك المصاييح كأداء الصلاة المفروضة خصوصاً في أوقات فضيلتها، عن النبي (صلى الله عليه وآله) قال: (الصلاة نور)^(٢)، ومناسك الحج نور قال (صلى الله عليه وآله) (إذا رميت الجمار كان لك نوراً يوم القيامة)^(٣)، وكل عمل فيه اعزاز الدين ونصره نور، قال (صلى الله عليه وآله) (من رمى بسهم في سبيل الله فبلغ أخطاء أو أصاب كان سهمه ذلك، كعدل رقبة من ولد إسماعيل. ومن خرجت به شية في سبيل الله، كان له نوراً يوم القيامة)^(٤)، ومن اجتنب ظلم الآخرين بكل أشكال الظلم والتجاوز والتعدي أعطاه الله نوراً، قال (صلى الله عليه وآله) (لا تظلم أحداً تُحشر يوم القيامة في النور)^(٥)، وصلاة الليل وسائر الطاعات والعبادات عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال (ما تركت صلاة الليل منذ سمعت قول النبي (صلى الله عليه وآله): صلاة الليل نور)^(٦)، ومما يوجب النور تجديد الطهور في غير أوقات الصلاة، عن الإمام

(١) غرر الحكم: ٢١٣.

(٢) مستدرک الوسائل - المحدث النوري: ٩٢/٣.

(٣) ميزان الحكمة - الريشهري: ٣٣٩٠/٤.

(٤) عوالي اللئالي - الشيخ الأحسائي: ١٠٨٤/١ ح ١٠.

(٥) ميزان الحكمة - الريشهري: ١٧٧٢/٢.

(٦) بحار الأنوار - العلامة المجلسي: ١٧/٤١.

الصادق (عليه السلام) قال: (الوضوء على الوضوء نورٌ على نور) ^(١)، واستنقاذ حقوق الآخرين نور عن النبي (صلى الله عليه وآله) قال (من شهد شهادة ليحيي بها حق امرئ مسلم اتى يوم القيامة ولوجهه نور مدُّ النضر يعرفه الخلق باسمه ونسبه) ^(٢) ومما يوجب النور الشيب في طاعة الله تعالى، عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (ما رأيت شيئاً أسرع إلى شيء من الشيب إلى المؤمن، وإنه وقارٌ للمؤمن في الدنيا، ونورٌ ساطعٌ يوم القيامة) ^(٣) وهكذا.

الحذر من وادي الذنوب وقطاع الطريق المعنوي:

إن الانسان في هذه الدنيا لابد ان يكون له منهج يسير عليه وغاية يسعى لتحقيقها، وإنما يحصد النتائج بحسب نوع المنهج ورأسه والمخطط له، قال أمير المؤمنين (عليه السلام) (الا وإن لكل مأموم إماماً يقتدي به ويستضيء بنور علمه) ^(٤) ولأن في القرآن مصابيح النور، ولا يستطيع الانسان أن يتقدم إلا بضياء ينير له الدرب وإلا كان كمن يسافر في الصحراء في ليلة مظلمة بلا دليل فيكون معرضاً لعدة أخطار: حيوانات مفترسة تمزقه، أو لصوص وقطاع طرق يقتلونه ويسلبونه، أو آبار وأودية يهوي فيها، أو يضل الطريق ويتيه وينفذ ما عنده من ماء وطعام، وهذه هي الأخطار التي يواجهها من لا نور معه في حياته المعنوية فتفتسه الذنوب البشرية وقطاع الطرق ليسرقوا دينه وإنسانيته فيهوي في وادي الذنوب السحيق ويحرم من

(١) وسائل الشيعة: ١/ ٢٦٥ ح ٨

(٢) الأمالي - الشيخ الصدوق: ٥٧٠ ح ٤.

(٣) أمالي الطوسي: ٦٩٩، ح ١٤٩٢.

(٤) نهج البلاغة: ٧٠ / كتاب ٤٥.

الزاد ليوم المعاد وهو التقوى.

عليكم بالقرآن فإنه شافع مشفع:

وقد دل الله تعالى على النور الذي يهدي به الانسان في حياته ويميز به الصواب في سائر اموره وما احوج الانسان الى مثله لينقذه من التخبط والضياغ والمزالق، وذلك بالتقوى قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (الحديد: ٢٨)، وما الذي يهدي الى التقوى ويحصلها انه القران الكريم قال تعالى ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة: ٢)، لذا أمرنا باتخاذ القرآن إماماً وقائداً وهادياً، فمن اراد أن يكون له فرقان في الدنيا يميز به بين الحق والباطل وينير بصيرته ويأخذ بيده على الصراط المستقيم فليجعل القرآن إماماً له وقائداً يقتبس من نور مصابحه قال النبي (ﷺ) (فاذا التبتست الامور عليكم كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن، فإنه شافع مشفع، وما حل مصدق، ومن جعله أمامه قاده الى الجنة، ومن جعله خلفه قاده الى النار)^(١) وإنما يجعله أمامه باتباعه والعمل بما فيه والاستضاءة بنوره، ويجعله خلفه باستدباره والاعراض عما فيه وعدم الاعتناء بأوامره ونواهيه.

وقال (ﷺ) (عليكم بالقرآن، فاتخذوه إماماً وقائداً)^(٢) وقال أمير المؤمنين (عليه السلام) في صفة القرآن (ونوراً ليس معه ظلمة).

(١) راجع المصادر في ميزان الحكمة: ٢٣٧/٧ - ٢٤٠.

(٢) ميزان الحكمة - الريشهري: ٣ / ٢٥١٨.

تجلى الأنوار الإلهية:

وقد يتجلى هذا النور الباطني المعنوي الذي يهدي البصائر من خلال نورٍ ظاهري تكتشفه الحواس وتهتدي به، سئل الإمام زين العابدين (عليه السلام) ما بال المتهجدين بالليل من احسن الناس وجها؟ قال (عليه السلام) لانهم خلوا بالله فكساهم الله من نوره^(١).

وروى صاحب مفاتيح الجنان عن امير المؤمنين (عليه السلام) حادثة مباغته جيش المشركين لسرية المسلمين في الليل وهم نيام فلم يتبين المسلمون الامر حتى يعرفوا ما يفعلون وكاد العدو يستأصلهم واذا بأضواء تسطع من افواه اربعة منهم كانوا يحيون الليل بالعبادة وتلاوة القرآن تضيئُ معسكر المسلمين فتمدهم بالقوة والشجاعة وواجهوا المشركين وقتلوهم فلما رجعوا قصوا على النبي (صلى الله عليه وآله) ما وقع. قال (صلى الله عليه وآله) (ان هذه الانوار قد كانت لما عمله اخوانكم هؤلاء من اعمال في غرة شعبان)^(٢).

تنوروا بالقرآن ليكون معينا لكم يوم فقركم:

هذا النور الذي تقتبسه في الدنيا ستكون أحوج شيء اليه في حياة ما بعد الدنيا إلى القيامة ففي القبر حيث الوحشة والظلمة سينير القرآن لأهله، من دعاء الإمام السجاد (عليه السلام) (ونور به قبل البعث سُدفَ قبورنا، ونجنا به من كل كرب يوم القيامة وشدائد أهوال الطامة)^(٣)، وما أحوجنا إلى النور في يوم القيامة ليضيء

(١) علل الشرائع: ٣٦٦ / ح ١.

(٢) مفاتيح الجنان: ٢٩٦ اعمال اليوم الاول من شعبان.

(٣) الصحيفة السجادية الكاملة: ٢٠٦.

لك طريق النجاة ونتوقى مزالق الهلكة، قال تعالى في وصف أحوال يوم القيامة ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ (الحديد ١٢-١٣)، وورد عن النبي (ﷺ) في تفسير الآية قال (ثم يقول - يعني الرب تبارك وتعالى - ارفعوا رؤوسكم، فيرفعون رؤوسهم فيعطيتهم نورهم على قدر أعمالهم، فمنهم من يُعطى نوره مثل الجبل العظيم يسعى بين يديه، ومنهم من يُعطى نوره اصغر من ذلك، ومنهم من يُعطى نوره مثل النخلة بيده، ومنهم من يُعطى أصغر من ذلك، حتى يكون آخرهم رجلاً يُعطى نوره على إبهام قدميه يضيئ مرة ويُطفأ مرة)^(١).

فليهيئ الإنسان في هذه الدنيا أكثر ما يستطيع من مصابيح النور^(٢) ليوم القيامة بما يكتسبه من الطاعات ويجتنبه من المعاصي، إلهي هَبْ لِي كَمَالَ الْأَنْقِطَاعِ إِلَيْكَ وَأَنْزِرْ أَبْصَارَ قُلُوبِنَا بِضِيَاءِ نَظَرِهَا إِلَيْكَ حَتَّى تَخْرُقَ أَبْصَارُ الْقُلُوبِ حُجُبَ النُّورِ فَتَصِلَ إِلَى مَعْدِنِ الْعِظَمَةِ وَتَصِيرَ أَرْوَاحُنَا مُعَلَّقَةً بِعِزِّ قُدْسِكَ^(٣).

(١) الدر المنثور - السيوطي: ٢٥٦/٦

(٢) راجع قيس قوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ (طه: ١٢٤)، في تفسير من نور القرآن.

(٣) مفاتيح الجنان: ٢٩٦ من المناجاة الشعبانية لأمير المؤمنين (عليه السلام).

القبس/٦٦

سورة الأعراف: ﴿١٦٥﴾

﴿أُنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ﴾

موضوع القبس: الفوز والفلاح في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعَذَرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ۝ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعِزَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ (الأعراف: ﴿١٦٤﴾-﴿١٦٥﴾).

روى علي بن إبراهيم في تفسيره بسند صحيح في سبب نزول الآيات عن الإمام الباقر (عليه السلام) قال: (وجدنا في كتاب علي (عليه السلام) أن قوماً من أهل إيلة^(١) وهي قرية لبني إسرائيل وأن الحيتان كانت سبقت إليهم يوم السبت ليختبر الله طاعتهم في ذلك - وقد نهوا عن الصيد يوم السبت لأنه يوم تفرغ للعبادة وعيد أسبوعي كالجمعة عند المسلمين - فشرعت إليهم يوم سبتهم - أي تظهر واضحة على سطح الماء وسهلة التناول يوم السبت دون بقية الأيام لأنهم كانوا يمتنعون عن الصيد يوم السبت في بداية الأمر فكانت الحيتان تأتي آمنة يوم السبت فسبحان الله الذي علّمها يوم السبت من بين الأيام - في ناديهم وقدام أبوابهم في أنهارهم وسواقيهم فبادروا إليها فاخذوا يصطادونها فلبثوا في ذلك ما شاء الله لا

(١) وهي إيلات اليوم مدينة تقع على ساحل بحر القلزم مما يلي الشام كما في معجم البلدان ومراصد الاطلاع وهو خليج العقبة.

ينهاهم عنها الأخبار ولا يمنعهم العلماء من صيدها، ثم إن الشيطان أوحى إلى طائفة منهم: إنما نهيتم عن أكلها يوم السبت فلم تنهوا عن صيدها، فاصطادوا يوم السبت وكُلُّوها فيما سوى ذلك من الأيام، فقالت طائفة منهم الآن نسطادها، فعتت، وانحازت طائفة أخرى منهم ذات اليمين فقالوا ننهاكم عن عقوبة الله أن تتعرضوا لخلاف أمره واعتزلت طائفة منهم ذات اليسار فسكت فلم تعظمهم، فقالت للطائفة التي وعظتهم: ﴿لَمْ تَعْظُون قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾، فقالت الطائفة التي وعظتهم: ﴿مَعْدِرَةٌ إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ قال: فقال الله عز وجل: ﴿فَلَمَّا دَسَوْا مَا دُكِّرُوا بِهِ﴾ يعنى لما تركوا ما وعظوا به مضوا على الخطيئة، فقالت الطائفة التي وعظتهم لا والله لا نجامعكم ولا نبايتكم الليلة في مدينتكم هذه التي عصيتم الله فيها مخافة أن ينزل بكم البلاء فيعمنا معكم، قال فخرجوا عنهم من المدينة مخافة أن يصيبهم البلاء فنزلوا قريباً من المدينة فباتوا تحت السماء فلما أصبح أولياء الله المطيعون لأمر الله غدوا لينظروا ما حال أهل المعصية، فأتوا باب المدينة فإذا هو مصمت، فدقوه فلم يجابوا ولم يسمعوا منها خبر (حسن) واحد فوضعوا سلماً على سور المدينة ثم أصدعوا رجلاً منهم فأشرف على المدينة فنظر فإذا هو بالقوم قردة^(١) يتعاوون، فقال الرجل لأصحابه يا قوم أرى والله عجباً، قالوا وما ترى؟ قال: أرى القوم قد صاروا قردة يتعاوون ولها أذنان، فكسروا الباب، قال: فعرفت القردة أنسابها من الإنس ولم تعرف الإنس

(١) قال تعالى في الآية التالية: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ (الأعراف: ٣٦).

أنسابها من القردة، فقال القوم للقردة: ألم نهكم؟ فقال علي (عليه السلام): والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إني لأعرف أنسابها من هذه الأمة لا ينكرون ولا يغيرون بل تركوا ما أمروا به فتفرقوا وقد قال الله عز وجل: ﴿فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (المؤمنون: ٥١)، فقال الله: ﴿أُنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَیْسٍ - أي شديد - بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾^(١).

تصنف الآيات الكريمة مواقف الناس من النهي عن المنكر إلى ثلاثة ذكرها الشيخ الصدوق فيما رواه بسنده عن الإمام الباقر (عليه السلام) قال: (كانوا ثلاثة أصناف: صنف ائتمروا وأمروا فنجوا، وصنف ائتمروا ولم يأمروا فمُسَخُوا ذُرًّا^(٢)، وصنف لم يأتمروا ولم يأمروا فهلكوا)^(٣)، ومسَخُوا قردة وخنازير (في الآية ٦٠ من سورة المائدة) لأنهم لا يستحقون صفة الإنسانية، وروى مثلها في روضة الكافي عن أبي عبد الله (عليه السلام).

أقول: وأضاف الطبرسي في مجمع البيان (إنه هلكا الفرقتان، ونجت الفرقة الناهية، روي ذلك عن أبي عبد الله (عليه السلام))^(٤)، فالذين لم يفعلوا المنكر لكنهم سكتوا ولم ينهوا عنه كانوا من الظالمين أيضاً وعُوقِبُوا لأنهم بدلاً من أن يتوجهوا

(١) البرهان: ١٢٧/٤ ح ٢، عن تفسير القمي: ١/٢٤٤ ح ٨، عن تفسير العياشي: ٢/٣٣ ح ٩٣.

(٢) الذر: النمل الصغار أو الصغير التي لا تكاد ترى وكذا ذرات التراب وأمثالها، وفي نور الثقلين: ٩٠/٢، عن تفسير العياشي بسنده عن جعفر بن محمد عن أبيه (عليه السلام) وفيه (قال: قلت لأبي جعفر (عليه السلام): ما صنع بالذين أقاموا ولم يقارفوا الذنوب؟ قال: بلغني أنهم صاروا ذرًّا).

(٣) الخصال: ١٠٠/١ ح ٥٤.

(٤) تفسير مجمع البيان - الشيخ الطبرسي: ٤/٣٨٣.

بالإنكار إلى العاصين، توجهوا باللوم والتقريع إلى الواعظين.

وفي الآية دلالة واضحة على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لأن الآية صرّحت بنجاة الآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر فقط ووصفت الصنفين الآخرين بالظالمين واستحقاقهم العقاب، ولو لم تكن هذه الوظيفة واجبة لما استحق الصنف الثاني القاعد عن أداء الفريضة الذين ائتمروا ولم يأمرؤا العذاب.

لذا كان ابن عباس يبكي لثقل هذه المسؤولية، روى في الدر المنثور بسنده عن عكرمة قال: (جئت ابن عباس يوماً وهو يبكي، وإذا المصحف في حجره، فقلت: ما يبكيك يا ابن عباس؟ قال: هؤلاء الورقات، وإذا في سورة الأعراف) ثم ذكر هذه الآيات وفسرها إلى أن قال: (فأرى الذين نهوا قد نجوا ولا أرى الآخرين ذكروا، ونحن نرى أشياء ننكرها ولا نقول فيها)^(١).

ويظهر من الآية أن هذا الصنف التارك لفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هم الذين قالوا: ﴿لَمْ تَعْظُون قَوْمًا﴾ لأنهم بحسب الظاهر غير الواعظ وغير المنهي فيتعين بهم.

ويظهر منها أيضاً أنهم محسوبون على المؤمنين الملتزمين بالشريعة ظاهراً، وربما يظهر من لحن كلامهم أنهم كارهون لفعل المنكر، مبررين سكوتهم بأنه لم يكن عن معصية لوجوب هذه الفريضة وإنما ليأسهم من صلاح العصاة، لكن عذرهم هذا لم يكن مقبولاً لأن سكوتهم عن ردع المعتدين لا ينم عن وجود غضب لله تبارك وتعالى، وإنما كان لإسكات ضميرهم إذ الواجب عليهم أن يؤدّوا وظيفتهم أما النتائج فهي بيد الله تبارك وتعالى.

(١) الدر المنثور: ٣/ ٥٨٩.

وفي تفسير الإمام العسكري (عليه السلام) عن الإمام السجاد (عليه السلام) من حديث (وذلك أن طائفة منهم وعظومهم وزجروهم، ومن الله خوفهم، ومن انتقامه وشديد بأسه حذروهم، فأجابوهم عن وعظهم: ﴿لَمْ تَعْظُونْ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ بذنوبهم هلاك الاصطلام ﴿أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ فأجابوا القائلين لهم هذا: ﴿مَعْدِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ﴾ إذ كُلِّفْنَا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فنحن ننهي عن المنكر ليعلم ربُّنا مخالفتنا لهم وكراحتنا لفعالهم، قالوا: ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ ونعظهم أيضاً لعلهم تنجع فيهم المواعظ، فيتقوا هذه الموبقة، ويحذروا عقوبتها^(١).

قال السيد الطباطبائي (قُلَيْبٌ): ((وفي الآية دلالة على أن الناجين كانوا هم الناهين عن السوء فقط، وقد أخذ الله الباقين، وهم الذين يعدون في السبت والذين قالوا: ﴿لَمْ تَعْظُونْ﴾ إلخ وفيه دلالة على أن اللائمين كانوا مشاركين للعادين في ظلمهم وفسقتهم حيث تركوا عظمتهم ولم يهجروهم.

وفي الآية دلالة على سنة إلهية عامة، وهي أن عدم ردع الظالمين عن ظلمهم بمنع، وعظة إن لم يمكن المنع، أو هجره إن لم تمكن العظة أو بطل تأثيرها، مشاركة معهم في ظلمهم، وأن الأخذ الإلهي الشديد كما يرصد الظالمين كذلك يرصد مشاركيهم في ظلمهم^(٢).

(١) تفسير البرهان للسيد هاشم البحراني: ٤ / ١٢٩، عن تفسير العسكري: ٢٦٩.

(٢) الميزان في تفسير القرآن: ٨ / ٣٠١.

أقول: ويشهد لهذا المعنى قوله تعالى في سورة العصر: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ ۖ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ فلا يكفي لخروج الإنسان من حالة الخسر أن يكون صالحاً في نفسه بالإيمان والعمل الصالح، بل لا بد أن يكون إنساناً مصلحاً للمجتمع وفاعلاً في عملية التغيير بالتواصي بالحق والتواصي بالصبر^(١).

وقال: (رضوان الله تعالى عليه): ((وفي قولهم ﴿إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ حيث أضافوا الرب إلى اللائمين ولم يقولوا إلى ربنا إشارة إلى أن التكليف بالعظة ليس مختصاً بنا بل أنتم أيضاً مثلنا يجب عليكم أن تعظوهم لأن ربكم لمكان ربوبيته يجب أن يُعْتَذَرُ إليه، ويبدل الجهد في فراغ الذمة من تكاليفه والوظائف التي أحالها إلى عباده، وأنتم مربوبون له كما نحن مربوبون فعليكم من التكاليف ما هو علينا))^(٢).

أقول: هذه التفاتة لطيفة وهي تدل على أن الفئة الناجية شملت بوعظها أولئك الساكتين حين ذكروهم بوظيفتهم أمام ربهم، ومنه يُعْلَمُ النظر في وصفه (رضوان الله تعالى عليه) للأمة اللائمة بأنهم ((كانوا أهل تقوى يجتنبون مخالفة الأمر إلا أنهم تركوا نهيمهم عن المنكر فخالطوهم وعاشروهم ولو كان هؤلاء اللائمون من المتعدين الفاسقين لو عظمهم أولئك الملمومون، ولم يجتنبوهم بمثل قولهم ﴿مَعْدِرَةٌ﴾)).

(١) راجع قبس قوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ (سورة العصر: ٣) في تفسير من نور القرآن.

(٢) وما بعده في الميزان في تفسير القرآن: ٨/ ٣٠٠-٣٠١.

أقول: يكفي قولهم: ﴿رَبِّكُمْ﴾ لوعظ هؤلاء اللائمين وتذكيرهم بحقوق الربوبية عليهم.

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ أي صَمَّوْا آذانهم عن سماع الموعظة ولم يعد لها أي تأثير فيهم حيث ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ﴾.

وهنا يثار إشكال على استعمال لفظ: ﴿نَسُوا﴾ له تقريران:

- ١- إن هؤلاء لم يكونوا ناسين بل كانوا ذاكرين وملفتين إلى مغبة العمل.
 - ٢- إذا كانوا ناسين فإن الناسي معذور ويقبح عقابه، فلماذا أخذوا بعذاب بئس.
- ونكتفي في الجواب بما قاله السيد الطباطبائي (قُرَيْشِي): ((وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنَجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ﴾ المراد بنسيانهم ما ذُكِّرُوا: انقطاع تأثير الذكر في نفوسهم وإن كانوا ذاكرين لنفس التذكر حقيقة فإنما الأخذ الإلهي مسبب عن الاستهانة بأمره والإعراض عن ذكره، بل حقيقة النسيان بحسب الطبع مانع عن فعالية التكليف وحلول العقوبة)).

أقول: أي أنَّ النسيان هنا بمعنى زوال أثر التذكير على النفس فكأنه منسي حيث ساوى وجوده عدمه فلحق بالنسيان في عدم التأثير، وإنما يحصل هذا بالتدرج كما في رواية مسعدة بن صدقة عن أبي عبد الله (عَلَيْهِ السَّلَامُ) قال: (قال النبي ﷺ: كيف بكم إذا فسدت نساؤكم وفسق شبابكم ولم تأمروا بالمعروف ولم تنهوا عن المنكر؟ فقل له: ويكون هذا يا رسول الله؟ فقال: نعم، وشرُّ من ذلك، كيف بكم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف؟ فقل له: يا رسول الله، ويكون ذلك؟ قال: نعم، وشرُّ من ذلك، كيف بكم إذا رأيتم المعروف منكراً والمنكر

معروفاً^(١).

وهذه المراحل من الانحطاط كما ينتكس إليها المجتمع كذلك يرتكس فيها الفرد، فإنه في بداية الأمر له فطرة وضمير يعرف به الحق والباطل والحسن والقيح فيرتاح إذا فعل الأول ويؤنبه ضميره إذا فعل الثاني. لكنه بتزيين من الشيطان وضغط من النفس الأمارة بالسوء وعوامل أخرى يخالف هذا الضمير الداخلي من دون أن يصلح ما صدر منه ويعود إلى رشده، بل يتساهل فيه، وحينئذ ينتقل إلى المرحلة الثانية عندما تأخذه العزة بالإثم ويكابر ويغالط فيحاول إقناع نفسه بما فعل أو تبريره أو الهروب منه بارتكاب مزيد من الخطأ ومقارفة الخطيئة كمن يهرب من جريمته بشرب المسكر أو بجريمة أخرى ليتناسى جريمته الأولى. ثم تأتي المرحلة الثالثة عندما يسود قلبه ويموت ضميره ويُطبع على قلبه ويتحول إلى شيطان فيرى المعروف منكراً والمنكر معروفاً.

وفي الآية الكريمة دلالات تنفع في الأبحاث الفقهية والأصولية، منها:

١- رد ما قاله الفقهاء من اشتراط احتمال التأثير في المأمور لوجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الأمر، حيث لم تجعل الآية الكريمة اليأس عن التأثير عذراً فعوقب التاركون لها، فعلى المؤمنين الرساليين الغيورين على الدين والمجتمع أن لا يدخلهم اليأس والإحباط، وأن يستمروا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإن لم يجدوا استجابة لفائدتين ذكرتهما الآية:

(١) وسائل الشيعة: كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أبواب الأمر والنهي وما يناسبهما، باب

أولهما: ﴿قَالُوا مَعذِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ فهو على الأقل يكون معذراً لهم أمام الله تعالى، وفيه إتمام للحجة على الآخر، وفيه راحة للضمير وشعور بالإنسانية وأنه كائن حي متفاعل مع الأحداث ولا وجود لليأس في حياتهم لأن رسالتهم محاربة هذه الظواهر السلبية.

ثانيهما: ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ إذ أن تكرار الموعظة ربما يؤثر ولو بعد حين على العاصي، لأن التكرار يفسد عليه لذته بفعل المنكر ويدفعه نحو التراجع والمراجعة، أو يخلق أجواءً اجتماعية ضاغطة على المنكر، ومحفزة على المعروف، وإنَّ الأمل بالله تعالى موجود على أي حال وهو مدبر الأمور، ولا شك أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر محسن سواء أثر أو لم يؤثر.

٢- عدم تمامية تعريفهم للواجب الكفائي - ومن مصاديقه هذه الفريضة - بأنه إذا قام به بعض سقط الوجوب عن الآخرين، فهنا قام الناجون بالواجب ووعظوا العاصين إلا أنه لم يسقط عن التاركين، فلا بد من إعادة النظر في بيان حقيقة الوجوب الكفائي وقد بحثناه مفصلاً في القسم الأول من كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقلنا هناك إن سقوط الوجوب يتحقق بزوال موضوعه، وما دام موضوعه قائماً فالوجوب مستمر والجميع معاقبون على تركه، فلا بد من حمل كفاية قيام البعض على هذا المعنى.

٣- إعادة النظر في ما يسمّى بالحيل الشرعية واستغلالها للالتفاف على الحكم الشرعي كما في الحادثة التي تعرضت لها الآية الكريمة فإن اليهود مُنعوا من صيد السمك يوم السبت لأنهم أرادوا تعيين يوم في الأسبوع يتفرغون فيه للعبادة

ويتوقفون فيه عن أعمالهم - والسبت يعني الانقطاع - عيداً لهم إلا أنهم احتالوا على الحكم بصنع أخاديد وحظائر من القصب على البحر يدخل إليها الماء ويحتجزون فيها السمك يوم السبت ثم يصطادونه يوم الأحد والمفروض أنه شكل من أشكال الصيد ويشمله حكم الحرمة، فلا بد من التفريق بين مثل هذه الحيل وبين الرُخص التي شرعها الله تعالى لعباده رحمة وتيسيراً.

وقد حذر رسول الله (ﷺ) من إيجاد المبررات والمسوغات لعدم التناهي عن المنكر فضلاً عن التحايل على فعله فقال (ﷺ) فيما روي عنه: (لا تتركبوا ما ارتكبت اليهود فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل)^(١)، وقال أمير المؤمنين (عليه السلام): (ويستحلون حرامه بالشبهات الكاذبة والأهواء الساهية فيستحلون الخمر بالنبذ والسحت بالهدية والربا بالبيع)^(٢).

فالشريعة وكذلك القوانين التي تنظم حياة المجتمع لا يحميها ولا يضمن تطبيقها كثرة الحراس والمراقبين والشرطة، وإنما التقوى والوازع الداخلي والالتزام الأخلاقي المعبر عنه بالضمير، وهذا من الفروق المهمة بين المجتمع القائم على أساس الإسلام وغيره من الأمم المادية.

ولنعرج على كربلاء بما روي عن الإمام السجاد (عليه السلام) قال: (إن الله تعالى مسح هؤلاء لاصطياد السمك، فكيف ترى عند الله عز وجل يكون حال من قتل

(١) الدر المنثور: ٥٩٢ / ٣.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة (١٥٦).

أولاد رسول الله (ﷺ) وهتك حریمه، إن الله تعالى وإن لم يمسخهم في الدنيا
فإن المعدَّ لهم من عذاب الآخرة أضعاف أضعاف هذا المسخ^(١).

(١) البرهان: ٤ / ١٢٩ / ح ٣، عن تفسير العسكري: ٢٦٨، ١٣٦ و ١٣٧.

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾

قال الله تبارك وتعالى ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ • وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ • سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ • مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (الأعراف: ﴿١٧١﴾-﴿١٧٤﴾).

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ يأمر الله تعالى نبيه (ﷺ) أن يقرأ على الناس ويقصّ لهم ﴿نَبَأً﴾ أي خبراً عظيماً فيه موعظة نافعة عن ﴿الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا﴾ عن شخص أعطاه الله تعالى علماً جماً وحقائق ومعارف في النفس والكون تهدي الى الصراط المستقيم الموصل الى الله تبارك وتعالى، فكان مقامه مميزاً بين الجماعة الصالحة ويشار إليه بالسبق والتقدم.

﴿فَانْسَلَخَ مِنْهَا﴾ لكنه تجرد عنها كما يُسلخ جلد الحيوان وينزع الحيوان عنه لأن السلخ هو نزع جلد الحيوان، وتخلي هو باختياره وإرادته ولم يسلخه الله تعالى، منها فإنه في منعطف من حياته وأمام بريق الإغراءات لم يستطيع الثبات على الحق فسقط في الامتحان، والتعبير بالانسلاخ يعني ان الحجب والبيئات كانت محيطة به ولازمة له وملتبقة بذاته التصاق الجلد بالإنسان، وهكذا التصاق الإيمان

بالفطرة السليمة والعقل، الا انه لسوء سريره وغلبة شهوته على عقله وفطرته تجرد عن العلوم والمعارف التي من الله تعالى عليه بها كما ينسلخ الجلد عن الحيوان، وأعرض عنها فلم ينتفع بها ولم يحولها إلى واقع عملي في حياته وإنما اتبع هواه ومشتبهات نفسه، ونحن نعلم ان الجلد له أكثر من فائدة فهو جمال للإنسان ولو انكشف بحرقٍ وغيره كانت خلقته مشوهة، وهو حافظ للبدن فلو ازيل هجمت عليه المكروبات والفيروسات وأصابته الأمراض الخطيرة، فكذلك المعرفة والعلوم النافعة جمال وكمال للإنسان وحماية له من الحماقة والضلالة فاذا تعرى منها كشفت سوأته.

﴿فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾ ولما رأى الشيطان إمكانية الزلل والانحراف عنده وميله إلى الدنيا طمع فيه بعد أن كان يائساً من إغوائه عندما كان في الجماعة الصالحة ويظهر بزيهم، وكان في رعاية الله وحصنه فلحقه الشيطان وتبعه لما رآه خرج من حصن الله تعالى ورعايته، وظل يغريه ويمنيه فزاده ضلالاً حتى جعله تابعاً له، وربما أتبعه بجمع من الناس يصدقونه ويجعلونه زعيماً لهم ليغريه أكثر، ﴿فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ أي من الخاسرين الهالكين الذين ضلّوا الطريق فتسلط عليهم الشيطان ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ (الحجر: ٢٤).

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾ تعبير بأسف واستياء عن مصير مثل هذا الشخص باننا وفرنا له فرصة الارتقاء نحو الكمال وكان يمكن أن نرفع منزلته ودرجته ونزيده كمالاً الى كماله بتلك الآيات التي أعطيناها لو أراد العمل بصدق وإخلاص من أجل القرب من الله تعالى فان الله تعالى لا يجبر أحداً بل يتركه

ليختار بحرية ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾
(الأنفال: ٤٢).

﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ لكن هذا الشخص لم يحسن الاختيار فرغب في الدنيا ومال الى بهرجتها الزائفة وآثر متعتها الزائلة فرغب في الدعة والراحة واللذة والأموال الدنيئة المرتبطة بجسده الفاني المخلوق من التراب وسكن الى الأرض ولم يجعل غرضه الكمالات الروحية السماوية اتباعاً لهواه وتغليماً لشهواته.

﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ﴾ فهو دائم اللهاث في طلب الدنيا سواء في موارد الحاجة الطبيعية لها التي يعذر فيها بل يحمده أحياناً كالتوسعة على العيال والانفاق في سبيل الله تعالى، أو لا لحاجة اليها بل مجرد هوس واتباع لنفسه الأمارة بالسوء التي لا تشبع ولا تقف عند حد وإنما تلهث بنهم وراء النزوات والشهوات وتستزيد منها بلا حدود عقلانية فلا يعذر في طلبها، ورد في الحديث الشريف (لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى الثالث ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب)^(١)، فهو مثل الكلب دائم اللهاث يخرج لسانه من فمه سواء هاجمته وحملت عليه واضطر الى الهرب وادركه الاعياء والتعب والعطش كما هي الحالة الاعتيادية للهاث، أو كان في وضع الاستراحة، وطالب الدنيا كذلك يلهث وراءها عطشاً إليها سواء كان محتاجاً

(١) مسند أحمد: ج ٥/ص ١١٧، وأخرجه البخاري بحديث قريب منه ٢٥٣/١١ باب ما يتقى من فتنة

إليها أو لا، ولا ينتفع بشيء من آيات الله البينات التي تروي عطشه الروحي سواء وعظته بها أو لم تعظه.

(وقيل إنما شبه بالكلب في الخسة وقصور الهمة وسقوط المنزلة، ثم وصف الكلب باللهث على عادة العرب في تشبيههم الشيء بالشيء، ثم يأخذون في وصف المشبه به، وإن لم يكن ذلك الوصف في المشبه، وذلك يكثر في كلامهم - عن أبي مسلم-) ^(١)، أقول: والأول أقرب وإنما قالوا هذا لعدم قناعتهم بوجه للتشبيه باللهات.

﴿ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾ هذه هي صفة وعاقبة كل الذين يعرضون عن داعي الهداية والصلاح والاستقامة على طاعة الله تعالى وينساقون وراء أهوائهم وشهواتهم وتزيين شياطين الجن والانس ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ﴾ وانقل لهم موارد العظة والعبرة من أحوال الناس السابقين وتجاربهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فان القصص لا نسردها للتسلية وقضاء الوقت عبثاً بل لأخذ الدروس والعبر منها والاستفادة من أخطاء الآخرين حتى لا نقع فيها ولا نكررها فيصينا نفس ما أصابهم.

﴿سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾ فكان أمثال هؤلاء بسئ المثل لمن يأتي خلفهم وأصبحوا عبرة لمن اعتبر ﴿وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ فقد جنوا على أنفسهم وحرموها من السعادة التي هيأ الله تعالى لهم أسبابها وظروفها، واختاروا الشقاوة بعصيان ما أمر الله تعالى به فهم بعصيانهم يضرون أنفسهم، والله تعالى لا

يُضَرُّهُ كَيْدُهُمْ وَلَا تَطْغِيَانَهُمْ وَعَصِيَانَهُمْ كَمَا لَا يَنْتَفِعُ بِإِيمَانِهِمْ ﴿لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ (آل عمران: ١٧٦) ﴿وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ﴾ (النساء: ١١٣) ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدَى﴾ إِذَا صَلاَحَ وَلَا سَعَادَةَ وَلَا نَجَاةَ إِلَّا بِاتِّبَاعِ شَرِيعَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَالتَّوْفِيقِ بِلَطْفِهِ وَعَنَايَتِهِ وَلَنْ تَجِدَهَا عِنْدَ غَيْرِهِ، وَهَذِهِ حَقِيقَةُ يَقْرُبُهَا الْمُؤْمِنُونَ وَيَرُدُّونَ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ (الأعراف: ٩٣).

﴿وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ مِنْ النَّاسِ بِسُوءِ اخْتِيَارِهِمْ وَعَدَمِ اسْتِفَادَتِهِمْ مِمَّا هَيَّا اللَّهُ تَعَالَى لَهُمْ مِنْ سُبُلِ الْخَيْرِ فَوَكَّلَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى أَنْفُسِهِمْ وَمَا اخْتَارُوا فَانَ اللَّهُ تَعَالَى لَا يُجْبِرُهُمْ عَلَى الْهُدَى وَالصَّلاَحِ إِنْ لَمْ يَرِيدُوهُ فَكَانَ الشَّقَاءُ نَتِيجَةً حَتْمِيَّةً لَهُمْ، قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) فِي دَعَاءِ الصَّبَاحِ (وَإِنْ خَذَلَنِي نَصْرُكَ عِنْدَ مُحَارَبَةِ النَّفْسِ وَالشَّيْطَانِ فَقَدْ وَكَلَنِي خِذْلَانُكَ إِلَى حَيْثُ النَّصَبُ وَالْجِرْمَانُ) ^(١).

﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ فَقَدْ خَسَرُوا أَنْفُسَهُمْ وَلَمْ يُوْظَفُوهَا لِمَا تَسْتَحِقُّ مِنَ الثَّمَنِ وَهِيَ الْجَنَّةُ، وَخَسَرُوا نَعِيمَ الْآخِرَةِ وَمُرَافَقَةَ الصَّالِحِينَ الْأَبْرَارِ، وَخَسَرُوا رِضْوَانَ اللَّهِ تَعَالَى وَأَيَّ خَسَارَةٍ أَكْثَمَ مِنْ تَضْيِيعِ هَذِهِ النِّعَمِ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ۖ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾ (إبراهيم: ٢٨-٢٩) فَبُئِستِ الصَّفَقَةُ.

وتذكر الروايات ان الآية الكريمة نزلت في بلعام بن باعورا وكان من كبار علماء بني إسرائيل لكنه رغب في دنيا الفراعنة وروي في تفسير القمي عن الإمام

الرضا (عليه السلام) قوله (أنه اعطى بلعم بن باعورا الأسم الأعظم وكان يدعو به فيستجاب له فمال الى فرعون)^(١) فجعلته الآية الكريمة مثلاً لكل من تخلى عن مبادئه وقيمه الدينية والإنسانية التي تعلّمها وعرفها طلباً للدنيا.

لذا طبقه الإمام الباقر (عليه السلام) على بعض من كان محسوباً عليه، روى العياشي في تفسيره عن سليمان اللبان قال (قال أبو جعفر (عليه السلام): أتدري ما مثل المغيرة بن سعيد قال: قلت: لا، قال: مثله مثل بلعم الذي أوتي الاسم الأعظم الذي قال الله تعالى ﴿آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾^(٢)).

ونبيّن هنا بعض الدروس المستفادة من الآيات الكريمة التي تجري في جميع الناس بحسب مراتبهم:

١- ان الناس - عدا من عصمه الله تعالى - يتركون ما أعدّ الله تعالى لهم من الكرامة والمقام الرفيع ويرضون بالأدنى التافه، وبعضهم يكون له أعمال وإنجازات كبيرة لكنه لما يحين وقت الحصول على الجائزة الكبرى وقطف الثمرة يتركها ويذهب بعيداً عنها الى حيث الفتات، وربما يظن ان ذلك تواضع منه وزهد لأنه لا يستحق هذا العطاء وهو واهم لأن الله تعالى لا يعطي على الاستحقاق، حتى يرفضه لعدم الاستحقاق وإنما يعطي كرمًا وتفضلاً، وربما يهرب من نيل العطاء لا لشيء يحصل عليه سوى جلد الذات وعقاب النفس فيتركون كرامة الله تعالى ويطلبون عقوبته، وهو أحد معاني ما ورد عن أمير المؤمنين (عليه السلام) (ما أعرف

(١) بحار الأنوار: ج ١٣ / ص ٣٧٧.

(٢) البرهان: ١٤٣/٤، عن تفسير العياشي: ٤٢/٢ / ح ١١٨.

أحداً الا وهو أحق في ما بينه وبين ربه^(١) لأنه لم يحسن استثمار الفرصة بتمامها، وقد أخذه (عليه السلام) مما ورد في وصية النبي (ﷺ) لأبي ذر (رضي الله عنه) (يا أبا ذر لا يصيب الرجل حقيقة الإيمان حتى يرى الناس كلهم حمقى في دينهم عقلاء في دنياهم)^(٢) فلا بد ان يجعل القاعدة الأولية في الناس هي هذه، إلى أن يتأكد من كونهم عقلاء في دينهم أيضاً. لذا كان من أسماء يوم القيامة يوم التغابن لأن الجميع يشعر بالغبن حتى المؤمنون، ولما يجد الشيطان في الإنسان تلك الرغبة وذلك التوجه يتشبث به ولا يدعه حتى يضلّه.

فمثله كمثل الكلب يقوم بأعمال كبيرة لصاحبه ثم يجلس وقت الطعام بعيداً ويكتفي بما يلقي إليه من العظام وبقايا الطعام، ولو دعوا الى الموائد لما استجابوا لأنهم لا يحسنون الأكل الا مع الكلاب، وهذا وجه آخر للتشبيه، كقريش وأهل الكتاب فانهم كانوا ﴿يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ (البقرة: ٨٨) ويطلبون الفتح والنصر بان يرسل لهم الله تعالى رسولاً هادياً الى طاعة الله تعالى، فلما بعثه إليهم وهم يعرفون صدقه وأمانته وإخلاصه لهم كذبوه وجحدوا بآيات الله ونكصوا على أعقابهم.

فمجيء هذه الآيات بعد آية الميثاق ليجدد الإنسان دائماً ميثاقه الذي تعهد به أمام ربه تبارك وتعالى ويثبت عليه.

٢- خطورة دور العلماء والمفكرين والنخب المثقفة اذا تخلّوا عن مسؤولياتهم وانحرفوا عن أداء رسالتهم ومالوا الى الدنيا طمعاً في مال أو جاه أو زعامة أو حسداً لمن هم أجدر منهم، فيرضون لأنفسهم بأن يتحولوا الى أبواق

(١) بحار الأنوار: ج ٧٨/ ص ١٠٧.

(٢) أمالي الطوسي: ٥٣٣.

لظالمين وأدوات لهم لخداع الناس وتجهيلهم وتدجينهم ليسهل على المتسلطين سوقهم الى ما يريدون، روى الشيخ الطبرسي في مجمع البيان عن الإمام الباقر (عليه السلام) قال (الأصل في ذلك بلعم ثم ضربه الله مثلاً لكل مؤثر هواه على هدى الله من أهل القبلة)^(١).

وكم سمعنا ورأينا ممن عرف اشياءاً من علوم الدين لكنه ينحرف عنها ويكتمها بل يظهر خلافها طلباً لدنيا ينالها من سلطانٍ جائر فيشرعن له ظلمه وجوره ويكون للظالم عوناً وللمظلوم خصماً عكس ما هو مطلوب^(٢) بل قد تجدهم يتسابقون الى ظلم أنفسهم بطاعة الظالم وتنفيذ رغباته وابتكار مالم يطلبه منهم والسير في ركابه والانسلاخ من مبادئهم وعدم الكلل من تقديم كل ما يسرع بإرسالهم الى قعر جهنم والعياذ بالله تعالى.

لذا أمر المعصومون (عليه السلام) باتباع العلماء العاملين المخلصين المضحين من أجل الدين وكرامة الإنسان وحذروا من العلماء الذين يتخذون الدين وسيلة لتحقيق مكاسب شخصية، وليتأنّ الإنسان كثيراً وليمحص قبل أن يختار من يتبعه ويأخذ بأقواله وأفعاله ولا تغره بعض المظاهر والشكليات.

٣- يجب على المؤمنين أن يملأوا الساحة بما يقتضيه المنهج الإسلامي في جميع الاتجاهات: العقائدية والفكرية والأخلاقية والاجتماعية حتى السياسية والاقتصادية، فان الساحة إذا خلت ملأها الشيطان واتباعه، فهذا الذي ضربته الآية

(١) مجمع البيان: ٢٠٧/٤.

(٢) إشارة لوصية أمير المؤمنين (عليه السلام) لولديه الحسن والحسين (عليهما السلام) حين استشهاده (كونوا للظالم خصماً وللمظلوم عوناً) (نهج البلاغة: الكتب والرسائل: الرسالة ٤٧).

مثلاً لما خرج من الجماعة الصالحة وترك المنهج الرباني أتبعه الشيطان فوراً وأغواه وزاده ضلالاً وملاً الفراغ الذي أخرج نفسه إليه.

٤- إن التزود بالعلوم والمعارف وحده لا يكفي للنجاة والفوز ما لم تتحول الى التزام عملي واقعي متكامل لأن وجود أي ثغرة في التطبيق يمكن أن ينفذ منها الشيطان ويهدم بنيانه كله، لذا ورد في دعاء الافتتاح (اللهم ما عرفتنا من الحق فحملناه وما قصرنا عنه فبلغناه)^(١) فلا بد أن تتحول المعرفة الى هم نحمله ونعيشه بكل كيانه ونسعى الى تحقيقه بمعونة الله تعالى.

إن الآية تنطبق بشكل كبير على من يسمّون بوعّاظ السلاطين، ومنهم شريح القاضي فبعد أن كان قاضياً لأمير المؤمنين (عليه السلام) في مسجد الكوفة أغراه الموقع وامتيازاته حتى كان هو من خذّل الناس عن مسلم بن عقيل عندما أشرف من قصر الامارة على الناس المحتجين بقيادة مسلم وأخبرهم ان هاني بن عروة بخير وانه في ضيافة الأمير، ثم اعطى الشرعية للخروج إلى حرب الإمام الحسين (عليه السلام) بأنه خارج على خليفة المسلمين فكانت فتواه سبباً لقتل الإمام الحسين (عليه السلام)^(٢).

(١) مفاتيح الجنان.

(٢) راجع خطاب المرحلة: ج ٦/ ص ٤٢٣، بعنوان (الفتوى التي قتلت الإمام الحسين (عليه السلام)).

القبس/٦٨

سورة الأعراف: ﴿٦٨﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَئِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾

موضوع القبس: مواعظ ودروس

﴿إِنَّ﴾ جيئ بها للتأكيد.

﴿الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ وهم الذين تصدر منهم أفعال التقوى مما يحب الله تبارك وتعالى واجتناب ما يكرهه وهم غير المتقين الذين أصبحت التقوى ملكة راسخة ثابتة فيهم فبينهما فرق كما بين الصالحين والذين عملوا الصالحات، ونحو ذلك.

﴿إِذَا مَسَّهُمْ﴾ وحدث لهم وعرض عليهم ﴿طَئِفٌ﴾ وهو ما يدور حول الشيء لاقتناص الفرصة بغية تحقيق غرضه.

﴿مِّنَ الشَّيْطَانِ﴾، الذي يستمر بالوسوسة والقاء هذه النوازع مستغلاً غفلة الانسان. ﴿تَذَكَّرُوا﴾ وانتبهوا من غفلتهم فوراً من دون تأخير واستحضروا في عقولهم وقلوبهم ما يعصمهم من التأثير بهذه الغواية الشيطانية فهم ليسوا من اهل الحديث (الناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا)^(١).

﴿فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ انتبهوا من غفلتهم وعادت اليهم بصيرتهم فتحصنوا من الانسياق وراء غواية الشيطان.

(١) بحار الأنوار: ج ٦/ ص ٢٧٧.

ونظير هذه الآية ما ورد في سورة آل عمران ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ (آل عمران: ٣٧).

ويمكن استخلاص عدد من المواعظ والدروس التربوية من الآية تساعد على فهم تفاصيلها منها:

١- إن الإنسان مهما ارتقت درجته في الإيمان والعبادة والطاعة معرض للزلل بغواية الشيطان التي تبدئ بأفكار ووساوس وتسويلات يلقيها الشيطان في قلب الإنسان وعقله سمّتها الآية بطائف من الشيطان ثم يتحول هذا الطائف الى قناعات ورغبات ينساق وراءه الانسان وتحركه نحو الفعل، وفي دعاء الإمام السجاد (عليه السلام) (فَإِنَّ الشُّكُوكَ وَالظُّنُونَ لَوَاقِحُ الْفِتَنِ وَمُكَدِّرَةٌ لِّصَفْوِ الْمَنَاجِحِ وَالْمِنَنِ)^(١) فالآية وآيات آل عمران وصفتهم ببلوغ درجة الذين اتقوا والمتقين ومع ذلك فان الشيطان يطمع في اغوائهم ولم يتركهم، ولا ينجو من مكائد الشيطان الا المعصومون (سلام الله عليهم)، وهذا ما توعد به ابليس منذ خلق البشر ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَا أُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ (ص: ٨٢-٨٣) الذين طهرهم الله تعالى من كل دنس.

فكلنا بجميع درجاتنا وعلى اختلاف أحوالنا وأعمارنا شباباً وشيخاً رجالاً ونساءً معرضون لهذا الابتلاء وإلقاء الوساس وطواف الشيطان على القلب والعقل، لكن قد تختلف هذه الوساس والاثارات بين البشر فالشباب لهم بلاءهم ورغباتهم وإثاراتهم والحوزة لها اختبارها والأثرياء والفقراء لكل منهم امتحانهم

(١) الصحيفة السجادية: المناجات السابعة: مناجات المطيعين.

والذي في الغرب والذي في البيئة المسلمة واساتذة الجامعات والسياسيون وهكذا كل فرد يحس بهذا الضغط والتزيين باتجاه ما يحاول الشيطان أن ينفذ من خلاله، حيث يلبس ابليس على كل شريحة بما يغويها، وقد تضمن دعاء نهار شهر رمضان صورة مفصلة للحرب الشاملة التي يخوضها الشيطان بكامل عدته وجنده لاضلال البشر، وفي مناجات الشاكين للامام السجاد (عليه السلام) استعراض للقوى المشتركة في هذه المواجهة وادواتها فعلى الجميع الحذر والمراقبة والوعي والتفقه حتى يغلقوا على الشيطان منافذه.

٢- إن الواقية الحصينة التي يلتجئ اليها الإنسان للوقاية من كيد الشيطان وإغرائه وافشال مخططاته هي التقوى، لأن الآية ذكرت أن المتقين هم الذين لا يفلح الشيطان في استغفالهم وأنهم سرعان ما يتذكرون إذا حام الشيطان حول قلوبهم، وتعود اليهم بصيرتهم فوراً عند تذكركم، وقد يكون المتقي متذكراً يقظاً دائماً فلا يكون للشيطان عليه سبيلاً، وقد قالوا في علمي الفقه والاصول أن تعليق الحكم على الوصف مشعر بالعلية أي أن حصول التذكر وعودة البصيرة واليقظة والمراقبة متعلق ومرتبطة بوجود ملكة التقوى، فحالة التذكر معلولة لوجود ملكة التقوى عند العبد فكلما كان أكثر تقوى كان أكثر تذكراً لأن وجود ملكة التقوى سبب للانتباه من الغفلة رزقاً خالصاً من الله تبارك وتعالى وجزاءً لتقواه ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ (الطلاق: ٢-٣) والرزق يشمل المعنويات بالتأكيد، فاذا تذكر الانسان واستبصر خنس الشيطان وخسى، واذا غفل الانسان عاد الشيطان الى وسوسته وتزيينه فوصف بـ (الوسواس الخناس)، فالشياطين كالفيروسات والجراثيم الملوثة للبيئة والموجودة حول كل

إنسان لكنها لا تصيب الا من كانت مناعته ومقاومته التي هي التقوى ضعيفة ولو بدرجة من الدرجات.

٣- إن غاية سلطة الشيطان على الانسان وطريقة عمله بأن يطوف ويدور حول قلب الإنسان وعقله ويوسوس له ويحاول تزيين المعصية ليحرك شهواته وغرائزه باتجاهها، ويحاول اغراءه بها، قال تعالى ﴿شَیَاطِینَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ﴾ (الأنعام: ١١٢) عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال: (الشيطان موكل به - أي العبد - يزين له المعصية ليركبها ويمنيه التوبة ليسوفها)^(١) فهاتان العمليتان غاية ما يستطيع الشيطان فعله، احدهما قبل فعل الانسان بالتزيين والترغيب والاغراء بالمعصية، والاخرى بعده بتصغير شأن المعصية وعدم الشعور بالندم والتوبة وهذان الفعلان كل سلطة الشيطان على الناس، فلا اعتقادات السائدة لدى الجهلة والعوام بتلبس الجن وأمثالها وبالشكل الذي يصورونه وكأن الانسان يصبح آلة يسيّرهما الجن أو هام تافهة وباطلة، وأن الله تعالى كرم الإنسان وفضله على خلقه فلا يجعل لغيره سبيلاً عليه بهذا النحو وغيره، فالشيطان لا يملك هيمنة على الإنسان أكثر من ذلك والإنسان هو الذي يختار سلوكه وطريقته في الحياة بإرادته ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾ (الإنسان: ٣) لذا يرد الشيطان يوم القيامة على اتهام الإنسان له بالإضلال بما حكاه الله تعالى عنه ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُم فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم﴾ (إبراهيم: ٢٢) وقال تعالى ﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم

مِّنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿سبأ: ٣١﴾.

ومن الواضح أن سلاح الشيطان هو استغفال الإنسان وغلق منافذ التفكير والوعي والحكمة ووضع الحُجُب دون بصيرته وقدرته على التمييز بين الحق وبين الباطل لذا كان العلاج وسلاح الرد عليه هو التذكر والانتباه والفتنة والحذر وإزالة الحُجُب والأغلال والمراقبة المستمرة ﴿تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ (الأعراف: ٣٥) كالسارق فانه لا يستطيع سرقة الإنسان المنتبه المتحذّر وإنما يسرق الغافل الساهي والشيطان يريد سرقة دين الإنسان واستقامته.

وينبغي الالتفات الى أن فسح المجال للشيطان لكي يطوف ويحوم حول القلب والاسترسال مع وسوسته والافكار التي يُلقِيها وعدم قطع الطريق عليه نقص في كمال الإنسان وإن لم يفعل المعصية ففي الآية الكريمة ﴿إِنَّمَا التَّجَوَّى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزَنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئاً إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (المجادلة: ١١) وفي الحديث (لولا أن الشياطين يحومون على قلب ابن ادم لنظروا إلى الملكوت)^(١)، فعلى كل فرد أن لا يستصغر شأن بعض الأفكار غير الرحمانية التي تراوده كالتعلّق بالجنس الآخر أو الاعتداء على المال العام أو الكيد لشخص يحسده والانتقاص منه وتسقيطه ونحو ذلك، وعليه أن يقطعها ويستغفر منها ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ (الحجرات: ١٢) والا كانت بداية للسقوط في الخطأ والخطيئة والعياذ بالله.

٤- لم تذكر الآية متعلق التذكّر أي ماذا يتذكّرون والتذكر هو التفتن لأمر مغفول عنها سابقاً وتساعد في الوصول الى النتيجة فقالت ﴿تَذَكَّرُوا﴾ وأطلقت ولعله ليشمل كل ما يعينك على هذه المواجهة ولكن الآية التي سبقتها نبّهت الى ما يجب تذكره واستحضاره والتسلح به، قال تعالى ﴿وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (الأعراف: ٢٠١) فالآية محل البحث تبين وسيلة الوصول الى العلاج الذي ذكرته الآية السابقة عليها. وأكدته اية لاحقة ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ (الأعراف: ٢٠٥)، وهكذا فإن الآية المشابهة من سورة آل عمران صرحت بالمتعلق ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَّرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ (آل عمران: ١٣٥).

ونستطيع أن نعرف تفصيل الامور التي يتذكرها ليكون مبصراً من سورة يوسف فقد تعرّض (عليه السلام) لموقف رهيب فماذا كان سلاحه في تلك المواجهة؟ وماذا كان برهان ربه الذي لولاه لهمّ بها؟ ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ (يوسف: ٢٣) إنها عناصر ثلاث، يتحقق بها الاعتصام.

فيستحضر الله تعالى أولاً ويستعيد به ويطلب منه العصمة والمعونة وهذا ما ذكرته الآية السابقة هنا.

ويتذكر ثانياً أن له رباً هو الله تبارك وتعالى يملك أمره ويتولى تربيته ويكفيه المؤونة ويرزقه من حيث لا يحتسب وهو الذي ينصره ويثبت قدمه عند المزالق ويفرج عنه وأنه قد أغدق عليه النعم الكثيرة فعليه أن يلتزم بمنهج ربه ولا يفارقه

شكراً لنعمائه وليس مقابلة النعمة بالعصيان ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾
(الرحمن:٣١).

ويتذكر ثالثاً العاقبة السيئة لمن يتبع الشيطان ويظلم نفسه بفعل المعصية
﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ (يوسف:٢٣).

عن الإمام الصادق (عليه السلام) في معنى ذكر الله على كل حال قال: (يذكر الله
عند المعصية يهيم بها فيحول ذكر الله بينه وبين تلك المعصية، وهو قول الله عز
وجل ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ
مُبْصِرُونَ﴾^(١)).

ولنضرب مثلاً من واقعنا المعاش وهي الظاهرة التي غزت شبابنا
والهوس الذي اصاب كثيرين منهم هذه الأيام لدفعهم باتجاه التغرّب أو التعرّب
بعد الهجرة سعياً وراء ما يسمونه بتحسين وضعهم المعاشي والحياة المادية
المترفة، هذا القرار غير الحكيم يتدبّر من طائف شياطين الإنس والجن الذين
يصوِّرون للشباب هذه الرحلة وكأنها الى الفردوس المنتظر وييسِّرون له أمرها
ويرسمون له الأحلام الوردية ويسودون صورة واقعه المعاش فهنا إن تذكر أن في
هذا الفعل ضياع دينه واسرته والتفريط بأهله واخوانه وبلده ابصر طريقه واتخذ
القرار الصحيح بالبقاء ولو كلفه بعض الصعوبات فإن تحملها في جنب الله سعادة،
وإن مضى في غفلته سقط في هذا الفخ الذي نصبه من لا يؤتمنون على العاقبة
الحسنة في الدنيا ولا في الآخرة، وقد ابتلع البحر الأبيض مئات الالاف من

اللاجئين في هذه السنة والتي سبقتها، هذه الظاهرة مليئة بالغرائب، فإن الدولة التي يتجمع فيها الإرهابيون من شتى أنحاء العالم لينتقلوا منها الى سوريا والعراق، هي نفسها التي امتلأت بشبكات التهريب لتنقل الفارين من جحيم الإرهاب الى اوربا. والدول الاوربية التي ترفض إعطاء الإقامة لمن قصدها باحترام عن الطريق الرسمي والسفر بسمة الدخول ترحب بهم كلاجئين عبر طرق الموت والمعاناة وابتزاز المهرّبين، إنها مفارقة حمقاء.

٥- يمكن فهم هذه الآلية تربوياً وعملياً باتجاهين متعاكسين (أحدهما) أن من يكون متقياً يحظى بلطف من الله تعالى بالتذكر عندما يحوم الشيطان حول قلبه فتفتتح بصيرته ويرى الحق فينجو من مكائد ابليس (ثانيهما) أن من أراد أن يكون من المتقين فعليه أن يكون متذكراً يقضاً مراقباً لينجيه الله تعالى من اغواء الشيطان وبذلك تحصل عنده ملكة التقوى.

وهذان الاتجاهان متلازمان وكل منهما يؤدي الى الآخر أي أن كل درجة من أحدهما تؤدي الى أعلى منها من الآخر والعكس كذلك حتى يرتقي في درجات الكمال بإذن الله تعالى.

٦- إن الإنسان المتقي الصالح محبوب عند الله ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ (التوبة: ٤) وإتباع الشيطان عمل مبغوض عند الله تعالى، فحينما يقع هؤلاء الذين اتقوا في طائف الشيطان فإن عملهم مبغوض لكنهم محبوبون في ذاتهم.

هذه النتيجة نخرج منها بدرس عملي وهو أنه يجب علينا أن نميّز بين حب وبغض الشخص وحب وبغض عمله فقد نرفض عمل شخص لأنه غير صالح ولا يسري ذلك الى الشخص ذاته بل يبقى محبوباً لأنه متقي صالح فاعل للخير، وهذا

معنى الحديث النبوي الشريف الذي رواه أمير المؤمنين (عليه السلام) (إن الله يحب العبد ويغض عمله، ويحب العمل ويغض بدنه)^(١) وقد شرحناه في الملحق التالي، ومن تطبيقات الجزء الثاني منه اطلاق النبي (ﷺ) اسرى قبيلة طيى لان كبيرهم حاتم الطائي كان مضيافاً كريماً وقوله (ﷺ) لابنته (لو كان أبوك مسلماً لترحمنا عليه)^(٢) وأمر الله تعالى بعدم قتل السامري صاحب العجل وتعليه لموسى بانه كان سخياً كريماً^(٣) وهذا الأدب الرفيع لا يلتزم به الا من ندر، حيث أن السائد في المجتمع أنه يكره الشخص وينبذه ويسقطه ويسحق كرامته لانه عمل شيئاً مكروهاً لديه، او صدر منه موقف خاطئ تجاهه.

(١) نهج البلاغة، الخطبة ١٥٤ في فضائل اهل البيت (عليه السلام).

(٢) أعيان الشيعة: ج ١ / ص ٢٨٧.

(٣) وسائل الشيعة: ج ٩ / ص ١٨.

ملحق: إن الله قد يحب العبد ويغض عمله

ان المتقين محبوبون عند الله تبارك وتعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾
(التوبة: ٤) كما ان التأثر بمس الشيطان فعل يبغضه الله تبارك وتعالى فالاية في
القبس الانف تكشف انه يمكن ان يصدر من الفئة التي يحبها الله تبارك وتعالى
فعل يبغضه الله تعالى وقد ورد هذا المعنى في ما روي عن امير المؤمنين (عليه السلام)
(ان الله يحب العبد ويغض عمله) وهو حديث له مداليل نفسية واجتماعية مهمة.
فقد روى لنا أمير المؤمنين (عليه السلام) حديثاً عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) يعطينا فيه
قاعدة من قواعد السلوك الاجتماعي والتعامل مع الآخرين، ويعالج لنا مشكلة
تمزق المجتمع وتغذي البغضاء بين أبنائه.
فمن خطبة له (عليه السلام) قال (واعلم أنّ لكل ظاهر باطناً على مثاله، فمن طاب
ظاهره طاب باطنه، وما خبث ظاهره خبث باطنه، وقد قال الرسول الصادق (عليه السلام)
(إنّ الله يحبّ العبد ويغضّ عمله، ويحبّ العمل ويغضّ بدنه)).
واعلم أنّ لكل عمل نباتاً، وكل نبات لا غنى به عن الماء، والمياه مختلفة، فما
طاب سقيّه، طاب غرسه وحلت ثمرته، وما خبث سقيّه، خبث غرسه وأمّرت
ثمرته^(١).

وورد هذا الحديث في رواية أوردها الشيخ الطوسي (قدس سره) عن الإمام
الباقر (عليه السلام) وفيها قوله (أما علمت أنّ الله يحبّ العبد ويغضّ عمله، ويغضّ العبد

(١) نهج البلاغة، الخطبة (١٥٤) في فضائل أهل البيت (عليه السلام)، أولها (وناظر قلب اللبيب).

ويحب عمله^(١).

أقول: يلاحظ فرق بين النصين في الفقرة الثانية وهو الشخص المبعوض، إذ وصفه نص نهج البلاغة بالبدن ونص الأمالي بالعبد، وبرأيي القاصر فإن نص الشريف الرضي في نهج البلاغة هو الأصح، والوجه في ذلك يظهر من خلال الالتفات إلى أمور:

إن رواية نهج البلاغة وصفت الشخص المبعوض بالبدن ولم تصفه بالعبد فهو كسائر الأبدان والأجساد المادية الخالية من الصفة الإنسانية الحقيقية وهي العبودية لله تعالى ﴿إِنَّهُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ (الفرقان: ١٧) فهو لا يستحق أن يوصف بالعبودية التي هي أسمى صفة للإنسان، وبها كرم الله تعالى نبيه المصطفى (صلى الله عليه وآله) حين أمر بذكره في تشهد وتسليم الصلاة بالعبودية ثم الرسالة (وأشهد أن محمداً عبده ورسوله) أما نص الأمالي فقد وصف الشخص المبعوض بالعبد وهو لا يستحقه.

إن نص نهج البلاغة استعمل لطيب الباطن والظاهر (من) وهي تستعمل للعاقل بينما استعمل (ما) للمبعوض وهي تُستعمل لغير العاقل فيناسبه لفظ البدن غير العاقل لا العبد الذي يحمل تمام العقل.

إن نص نهج البلاغة قدّم المحبوب بالذكر في كلا الفقرتين (حب العبد وحب العمل) وهو الأليق، بينما قدّم النص الثاني الشخص وإن كان مبعوضاً. وعلى أي حال فإن معنى كلامه (عليه السلام) باختصار:

إن ما يصدر من الإنسان من تصرفات وأفعال ومواقف إنما يعكس حقيقة

(١) أمالي الطوسي: ٦١٦، الجزء الرابع عشر في أخبار إبراهيم الأحمري.

هذا الشخص وباطنه وذاته، قال (عليه السلام) في كلمة أخرى (ما أضمر أحد شيئاً إلا ظهر في فلتات لسانه وصفحات وجهه) ^(١) وكما قيل في المثل المعروف (وكل إناء بالذي فيه ينضح).

وقد أعطى (عليه السلام) في ذيل كلامه مثلاً لهذه المعادلة ووسيلة الوصول إلى الباطن الطيب، فإن العمل كالنبات فيه طيب حلو وفيه خبيث مر، فإذا كان الماء الذي يسقي الزرع والأرض طيباً كان الزرع طيباً حلواً، وإلا كان مرّاً خبيثاً، وهكذا النفوس إذا سُقيت من معينٍ نقي للمعرفة والعلم والأخلاق كانت صالحة طيبة، وإلا فستكون خبيثة.

وبالعودة إلى الحديث النبوي الشريف، فإنه تستفاد منه قاعدة لتمييز الإنسان الصالح من الفاسد، لأنّ الأول لا يترشح منه إلا فعل الخير بعكس الثاني، فيُقيّم الإنسان وتعرف حقيقته من خلال الحكم على أفعاله.

لكن - وكما قيل - فإنّ لكل قاعدة شواذاً، فإنّ الإنسان الصالح - عدا المعصوم (عليه السلام) - قد يصدر منه فعل سيء يبغضه الله تعالى إما لغفلة، أو لضعف في المناعة والعصمة والإرادة، أو لغلبة الهوى والشهوة وتزيين الشيطان أو لسوء تقدير، أو لتأثر بأقران سيئين، أو لضعف أمام تهديدات وإغراءات ونحوها من أسباب السقوط في المعاصي.

وإن الشخص الفاسد قد يقوم بفعل محبوب لله تعالى كمساعدة محتاج أو رعاية يتيم أو قضاء حاجة إنسان آخر ونحوها، لتأثره بجو إنساني وعاطفي عام، أو لبقية حياة في ضميره أو بتأثير إنسان صالح يحبه وهكذا.

(١) نهج البلاغة، قصار الكلمات، رقم ٣٦.

وبهذا نحل الإشكال الذي قيل على سياق الحديث، وحاصله: إنَّ الحديث النبوي الشريف ينافي الفقرة السابقة عليه وهو ينقض المطابقة بين الظاهر والباطن التي ذكرها أمير المؤمنين (عليه السلام): وملخص الجواب: إنَّ هذا الإشكال مبني على كون الحديث النبوي شاهداً على ما أورده من القاعدة، فيُجاب الإشكال بأنَّ الحديث ذكر للإشارة إلى الاستثناء من القاعدة، وليس استدلالاً على نفس القاعدة.

وقيل في توجيهه شيء آخر ذكره العلامة السيّد حبيب الله الخوئي شارح نهج البلاغة، قال (مُدرِّسٌ): ((وإنما الإشكال في ارتباط هذا الكلام لسابقه وفي استشهاد الإمام (عليه السلام) به مع أنَّه لا مناسبة بينهما ظاهراً، وليس للاستشهاد به وجه ظاهر، بل منافاته لما مرَّ أظهر من المناسبة كما هو غير خفيٍّ، إذ لازم محبة الله للعبد كون العبد طيباً، ولازم بغضه لعمله كون العمل خبيثاً فلم يكن الظاهر موافقاً للباطن، فينافي قوله (عليه السلام): فما خبث ظاهره خبث باطنه.

وكذلك مقتضى بغض الله سبحانه لبدن الكافر كونه خبيثاً، وحبّه لعمله كون عمله طيباً ففيه أيضاً مخالفة الظاهر للباطن، فينافي قوله: فما طاب ظاهره طاب باطنه.

والذي سنح لي في وجه الارتباط و حلّ الإشكال بعد التّروي وصرف الهمة إلى حلّه أيّاماً والاستمداد من جدّي أمير المؤمنين عليه وآله سلام الله ربّ العالمين هو أنّه لمّا ذكر أنّ ما هو طيّب الظّاهر طيّب الباطن وما هو خبيث الظّاهر خبيث الباطن، عبّبه بهذا الحديث النبوي (صلى الله عليه وآله) تنبيهاً وإيقاظاً للسامعين بأنّ العبد قد يكون نفسه محبوباً وعمله مبغوضاً، وقد يكون بالعكس كما أفصح عنه الرّسول

الصَّادِق المصَدِّق.

فاللَّازِم له إذا كان محبوب الذات لله سبحانه ومبغوض العمل أن يجدَّ في تحبيب عمله إليه تعالى حتَّى يوافق نفسه عمله في المحبوبيَّة، وإذا كان محبوب العمل مبغوض البدن أي الذات أن يجدَّ في تحبيب ذاته إليه كي يوافق عمله نفسه.

والغرض بذلك الحثُّ على تطبيق الظَّاهر للباطن في الأوَّل و تطبيق الباطن للظَّاهر في الثَّاني في المحبوبيَّة حتَّى يكونا طيِّبين، ويفاز إلى النِّعيم الدَّائم والفوز الأبدي، ولا يعكس حتَّى يكونا خبيشين مبغوضين له تعالى، فيقع في العذاب الأليم والخزي العظيم، وقد زلَّت في هذا المقام أقدام الشَّراح والمحشِّين^(١).

أقول: هذا المعنى صحيح في نفسه، وإن كان يحتاج إلى مقدمات لاستظهاره من الحديث الشريف وحل الإشكال به.

ونذكر هنا وجوهاً أخرى بحسب فهمنا القاصر لسبب إيراد أمير المؤمنين (عليه السلام) هذا الحديث في ذيل كلامه المذكور وهي كالتأنيج والثمرات المستفادة من هذا الحديث الشريف، ومنها:

١- أراد (عليه السلام) أن يمنع من اعتماد الشخص على هذه القاعدة فيعتقد أنه ما دام مؤمناً فإنه لا يصدر منه إلاَّ الفعل الحسن فيأخذه العجب ويغفل عن مراقبة نفسه ولا يحسب لاحتمال ضعف النفس وغواية الشيطان، فنبهه الإمام إلى إمكان الوقوع في الفعل المبغوض مهما كانت درجة إيمانه - عدا المعصومين (عليهم السلام) - فلا يركن إلى نفسه.

(١) منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة: ٢٤٨/٩.

وكذا زرع الأمل في نفوس السيئين بأنهم مهما كانت درجة انحطاطهم فإنه يمكن أن يصدر منهم الفعل الحسن فلا يقنطوا ولا يأسوا من رحمة الله تعالى ولطفه وعليهم أن يسعوا للقيام بالفعل الحسن وإن كانوا فاسقين، قال تعالى ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ (الزمر: ٥٣).

٢- إن هذا التطابق بين الظاهر والباطن لابد أن يتحقق ويكون تاماً لأنه غير قابل للتفكيك لأن الظاهر صورة للباطن، كالمطابقة بين الصورة في المرأة وصاحبها، حيث لا يتصور عدم المطابقة بينهما، فإذا حصل شيء على خلاف هذه القاعدة، فإنه يُعالج بما يعيد فاعله إلى هذه القاعدة.

فالمؤمن إذا صدر منه فعل مبغوض إلى الله تعالى فتح له باب التوبة والاستغفار وطلب العفو حتى يمحو ذلك الخطأ ويعود إلى المسار الصحيح، وقد يحتاج الأمر إلى أن يُبتلى ويعاقب بمرض أو مصيبة أو همٍّ أو خسارة وغيرها مما ذكر في كفارات الذنوب، قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ (الشورى: ٣٠).

والكافر الذي ليس له في الآخرة من خلاق، إذا صدر منه فعل يحبه الله تعالى أعطى جزاءه في الدنيا مما يحبه ويرغب فيه ويعمل من أجله لكي لا يبقى له استحقاق عند الله تعالى ويعود التطابق بين الظاهر والباطن.

لأنّ الحب والبغض بالنسبة إلى الله تعالى ليس بالمعنى المعروف عندنا نحن البشر لتزهره سبحانه عن ذلك، وإنما يعني آثارهما من الثواب والعقاب وهذا معنى صحيح أكدته روايات كثيرة.

٣- إن ذكر الحديث النبوي الشريف للمنع من الحكم على شخص ما بأنه

صالح أو غيره، ومحجوب عند الله تعالى أو مبغوض من فعل واحد أو فعلين بالاستناد إلى هذه القاعدة، بأن يقال: إنه لو كان صالحاً لما صدر منه الفعل السيئ، ولو كان مبغوضاً عند الله لما صدر منه الفعل المحجوب، فأتى (عليه السلام) بالحديث النبوي ليفيد أنه قد يصدر منه الفعل السيئ وهو محجوب عند الله تعالى، وقد يقوم بالفعل المحجوب وهو مبغوض عند الله تعالى.

نعم يمكن الحكم عليه إذا تحولت أفعاله إلى سيرة مستمرة وغالبة عليه، فإنها تكشف عن ملكة راسخة بهذا الاتجاه أو ذاك، وهذا ما ذكره الفقهاء في معنى العدالة من انها ملكة نفسية راسخة تُثمر استقامة على جادة الشريعة.

٤- إنَّ العبد مهما تظاهر على خلاف باطنه فإنه سيعود إليه وتنكشف حقيقته وتحقق المطابقة بين الظاهر والباطن، فقد يصدر من الشخص السيئ فعل حسن بتصنع ورياء وخداع، ويصدر من الإنسان الصالح فعل سيئ، لكن كل واحد منهما لابد أن يعود في النهاية والخاتمة إلى ما يطابق باطنه مهما طال الزمن، قال تعالى ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ﴾ (الإسراء: ٨٤).

والتاريخ حافل بأسماء أشخاص كانت حياتهم مملوءة بالمعاصي والابتعاد عن الله تعالى لكنهم خُتم لهم بالخير لأنَّ أصلهم ومعدنهم كان كذلك كالحر الرياحي مثلاً، ويوجد أمثلة كثيرة للعكس من ذلك كإبليس اللعين الذي كان مع الملائكة وعبد الله تعالى ستة آلاف سنة ثم خُتم له بالشقاء، وهذا لا ينافي الاختيار لأنَّ كلاهما باختياره فعل ما يوجب له تلك الخاتمة.

٥- إنه (عليه السلام) إنما ذكر الحديث لمعالجة مشكلة موجودة في المجتمع تحكم العلاقات بين الناس ومنشأها عدم التفكيك بين تقييم الشخص وتقييم فعله

أي تطبيق الملازمة المذكورة في كلام الإمام (عليه السلام) من دون الالتفات إلى الاستثناء، والمشكلة هي إن أحدنا إذا اختلف مع شخص آخر أو لم يرتض فعلاً من أفعاله فإنه يرفضه جملة وتفصيلاً ويعاديه ويشنع عليه.

فالمشكلة التي نعاني منها وتمزق وحدة المجتمع هي التوسع من رفض الفعل إلى رفض نفس الفاعل، وبدل الاعتراض على الفعل نفسه كحاله يتحوّل إلى رفض الشخص كلياً وتسقيطه وتفسيقه وإلغائه ولو كان إنساناً مؤمناً ملتزماً بالخط العام للشريعة، وفي هذا خروج عن القواعد الشرعية وتجاوز للحدود ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ (الطلاق: ١) ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (البقرة: ٢٢٩).

وبالمقابل فإذا أحسن له شخص بفعل ما فإنه يتحوّل عنده إلى إنسان محبوب وإن كان معروفاً بابتعاده عن الشريعة، فالإمام يدعو إلى التفكيك بين ذات الشخص وفعله وعرض كل منهما على ميزان التقييم بمعزل عن الآخر، فإذا كانت ذاته وباطنه صالحة فلا يجوز لك تسقيطه في المجتمع لموقف استنكرته منه، أو أخطأ فيه فإنّ المؤمن قد يقع في الخطأ والخطيئة ثم يتوب ويصلح شأنه ويعود قال الله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ (الأعراف: ٢٥١) فلا يجوز انتهاك حرمة المؤمن لفعل سيء صدر منه.

هذه مشكلة مهمة نعاني منها يعالجها الإمام (عليه السلام) بالالتفات إلى هذا الحديث الشريف، فلتكن عندنا رويّة وحكمة في تعاملنا مع الآخرين، ولا نتورط أمام الله تعالى في تسقيط الآخرين ورفضهم والتشهير بهم لموقف اختلفنا فيه معهم وهذا الدرس الذي أردت بيانه واستفادته من الحديث النبوي الشريف.

وقد شهدنا في شهري محرم وصفر الحاليين تسقيطاً وتشهيراً من البعض لأنهم لم يوافقونا على بعض المواقف التي اتخذناها ونعتقد أن فيها رضا الله تعالى وصلاح الأمة، وقد أصبحت هذه الحالة السيئة منتشرة بكل أسف والمفروض بمن يعمل وفق تعاليم المعصومين (عليه السلام) أن يفكك بين الفعل وذات فاعله حتى لو اعتقد أن ما صدر منه كان سيئاً.

ولا تفوتني الإشارة إلى أنَّ المعروف والمتداول إن الظاهر انعكاس للباطن، وإن الباطن هو الأصل والظاهر مظهر له وكاشف عنه، لكن لا يبعد أن يستظهر العكس من الخطبة الشريفة لقوله (عليه السلام) (واعلم أن لكل ظاهر باطناً على مثاله) أي أن الباطن يتشكل وفق الأفعال التي تصدر من العبد، فإن الشخص صاحب الباطن السيء يستطيع أن يتكلف القيام بأفعال صالحة وهذا يغيّر باطنه تدريجياً إلى الصلاح وإن كان ليس كذلك قبل ذلك، وبالعكس فقد يكون له باطن صالح لكن قام بأفعال سيئة من دون أن يتوب ويستغفر ويندم فيفسد باطنه. وهذا معنى صحيح وموافق للروايات التي مضمونها: إذا أذنب العبد صارت في قلبه نكتة سوداء^(١)، فإذا لم يتب وأذنب ثانياً صارت في قلبه نكتة ثانية وهكذا حتى يسود القلب ويموت فلا يرجى منه الخير والعياذ بالله تعالى.

(١) أنظر: أصول الكافي - الشيخ الكليني: ١/١٦٦ ح ٢.

الحمد لله رب العالمين
منجرا

الفهرس

القبس/٣١ ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ﴾

سورة النساء: ﴿٧﴾ ٥

موضوع القبس: معالم التكامل في التشريع الإسلامي للموارث ٥

القبس/٣٢ ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ

قَرِيبٍ﴾ سورة النساء: ﴿١٧﴾ ١٧

موضوع القبس: بادر الى التوبة فانها تصعب بالتأخير ١٧

القبس/٣٣ ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ سورة النساء: ﴿٥٤﴾

..... ٢٤

موضوع القبس: الحسد رأس الرذائل ٢٤

القبس/٣٤ ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ سورة النساء: ﴿٥٨﴾ ٣٥

موضوع القبس: مصاديق أداء الأمانة ٣٥

القبس/٣٥ ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا

فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ سورة النساء: ﴿٦٥﴾ ٤٧

موضوع القبس: الإيمان لا يتحقق إلا بتحكيم شريعة الله تعالى ٤٧

القبس/٣٦ ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ سورة

النساء: ٦٩ ٥٩

موضوع القبس: الدعاء بالمعية الإلهية ٥٩

القبس/ ٣٧ ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ سورة

النساء: ﴿٧٥﴾ ٦٩

موضوع القبس: وجوب العمل لإنقاذ المجتمع من الظلم والجهل والتخلف

والحرمان ٦٩

ملحق: ما قدست أمة لم يؤخذ لضعيفها من قوتها بلا تردد ٧٦

القبس/ ٣٨ ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ

نَفْسِكَ﴾ سورة النساء: ﴿٧٩﴾ ٨٠

القبس/ ٣٩ ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ سورة النساء: ﴿١١٣﴾ ٨٨

موضوع القبس: الصلاة فرض ثابت ٨٨

القبس/ ٤٠ ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ﴾ سورة النساء: ﴿١١٥﴾ ٩٦

القبس/ ٤١ ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نُّجُوهُمْ﴾ سورة النساء: ﴿١١٦﴾ ١٠٠

موضوع القبس: مسؤولية الكلمة وأهمية تأثيرها ١٠٠

القبس/ ٤٢ ﴿مُذَبِّبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ سورة

النساء: ﴿١٤٣﴾ ١٠٥

موضوع القبس: التذبذب في المواقف ١٠٥

القبس/ ٤٣ ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ سورة

النساء: ﴿١٤٨﴾ ١١١

موضوع القبس: مسؤولية الاعلام والنشر ١١١

ملحق/ الثبات على الحق في زمان الفتن ١١٨

القبس/ ٤٤ ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ سورة

المائدة: (١٨) ١٢٢

موضوع القبس: ليس لله تعالى مع أحد قرابة ١٢٢

القبس/ ٤٥ ﴿فَاتَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ سورة

المائدة: (٢٦) ١٣٠

موضوع القبس: تيه الامة بسبب عصيانها القيادة الربانية ١٣٠

القبس/ ٤٦ ﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَىٰ يَدِكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي

أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ سورة المائدة: (٢٨) ١٤٢

موضوع القبس: من مبادئ الإسلام في التعايش السلمي ١٤٢

القبس/ ٤٧ ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ سورة المائدة: (٥٥) ١٤٨

موضوع القبس: الحب الإلهي ١٤٨

ملحق: الدين هو الحب، والحب هو الدين ١٦٤

القبس/ ٤٨ ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ

وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ سورة المائدة: (٥٥) ١٦٩

موضوع القبس: ولاية علي بن ابي طالب (عليه السلام) في القرآن الكريم ١٦٩

ملحق: مراعاة حقوق الأخوة المؤمنين شرط الولاية وثمرتها وشعارها ١٨٣

القبس/ ٤٩ ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ

السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ سورة المائدة: (٦٣) ١٨٨

وجوب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر قرآنياً/ ٣ ١٨٨

- القبس / ٥٠ ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ سورة المائدة: ﴿٦٤﴾ ١٩٢
- موضوع القبس: المسلمون وحرب الجيل الخامس... العراق انموذجاً ١٩٢
- القبس / ٥١ ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ سورة المائدة: ﴿٦٧﴾ ٢٠٢
- ملحق: كيف خطط رسول الله (ﷺ) للخلافة من بعده ٢١٦
- القبس / ٥٢ ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ سورة
- المائدة: ﴿٧٩﴾ ٢٥٣
- وجوب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر قرآنيًا / ٤ ٢٥٣
- القبس / ٥٣ ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾
- المائدة: ﴿٩١﴾ ٢٥٤
- موضوع القبس: نشر الكراهية والبغضاء في المجتمع من عمل الشيطان ٢٥٤
- القبس / ٥٤ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ سورة المائدة: ﴿١٠٥﴾ ٢٦٥
- موضوع القبس: دفع إشكال التعارض بين ما دل على وجوب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر مع آية ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ ٢٦٥
- القبس / ٥٥ ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ سورة الأنعام: ﴿٩٤﴾ ٢٧٥
- موضوع القبس: محورية التوحيد ٢٧٥
- القبس / ٥٦ ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ سورة الأنعام: ﴿١٨﴾ ٢٨٢

- تنزيه الأمة الإسلامية عن السب ٢٨٢
- القبس/ ٥٧ ﴿وَعَاثُوا حَقَّهُ وَيَوْمَ حَصَادِهِ﴾ سورة الأنعام: ﴿١٤١﴾ ٢٩٠
- موضوع القبس: بركات دفع الزكاة ٢٩٠
- القبس/ ٥٨ ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ سورة الأعراف: ﴿١٦﴾ ٢٩٧
- القبس/ ٥٩ ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ﴾ سورة الأعراف: ﴿٢٧﴾ ٣٠٦
- موضوع القبس: التعري أبرز سمات المجتمع الجاهلي والمطرودين من الجنة. ٣٠٦
- القبس/ ٦٠ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ﴾ سورة الأعراف: ﴿٤٣﴾ ٣٢٠
- القبس/ ٦١ ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ﴾ سورة الأعراف: ﴿٩٦﴾ ٣٢٥
- موضوع القبس: دعوة إلى إقامة دين الله تعالى وإتباع الأماناء عليه ٣٢٥
- ملحق: الحل والعلاج في العودة إلى الله تبارك وتعالى ٣٣٠
- القبس/ ٦٢ ﴿وَأَكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ سورة الأعراف: ﴿١٥٦﴾ ٣٣٩
- موضوع القبس: التوسل بالأعمال الصالحة لاستجابة الدعاء ٣٣٩
- قصة في تأثير العمل الصالح: ٣٣٩
- القبس/ ٦٣ ﴿وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ سورة الأعراف: ﴿١٥٦﴾ ٣٤٥
- ٣٤٥

- موضوع القبس: موجبات الرحمة الإلهية ٣٤٥
- القبس/ ٦٤ ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ سورة الأعراف: ﴿١٥٧﴾ ٣٥٤
- القبس/ ٦٥ ﴿وَاتَّبِعُوا الثُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ﴾ سورة الأعراف: ﴿١٥٧﴾ ٣٦٠
- موضوع القبس: القرآن نور ٣٦٠
- القبس/ ٦٦ ﴿أُنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ﴾ سورة الأعراف: ﴿١٦٥﴾ ٣٦٨
- موضوع القبس: الفوز والفلاح في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ٣٦٨
- القبس/ ٦٧ ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ الأعراف: ﴿١٧٦﴾ ٣٧٩
- القبس/ ٦٨ ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ سورة الأعراف: ﴿٢٠١﴾ ٣٨٨
- موضوع القبس: مواظب ودروس ٣٨٨
- ملحق: إن الله قد يحب العبد ويغض عمله ٣٩٧
- الفهرس ٤٠٧